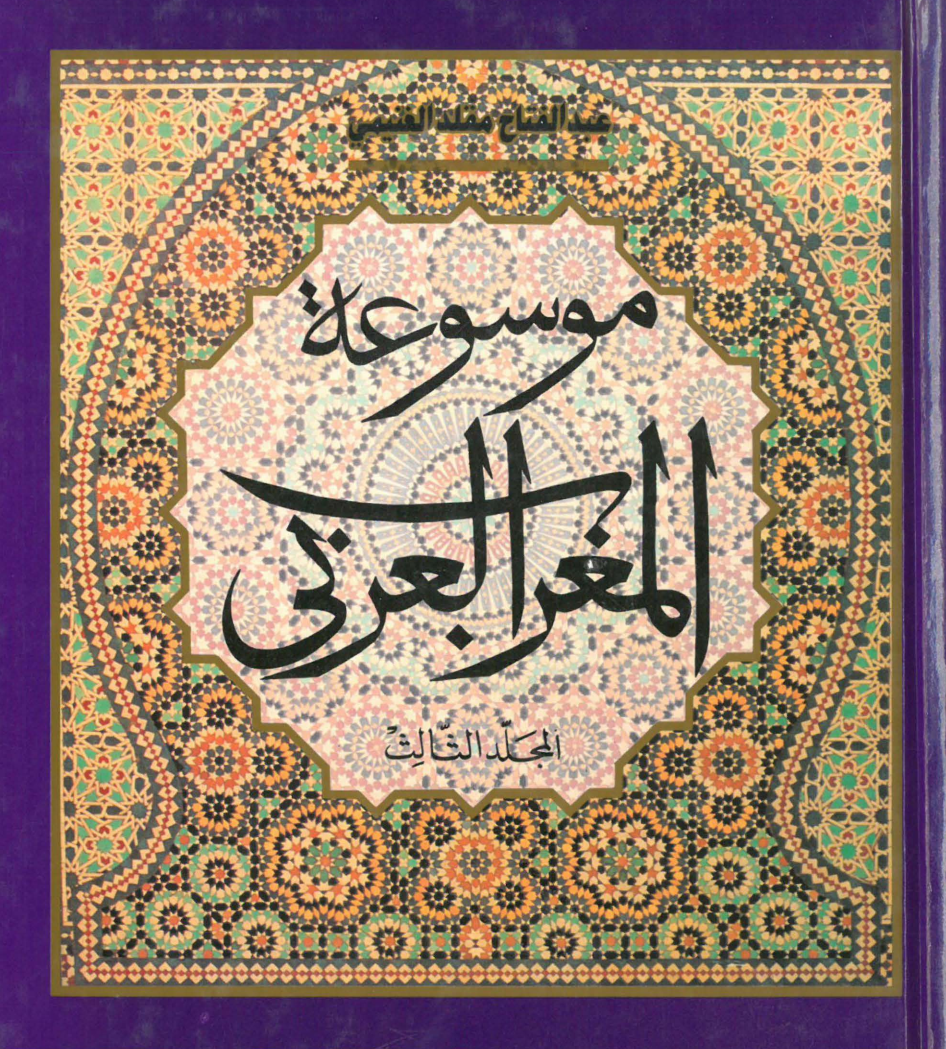
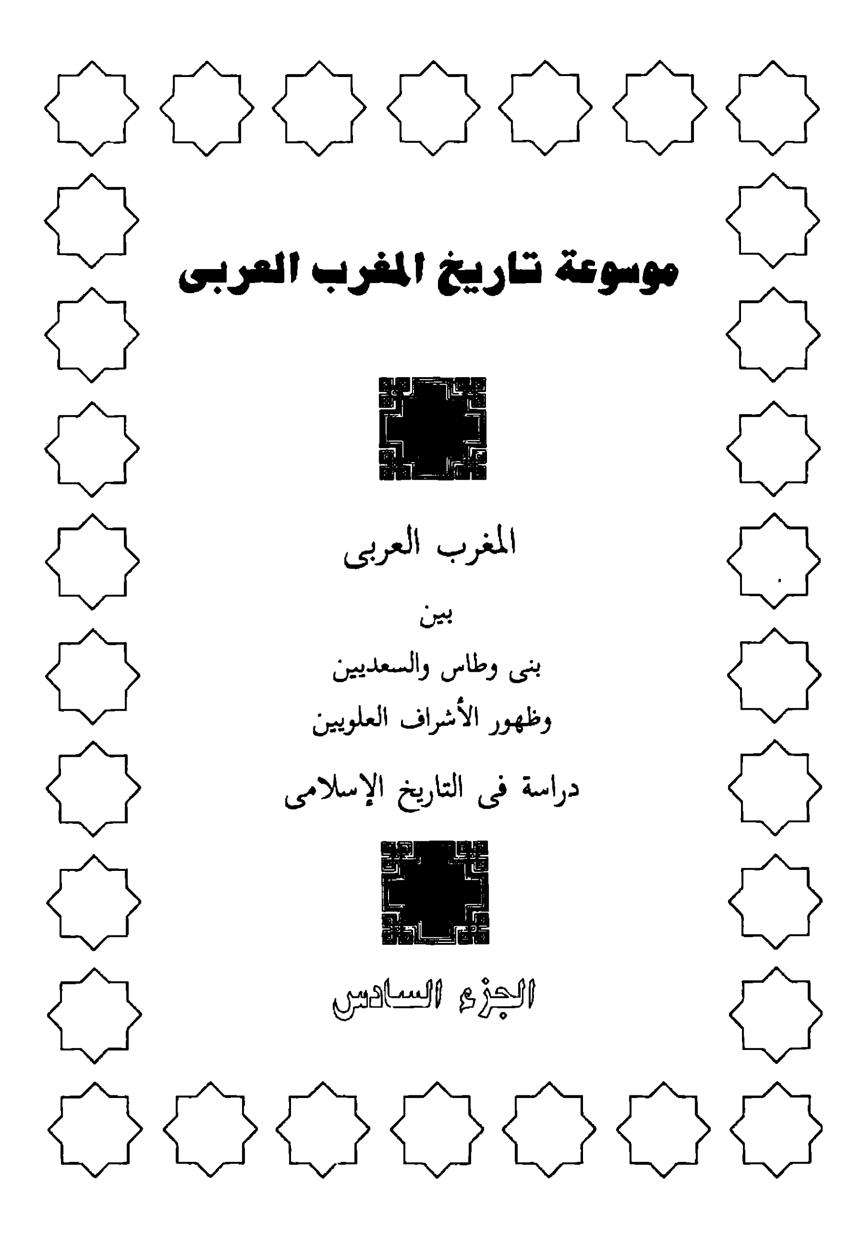


مكتبة مدبولي

القاهرة



موسوعة تاريخ المغرب العربى

المغرب العربى

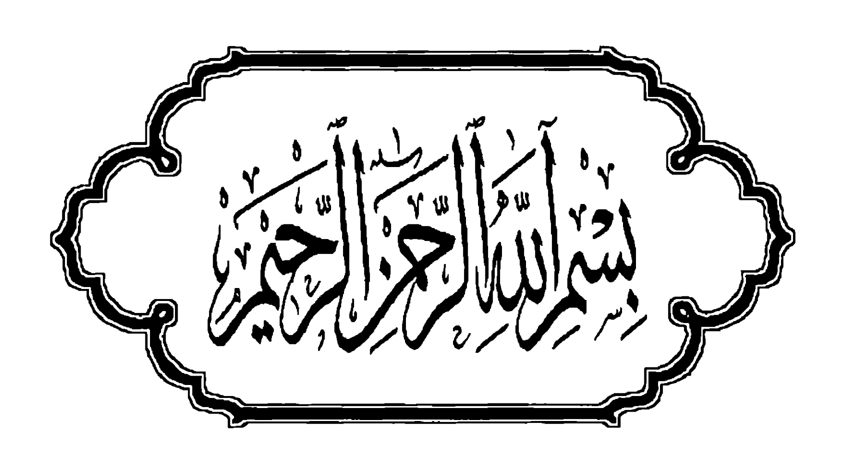
بين

بنى وطاس والسعديين

وظهور الأشراف العلويين

دراسة فى التاريخ الإسلامى

الجزء السادس


بسم الله الرحمن الرحيم

الاهداء

إلى زوجتى

منة الله... وهبة السماء وعطاء القدر ونعمة الأيام ، بداية البداية ونهاية النهاية... مسك الختام وعنبر المسك، فإليها الفضل كل الفضل بعد المولى عز وجل فى ظهور هذا العمل المتكامل بأجزائه الست، فكان هذا الإهداء عرفاناً بما أتيح لى من وقت حتى كان هذا الجهد على تلك الصورة.

دكتور

عبد الفتاح مقلد الغنيمى

التمهيد

هذه سادسة الأخماس فى موسوعة المغرب العربى الإسلامى بل نهاية التتمة بعد رحلة مشوار طويل عبر تاريخ الإسلام العريق العتيد العبق بالمغرب عبر عشرة قرون زمنية طويلة، بدأت مع الفتح العربى الإسلامى وطرق الجيوش الإسلامية من صحابة رسول الله ﷺ بقيادة عمرو بن العاص عام ٢٣هـ/٦٤٣م وانتهى هذا المشوار الطويل بظهور الأسرة العلوية الشريفة النبوية الحسب والنسب لكى تكون خاتمة هذه الدراسة بأجزائها الست خاتمة طيبة ارتضت بالحسب النبوى الشريف أن يكون نهاية هذه المسيرة عبر أغوار التاريخ ذلك لان العمل العلمى المضنى والبحث الطويل والذى بذل طوال عشر سنوات أو يزيد بحثا متواصلا بل تفرغا كاملا عبر العديد من المؤلفات والأبحاث والمكتبات والمراسلات والدوريات وما اليها من الوسائل المختلفة التى عولت عليها كثيرا فى تلك الدراسة .

ذلك لانه لم يكن من السهل إزالة العديد من الاستفهامات التى كانت تقابل الكثير من المؤرخين والباحثين على اختلاف ما تناولوه من دراسات سابقة عن المغرب العربى ورفع اللبس عن العديد من الحقائق العلمية التى لم يتم التوصل إلى إجابة شافية لها مثل الحديث عن الأسرة الوطاسية وندرة ما كتب عنها، بل أننا لم نجد الكثير من التأكيدات التاريخية والشواهد التى تعطى هذه الأسرة حقها فى تاريخ المغرب رغم الاعتراف بأنها اضعف حلقات التاريخ المغربى الطويل، وقد يكون لاغلب المؤرخين عذرهم فى عدم الكتابة نظرا لاقتصارهم على معلومات كانت ضرورية فى تلك الدراسة بل أن هناك العديد من الحلقات الضائعة فى أبحاثهم لاسيما بعض الرسائل الأكاديمية للماجستير والدكتوراه والتى لم تكن على النحو المطلوب فى معالجة الأحداث وعدم الروابط بينها وبين الأماكن التى جرت فوقها مثل معركة القصر الكبير فى عهد عبد المالك بن محمد الشيخ ١٥٧٨م .

ومن هنا فقد بدت تلك الدراسة وكأنها سلسلة مترابطة الحلقات وهى تدفع أمامها المعلومات لكى يتصل كل فصل بالفصول التى تليه ومن هنا جاءت بهذه الصورة الواضحة، ولاشك أن بعض الصفحات فى تلك الدراسة قد تكون بها متناقضات أو صفحات معتمة التاريخ نظرا لكتابات المؤرخ المجهول عن الدولة السعدية والتى كان لابد من الأخذ بما جاء بها ولكن ليس بالصورة التى ذكرت فكان لابد من التحليل والتمحيص نظرا للتفاعلات القبلية فى حركة التاريخ المغربى المؤرخ المجهول من أنصار الأسرة الوطاسية وقد انعكس ذلك على وجود انقسامات سلبية فى حركة التاريخ المغربى نظرا لان العامل التاريخى كان يخضع لبعض الأغراض والتوقعات وأن بعضا من هذه الكتابات لم تكن بالصورة الموضوعية بحيث تستطيع أن تمسك بخيط التاريخ فى حركة زمنية يحتفظ خلالها كاتب التاريخ بثبات دورة ولا يتعدى الخط الموضوعى لكى يحتفظ بالرؤية الواضحة فكان لابد من أخذ هذا الاعتبار عند دراسة كل فترة من فترات التاريخ ذلك لان الفترة الزمنية التاريخية قد تخضع للهوى بين مؤيد ومعارض، هدام وبناء، بين مغرض ومزايد ولكن كان علينا أن تتمثل العامل التاريخى وصولا للحركة المغربية عموما .

ومن هنا فنحن نطالب قارئ التاريخ أن ينظر من منظار حضارى للصورة الإسلامية المغربية لقياس قدرة هذا البلد الإسلامى العظيم العريق فى دراسة أحداثه، ذلك لان المغرب الإسلامى بأقطاره المختلفة له خصوصية مغايرة عن غيره من الأقطار الإسلامية الأخرى فهو لا زال إلى اليوم يحمل عبق الأندلس ذلك الفردوس الإسلامى السليب الذى يتواكب مع كتابة هذا الجزء مرور خمسمائة عام على سلبه رغم محاولات المغاربة المتعددة للعودة بالإسلام اليه مرة أخرى، لكن نصر الله وفتحه قريب.

عبد الفتاح مقلد الغنيمي

أول أيام عيد الفطر المبارك ١٤١٢هـ/٤ أبريل ١٩٩٢م

المقدمة

الحمد لله رب العالمين الذى له العزة والجبروت وبيده الملك والملكوت يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء بيده مقاليد الأرض والسموات والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله النبى الخاتم العربى القرشى المكتوب عندهم فى التوراة والإنجيل، وعلى آله وأصحابه واتباعه وأحفاده وذريته إلى يوم الدين.

أما بعد فهذا هو الجزء السادس من موسوعة التاريخ المغربى تتمة العمل وخاتمة المشوار الطويل نتحدث فيه عن كيفية ظهور الأسرة الوطاسية وحكمها لبلاد المغرب الأقصى وكيف انتهت هذه الأسرة من مسرح الأحداث السياسية وكيف تمهد الطريق إلى صعود الأسرة السعدية الشريفة لتقود مسيرة العمل الوطنى والجهاد الإسلامى فى أقصى ديار المغرب وكيف ارتدت عباءة الشرافة لتتولى الحكم وما هى مراحل الحكم وكيف انتهت إلى كهولة متهالكة ثم جاءت الأسرة العلوية الشريفة القرشية الهاشمية لتحمل راية العمل الإسلامى والحكم الشريف فى بلاد المغرب منذ عام ١٠٧٥ - ١٤٩٢هـ ١٦٤٦ - ١٩٩٢م .

وفى حقيقة الأمر فقد قسمت تلك الدراسة إلى ثلاثة أبواب كل باب منها يؤدى إلى الباب الذى يليه بحيث تكون تلك الدراسة وحدة متكاملة فى تاريخ المغرب فى ضوء الحركة العالمية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر وكيف كانت تلك الحقبة من علامات النصر المغربى جهادا إسلاميا قطع دابر المد الصليبى وانقذ القطاع الغربى للعالم الإسلامى من حركة استعمارية متعصبة حيث شهدت هذه الدراسة انصع صفحات التاريخ المغربى عبر ادواره التاريخية منذ وطئت أرضه أنوار الدعوة الإسلامية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فقد شهدت أرض المغرب فى ٣٠ جمادى الأولى عام ٩٨٦هـ الرابع من أغسطس عام ١٥٨٧م نصرا إسلاميا مؤزرا على أرض المغرب

على كل القوى الاوربية فى معركة القصر الكبير بقيادة المجاهد الإسلامى عبد المالك ابن محمد الشيخ العربى الشريف .

ولقد كانت تفاصيل هذه الأبواب الثلاث كما يلى حيث عالجت فى الباب الأول نهاية دولة بنى مرين وظهور بنى وطاس وقسم هذا الباب إلى خمسة فصول كان الفصل الأول عن بنى وطاس على مسرح الأحداث السياسية بالمغرب الأقصى ومن حكم من هذه الأسرة بدءا من محمد الشيخ مؤسس الأسرة. وامتدادا إلى ابنه أبو عبد الله محمد الشيخ ثم إلى أحمد الوطاس ثم إلى يوحسون الوطاس آخر سلاطين الأسرة وفى حقيقة الأمر لقد لاقيت صعوبة جمة فى تحديد فترات حكم كل منهم وفى تباين وتداخل فترة حكم كل منهم نظرا لان الذين كتبوا عن هذه الأسرة التى دام حكمها ثمانين عاما لم يزيلوا الغموض الذى أحاط بفترة حكمها فكان على أن اقدم ما قدرت عليه من عمل .

ثم الفصل الثانى عن الاتراك العثمانيين وظهورهم فى المغرب وسيطرتهم على بلاد الجزائر وتونس وطرابلس ومقاومتهم للاستعمار الابيرى البرتغالى الأسبانى وطردهم له من كل هذه الديار وتطلعهم إلى السيطرة على بلاد المغرب الأقصى وإعادة فتح الأندلس .

وكان الفصل الثالث عن الاستعمار الايبرى لبلاد المغرب وكيف انتقل الصراع مع منتصف القرن الخامس عشر الميلادى إلى سواحل المغرب والسيطرة البرتغالية الأسبانية على موانى المغرب الأقصى وموقف بنى وطاس المتخاذل من قوى الاستعمار .

ثم كان الفصل الرابع عن الطريقة الصوفية ودورها فى إذكاء روح الجهاد الإسلامى ومحاولة رد الاعتبار للوطن السليب ورفع الروح الإسلامية لطرد الغزاة وموقف بنى وطاس من التيار الإسلامى المجاهد .

ثم كان الفصل الخامس وهو نهاية الباب الأول عن القاء نظرة أخيرة على محاولة الأسرة الوطاسية العودة لحكم المغرب الأقصى بمساندة الاتراك وعودة يوحسون الوطاسى وحكمه البلاد ستة شهور ثم قضاء السعديين على حكمه .

ثم يأتى بعد ذلك الباب الثانى فى هذه الدراسة هو عن الأشراف السعديين وظهورهم ككيان سياسى على مسرح الأحداث بالمغرب وقد قسمت هذا الباب إلى تسعة فصول متصلة كل فصل يعالج موضوعا متصلا بما سبقه من فصول وما يليه من فصول أخرى طبقا لتسلسل الأحداث وعرض الموضوع. وكان الفصل الأول عن الدولة السعدية بعد مؤسسها محمد القائم بأمر الله ومن تولى مقاليد الأمور من بعده أمثال احمد الاعرج، محمد الشيخ، عبد الله الغالب بن محمد الشيخ ومحمد المتوكل بن الغالب ودور كل منهم فى حكم المغرب والأحداث التى تمت فى خلال هذه الحقبة التاريخية فى المغرب .

ثم الفصل الثانى عن أمير المؤمنين عبد المالك بن محمد الشيخ وكيف اضطلع بمقاليد الأمور والصراع بينه وبين ابن أخيه محمد المتوكل وكيف استطاع أن يستولى على الحكم بمساعدة الأتراك .

ثم كان الفصل الثالث عن معركة القصر الكبير عام ٩٨٦هـ/١٥٧٨م وماحققته المغرب من انتصارات كبيرة حقق لها دورا بطوليا رائدا فى الدفاع عن حياض الإسلام وديار المسلمين .

وبعده كان الفصل الرابع وهو عن احمد المنصور السعدى الذهبى وقد شهدت البلاد أزهى عصورها وأعظم إنجازاتها وكيف لعبت دورا كبيرا فى المجال العالمى وكيف راودته فكرة العودة بالإسلام إلى دياره بالأندلس .

ثم الفصل الخامس عن احمد المنصور الذهبى وفتح بلاد السودان الغربى (فتح سنغاى) وكيف تم تكوين الوحدة الإسلامية فيما وراء الصحراء الكبرى وظهور كيان إسلامى قوى استمر فى حكم هذه البلاد منذ عام ١٥٩٠ إلى ١٧٦٠م .

والفصل السادس عن الدولة السعدية بعد حكم احمد المنصور وكيف كان الصراع بين أبناء المنصور وأحفاده من أجل السيطرة على الحكم سببا فى تمزق البلاد وقيام كيانات صغيرة مستقلة تتصارع من أجل توسع دائرة كل منها على حساب الأخرى وازدياد حدة المطامع الأجنبية والتنازلات عن الأرض والعرض والدار. وما ترتب عليه من أحداث وبعده كان الفصل السابع عن أحوال المغرب فى عهد الأشراف السعديين وكيف حققت البلاد خطوات واسعة فى مختلف المجالات والاصعدة والانتقال إلى العصور الحديثة وما تم إنجازه فى المجال الزراعى والصناعى والتجارى وتطور الجيش والأسطول والشرطة وأثر الحضارة الثقافية التى طبع بها البلاد العصر السعدى وكيف أن هذا العصر يعتبر نقلة حضارية للمغرب وبصفة خاصة عصر أحمد المنصور الذهبى الذى دام أكثر من ربع قرن .

وجاء الدور على الفصل الثامن وهو قبل الأخير فى هذه الفصول ليكون عن السعديين وعلاقاتهم بالقوة المعاصرة وكانت العلاقات السعدية التركية والسعدية الإنجليزية والسعدية البرتغالية والسعدية الأسبانية ثم الفرنسية والهولندية لكنها تسير فى نسق واحد وهو الحفاظ على وحدة المغرب واستقلاله والتبادل التجارى والاقتصادى مع محاولة الدخول فى معاهدات بما يحفظ للمغرب دوره، لكن كانت هناك نقط ضعف كثيرة من الجانب المغربى لم يحاول أن يستغلها أو يملأ فراغها والإستفادة منها لتحقيق أهدافه الكبرى فى أنهاء الجيوب الاستعمارية من فوق أرضه .

ثم تتمة الباب الثانى وهو الفصل التاسع والأخير فى هذا الباب عن انهيار الدولة

السعدية وسقوطها وكيف أن عوامل الضعف والانهيار أنشبت أظافرها فى كل الجسد السعدى فانها كسابق عهد الدول السابقة لم تستطع أن تحرك ساكنا إزاء قوة الدفع القوية المنطلقة إلى بناء كيان إسلامى قوى فكان الباب الثالث والأخير فى هذه الأبواب الثلاث صلب الدراسة وهو عن الأشراف العلويين حكام المغرب الأقصى ودورهم فى قيام حركة الإصلاح الدينى فى المغرب وتحرير البلاد وإعادة وحدتها والقضاء على كل الولايات والإمارات الصغيرة وصهرها من جديد فى كيان قوى واحد وتطلع قادة الأسرة العلوية إلى بناء المغرب الكبير وكيف كان تطلعهم إلى المغرب الأوسط (الجزائر) ليكون نقطة انطلاق للمغرب الأقصى وكيف أن الاتراك تقاربوا مع العلويين باسم الإسلام والدين وكيفية تطلعهم إلى هذه الديار وكيف شهد المغرب عصرا قويا فى عهد المستنصر بالله أبى النصر إسماعيل بن الشريف بن على (١٠٨٢ - ١١٣٠هـ / ١٦٨٢ - ١٧٢٧م) وكيف طرد الإنجليز من طنجة عام ١٦٨٤م وكيف أن هذه الأسرة لازالت تحكم باسم الإسلام وشريعة القرآن وذيلت هذا الباب بالنسب الشريف للملك الحسن الثانى ملك المغرب منذ على بن أبى طالب رضى الله عنه وأرضاه وصولا بذلك النسب إلى الحسن الثانى ملك المغرب الحالى (١٩٩٢) .

ثم كانت خاتمة البحث وهى خلاصة ما توصلت اليه من نتائج فى هذه الدراسة وتلاها خاتمة بالمصادر والمراجع العربية والأجنبية والرسائل العلمية الأكاديمية التى عول عليها فى هذه الدراسة حتى كانت على هذه الصورة .

والله نسأل أن أكون قد سددت فراغا وأضفت جديدا علما بأن الكمال لله وحده والله من وراء القصد .

دكتور

عبد الفتاح مقلد الغنيمي

أول أيام عيد الفطر المبارك ١٤١٢هـ/١٤ أبريل ١٩٩٢م

الباب الأول

نهاية بنى مرين وظهور بنى وطاس

بوفاة السلطان أبى عنان المرينى فى عام ٧٥٩هـ/١٣٥٨م استبد بأمور الدولة الوزراء ومع حلول النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى تمزقت الدولة المرينية بين الأمراء المتنافسين على السلطة بين فاس ومراكش وأصبح الصراع يدور بين العاصمتين فاس ومراكش إلى أن تمكن أبو العباس أحمد المرينى من الاستيلاء على مراكش فى أواخر فترة حكمه فى عام ٧٨٤هـ/١٣٨٢م ووحد المغرب غير أن هذه الوحدة لم تدم طويلا وفى عهد آخر سلاطين بنى مرين السلطان عبد الحق بن أبى سعيد ابن أبى العباس ٨٢٣ - ٨٦٩هـ/١٤٢٠ - ١٤٦٥م ضعف أمر بنى مرين وانتقلت السلطة إلى الوزراء والحجاب وصار للحجاب نفوذ أقوى من الوزراء حتى أصبح الحجاب فى أيديهم جميع الخيوط والوظائف السلطانية وأصبح الحاجب هو صمام الأمن والأمان للسلطان الجالس على العرش ولم يكن باستطاعة السلطان المرينى مواجهة الأحداث .

وكان السلطان أبو سعيد والد عبد الحق قد توفى عام ٨١٨هـ/١٤١٥م وخلفه أخوه عبد الله المعروف سيدى عبو، وثارت العامة عليه فى فاس واعتورته رماحهم وسهامهم حتى قتل ولما قتل تنازع أمر السلطنة بعده اثنان من إخوته وبعد قتال شديد لم يستطيع أحد منهما أن ينتصر على صاحبه، اتفق أهل الحل والعقد ومن يؤخذ برايهم من العلماء وكبار رجال الدولة على مبايعة عبد الحق بن أبى سعيد عثمان وهو آخر سلاطين بنى مرين فى حكم المغرب وأطولهم مدة وفى أيامه ضعف أمر السلطنة وتداعت للإنحلال وأحدقت بها المخاطر من كل جانب وأصبحت البلاد مطمعا للاتراك العثمانيين والفرنجة الأسبان والبرتغاليين وأمسك بزمام الحكم الوزراء والحجاب ولم يكن لعبد الحق أدنى سلطة أو اتخاذ قرار ينفرد فى الدولة إلى حكمها كآبائه وأجداده

من قبل، وفى عهد عبد الحق هذا زاد استبداد الوزراء وطرأ على منصب الوزير شئ من التعديل لخطورة وضعه وجمعه السلطة الكلية للقصر فى يديه وأصبح للوزير مهام الحاجب وأصبح يطلق على الوزير اسم الحاجب وعلى الحاجب اسم الوزير وقد تولى منصب الوزارة بهذا المعنى والوضع القوى والمتحكم فى مقاليد القصر السلطانى مجموعة من أبناء البيت الوطاسى ومنهم يحيى بن زيان الوطاسى وكان لهذا الوزير الفضل الكبير فى القضاء على تمرد عرب الشاوية وكان الوزير هذا قد قام بغزوهم فى ديارهم لتمردهم على سلطان البلاد وتزايد ضررهم وزحفهم على احواز مكناس وفاس سالبين أهلها أموالهم وماشيتهم منزلين الرعب والدمار بالناس حتى اضطروا الناس إلى الرحيل جنوبا، فما كان من الوزير أبى زكريا يحيى بن زيان الوطاسى إلا أن قضى على سلطانهم وفرق شملهم وخرب منازلهم الشاوية هؤلاء بطن من بطون سويد، وسويد هى أحدى بطون بنى مالك من زغبة الهلاليين وكان نفوذهم قد زاد فى الدولة المرينية واستبدوا بكثير من الأمور، لكن الوزير الوطاسى هذا قد أغتيل غدرا بين عرب انكاد فى عام ١٤٤٨/٨٥٢م .

وبعد قتله آلت أمور الوزارة فى فاس لعلى بن يوسف الوطاسى ويحيى بن يحيى ابن زيان الوطاسى وكان تولى هذا الوزير للوزارة بداية نذر شؤم على أسرته وعلى الدولة المرينية إذ أخذ يغير كثيرا من معالم الحكم فى الدولة المرينية. وذلك لانه استقل بالحجابة وأخذ فى تغيير مراسم السلطنة وعوائد الدولة ولم يعد للسلطان عبد الحق أدنى أهمية لانه أنقص فى عدد قوات الجند التى كانت تعتمد عليه الدولة ودخل فى عداء مكشوف مع أقارب السلطان من البيت المرينى ونقض كل ما أبرم من معاهدات وإتفاقيات قبل توليه الوزارة ولم يعد مسؤلا عن تنفيذ أدنى بند من بنود هذه الإتفاقيات وحمل مسؤلياتها على الوزراء الذين سلفوه فى هذا المنصب وعامل الرعية بالعسف

والشدة وتدخل فى كل كبيرة وصغيرة فى البلاد ومنها تدخله فى أمر القضاء الذى كان مستقلا عن شئون الوزارة ويتبع مباشرة السلطان المرينى واختلف فى أمور فقهية وقضائية مع قاضى قضاة فاس الفقيه أبى عبد الله محمد بن عيسى المصمودى الذى كان يريد أن يطوعه لأهدافه فلما قضى بعزله من منصب القضاة وجاء بقاضى من قبله ينصاع لما يريده الوزير الوطاسى وهو الفقيه يعقوب التسولى وكان القاضى السابق المصمودى من الذين يشهد لهم بالعدل والنزاهة والقوة فى الحق، لكن إزاء كل هذه التصرفات التى كان يقوم بها يحيى بن يحيى الوطاسى كانت تصل مسمع السلطان عبد الحق الذى كان يدبر فى الخفاء أمرا للتخلص من كل ما هو وطاسى بعد أن أفزعته هذه التصرفات وجرحت وضعه السلطانى بين أفراد الأسرة المرينية الذين كانوا يتوجسون خيفة من مطمع بنى وطاس فى ملك بنى مرين وتولى حكم المغرب بدلا منهم غير أنهم ليسوا من بنى عبد الحق وكان مما ضاعف من مخاوف الأسرة المرينية والسلطان عبد الحق بن أبى سعيد بصفة خاصة أن جميع أفراد الأسرة الوطاسية كانوا يؤيدون الوزير يحيى بن يحيى الوطاسى فى جميع الخطوات التى كان يتخذها للحد من سلطة السلطان وتدعيم وضع الأسرة الوطاسية وشعر السلطان وأفراد البيت المرينى أن بنى وطاس بالتفافهم حول الوزير يحيى كادوا أن يغلبوه على أمر السلطنة وشئون الحكم فاتخذ من جانبه قرارا بالقبض عليهم والتنكيل بهم ونكل بهم وقبض على كل من تدور حوله شبهة من بنى وطاس وكان منهم الوزير يحيى بن يحيى وإخوته أبو بكر وأبو شامة وعلى وعمهم فارس بن زيان وقريبهم محمد بن على بن يوسف وذبحهم جميعا ويذكر السلاوى فى أخبار هذه المذبحة التى أوقع بها السلطان عبد الحق المرينى ببنى وطاس أنه لم ينج منها إلا إثنان من أفراد الأسرة الوطاسية هما محمد الشيخ (مؤسس الأسرة الوطاسية فيها بعد) ومحمد الحلو حيث لم تصبهما النكبة وكان محمد الشيخ الوطاسى قد خرج للصيد فاتصل به الخبر قبل أن يصل إلى فاس عائدا من صيده

فذهب على وجهه لا يلوى على شئ، أما محمد الحلو الآخر فقد إختفى بعيدا عن العيون حتى إذا سكنت العاصفة تسلل ولحق بمحمد الشيخ فسارا جنوبا إلى جهة الصحراء وجعلا يترددان فيما بينها وبين البلاد الهبطية (بلاد الهبط المغربية) حتى ملكا أصيلا وخضعت لهما قبل استيلاء البرتغال عليها فى العهد المرينى .

وبعد مذبحة بنى وطاس ظل منصب الوزارة شاغرا لا يقبل على تولية أحد خوفا من بطش السلطان وكذلك تخوف السلطان عبد الحق من ظهور نفوذ الوزراء وسطوتهم فى الحكم بعد ذلك واستبدادهم بأمور السلطنة دونه كذلك فان ما قام به عبد الحق المرينى من مذبحة بشعة لبنى وطاس لم يلق قبولا من قبل الشعب المغربى عامته وخاصته وجميع طوائف الشعب وكان ذلك يصل إلى مسامعه وأنهم نقموا على سلطانهم لإيقاعه بالوطاسيين وأن أنظار الشعب المغربى تعطى آذانا صاغية إلى محمد الشيخ الوطاسى وابن عمه محمد الحلو اللذين يحكمان أصيلا، لذا اضطرم حقد السلطان عبد الحق على رعيته بعد أن رفض الكثير من رجال البلاط تولى أمر الوزارة تحسبا للأحداث المستقبلية وخوفا من أن تصل الأمور بهم إلى ما وصل اليه بنو وطاس ولما لم يجد يدا من ذلك ونكاية فى رعيته التى أبدت تعاطفا شديدا مع بنى وطاس قام بتعين إثنين من اليهود فى منصب الوزارة والحجابة فكان هارون الوزير اليهودى وشاويل حاجب السلطان وكان هذا التصرف الأحمق غير الملتزم بالشريعة الإسلامية ونصوصها قد أثار سخط كافة طوائف الشعب المغربى لا سيما رجال القضاء والفقه ورجال الدين والعلماء وأصحاب الحرف المهنية وعلية القوم ونقم عليه الكثير من أبناء البيت المرينى الذين رأوا فى تعيين الوزير هارون، والحاجب شاويل إهانة لكرامة المسلمين لأنه تصرف بمس الشعور الدينى ويجرح كرامة الوطن المغربى ومن هنا فقد عبد الحق كل تأيد شعبى له بين عامة شعبه وخاصته لاسيما أنه كانت هناك قلة من عليه القوم ترى فى

استبداد الوزير الوطاسي يحيى بن يحيى ومحاولته التفكير في الانفراد بالحكم والسلطة دون السلطان مبررا للمذبحة التي قام بها السلطان عبد الحق، لكن مما زاد في حنق الشعب المغربي وحقده وسخطه على سلطان بلاده أن الوزير اليهودي هارون أظهر من الشدة والعسف والبطش وسوء المعاملة والضرب والمصادرة وعدم احترام المشاعر الإسلامية والتصرف الأحمق وتحكمه في أمور المدينة وسيطرة اليهود على جمع مقاليد الأمور وإهدار كرامة الانسان لاسيما النساء من آل بيت الشرافة العلوية الإدريسية، وساد البلاد حالة من التذمر التي نجمت عن الإجراءات المالية الجديدة التي سنها السلطان عبد الحق ووزيره اليهودي هارون والتي مست بشدة مجتمع الأشراف في فاس وكان هذا اليهودي يخرج في زي الملوك ويخدمه المسلمون ويحكم بين أهل الإسلام في شكاياتهم ويأمر وينهي ويصفد بالحديد ويقتل ويضرب وهذا من أكبر مصائب الدهر التي وصلت بالبلاد المغربية من قبل تصرف سلطان أحمق لا يقيم وزنا للقيم الإسلامية التي ينتمي اليها، بل أكثر من ذلك أن هارون وشاويل تحكما في الأشراف والفقهاء ومن دونهم من الرعية وكان اليهودي هارون قد ولي على شرطته رجلا يقال له الحسين وأمره بأن يستخدم كل وسائل العنف والشدة وجميع وسائل التعذيب واستيلاء الأموال بآية طريقة وفي عهد هذين الوزيرين (هارون) والحاجب شاويل وصلت الدولة المرينية إلى درجة كبيرة من الضعف والانحلال والتفكك ولم يستطيع السلطان عبد الحق الذي فقد هيبته وسمعته بين رعيته وضعف قوته العسكرية أن يدافع عن طنجة التي هاجمها الأسبان بقوة صغيرة واستولوا عليها عام ٨٦٩هـ/١٤٦٤م .

وإقتربت نهاية السلطان ومعه نهاية الدولة ومن عينهم في الوزارة والحجابة، ذلك لأن الوزير اليهودي كان قد أصدر أمره بالقبض على امرأة شريفة من الأشراف الحسنيين في احدى أحياء مدينة فاس وأثقل عليها بالضرب الشديد بل أوسعها ضربا

وزاد عليها فى المهانة شدة الأسواط فجعلت تتوسل اليه بالرسول محمد ﷺ لكن اليهودى لما سمع اسم رسول الله ﷺ زاد فى ضربها وبالغ فى عقابها (السلاوى) وانتشر الخبر فى المدينة وأسرع كبار القوم بالذهاب بها إلى خطيب مسجد القرويين الفقيه أبى فارس عبد العزيز بن موسى الورياكلى وكانت له صلابة شديدة فى الحق وشرح له المجتمعون تحكم اليهود فى رقاب المسلمين واتفق الجميع بعد أن تعاهدوا على كتاب الله مع الشيخ الورياكلى على التخلص من السلطان والفتك بالوزير اليهودى هارون جزاء فعلته وبيعة الشريف أبى عبد الله الحفيد وهو محمد بن على بن عمران الإدريسى الجوطى نسبه إلى جوطة وهى قرية على نهر سيوفى العدوة الجنوبية لم يبق منها الا آثار نزلها جدهم يحيى بن محمد بن يحيى العدام بن القاسم بن إدريس فنسب اليها وهو من بيت بنى عمران وهى فرقة من أدارسة فاس استقروا ببيت جدهم إدريس وكانت لهم السيادة الروحية على أهل المغرب (كافة) وهم من آل البيت العلوى ووافقوا على ذلك وبايعوا الشريف ودعوا له على المنابر، وهكذا اضطربت الأمور بدرجة نهائية فى المدينة المرينية فاس وتدهورت الأمور من جراء سيطرة اليهوديين على مقاليد الأمور مما اضطر شيوخ المدينة ورؤساءها إلى هذه المبايعة للشريف أبى عبد الله ضد السلطان عبد الحق فخرج الثائرون إلى فاس الجديدة وهاجموا الوزير هارون والحاجب شاويل وتم قتلهم والاستيلاء على أموالهما نكاية بما ارتكبا فى حق الإسلام والمسلمين، وعلم السلطان عبد الحق بأنباء الثورة وكان فى ذلك الوقت خارج مدينة فاس يؤدب بعض قبائل الهبط الثائرة (الزركشى، تاريخ الدولتين) فعاد إلى فاس مسرعا واضطرب حال المدينة وثار عليه الجند وأيقن بالنهاية وساروا به إلى فاس حتى إذا وصلوا اليها خرج اليه أهلها ومعهم سلطانهم الجديد الشريف أبو عبد الله الحفيد، ثم أخذت عتقه يوم الجمعة ٢٧ رمضان ٨٦٩هـ/١٤٦٥م. هذا الشريف الحفيد وكان يتولى أمر نقابة الأشراف بفاس فاستدعوه فحضر وكانت فترة حكمه منذ وفاة والده أبى سعيد عثمان ستة

وأربعين عاما وانقرضت بموته دولة بنى مرين فى المغرب، وكما سبق القول فان رؤساء فاس كانوا قد اجتمعوا إلى الفقيه الورياكلى وأجمعوا رايهم على مبايعة هذا الشريف الحفيد وكان تولى أمر نقابة الأشراف بفاس فاستدعوه فحضر وبايعوه فى العشر الأواخر من رمضان عام ٨٦٩هـ وتم أمره، وكان مقتل عبد الحق نهاية الدولة المرينية فى حكم المغرب وبداية ظهور كيان سياسى جديد ستؤول إليه مقاليد الأمور فى البلاد فى ظل الصراعات الدولية العنيفة التى كانت تعصف بالمغرب الأقصى وتقضى على إستقلاله وكيانه السياسى فى خضم الصراعات الدولية العنيفة من الشرق والشمال وكل منها يتربص بالمغرب للانقضاض عليه .

الفصل الأول

بنو وطاس على مسرح الأحداث بالمغرب الأقصى

الأمير محمد الشيخ بن أبى زكريا بن زبان الوطاسى

٨٧٦ - ٩١٠هـ/١٤٧٢ - ١٥٠٤م

بمقتل عبد الحق بن أبى سعيد المرينى عام ٨٦٩ آلت أمور فاس إلى الشريف أبى محمد عبد الله بن محمد الادريسى الذى ظل يحكم البلاد ويعاونه ابنه كوزير له وفى نفس الوقت فان بنى وطاس تمكنوا من استغلال الأحداث الجارية وقاموا بخلع الشريف أبى عبد الله عن الإمارة والإمامة فى مدينة فاس عام ٨٧٥هـ بعد حكم دام ست سنوات فى ظل الأشراف العلويين وكان الذى خلعه أبو الحجاج يوسف بن منصور بن زيان الوطاسى لكن فترة حكم منصور الوطاسى هذا لم تدم الا عاما واحدا حيث انقض على الحكم محمد الشيخ بن أبى زكريا وزير عبد الحق المرينى وقائده وأعلن نفسه سلطانا على المغرب منذ عام ٨٧٦هـ/١٤٧٢م مؤسسا للأسرة الوطاسية بعد أن أخذ العرش لنفسه من ابن عمه وكان محمد الشيخ الوطاسى فى ذلك الوقت يحكم مدينة أصيلا وكان شجاعا مقداما وأحس فى نفسه بالقدرة على الاستيلاء على كرسى العرش الفاسى والعمل على تنحية الشريف أبى عبد الله عنها لاسيما وأن كلمة الناس فى المدينة لم تكن قد اتفقت بعد عليه وكان الناس يعيشون على افتراق كلمتهم بين مؤيد ومعارض فجمع محمد الشيخ جندا كثيفا وزحف إلى فاس يريد السيطرة عليها فبرز اليه الشريف بقوات والتقوا بالقرب من مدينة مكناسة ووقعت بينهما حرب عظيمة دارت الدائرة فيها على الشيخ الوطاسى فأضطر إلى العودة إلى أصيلا، لكنه عاود الكرة مرة ثانية وجمع جندا آخر وزاد فى العدد والعدة وزحف به إلى فاس العاصمة وحاصرها نحو عامين (حولين كاملين) والشريف محاصر فيها مع أرباب

دولته، لكن أثناء فترة الحصار وصلت اليه الأخبار بتقدم قوات برتغالية واستيلائها على مدينة أصيلا وعلى بيت ماله وأهله وأولاده فرفع الحصار عن فاس ورجع مسرعا إلى أصيلا يريد استعادتها من أيدى البرتغاليين وحاصرها حصارا شديدا لكنها امتنعت عليه فاضطر إلى عقد هدنة مع البرتغال لاسيما أنه لم يستطيع دخول أصيلا ولا السيطرة على قاس وعاد مسرعا إلى فاس وضيق الحصار على الشريف ومن معه فخرج فارا بنفسه وسلمها اليه فدخلها محمد الشيخ وتمت بيعته وتفرغ لقتال القبائل التى تعيش باحواز فاس وغيرها من المدن فدخلت جميعا فى طاعته ومن ثم بدا يمارس مسئولياته كأمير للبلاد هذا ما رواه السلاوى، ولكنه هو الذى يذكر بنفسه إن الذى خلع الشريف فى فاس أبو الحجاج يوسف بن منصور بن زيان الوطاسى، لكن ربما يكون ابن منصور الوطاسى كان أحد قواد محمد الشيخ الوطاسى وانه ربما كان قد دخل المدينة قبل ابن عمه محمد الشيخ ثم سلم مقاليد الأمور له وفى حقيقة الأمر فانه إذا كان الوطاسيون قد نجحوا فى القضاء على دولة الأشراف التى قادها الورياكلى وتعين أبى عبد الله الشريف الجوطى إماما وحاكمها لفاس وعزلهما له والقضاء على كيان الأشراف فى ذلك الوقت وعودة لنفوذهم المفقود أثر الهزيمة التى قام بها السلطان عبد الحق المرينى فان ذلك لم يكن الا هدنة مؤقتة لكى يتحرك الاشراف قادمين من الجنوب لكى تكون نهاية دولة بنى وطاس على أيديهم. وهكذا تصاعد دور الوطاسيين بعد أن كانوا وزراء أوصياء على أبناء عمومتهم أبناء الأسرة المرينية وهكذا ظهر المغرب الوطاسى على انقاض المغرب المرينى .

على أن المغرب لم يلبث بعد قليل أن قتل سلطانه عبد الحق المرينى فى رمضان ٨٦٩هـ مايو ١٤٦٥م وبموته انقرضت الدولة المرينية فى المغرب وقام نزاع على الملك بين الشريف الادريسى محمد بن على وبين قائد مدينة أصيلا محمد الشيخ الوطاسى

وهو ابن الوزير السابق أبى زكريا وامتد الصراع بين الطرفين سبع سنوات (١٤٦٥ - ١٤٧٢م) اضطر خلالها محمد الشيخ إلى ترك أصيلا ومحاصرة خصمه فى فاس وانتهز ملك البرتغال الفونسو الخامس هذه الفرصة وهاجم مدينة أصيلا بأسطول ضخم مكون من ٤٧٧ سفينة بها ثلاثون ألف مقاتل وذلك فى أغسطس ١٤٧١م وبعد مقاومة عنيفة تمكن من احتلال المدينة وأسرع عدد كبير من أهلها من بينهم زوجات وابن محمد الشيخ كانوا معتصمين بحصن المدينة، وعندما علم محمد الشيخ بأخبار هذه الحملة ترك جزءا من جيشه لمواصلة حصار فاس واتجه نحو أصيلة لنجدتها ولكنه ما كاد يصل إلى مدينة النصر الكبير حتى بلغته الأنباء بسقوط أصيلة ووقوع أسرته فى أسر البرتغالين. ورأى محمد الشيخ أن الاتفاق مع ملك البرتغال هو الحل الوحيد للخروج من هذه الأزمة والتفرغ لمحاربة خصمه فى فاس على الرغم من أن نصوص هذه الاتفاقية لم نصل الينا الا انه يوجد فى المدونة الخاصة بقصر الفونسو الخامس بعض شروطها وهى تنص على أن تمتد الهدنة عشرين سنة وأن يحتل البرتغاليون مدينة العرائش إلى جانب أصيلة (أصيلا) وأن يطلق سراح ابن السلطان محمد الشيخ وزوجاته

على أن ملك البرتغال رغم شروط هذه الهدنة اتجه بقواته وأساطيله نحو مدينة طنجة التى خاف سكانها أن يكون مصيرهم مثل مصير سكان أصيلة فأخذوا فى الجلاء عنها مما سهل على الجيش البرتغالى مهمة احتلالها فى أغسطس ١٤٧١/٢٩م بعد خمسة أيام من احتلال أصيلة. وكان محمد الشيخ فى ذلك الوقت منهمكا فى محاربة خصمه الشريف محمد بفاس ثم انتهى الأمر بفرار هذا الأخير إلى تونس بعد أن نخلى عنه أتباعه ودخل محمد الشيخ العاصمة فاس عام ٨٧٧هـ/١٤٧٢م مؤسسا بذلك دولة بنى وطاس .

ولقد كان الوطاسيون فرعا من بنى مرين من القبائل الزيانية وكانوا ينزلون فى ضواحى بلاد الريف حيث آلت اليهم جباية أمصاره ورعاياه وكانوا أول الأمر يحكمون بلاد المغرب الأقصى فى مدينة بنى مرين وعندما ضعف أمر بنى مرين كما سبق القول سيطر أبو زكريا يحيى بن أبى زيان الوطاسى وحاشيته على الأمير الصغير عبد الحق بن أبى سعيد بن عثمان المرينى وخلعه من الوزارة أبناؤه وعندما انتهى أمر بنى مرين عام ٨٧٥هـ/١٤٧٠م وصار السلطان الفعلى فى شمال المغرب الأقصى بيد الجماعات الصوفية أقاموا أميرا من أبناء الادارسة لكن الوطاسيين أصبحوا أصحاب السلطة الفعلية فى البلاد عام ٨٧٦هـ/١٤٧٢م .

وهكذا انتقلت مقاليد الأمور إلى دولة جديدة باسم أسرة جديدة هى الأسرة الوطاسية لكنها لم تكن تملك مقومات الأسرة القوية ولا القدرة على تجديد الدماء فى كيان الدولة لاسيما أن هناك أحداثا كثيرة فى ذلك الوقت تجرى على أرض المغرب لم تكن لتواكب حركة السير البطئ والمتهاون مع الأسرة الوطاسية والتى كانت تعتقد أن العامل الدينى والقومى القبلى والاقتصادى هو أساس بناء الدولة ومن هنا فان كل الارهاصات التى كانت تحيط بها لم تكن تقدر لهذا الكيان الهش الذى استغل ظروفا ليقيم كيانا سرعان ما تلاحقه الأحداث لكى ينذر بسقوط الإمارة الوطاسية البالية لعدم قدرتها على مواجهة الصدمات الخارجية وان كان محمد الشيخ الوطاسى قد حاول بقدر ما سمحت له امكانيات الدولة إخضاع القبائل المحيطة بفاس لاسيما أن محمد الشيخ كان قد عقد إتفاقا مع البرتغالين ولم تكن هناك دوافع إسلامية دينية وراء الحركة السياسية للاستيلاء على السلطة فى فاس وخلع الاشراف ولاسيما ان محمد الشيخ هذا مؤسس الأسرة الوطاسية طور علاقاته مع القوى الاستعمارية المحتلة لبلاده ولم يحاول ان يستغل المبررات التاريخى فى العلاقات الخارجية والذى كان الدور المرينى قد رسمه

لنفسه بالدخول فى حركة الجهاد الإسلامى ضد القوى الابييرية التى كانت تحاول كبت النفس الأخير لدولة بنى الأحمر فى غرناطة واتخذت لها مواقع على أرض المغرب ومن هنا فقد بات القضاء على الأسرة الوطاسية امرا واردا لاسيما انه لم يكن لها أدنى مضمون ترتكز عليه مثل الفاطميين والمرابطين أو الموحدين أو بنى مرين أو غيرها من الأسر التى ظهرت على أرض المغرب لكن هناك آراء تدافع عن محمد الشيخ الذى أسس الحكم الوطاسى عام ١٤٧٢م وذلك انه كان مضطرا ان يتفق مع البرتغاليين ويترك لهم أصيلا من أجل الاستيلاء على فاس فى العام التالى حيث أنه ترك أصيلة للبرتغاليين عام ١٣٧١م حيث بدأ تاريخ الدولة الوطاسية التى سيكون سقوطها على أيدى الأشراف السعديين لكن بدأ من هذا التاريخ تصاعد التوسع البرتغالى ومحاولة الوجود العثمانى التركى للرد على هذا التوسع ومحاولة السيطرة على المغرب وقد ظل الأمير الوطاسى محمد الشيخ يحكم البلاد فى ظل هذه الصراعات حتى عام ١٩١٠هـ/١٥٠٤م بعد أن حكم البلاد ما يقرب من اثنين وثلاثين عاما كانت حافلة بالأحداث والصراعات الدامية على أرض المغرب وكان على محمد الشيخ أن يكسب شرعية لحكمه فقام عام ١٤٧٢م بالدخول فى طاعة الخلافة الحفصية والدعاء للخلفاء الحفصيين وتقبل فكرة الدخول فى طاعة الخلافة الحفصية رغم ما كان يتهدد هذه الخلافة من تفكك وتدهور وفد قامت الدولة الوطاسية منذ نشأتها وهى ضعيفة وعاجزة عن حماية البلاد وصيانة الامن والدفاع عن البلاد ضد الفرنجة الأسبان والبرتغاليين المحتلين وقد أدى هذا إلى انتشار الفوضى والفتن وإلى انقسام المغرب بحيث صار بنو وطاس يحكمون فى عاصمتهم فاس وهناك العديد من الموانى المحتلة من قبل الأسبان والبرتغاليين وكذلك ظهرت فى البلاد أمارات شبه مستقلة وان كانت تخضع اسميا للدولة الوطاسية مثل أمارة شفاوتين والقصر الكبير وتطوان والتى ظهرت ككيان قوى النشأة بسبب مجاهدة المحتلين الأسبان والبرتغال الذين سيطروا على العديد من موانى

وسواحل المغرب وقد ظهرت هذه الإمارات والمدن بسبب ضعف وقيادة محمد الشيخ الوطاسى وعدم قدرته على مجابهه الخطر الذى بات يتهدد أرجاء المغرب من قبل القوى الصليبية المحتلة، وحيث قامت هذه الإمارات والمدن شبه المستقلة بدور كبير فى صد المحتلين وكسر شوكتهم .

كما أن عصر الوطاسيين قد شهد ظهور بعض الإمارات فى جنوب وشرق المغرب كأمراء هنتانة وإمارة أسرة هنتانة فى مراكش تنتمى إلى قبائل مصمودة البربرية وفقد امتد نفوذها على جنوب بلاد المغرب فى البلاد الواقعة من مراكش حيث سواحل البحر المحيط (المحيط الأطلسى)، وقد كانوا فى منافسة شديدة مع الوطاسيين من الشمال الا أنهم كانوا يخضعون ويعترفون بالولاء لحكام فاس الوطاسيين وكانت تشاركهم فى ذلك أغلب الإمارات والوحدات المستقلة بالمغرب والذين كانت عاصمتهم مراكش والذين يعترفون اسميا بالإمارة الوطاسية إلى فاس ويرسلون لها الأموال كل عام اتقاء لشرها. وكذلك إمارة دريد التى تقع فى شرق المغرب وكانت هذه الإمارة لا تزال تخضع لحكم بنى مرين الفارين من وجه الوطاسيين منذ دخولهم فاس وقد ساعد على بقاء هذه الإمارة مستقلة عن نفوذ الوطاسيين انها كانت بعيدة عن فاس العاصمة ولم تستطع قوات الوطاسيين ان تصل اليهم وتدخل فى صراع مباشر معهم وكذلك بسبب ضعف حكم الوطاسيين بصفة عامة، بالإضافة إلى أن الأمراء المرينين حكام إمارة دريد ظلوا يتحينون الفرصة للقضاء على مغتصبى السلطة من أيديهم وظلوا على هذه الحال إلى ان سقطت دولتهم وإمارتهم بأيدى الاشراف السعديين، إضافة إلى وجود بعض القلاع والحصون ومراكز الاحتلال البرتغالى والأسبانى التى كانت تمتد على سواحل المحيط الأطلسى والبحر المتوسط وكانت هذه الموانى والحصون تتخذ كمراكز لتموين السفن والأساطيل البحرية البرتغالية والأسبانية فى طريقها إلى الهند والشرق الأقصى

كما أن هذه المراكز كانت نقاطا للتوسع إلى المناطق الداخلية ببلاد المغرب وقد امتد نفوذ هذه المراكز إلى القبائل والأهالي الذين كانوا يتعاملون معهم وكانوا يقبلون الخضوع لهم .

وهكذا فانه كان من الطبيعي أن يكون هذا التفكك والانحلال السياسى الذى عانت منه المغرب قد أطمع المحتلين الفرنجة للاتجاه إلى مزيد من توطيد أقدامهم والاستيلاء على أرض المغرب وسواحله ذلك لان المغرب الأقصى وقد انهكته الفتن والحروب الداخلية وضعف حكام بنى وطاس الذين استولوا على السلطة من أشراف فاس ولذا فانه كان يعانى من حكومة ضعيفة فى فاس وتفكك سياسى وضعف اقتصادى وانهيار الوحدة السياسية بسبب قيام الوحدات والإمارات المستقلة كما أنه كان يعانى من حالة كساد وضعف اقتصادى بسبب الحصار وفرض السيادة الأسبانية والبرتغالية ومنع تعامل الدول الاوربية مع داخل البلاد ومن هنا نشأ تخلف اجتماعى بسبب سيادة الروح القبلية فى البلاد، كما أن الكساد والفكر والجمود الثقافى وحالة الانهيار الحضارى ويأس العامة من أحوال الأمراء لاسيما وان بلادهم لا ينفك يوم الا وتقع مدينة جديدة أو ميناء ساحلى جديد فى أيدى المحتل الغاضب الأوربى القادم من شبه جزيرة ايبيريا وغلب الجهل وتفشت الأوبئة والأمراض والسذاجة التى غلبت على عقول العامة حيث كان المغرب كله مهددا بالسقوط تحت أقدام القوى الأوربية المحتلة نتيجة لغيبة القوى الوطنية المسلحة بالجهاد الإسلامى والقادرة بما لديها من امكانيات فى الوقوف فى وجهة القوى الخارجية وعدم وجود جبهة قوية متماسكة تستطيع أن تقود البلاد ضد هذه القوى .

وهكذا فان فترة تولى الأمير الوطاسى محمد الشيخ السلطة فى شمال المغرب الأقصى مؤسسا للأسرة الوطاسية الذى يذكر عنها الدكتور حسين مؤنس أنهم كانوا

أصحاب سلطة اسمية فى فاس ولم يكن بيدهم فى حقيقة الأمر شئ من السلطة أو السلطان ويذكر كذلك عنهم أن الوطاسيين لم يكونوا فى حقيقة الأمر أسرة حاكمة بالمعنى الصحيح لكن فترة وجودهم على قمة الجهاز السياسى الحاكم فى فاس قد شهدت أكبر وأخطر تطور فى الأوضاع السياسية فى المغرب الأقصى ذلك لانه خلال تلك الحقبة وهى الربع الأخير من القرن التاسع الهجرى، والخامس عشر الميلادى كانت أوراق اللعبة السياسية على ارض المغرب غير واضحة فقد كانت الكيانات السياسية متداخلة والقوى السياسية تتصارع على ارض المغرب لاسيما بعد التواجد التركى العثمانى فى المغربية الأوسط والأدنى وماتلا ذلك من أحداث بالنسبة للخلافة الحفصية فى تونس وبنى زياد فى تلمسان وكيف توطد النفوذ التركى العثمانى والصراع مع القوى الأسبانية من اجل القضاء على نفوذها فى السواحل المغربية وما تم بعد إسقاط هاتين الدولتين وما آل اليه أمر بنى وطاس من ضعف وعجزهم من مواجهه التحديات الخارجية ورد فعل القوى الأيبيرية واتخاذهم مواقع متعددة توطئة للقضاء النهائى على الوجود الوطاسى فى المغرب .

وهكذا كانت الدولة الوطاسية تعيش كهولتها منذ نشأتها وتشهد سقوط إمارتها كل يوم بعد أن عاشت حالة التشرذم حتى نهاية نفوذها فهى لم يكن لها أمر من تحرر الثغور التى يسيطر عليها الأسبان والبرتغال والذين كانوا قد وضعوا أيديهم على العديد من المدن فى عهد بنى مرين وتوسعوا فى بسط النفوذ أيام حكم محمد الشيخ الوطاسى حيث سقطت بعض المدن التى نشير اليها فى فصل لاحق عند الحديث عن الوجود الإستعمارى الأسبانى البرتغالى فى المغرب الأقصى .

وهكذا دامت فترة حكم الأمير محمد الشيخ الوطاسى اثنين وثلاثين عاما لم يستطع فيها التوسع الأيبيرى أن يخضع البلاد فى كيان سياسى واحد وكانت الأحوال تنذر بالخطر لاسيما ان بلاد المغرب كانت تموج بتيارات فكرية ستلعب دورها فى

حركة الجهاد الإسلامى هى فترات تاريخية لاحقة .

أبو عبد الله محمد الشيخ الوطاسى الشهير بالبرتغالى

٩١٠هـ - ١٥٠٤م/٩٣٢هـ - ١٥٢٥م

آلت اليه الأمور بعد وفاة أبيه مؤسس الأسرة الوطاسية حيث كان أكبر إخوته وكان البرتغاليون قد اسروه وهو صغير عندما استولوا على أصيلا عام ١٤٧١م وتم اطلاق سراحه مع إخوته بعد ان قام والده بعقد هدنة مع البرتغالين .

وفى عهده كانت الطرق الصوفية قد بدأت تمارس دورها وتحاول أن تجد لها مجالا فى العمل السياسى بعد ان زاد نفوذها وتجمع الناس حولها وفى عهده ظهر اسم سيدى عبد الله الغزونى الذى وفد إلى مراكش من الشمال لكى يتولى رياسة الطريقة الجزولية وكانت له مساجلات وجولات مع السلطان أبى عبد الله البرتغالى الذى أمر بالقبض عليه سبب وشاية الشيخ أبى عبد الله محمد بن غازى .

وكان السلطان أبو عبد الله البرتغالى قد كلف الحسن الوزان ليو الأفريقى عام ١٥١٠ - ١٥١٧م القيام برحلات فى الممالك الإسلامية المجاورة وخاصة جنوب الصحراء وقد أخطأ يوفل فى كتابة (الممالك الإسلامية وتجارة الذهب) فى القول أن الذى كلف ليو الأفريقى عام ١٥١٠م بالقيام برحلات إلى الممالك الإسلامية المجاورة هو الشريف السعدى محمد القائم بأمر الله ولكن حقيقة الأمر أن الذى كلفه بهذا العمل هو الشيخ الوطاسى الشهير بالبرتغالى .

وفى عهد النفوذ الإستعمارى الأسبانى البرتغالى زيادة كبيرة ذلك لان الأسبان حاولوا عام ١٥٠٥م احتلال ساحل اغادير على المحيط الأطلسى، كذلك فان البرتغاليين نجحوا فى نفس العام ١٥٠٥م فى احتلال نفس المنطقة، ثم حدث اتفاق

بين أسبانيا والبرتغال أعطت أسبانيا بمقتضاة الحق للبرتغال فى التوسع فى مناطق سواحل المغرب الجنوبية الأطلسية فى مقابل اعتراف البرتغال لأسبانيا بمشروعيته فى التوسع فى الجزء الشرقى على ساحل المغرب الشمالى فى المنطقة الممتدة من باديس حتى مليلة وربما يكون فشل البرتغال فى احتلال المدن الساحلية الشمالية التى تقع تحت سيادة سلطنة فاس هو الذى حدا بها إلى الاتجاه إلى البلاد الجنوبية أو مملكة مراكش ولكن عن طريق خلق العطاء الاتجاه إلى البلاد الجنوبية أو مملكة مراكش ولكن عن طريق خلق العملاء والذين قدم لهم خدمات جليلة .

والجدير بالذكر أن البرتغاليين نزلوا عام ١٥٠٤م على مقربة من ميناء أزمور وهو ميناء كبير على المحيط الأطلسى ولكن لم يتم لهم احتلاله الا عام ١٥١٣ كما استولوا عام ١٥٠٧م على ميناء اغادير واسفى، ولما قام البرتغاليون باحتلال أزمور توغلوا منه جنوبا لفرض سيطرتهم على مازكان، وقد حاول البرتغاليون التقرب إلى حاكم مراكش فى ذلك الوقت الأمير الناصر على الهنتاتى لاستمالته إلى صفوفهم وتحالفهم معهم ولكنهم فشلوا وفى نفس الوقت وصلت الأوامر من حكومة البرتغال فى لشبونه إلى قواتها المرابطة فى اسفى وازمور ان تتهيأ لاحتلال مراكش وفى مطلع عام ١٥١٥م كانت مراكش محاصرة بالقوات البرتغالية، لكن المحاصرة فشلت بسبب المساعدة التى قدمها حاكم فاس ابو عبد الله محمد البرتغالى الوطاسى للمجاهدين وكان فشل احتلال البرتغال لمراكش وافعالها للاتجاه إلى محاربة القوى الاسلامية الكبرى فى فاس الممثلة فى قوات الوطاسى والقضاء على نفوذ وسلطان الوطاسين فى فاس، فأرسلوا اسطولا عظيما إلى ميناء المعمورة فى يناير ١٥١٥م ولكن اجبروا على الانسحاب فى نفس السنة ونتيجة لفشل البرتغاليين فى احتلال مراكش والمعمورة فانهم اتجهوا إلى محاولة ايجاد الاعوان والعملاء مثل اولاد عمران والقواد مثل يحيى بن أوتاقوت ومع

ذلك لم تسقط المعمورة فى أيديهم الا بعد مقاومة شعبية عنيفة اواخر عام ١٥١٥م وادى تقاعس بعض قبائل الجنوب وعدم مشاركتها فى الدفاع عن هذه المدن إلى ان تسقط المعمورة فى أيدى القوات البرتغالية وضعف حركة المقاومة، كذلك؛ تحالف الاسبان مع الوطاسيين .

وهكذا شهدت فترة حكم السلطان محمد البرتغالى تدهور الاوضاع فى المغرب الاقصى وانقسام البلاد من طرابلس شرقا حتى رباط الفتح غربا فقد تداعى الحفصيون فى تونس وبنى زيان فى تلمسان إلى التدهور والسقوط واستبد الاعراب وزعماء القبائل بالداخل وانتقلت مدن الساحل فى المغرب الاقصى إلى ايدى اعداء الاسلام وكان هناك صراع داخلى عنيف يدور بين بنى وطاس والثائرين عليهم لاسيما ان الوطاسيين ادركوا منذ اليوم الاول لتولى الحكم ان مقاتلة المسيحيين من أسباب تدعيم حكمهم بالمغرب غير ان الاحداث المتوالية التى حلت بمسلمى الاندلس بعد النكسة عام ١٤٩٢م وطرد المسلمين من الاندلس نهائيا وعدم قيام الامير محمد الشيخ بن ابى زكريا الوطاسى امير فاس فى ذلك الوقت بمساعدتهم وانجادهم نظرا للطبيعة الانعزالية فى تركية ضد الامير وعدم وجودِ النخوة والنجدة الاسلامية فقد اثارت هذه المواقف استياء الشعب المغربى واهاليه ضد نظام الحكم الجديد بالرغم من المحاولات التى يذلها الامير محمد البرتغالى هذا ابن محمد الشيخ لمقاومة المسلمين فى شمال البلاد .

وقد دارت مراسلات بين السلطان الوطاسى والملك البرتغالى يطلب فيها السلطان أبو عبد الله البرتغالى وقف تعدى حاكم البرتغال فى المغرب مانويل ومنعه من التعرض لسفن الوطاسين التى يرسلها السلطان الوطاسى إلى الجزائر ثم إلى تونس ولكن هذه المراسلات لم تؤد إلى ما كان يطلبه أبو عبد الله البرتغالى وقد دارت هذه المراسلات عام ١٢٩٠هـ/١٥١٤م .

وازاء ضعف موقف الوطاسيين من الاطماع الايبيرية فان كيانهم السياسى من قبل الاهالى أصبح امرا مشكوكا فيه لاسيما أنه لم يعد هناك تأييد قبلى بعد أن تقلص دورهم فى المقاومة الجادة للخطر الصليبى فى الاندلس والذى ادى تخاذلهم فيه إلى سقوط غرناطة وضعف المقاومة على الارض المغربية، ومن ثم فقد بدات المشاعر المغربية تبحث عمن ياخذ بيدها وينقذ كرامة الوطن والاسلام من ازدياد الضغط الايبيرى على المدن الساحلية والتوسع للداخل فكان أن اتجهت إلى الوحدات السياسية الصغيرة بعد ان فقدوا أمالهم فى حاكم فاس فكانت الانظار إلى شمال البلاد حيث مدينة شفا وثن، بعد ان شاهدوا تفكك بلادهم واقتطاع اراضيها خلال الحكم الوطاسى وما اصاب البلاد من التدهور بحيث لم يبقى فى ايدى الوطاسين غير عاصمتهم فاس وبعض مدن المغرب التى تعد على اصابع اليد الواحدة فقد أصبح تغير الاوضاع والقيادة امرا ضروريا. فى هذه الظروف التى تجثم فيها القوى الايبيرية البرتغالية والاسبانية على ارض البلاد وفشلت القيادة الوطاسية فى مواجهه العدو التاريخى الذى خلص من تصفية المجتمع الاسلامى فى الاندلس فى الوقت الذى يعمل فيه المستعمر الابييرى فى الهجوم على المجتمع الاسلامى المغربى ويواصل هجماته لاكثر من نصف قرن وعجزت الدولة الوطاسية فى اتخاذ موقف الدفاع الذى غلب الدولة المغربية فى الدفاع عن الكيان الاسلامى بعد أن سيطر البرتغاليون فقط على جملة مدن من البلاد بالمغرب الأقصى فيها ما بين سبته والقصر وطنجة واصيلا وافقا (الدار البيضاء) والجديدة وحصن البريحة مازكان والعرائش واغادير واسفى والمعمورة (المهدية) وبالجملة فانه لم يبق من ثغور المغرب الاقصى بيد المسلمين الا القليل مثل سلا ورباط الفتح وفوجئ المسلمون بهذا التوسع البرتغالى حيث دهموا به فى بلادهم واستحوذوا على بلاد الهبط وضايقوا الاهالى حتى اضطر السكان إلى النزوح إلى الاطراف الداخلية والقرى النائية بعيدا عن السواحل .

فكان ان ظهرت الحركة السعدية التى ادرك الوطاسيون ان شعار الجهاد الاسلامى الذى رفعته هذه الحركة فى الجنوب قد انقلب إلى حركة سياسية تهدف إلى القضاء على ملكهم حيث سيتم فى النهاية القضاء على حكم الاسرة الوطاسية فعلا بعد الدخول إلى فاس، وفى بادئ الامر فان الحكام الوطاسين أيدوا الدعوة السعدية وامامها القائم بأمر الله واعانوه وأرسلوا له من فاس بالمعدات والمؤن وساعدوه فى جهاده ضد البرتغاليين ولكن فى ذلك لم يكن يتبادر إلى فكر الامام القائم العمل على خلع السلطان الوطاسى فقد كانت الحركة السعدية لاتزال تمر بمرحلة الدعوة والاستقطاب لقبائل المغرب وسكانها ومن هنا فان العلاقات السعدية الوطاسية فى ذلك الوقت كانت علاقات طيبة وحسنة وكان بنو وطاس يمدون أهل السوس بالمال والعتاد الحربى وتروى المصادر أن الشريفين احمد الاعرج واخاه محمد الشيخ لما خرجا للجهاد مع أهل السوس فبرزت جهودهما فى ميدان الجهاد ولما وفدا إلى فاس لدى السلطان محمد البرتغالى تلقاهما بالترحاب واقبل عليهما لتفوقهما فى الجهاد ضد الصلبين ومنحهما حاكم فاس عتادا وفيرا وخيلا كثيرة وعادا إلى بلاد السوس ثم عادا اليه فأعطاهما مثل ذلك ولما كثرت معاوكهما ضد الايبيرين المحتلين وارتفعت رايات انتصارهما حتى صارت القبائل تقدم اليهما واخذت هذه القبائل تساعدهما، حينئذ خلعا طاعة الوطاسى واعلنا ذلك ببلاد السوس ومهما تكن حقيقة الروايات السابقة فان دوام الحال من المحال فى العلاقات السياسية لاسيما بين كيان قد أصابه الوهن وكيان ناشئ من قلب الجنوب المغربى برفع لواء الجهاد الاسلامى وبحشد قواته لطرد الغاصب من أرضه المحتلة بالعتاد الحربى والعمل على انهاء الاحتلال بالقوة العسكرية ورفض الاحتلال المباشر الذى سلمت به القيادة الوطاسية وباسم الجهاد الاسلامى واحياء الدولة الاسلامية تصاعدت القوة العسكرية للامامة والامارة السعدية ونمت قدراتها القتالية وبدأت تخطوا خطوات ناجحة فى تحرير بعض الموانئ الساحلية من قبضة الاسبان والبرتغال وبدأ

الانتصار الابيبرى يضعف امام قوة الاسلام المتجددة واحياء حركة الجهاد الاسلامى يدعم الاسرة الشريفية وقبائل الجنوب المؤيدة لها بالدعم والمساندة بعد أن حرر السعديون بعض المعاقل المغربية الاسلامية من القوات الايبيرية وما قام به الاخوان احمد الاعرج ومحمد الشيخ ونزعوهما إلى بناء كيان سياسى ومن ومن كل هذا فان العلاقة لابد أن تسوء بين الوطاسين والسعدين بعد أن وضحت النوايا وأحس الوطاسيون ان الكيان الجديد يستند إلى أسس ومبادئ ودعوة تختلف عما عليه حال حكام فاس .

ولقد كان من الطبيعى أن يحدث الصدام بين الطرفين وأن تنشأ الحروب والمعارك ولابد أن يخلو الميدان لأحد منهما حتى يستطيع أن يمارس دوره وكانت كل الشواهد تشير إلى ان كل المعارك سوف تكون لصالح الامارة السعدية لأنها تسعى إلى توحيد المغرب وخوض هذه المعارك من اجل الحفاظ على وحدة المجتمع المغربى الذى تريد ان يتخلص المجتمع من أمراضه وتنمو الدولة صحيا وهى فضلا عن ذلك تقوم بعمل بطولى وقلب الاوضاع وجمع الشتات ونقل حركة التاريخ من الكهولة ورفض الهيمنة التاريخية التى تحاربها القوى الايبيرية على حساب بلدان المغرب الاسلامى وعودة تاريخ المغرب إلى الحيوية والتفتح وعودة الدولة إلى دولة جديدة تحمل شعار الشرافة القرشية النبوية العلوية الحسنية الهاشمية لكى يكتب لتاريخ المغرب الاسلامى بعد جديد فى معركة التاريخ وبمعنى آخر ممارسة الدور الدينى القرشى النبوى فى تاريخ البلاد وجعل عباءة الشراقة القرشية مرحلة تتواكب تحت هذه العباءة التفاعلات المغربية حيث يتحول العامل الدينى إلى عامل تاريخى ويضم اليه العامل الاقتصادى والسياسى وتتكفل كل هذه العوامل فى احداث الدولة السعدية التى تحاول الوصول بالمغرب إلى لم شمله والدخول فى صراع حقيقى مع الوطاسيين وان يحدث الصدام وتتحمل القيادة الشابة خسائر بشرية والكثير من المصاعب والوصول إلى نهاية المطاف فى اسقاط هذا الكيان

الوطاسي لاسيما ان الانظار كانت قد اتجهت إلى القائم بأمر الله الادريسي الحسني الشريف والدكل من احمد الاعرج ومحمد الشيخ اللذين احرزا فى اقليم السوس انتصارات واسعة ضد البرتغاليين مما دفع الكثير من المغاربة إلى الالتفاف حولهما. لاسيما ان السعديين عملوا علانية على القضاء على الحكم الوطاسى وكذلك الوحدات الانفصالية الصغيرة فى البلاد ثم العمل على توسيع رقعة المغرب وتكوين دولة مغربية على طراز دول الموحدين وقبلهم المرابطين لاسيما وقد استجاب السعوديون لرغبات القبائل والاهالى والمجاهدين وظهروا كقادة يلتحمون مع المشاعر الاسلامية ويذكون روح الجهاد مختلفين كل الاختلاف عن الوطاسين وبعض رؤساء الامارات المحلية الذين قبلوا التحالف مع القوات الايبيرية البرتغالية أو الاسبانية فى سبيل الابقاء على مصالحهم الخاصة ومن هنا سوف يحدث التصادم الذى يقع نهاية للاسرة الوطاسية .

أبو العباس احمد بن ابى عبد الله بن محمد بن الشيخ
آخر سلاطين بنى وطاس
٩٣٢هـ - ٩٥٦هـ - ١٥٢٥ - ١٥٤٩م

آلت الامور فى بلاد المغرب الشمالى بعد وفاة محمد البرتغالى الوطاسى إلى اخيه ابى حسون بن محمد الشيخ لكنه لم يدم فى تولى السلطة الا أشهرا قليلة اذ ثار عليه ابن أخيه احمد بن ابى عبد الله وذلك بتايد ابن الشريف مولاى ابراهيم امير شرافة شغشاون حيث انه ايد احمد بن السلطان الوطاسى محمد البرتغالى فى عام ١٥٢٦م ضد عمه ابى حسون، بل انه لم يكتف بذلك بل قام بالزواج من ابنه محمد البرتغالى. ومن هنا عمل هؤلاء الاشياخ المحليين على مساعدة اسرة بنى وطاس فى الحكم حيث قام بين هذه الاسرة حاكم شغشاون بدور الوسيط والحاجز بين القوى البرتغالية والوطاسية حيث ارتضى شريف شغشاون ان يصل دوره السياسى والحربى الذى كان يرفع لواء الجهاد الاسلامى بان يلعب لعبة التوازن إلى درجة بلغت حسن التفاهم مع البرتغال فى سبته واصيلة والعراش وكذلك علاقات طيبه مع الوطاسين فى فاس .

كذلك فان مولاى ابراهيم الشريف قام تحت ضغط المشاعر الاسلامية بالعمل تحت راية الجهاد الاسلامى واعلن فى اعوام ١٥٢٣، ١٥٢٥م جهادة وهجومه على اصيلة ومحاولة انتزاعها من ايدى البرتغالين، بل ان دور هذا الشريف قد تجاوز حدود امارة شقشاون إلى حد انه فى مجرد الاحداث فى تاريخ المغرب الوطاس قد شغل منصب الوزير بل قام مقام الوزير للسلطان احمد الوطاس، بل ان حكم الوطاسين قد تضاءل إلى جانبه حيث انه اقام اقامة دائمة فى فاس وترك اخاه مولاى محمد بن على يتولى حكم امارة شغشاون وشرافتها وذلك حتى موت مولاى ابراهيم على عام ١٥٣٩م .

ولقد كانت السلطة الحقيقية للسلطنة الوطاسية فى يد مولاى ابراهيم ابن على إلى حد أن نفوذه قد زاد على نفوذ السلطان بحيث اعتبر الايبيريون (البرتغال والاسبان) انه السلطان الحقيقى للبلاد وعولت عليه السياسة البرتغالية الكثير من الامال وذهبت من اجل هذا إلى اصدار اوامر بضروروة مراعاة مشاعر الدين الاسلامى لدى رجل الدين المسيحى عند زيارتهم للغرب .

بل ان مولاى ابراهيم بن على وزير السلطان احمد الوطاس قد لعب دورا كبيرا فى توقيع معاهدة عام ١٣٥٨م بين سلطان فاس السلطان احمد الوطاس وبين جان الثالث ملك البرتغال وتتلخص بنود هذه المعاهدة التى تعطى صورة واضحة عن طبيعة التطور الذى طرأ على العلاقات البرتغالية الوطاسية ومدى تحكم القوى الايبيرية فى السياسة الوطاسية مما يكون له اثر بالغ فى تحرك القوات السعدية المجاهدة فى محاولة منها للقضاء على السلطة للوطاسية بعد ان ثبت تعاونها الفعلى مع البرتغالين بتوقيع هذه المعاهدة ولقد نصت هذه المعاهدة على ان يستمر سريان هذه المعاهدة احد عشر عاما تنتهى فى عام ١٥٤٩م. والاعتراف بان البرتغال ليس لها الا الحصون والمدن التى تحتلها مثل طنجة وسبتة والقصر الصغير وأصيلا .

أما المغاربة الذين يقطنون خارج هذه المدن والموانئ ويعيشون بجوارها فانهم يخضعون لسلطة وسلطان امير فاس. كما انه يمكن لهؤلاء الرعايا التنقل فى حرية فى الاماكن المذكورة، كما نصت الاتفاقية على تحريم الاتجار فى الاسلحة وعدد من السلع مع الاتراك والفرنسين اذا ما حدث ورست على ارض برتغالية (لاحظ هنا الديار الاسلامية المغربية صارت ارضا برتغاليه) سفن تركية أو فرنسية أو أى سفن مسيحية غير اسبانية أو برتغالية بغرض التعامل التجارى مع المغاربة، فان البرتغالين لن يسمحوا بالشراء منها وبالمثل لن يسمح للمغاربة بالتعامل أو الشراء مع المسيحين او الاتراك

وكذلك تتوقف الغزوات من جانب الطرفين ويتم مناهضتها كى لا يتاح لقوى العدو مهاجمة احدهما وقد استخدم البرتغاليون اسلوب المهادنة وكسب الصداقة فى تعاملهم مع شريف شنشاون ومع السلطان الفاسى الوطاسى وذلك للدور الذى قام به حاكم اصيلة البرتغالى لكسب ود الشريف وبذل كل ما فى وسعه الحيلولة دون محاربته، بل ان التعاون قد امتد بين الطرفين إلى حد استخدام الاطباء البرتغالين فى علاج بنت السلطان محمد البرتغالى الوطاسى زوجة مولاى ابراهيم بن على الشريف .

ولقد عم السخط ارجاء المغرب من جراء هذه التصرفات من قبل اشراف شنشاون وحكام فاس الوطاسية مما دفع محمد الناصر المنتانى امير مراكش ان يراسل الامير محمد الاعرج واخاه محمد الشيخ بالدخول فى طاعتهما والثورة على الحكم الوطاسى بعد ان كان امراء هنتاذة المصمودون ناقمين على الحكم الوطاسى ومن هنا لبى السعديان دعوة امراء مراكش المصمودين ولم ياتى عام ٩٣٠هـ حتى دخل الامير السعدى مدينة مراكش وجعلها مركز القيادة بنطلق منها إلى سائر البلاد المغربية وباستقرار الامراء السعديين فى مراكش ايقن السلطان احمد الوطاسى ان السعدين لم يكن قصدهم الجهاد بل كان قصدهم القضاء على مملكة فاس وتأسيس دولة لهم فى المغرب مستغلين ظروف البلاد والاحتلال الابيرى وتزعمهم حركة الجهاد المقدس ضد المحتل الاوربى .

غير ان السعدين إلى عام ٩٣٦هـ لم يكونوا فى امارة مراكش والسوس سوى امارة تتمتع بالولاء الاسمى للسيادة الوطاسية فى فاس حيث انهم لم يكونوا حتى ذلك الوقت قد وضعوا امام نظرهم تكوين الدولة المغربية الكبرى الشمولية التى عرفها المغرب فى عصور سابقة ذلك لانشغال الامارة السعدية منذ دخولها مراكش ١٥٢٠م / ٩٢٦هـ بمشكلات علاقات المحلية مع بلاد الجنوب وامارات السوس التى تابى الخضوع لامارة السعدين الامر الذى شجع البرتغالين على الخروج على سياستهم

الاستراتيجية فى التوسع وهى سياسة الالتزام بالسيطرة على القواعد الساحلية والموانئ بعد ما وصات اليهم الاوامر من البرتغال بالعمل والتحرك للداخل لاحتلال مراكش فى عام ١٥١٥م، وكان البرتغاليون قد نجحوا فى عام ١٥١٢م فى بسط نفوذهم السياسى بين القبائل فى اقليم السوس حتى دانت لهم بالخضوع قبيلة اولاد مطاوع قرب مدينة مراكش بعد ان فقدت هذه القبائل الحماية التى كانت توفرها لها قبيلة هنتانة التى كانت تحكم فى مراكش وقبل أن يثبت السعديون مقدرتهم على تحمل عبء السيادة على البلاد ورأى البرتغاليون فى أشياخ هنتانة المصامدة ملوك مراكش طوال القرن الخامس عشر الميلادى فرصة لبسط سلطانهم على المدينة وانتزاعها من أيديهم حيث ظلت السيادة إلى هنتاتة على القبائل فى التلال المحيطة ومع ذلك لم تتعد سلطة سلطان مراكش من أشياخ هنتاتة حدود المدينة واحوازها وصارت له السيادة الاسمية حتى دوكالة عندما كانت قبائل هذا السهل الساحلى تتجه بأنظارها إلى قبائل مراكش المحابة أثناء توسع البرتغال على الساحل الاطلسى، لكن الحملة البرتغالية التى كان قوامها ثلاثة آلاف جندى قد فشلت فى احتلال مراكش، مما دفع الامير احمد الاعرج السعدى إلى محاولة الاستيلاء على المدينة لرفع مكانتة فى بلاد المغرب ولاسيما اهل السوس، وفى عام ١٥١٨ اغتيل يحيى ابن تعافقت الحليف المغربى البرتغاليين وواصل أبناء الشريف السعدى هجومهم على رجاله وفى هعام ١٥١١، ١٥٢٠م تمكن أبناء الشريف من دخول مراكش دون قتال بعد أن هجرها جانب كبير من أهلها من جراء ظروف المجاعة .

وتزوج احمد الاعرج من ابنة الامير محمد بن ناصر بوشتنوف والى مراكش ثم نقل رفات الشيخ الجزولى مؤسس الطريقة الجرولية فى عام ١٥٢٤م وفى حقيقة الامر فان مجئ السعدين برفات الشيخ الجزولى إلى مراكش كانت البداية الحقة للعصر

السعدى وبهاتين الخطوتين ضمن تأييد الاسرة الشرعية الهنتانية المالكة فى مراكش واستقطاب انصار الجزولية، لكن رغم ذلك فلم يخل الامر من محاولة لاقصاء السعدين عن مراكش بعد شهور قليلة من ذهاب احمد الأعرج لاقتسام الخراج مع أخيه محمد الشيخ فى بلاد السوس حيث حاول حاكم مراكش السابق استردادها لكنه سرعان ما اذعن من جديد ودخل فى طاعة روج ابنته بعد ان عاد اليها بقواته فى عام ١٥٢٤ ، وازاء الدخول الثانى فان السلطان الوطاسى أبو العباسى أحمد تأهب لمحاربة السعدين فى المناطق الشمالية وكان على السلطان الوطاسى ان يتجه إلى مراكش لانتزاعها من ايدى السعدين فلما أحس احمد الاعرج بنية الوطاسى ورأى انه لا طاقة له بمقاتلة قوات حاكم فاس فانه حصن المدينة وشحن حصونها بالاسلحة وملأها بكل ما تحتاج اليه المدينة وقت الحصار وزحف الوطاسى إلى مراكش وحاصرها حصارا شديدا لكن اثناء الحصار وردت انباء للعباس احمد بان بعض ابناء عمه قاموا عليه بثورة فى فاس فارتحل عائدا إلى مراكش، وبعد هذا الحصار الطويل لم تمض شهور معدودة حتى قضى الاشراف السعديون على الامير الهنتاتى ابى شنشوف) مقتولا بالسم لانهم ربما احسوا فيه رغبة للخضوع للسلطان الوطاسى وبذلك صار احمد الاعراج السعدى حاكما وحيدا وسيدا لمراكش وتلقب بالامير واختار اخاه محمد الشيخ خليفه له فى حكم بلاد السوس .

وكان على السلطان احمد الوطاسى ان يجعل هدفه الاول محاربة الاشراف السعدين الذين يكادون ينزعون منه ملكه وملك اجداده ومن هنا فقد وقعت بين الطرفين حروب جسيمه كان النصر فيها متبادلا بين الطرفين لكن السلطان احمد الوطاسى لم يستطع الدخول إلى مراكش وانتزاعها من ايدى السعدين فتركها لهم، ومن ذلك فقد صارت مراكش حاضرة الامارة السعدية الشريفة، وازاء عدم قدرة السلطان

الوطاسى على السيطرة على مراكش فقد سعى الاخوان السعديان إلى دخول مراكش للمرة الثانية إلى كسب رضى السلطان الوطاسى وارسلا إلى فاس مبعوثا من قبلهما للتعبير عن ولاء التبعية والبيعة للسلطان الوطاسي وكان هذا الاسلوب الماكر الذى اتبعه احمد الاعرج فى رسالة مع مبعوثه إلى السلطان الوطاسى يقول. ما أنا الا واحد من عمالك على هذه المدينة وما كان يعطيه أهل هذه البلاد كل عام ابذله لك مضاعف) وسواء أكان ذلك صدقا ام باطلا لكن هذا الاسلوب رأى فيه السلطان ابو العباس احمد نوعا من الخداع والتمويه فسارع إلى حصار مراكش .

وقام على حصارها في وقت كانت فيه المدينة تعانى من آثار سيول مدمرة لامطار هذا العام ٩٣٣هـ/ ١٥٢٧م ولم تسقط المدينة فى ايدى الوطاسين بسبب صمود أهل مراكش ومساندة الشيخ الغزونى للسعدين وكان الشيخ الغزنونى (عبد الله) شيخ الطريقة الجزولية فى مراكش وخليفة الشيخ عبد العزيز بن عبد الحق التباع الذى خلف الشيخ محمد الجزولى فى شياخه الطريقة والذى احضر رفاقه احمد الاعرج ودفنه فى مراكش، ومن هنا قام رجال الطريقة الجزولية بمساندة ومساعدة السعديين على يد الشيخ عبد الله الغزونى وأنصاره مما اضطر الوطاسى إلى رفع الحصار عن مراكش للمرة الثانية فى يونيو ١٥٢٧م وفر عائدا إلى فاس .

ويتحدث الناصر السلاوى فى كتابه الاستقصاء عن اخبار هذه الغزوة الوطاسية وحصار مراكش فيقول ان الحصار دام على المدينة فترة طويلة وتحدث العامة إلى الشيخ ابى محمد عبد الله الغزونى وكان قد استوطن مراكش وراء رفات شيخه الجزولى بان الحصار قد طال عليهم وان الناس قد سئموا الحصار، فركب الشيخ فى جماعة من اشراف الطريقة الجزولية الذين كان لهم زى خاص وسار وسط اصحابه حتى خرج من باب فاس (احد ابواب مراكش) فوجد رماة السلطان الوطاسى ابى العباس الوطاس يرمون

اهل البلد بالرصاص فوقف الشيخ وجاءت رصاصة فى صدره قبض عليها بيده ثم عاد إلى منزله ولم يات الليل الا والسلطان الوطاسى يرفع الحصار عن المدينة ورحل إلى فاس بسبب قيام ابناء عمومته بالثورة عليه تأييدا لعمهم المخلوع ابو حسون بن محمد الشيخ الوطاسى .

لكن سرعان ما يتجدد النزاع الحربى بين الوطاسيين والسعدبن ويعود السلطان احمد الوطاسى بجيش اكبر عدة ورجالا ومجهز بكل ما يحتاج اليه حصار المدن وذلك فى الوقت الذى كان فيه السعديون قد اعادوا تنظيم قواتهم الحربية واستعدوا بدورهم لقتال الوطاسين والتقى الجيشان فى بلدة انماى قرب دنمات فى عام ١٥٢٩م/ ٩٣٥هـ ولكن المعركة لم تكن حاسمة وكذلك من اشهر المعارك التى وقعت بين الوطاسين والسعدبن وقعه ابى عقبة والتى لم يتحقق الانتصار فيها لاى من الطرفين وازاء هذه الاحداث فقد اضطر السلطان ابو العباس احمد الوطاسى تحت الحاح الفقهاء والعلماء إلى الدخول فى مفاوضات مع السعديين وعقد صلح بين المتحاربين وكان علماء البلاد ورجال الفقه والدين لما روا ما وقع بين السلطان ابى العباس احمد الوطاسى صاحب فاس وبين الشريف السعدى احمد الاعرج المعروف وصاحب مراكش من القتال من اجل السيطرة على مراكش واقصاء كل منها للاخر والقتال الشديد وفناء الكثير من القوات فتدخل الفقهاء والعلماء من اجل الصلح والتراخى بينهم حقنا للدماء وعدم ايجاد ثغرة لتدخل الاعداء لذلك كانت مبادرة العلماء والصالحين لكن العلماء عندما دخلوا على ابى العباس الاعرج واخيه ووزيره محمد الشيخ لم يجدوا عندهم قبولا للصلح وامتنعا عن مساعدتهم فى الوصول إلى بر الامان بالبلاد بدلا من حالة الحرب الطويلة، لكن هذه المساعى سوف توتى ثمارها بعد فترة من الزمن ويتم عقد الصلح بين الطرفين لكن ازاء الرفض السعدى فان الامير الوطاسى اضطر إلى عقد

معاهدة صلح مع البرتغالين الذين يحتلون البلاد ضد السعدين وذلك للمحافظة على مصالحه وعرشه والقضاء على القيادة الناشئة لكن كان من نتيجة هذا التحالف بين الوطاسين والبرتغالين ان تاججت نار الثورة فى قلوب المغاربة ضد الاحتلال البرتغالى على شواطئ المغرب الجنوبية وضد حلفائهم الوطاسين الذين ازدادوا ضعفا وكان لقيام البرتغالين باخلاء مراكزهم فى اسفى وازمور واصيلا اثره فى ان تعطى ابا العباس احمد الاعرج السعدى قوة تمكنه من انتهاز فرصة الاضطرابات التى تسود مدينة فاس فاندفع بقواته جنوب بلاد تادلا فحدث بينه وبين السلطان الوطاسى معركة ابى عقبة قرب وادى العبيد عام ٩٤٢هـ/ ١٩٣٦م انتهت بهزيمة الوطاسى الذى تخلى عن بلاد تادلا وتامسنا للامير السعدى، ثم تدخل كبار القوم ورجال الدين والعلماء للمرة الثانية بعد ما راوا من الخسائر التى حلت بالبلاد ولاسيما وان اجزاء كبيرة منها تقع فى ايدى المحتلين الايبيرين وما تعانيه بلاد المغرب من جراء هذا الصراع الدامى، وهكذا نرى انه عندما بدات الوقائع الفاصلة فى التاريخ الحربى للسعدين ضد الوطاسين وتوجس السلطان احمد الوطاسى خيفة على دولته ومصير ملكه لاسيما بعد واقعة ام الربيع وانكسار قواته امام الزحف السعدى الجارف فانه امام ضغوط قوى النزاع المحيطة بعرشه كان سعيه من جديد إلى رفع لواء الجهاد الاسلامى ومناشدة الوحدة الجهادية والتحالف مع العثمانين ودعوة لخير الدين بابروسيا إلى التحالف معه باسم تحرير الاراضى الاسلامية من قبضة المحتل الايبيرى وتحرير طنجة واصيلا وهكذا سعى الوطاسيون إلى العثمانين الاتراك مع ظهورهم فى الحوض الجنوبى للبحر المتوسط واتجهوا إلى العمل تحت لواء الوحدة الاسلامية معهم املا فى الحد من الاخطار التى تحدق ببلاد المغرب من جراءء الخطر الايبيرى .

ومن هنا فقد صار يقع على جانب الوطاسين كامر واقعﷺ التسليم بالامارة

السعدية وحكمها للجنوب وسيطرتها على مراكش بعد ان كانت مقدمة ظهورها امارة محلية تابعة لسلطنة فاس لكن منذ هذه الواقعه صارت امارة مستقلة تقع حدودها تبعا لتطور الاحداث وكان هذا التطور عام ١٥٣٦م بعقد صلح تادله بعد ان انزل احمد الاعرج هزيمة كبرى بالوطاسين فى معركة وادى العبيد وكان تدخل العلماء وراء اتفاق الصلح الاخير وبمقتضاه سلم السلطان الوطاسى باقتسام البلاد مع الامير السعدى وذكر السلاويى ان وقعة وادى العبيد كانت اواخر عام ٩٤٢هـ وادت إلى هزيمة الوطاسين على حين ذكر أن وقعة أبى عقبة كانتيوم الجمعة ٨ صغر ٨٤٣هـ وقد تم الصلح بين الطائفتين على ان يكون للاشراف السعدين حكم البلاد من تادلا شمالا إلى بلاد السوس جنوبا ويكون لبنى وطاس من تادلا شمالا إلى بلاد المغرب الاوسط وقد حضر هذا الصلح قاضى القضاة بفاس ابا الحسن على بن هارون المطغرى والامام الشهير ابو مالك عبد الواحد بن احمد الوانشريس وغيرهما من مشايخ فاس ومراكش. وان كانت بعض المصادر تذكر ان الاتفاق تم على ان يكون من ام الربيع شمالا للوطاسيين ومن ام الربيع جنوبا للسعدين واقتسم ابناء القائم بالله السعدى هذه المنطقة فيما بينهما واستقر أبو العباس احمد الاعرج فى مراكش واستقر اخوه محمد الشيخ فى زودانت وقام الوطاسيون بعد ذلك بعقد معاهدة تحالف مع البرتغالين فى ٢٤ يوليو ١٥٣٨م/ ٩٤٤هـ وتهدف هذه المعاهدة إلى حماية الوطاسين والحيلولة دون انقراض ملكهم ومع تنظيم التعاون العسكرى بين الطرفين وهكذا سعى السلطان احمد بن محمد الشيخ نحو البرتغالين اذ نجد ان السلطان احمد الوطاسى يسعى إلى البرتغال ويقوم بارسال سفيره يعقوب اليهودى للشبونة العاصمة البرتغالية فى ٢٣ سبتمبر ١٥٣٤م من اجل اجراء مفاوضات طويلة لم يكتب لها ان تظهر الا فى عام ١٥٣٨ حيث عقدت الهدنة المشار اليها سابقا ومدتها احد عشر عاما والذى ينظر إلى تطور الاحداث بهذه الصورة وارتماء الوطاسين فى احضان الايبيرين ولاسيما البرتغالين الذين

يحتلون بلادهم طلبا للحماية من أبناء وطنهم فى العقيدة والدين واللغه يشعر باسف شديد اذ ان المصالح الشخصية والعروش جعلت هؤلاء الامراء يتحالفون ضد الاسلام والمسلمين والارتماء تحت اقدام العدو الذى دنس ارض الاسلام ومتناسين روح الجهاد المقدس وكان من الافضل ان تتحد الجهود وتتوحد الاهداف ليصبح ذلك قوة للاسلام والمسلمين على الاقل فى بلادهم المغرب وتكون لديهم القدرة على تحرير البلاد لاسيما الموانئ والسواحل التى تمثل شريان الحياة للبرتغال فى طريقها إلى مستعمراتها فى الهند والصين وافريقيا لكن هذه المعاهدة التى عقدت بين الوطاسيين وحلفائهم البرتغاليين للعمل سويا ضد السعديين لم تفت فى عضد السعدين بل زادت من حماسهم لصد عدوهم فحاربوا وطردوا البرتغالين عام ٩٤٨هـ/ ١٥٤١م من حصن سانتا كروز وتبعه اخلاء المراكز البرتغالية الجنوبية ووطد السعديون اواصر العلاقات الطيبة مع قبائل الاطلس. وذلك يعنى ان السلام والامن سادا علاقات القبائل بجنوب المغرب فى رحاب الامارة السعدية وان الاخلال بضوابط السلام يعود إلى الوطاسين والبرتغالين .

وكان نجاح محمد الشيخ عام ١٥٤١ فى تحرير اغادير (سانتا كروز) من أيدى البرتغالين قد اكسبه شهرة وسمعة طيبة فى جميع انحاء المغرب حيث تطلعت اليه الانظار باعتباره بطل المستقبل الذى يحفظ المغرب من كل عدوان .

وكان هذا النصر قد دعم لقبه من الشيخ إلى المهدى هذا بينما انزعجت البرتغال من هذا الانتصار على ممتلكاتها بالمغرب فكان قرار الجلاء خوفا من هزيمة اخرى فقررت الجلاء عن اسفى وازمور مع الاحتفاظ بالبريجة الجديدة وكان البرتغاليون قد فكروا فيما قيل ذلك فى اعوام ١٥٣٣، ١٥٣٤م فى اخلاء مدينة اسفى وازمور عقب حصار الامير احمد الاعرج لميناء اسفى عام ١٥٣٤ فى مايو ويونيو من هذا العام وما

انزله الشريف الاعرج بالحاميه البرتغالية من هزائم فى هاتين المدينتين، لكن ظهور الصراع وشدته بين الوطاسين فى فاس والسعدين فى مراكش عام ١٥٣٦م جعل البرتغالين يؤجلون فكرة الاخلاء لكن هزيمة اغادير عام ١٥٤١م جعلت من الاجلاء امرا محتوما .

ويحدث نزاع بين الاخوين السعديين تنتهى فى النهاية بنجاح محمد الشيخ الاخ الاصغر ويتمكن من أسر شقيقه احمد الاعرج ويتم اطلاق سراحه بعد الاتفاق بين الاخوين بعد اتفاق عائلى ولكن سرعان ما عاد النزاع بين الاخوين ولكن محمد الشيخ تمكن من القبض من جديد على اخيه ويتم نفيه واسرته إلى مدينة سجلماسة (تافيلالت) وبذلك ينفرد محمد الشيخ بامارة السعديين فى المغرب المراكشى ودانت له مراكش عام ٩٥١هـ/ وازاء التحالف بين الوطاسين والبرتغاليين فإن محمد الشيخ لم يعترف بالمعاهدة التى بين الوطاسين ولا بالصلح الذى تم بينهم وبين اخيه احمد الاعرج وبين السلطان ابى العباس احمد الوطاسى فقرر الاستيلاء على بقية بلاد المغرب وخاصة مدينة فاس للقضاء نهائيا على حكم الوطاسيين بالمغرب الاقصى وفتح حصن فونتى عام ٩٤٧هـ واخذه من البرتغالين وفتح راسفى عام ٩٤٨هـ/ ١٥٤٥م واثناء المعارك بين محمد الشيخ والوطاسين والبرتغالين واخيه احمد الاعرج كانت مدينة مراكش قد تردد اهلها لفترة فى اعلان البيعة لاى من الاطراف المتحاربة والتردد فى الدخول فى طاعة محمد الشيخ ودعوته واقصاء الوطاسين وخوفا من عودتهم إلى حكمها بعد ان يسفر تنازع الاسرة السعدية عن عودة السطوة لسلطان الوطاسين، لكنها اعلنت له الطاعة وبايعه اهلها عام ٩٥١هـ/ ١٥٤٤م وقدم اليها محمد الشيخ الملقب امغار او المهدى .

وفى سبيل تحقيق هدف السعدين فى الاستيلاء على بقية بلاد المغرب واسقاط

حكم الوطاسين نهائيا استطاع محمد الشيخ ان يجمع جموع القبائل المغربية والمتطوعة ورجاله لزوايا والاربطة الصوفية والمجاهدين لمحاربة الوطاسين وفى طريقه من مراكش إلى فاس استطاع ان يستولى على البلاد والامصار التى كانت بايدى الولاة وان ياتى عليها جميعها ففتح مكناسه عام ٩٥٥هـ بعد حصار طويل ولم يعد امام محمد الشيخ سوى الاستيلاء على فاس عاصمة الدولة الوطاسية وذلك لكى يتفرغ للقضاء على بنيه الوحدات السياسية الصغيرة فى البلاد وخاصة الامارات المنتشرة فى المناطق الشمالية والشرقية بالمغرب ويتم له توحيد البلاد .

وكان الشيخ ما زال فى شباب العمر (اربعة وخمسين عاما) حيث ذكر لسلاوى ان ولاة ابى عبد الله محمد الشيخ الملقب بالمهدى كانت عام ستة وسبعين وثمانمائة هجرية (١٤٩٠م) مما مكنه من تنظيم قواته وحشدها واعادة تنظيمها على القتال الهجومى والاتجاه بها إلى فاس بعد ان جمع كل حشوده وحاصر المدينة حاضرة بنى وطاس وكان على الحاكم الوطاسى ابى العباس احمد بن محمد البرتغالى ان يعد للامر عدته مما جعل فترة الحصار تطول لتصل إلى اربعة عشر شهرا والمدينة لاتزال تقاوم بشدة وكان على محمد الشيخ السعدى ان يجد من وسيلة لاخضاع المدينة بعد ان طال عليه الزمن فى حصارها ودخلت عامها الثانى فأخذ يراسل عن طريق وسطاء ورسل السلطان احمد الوطاسى ويعطيه العهد ان هو بايعه بالولاء والتنازل عن حكم البلاد بانه سوف يعوضه عن فاس ويعطيه حكم مدينة سجلماسة فى الجنوب على ان تكون له ولمن يخلفه من ذريته ولكن السلطان الوطاسى رفض ذلك بعد ان زين له الامور وقال له انما جاء إلى الشمال ودخول فاس من اجل محاربة الايبيرين الذين يحتلون ديار الاسلام .

ولما طال الامر على محمد الشيخ واعيته الحيل فى فتحها بحثا عن سبيل وسبب يمكنه من فتحها بعد ان رفض الوطاسى كل الشروط، فقيل له لاسبيل إلى ذالك الا

اذا بايعك الشيخ ابو محمد عبد الواحد بن احمد لوانشرس نظرا لحالة من دور فى المدينه وقوة نفوذ الفقهاء العلماء وتاثيرهم على العامة فى هذه الاحوال لاسيما انهم يشدون من آزر سلطانهم احمد الوطاسى ويتحملون كل ويلات الحصار الطويل فأرسل السعدى إلى الفقيه الوانشرس رسالة سرية يعده فيها ويمنيه بان تكون له اليد الطولى فى البلاد ويعينه قاضى القضاه لكن الفقيه الفاسى رد على المهدى السعدى بانه فى حالة بيعته للسعدى فان بيعة ابى العباس احمد الوطاسى فى رقبته ولا يحل لى شرعها الا لجب شرعى وهو غى موجود، اذ ان الدفاع عن المدينة لا ينقضى من نقض البيعة له، وفشلت هذه المراسلات وكان من امر الوانشرس ما كان وهو الذى كان يلقى دروسه اليومية بمسجد القرويين بفاس .

ولم يجد ابو العباس الوطاسى آخر الامر بدا من التسليم بعد الحصار الطويل فاتفق مع محمد الشيخ المهدى على تسليم فاس ودخلها السعديون وقبضوا على آخر سلاطين بنى وطاس وحاشيته واهله واتباعه وساقوهم إلى مراكش بعد ان عاد بهم محمد الشيخ فى صحبته وجميع افراد اسرته حيث لاقوا جميعا حتفهم بالسم بعد اربعين يوما من وصولهم إلى العاصمة السعدية بعد ان ساقوهم معهم فى نحو اربعة عشر خباء واذنوا لخدامه ان يمشوا معه واجروا عليهم الاتفاق والاقامة إلى ان ارسلوهم إلى مراكش فى نحو اربعمائة رجل من بنى وطاس وخاصة السلطان واتباعه وخدامه ووصفاته ورحل من فاس والناس يبكون معهم حتى وصلوا إلى مراكش واجروا عليهم الضيافة والاتفاق مدة اربعين يوما ثم اصبح السلطان الوطاسى يوما ميتا هو وخاصته ونحو الاربعين رجلا مسمومين ودفنوا فى يوم واحد .

ولم ينج من افراد الاسرة الوطاسية غير العم يوحسون الذى كان قد تمكن من الفرار من الاسر فى فاس وقبل رحيل الاسرة الحاكمة إلى مراكش وكان ابو حسون بن

محمد الشيخ قد فر بعد النجاة من الاسر إلى الجزائر للاستنجاد بالاتراك ويعتبر دخول فاس عام ٩٥٦هـ هو الدخول الاول للسعدين بعد القضاء على الوطاسين .

ومن ناحية اخرى لم يبق امام محمد الشيخ غير تاكيد امارته فى ربوع المغرب وذلك بضمان بيعة العلماء والفقهاء وعليه القوم واعيان البلاد وحواضرها وولاء تايد اشياخ القبائل العربية والبربرية المقيمة فى الشمال فى زمن عرف بالتدخل الاجنبى الايبيرى ومحاولة التاثير على قوة الدولة وجعلها تعيش فى انقسام وتفكك وتشرذم كما كان سابق عهدها اثناء حكم الوطاسين مما يؤثر على الهدف الاسمى للدولة السعدية فى السعى للوحدة ويقطع الطريق على النزوع للقوى المحلية لمحاولة خلق وحدات صغيرة والاستعانة بالقوى الاجنبية، وها هو بوحسن بن محمد الشيخ الوطاسى الذى استطاع ان ينجو بنفسه من القتل يسعى مسعاة بين القوى الخارجية سواء كانت تركية عثمانية او اوربية برتغالية او اسبانية يستعين بها ضد محمد الشيخ السعدى لكى يستعيد ملك الوطاسين وكان الاهداف الشخصة ومصالح الذات كانت هى طابع تلك العصور بغض النظر عن الاهداف العليا لمصلحة الشعوب وقضية التراب الوطنى وصون الوجود الاسلامى والدفاع عن العقيدة من الاخطار التى تتهددها .

الامير ابو حصون بن محمد الشيخ الوطاسى
آخر بقايا الوطاسين
٣ صفر ٩٦١هـ- ٢٤ شوال ٩٦١هـ

كان ابو حسون الوطاسى هو الوحيد الذى استطاع الفرار من فاس قبل ان يتعرض جميع افراد الاسرة الوطاسية بالموت سما فى مراكش وقد فر إلى مليلة الميناء الذى يقع على البحر المتوسط والذى يخضع للسيطرة والاحتلال الاسبانى وذلك سعيا وراء الاسنعانة وطلب النجدة من القوات الاسبانية للعودة إلى الحكم الذى انتزعه السعديون من اسرته، لكن طلبه لم يجد صدى عند الاسبان ولم يقدموا له ادنى معونة ثم اتصل بالبرتغالين حلفاء الوطاسين والذى كانت هناك معاهدة صداقة بين الطرفين منذ عام ١٥٣٨م وتنتهى فى عام ١٥٤٩م وهو للعام الذى انهى فيه السعديون الوجود الوطاسى فى فاس وطلب منهم مساعدته فى استعادة ملك آبائه واجداده من السعدين ولكن الاسبان كانوا مشغولين بمشاكلهم الداخلية اضافة إلى حركة الكشوف الجغرافية التى كانت تتجه إلى امريكا والشرق الادنى واكتشافاتهم البحرية التى كانوا يولونها جل اهتمامهم قد حازت على التصبب الاكبر من الاهتمام لانهم لم يجدوا جدوى من مساعدة خليفهم لاسيما وان اوضاع السعدين فى البلاد قد تكون مناسبة لهم لاسيما وانهم امارة ناشئة وصغيرة ويمكن التعامل معها افضل من الوطاسين ولكنهم اشارا عليه بالاستعانة بالاتراك العثمانية والذهاب إلى الجزائر لاسيما وان الوطاسين قد سبق لهم طلب العون والمساندة من الاتراك العثمانين ضد التوسع

البرتغالى وقيام العثمانين بارسال سفارة إلى محمد الشيخ السعدى لاطلاق سراح السلطان احمد الوطاسى الامير بعد وقفه تادلا عام ١٥٤٧م وقد استجاب الامير السعدى لطلب السلطات العثمانية وقام باطلاق سراح احمد الوطاسى فى المرة الاولى.

ها هو بوحسون الوطاسى يسعى مسعاه إلى العثمانين تارة اخرى ويتوجه إلى الجزائر ويقابل حاكمها واخذ ينرين للاتراك والجزائرين ما يعود عليهم بالنفع والفوائد ان ساعدوه ودخل فاس عاصمة اجداده بالمغرب الاقصى واخذ يلح عليهم فى المساعدة وطال مقامه بهم ورأى الاتراك الفرصة سائحة لهم لبسط نفوذهم على المغرب وتحركت القوات التركية بقيادة صالح التركمانى مع ابى حسون الوطاس قاصدين مدينة فاس لاستعادة السيطرة الوطاسية على البلاد. تحقيقا لاهدافهم السياسية والاقتصادية واملا فى ضم المغرب الاقصى إلى السلطنة العثمانية تحقيقا لمقولة السلطان سليمان الاول القانون العثمانى (انا عبد الله وسلطان هذا العالم ويبركه الله انا على رأس العالم المحمدى الاسلامى) ارادة الله وسلطان هذا العالم، وما ذكره سليمان الاول من هذه المقولة تعبير صادق عن قوة هذه السلطنة التى اضحت امبراطورية الخلافة الاسلامية ولم يعد سلاطين آل عثمان حماة الحدود الاسلامية فحسب ونأما اضحوا حماة العالم الاسلامى باكمله والمتحدثين باسمه فى العلاقات الدولية والشئون السياسية والتجارية.

ويتحرك صالح الرئيس التركمانى على رأس الحملة التركية العثمانية لابى حسون الوطاس والمولى عمر فى عام ١٥٥٣م وذلك لاستعادة فاس من ايدى الوطاسين ولكن التدخل التركى العثمانى كان قد تأخر خمس سنوات من بدء حصار فاس عام ١٥٤٩م إلى قيام حملة صالح رايس التركمانى فى صحبة بوحسون عام ١٥٥٤م هذا بينما ورد فى تقرير أسبانى من جبل طارق ما يفيد بأن الشريف السعدى يعد جيشا قوامه عشرة آلاف جندى ثم تحركوا إلى باديس ووجدة ومنها إلى تاترا ثم إلى فاس التى

دخلوها فى ٨ يناير ١٥٥٤م، ٣ صفر ٩٦١هـ بعد ان انهزم محمد الشيخ السعدى فى حروب كثيرة خاضتها معه القوات التركية الوطاسية ومنازلتهم له وطرده من فاس وعودة السلطة الوطاسية ودخل بوحسون عاصمة مملكة منتصرا وعاد محمد الشيخ إلى مراكش واخذ يعد العدة لجولة اخرى من القتال مع الوطاسين والاتراك الذين ساعدوه، لكن الوطاسين والاتراك كانوا قد تسيدوا على شرق المغرب ومناطقه الوسطى من فاس ودبدو عدة شهور. وكان دخول الاتراك وبوحسون الوطاسى إلى فاس للحكم باسم ولى العهد نااصر الوطاسى (القاصرى أو ابو قصرية) والسلطان العثمانى .

وقد نجح الاتراك العثمانيون فى هذه المرة بالاحتفاظ بخدمتهم كحامية عسكرية بين قوات المغرب اذ ابقى بوحسون فرقة تركية مكونة من اربعمائة فارس بعد رحيل القوات العثمانية التى شاركت فى فتح فاس ولم يكن الاتراك يريدون فى هذه المرحلة سوى توطيد نفوذهم العسكرى وهو فى توفير حامية عسكرية ذات كفاءة ودراية قتالية عالية والالمام باستخدام كافة الاسلحة لاسيما الاسلحة النارية منها لتضاف إلى الحامية التركية او تحل محلها وهى الحامية التى كانت بالبلاط المغربى منذ ايام ابى حسون الوطاسى (٤٠٠ جندى ومن اضيف اليهم من مرتزقة ومتطوعين وافدين) .

وهكذا تشابكت الخيوط حول اخبار المغرب فى هذه السنوات فالسعديون يدخلون فاس وينهون الحكم الوطاسى وبوحسون الوطاسى يستعين بالقوات التركية ويستعيد فاس من السعدين والاتراك ينسقون جهودهم بالسلطنة الوطاسية المغربية عن طريق الجهاد الاسلامى ضد الاستعمار الايبيرى لاسيما وان ابا حسون كان قد فطن إلى غدر الاسبان عندما طلب من حاكم مليلة الاسبانى اعانته ضد محمد الشيخ السعدى، وكانت رسالة قد وردت من ملك الاسبان إلى الامير الوطاسى بوحسون تقول له.. ياسلطان ان اعطيتك جيشا من النصارى نسير به لم يبق لك فى المغرب ناصر ولا فى المسلمين حبيب فتجمع كلمة المسلمين عليك ويتفق رايهم على قتالك فيقاتلونك

وبجاهدون فيمن معك ويقاتلك الصديق قبل العدو والذى يليق بك ان تذهب إلى الجزائر وتنعم لهم بالمال وتخرج معك بحملة من الترك من اربعة آلاف واكثر، وهكذا اسرها لهم بوحسون وربما يكون قد اخذ بنصيحتهم وذهب إلى الجزائر .

ويذكر المؤرخ المجهول ان العلماء والفقهاء ورجال الدين وعليه القوم استقبلوا السلطان الوطاسى بوحسون احسن استقبال والقى الشيخ الزقاق احد كبار علماء فاس خطبه فى استقبال السلطان الوطاسى وانصاره من الاتراك العثمانين قال فيها «هذا بقية امرائكم الذين شيدوا البلاد وسعد بهم العباد وشرفوا المساجد وبنوا المدارس وقاموا بامر الدين والدنيا» .

وتلك الخطبة تدل دلالة قاطعة على حب العلماء للوطاسيين لانهم ربما روا شدة وعنفا فى الحكم السعدى لاسيما ان فقهاء فاس ومكناس كانت لهم مواقف من الامارة السعدية لانهم لم يكونوا على وفاق معهم مما يدفع السعدين للقضاء فيما بعد على قادة الحركة الفقهية والعلمية والفكرية بالبلاد جملة واحدة، لان هؤلاء كانوا يؤلبون الناس عليهم من فوق المنابر ويوقدون عليهم نار الفتنة عند اكابر القوم وأهل الحل والعقد لكن محمد الشيخ السعدى أعد للامر عدته واستنفر جميع قبائل بلاد السوس والاجزاء الجنوبية من المغرب وانتهز فرصة الخلاف الذى نشب بين الوطاسين والاتراك من اجل الاموال التى كان يطلبها الجند والهدايا والمنح والعطايا فزحف إلى فاس ودارت بينه وبين الوطاسين معركة حاسمة وشديدة الوطأة وكان الظفر فيها لخليفة السعدين وقتل ابو حسون فى ٢٤ شوال ٩٦١هـ واستولى السعديون على فاس واراد الخليفة السعدى قتال مولاى عمر حاكم ديدو الذى استعان بالاتراك وكان ضمن حملة بوحسون، وديدو هذه مجموعه من القرى الواقعه على الهضبة المطلة على سهل تقرطا والتى تمتد على طول الضفة اليمنى لنهر ملوية وكان رئيس أو شيخ هذه المجموعه

يشمل بنفوذه وادى ظا حتى تازة وكان يدين بالولاء للوطاسين وقد بدا مستقلا اواخر عهدهم وقد لقبه الاسبان بلقب ملك حسبما لقبوا بوحسون بنفس اللقب اثناء وجوده فى بادس غمارة ومنذ عام ١٥٤٢م قام على حكم ديدو الشيخ عمر (عمار) بعد مقتل اخيه لكن فى اكتوبر ١٥٥١م طرده عبد الله بن محمد الشيخ وكانت عودته إلى ديدو فى نهاية عام ١٥٥٣م اثناء مسيره حملة بوحسون وصالح رايس التركمانى إلى فاس لكن فى يوليو ١٥٥٤م بعد مقتل بوحسوم فى فاس أعلن ولاء التبعية للشريف السعدى إلى حين كانت وفاته عام ١٥٦٠ م .

لكن سقوط فاس هذه المرة ودخول محمد الشيخ اليها انهت الدولة الوطاسية نهائيا واصبح محمد الشيخ الخليفة الاوحد بلا منازع داخل بلاد المغرب وهكذا كان عام ٩٦١هـ نهاية الاسرة الوطاسية .

الفصل الثانى

الاتراك العثمانيون ببلاد المغرب

شهدت بداية القرن السادس عشر الميلادى تحولا كبيرا فى ظهور الاتراك العثمانين باعتبارهم اقوى الدول الاسلامية لاسيما فى عهد سليم الاول وسليمان العظيم القانونى حيث حمل السلطان العثمانى لقب خليفة المسلمين الذى حصل عليه من الخليفة العباسى بالقاهرة كما حملوا لقب خليفة الحرمين الشريفين ومن هنا فى ظل ما يواجه المغرب الاسلامى تطلع اليه اهالى هذه الديار كمنفذين لهم بعد ان ارهقتهم غارات الايبرين المسيحية (البرتغال والاسبان) ومن هنا كان على الاتراك العثمانيين مواجهة الوجه الصليبى بروح الجهاد الاسلامى لوقف المظاهر الاستعمارية للديار الاسلامية ومحاولة وضع مراكز قوة ونفوذ لها ببلاد المغرب والدخول فى سباق مع البرتغال واسبانيا ووقف التوسع الايبيرى لاسيما انه استطاع ان تكون له قواعد وجيوش استعمارية على الساحل التونسى والليبى وكان على الاتراك العثمانين ان يقفوا امام وجود البرتغال والاسبان مع مطلع القرن السادس عشر وان يعملوا على بناء سلطنة عثمانية فى بلاد المغرب فى مقابل انحسار الوجود العسكرى الاسبانى والبرتغالى والعمل على تقوية روح التضامن الاسلامى ورفع الروح الدينية للدولة الاسلامية العثمانية مع الامارات التى كانت توشك على النهاية والسقوط ومقتضيات التبعية لهذه الدويلات للدولة الاسلامية الكبرى والولاء للخلافة الاسلامية الشرقية التركية العجمية على حساب الوحدات السياسية الصغيرة للمغرب والاحتواء فى ظل الخلافة العثمانية وقوفا لحركة الاستيطان الاوربى الايبرى التى ترفع راية الصليب من اجل الاستغلال والسيطرة وكان العثمانيون قد دخلوا مصر عام ١٥١٧م ومن ثم فعن طريق موقع مصر الجغرافى سوف يتمكن العثمانيون من التقدم إلى بلاد المغرب العربى ولذا فقد

اصبحت طرابلس وتونس والجزائر كلها ولايات فى الامبراطورية العثمانية ولقد كان مجئ الاتراك العثمانين إلى بلاد المغرب بمثابة نجدة انقذت البلاد من الغزو الاوربى الايبرى وعلمت على توحيد البلاد سياسيا .

وكان الوجود العثماني في بلاد المغرب بداية بالدور العسكرى الذى قام به اخوان بربروسا الذين استقروا في ميناء جيجلى الجزائرى وتسيدوه وكانوا اربعة عروج واخوته الياس واسحق وخير الدين ويصل نسبهما إلى اب تركى وام اندلسية عاشا حياة الجهاد العثمانى فى جزيرة مدلى من جزء بحر الارخبيل اليونانى وقد انجب هذا الاب المدعو يعقوب ابن يوسف والتى تروى بعض المصادر أيضا (الاوربية) انه كان مسيحيا واسلم وعمل فى صفوف الانكشارية، لكنه انجب من الام الاندلسية اولاده الاربعة اسحاق وعروج، خير الدين، محمد الياس. واختار محمد الياس طريق العام ودراسة الفقه وحفظ القرآن الكريم ثم لحق باخوته الثلاثة الذين اختاروا طريق الجهاد الاسلامى البحرى (وليس القرصنة كما اطلق الاوربيون على حركة الجهاد الاسلامى كرد فعل لطرد المسلمين من الاندلس) فى غرب البحر المتوسط حيث ذكريات الاندلس والمغرب الاندلسية التى كانت تلقى بذكريات وطنها الاندلس والارض السليبة وما زالت الانباء تتردد عن مزيد من المعارك الخاسرة امام القوى الابيرية وكان ان لقى عروج (اشتقاقا من المعراج المقدس ليلة الاسراء والمعراج) من الجهاد المقدس البحرى على الساحل التونسى ثم الجزائرى من فرص النجاح ما لم يصادفه غيره من رجال الجهاد البحرى فى شرق البحر المتوسط وقد اتخذ مدينة جربة (جزيرة جربة التونسية) اولى قواعده فى بلاد المغرب ولحق به فيها اخوه خير الدين واسحق ومحمد الياس ونظرا لدورهما فى الجهاد الاسلامى اقطعهما السلطان الحفصى ابو عبد الله محمد مرفأً حلق الوادى عام ١٥١٠م ومنذ عام ١٥١٢م كان انتقالهما إلى المغرب الاوسط حيث بنى زيان حكام

تلمسان او الجزائر متخذين من مدينة جيجل على بعد ١٠٢ كيلوا متر غرب بجاية قاعدة ينطلقان منها إلى أنحاء المغرب الاوسط فى اتجاه المغرب الاقصى حيث فاس ومراكش وكانت جيحل فى يد حامية جنوه الايطالية قبل ان يحررها عروج عام ١٥١٤م وهكذا تجلى الوجود العثمانى بوجود هؤلاء الاخوان العثمانين فى جيجل الواقعة على الشاطي الشرقى لخليج بجاية وبعث عروج إلى السلطان العثمانى بهدايا من غنائهم انتصاره فى جيجل ورد السلطان بارسال اربع عشرة سفينة حربية ببحارتها واسلحتهم وعتادهم ورجال عسكريين اى هكذا كانت باكورة الحامية العثمانية التى ترمز إلى السيادة العثمانية مع ارسال المير السنوى إلى تركيا والخطبة للخليفة فى الصلاة باسم السلطان العثمانى وسك السكة (العملة) العثمانية بالجزائر إلى سمات السيادة العثمانية والتبعية لسلطانها وفى عام ١٥١٦م بعد محاولات متكررة للاستيلاء على بجاية ونقل عروج قاعدته إلى الجزائر بناء على دعوة جاءته على لسان وفد من جزائر بنى مزنة يمثل المجتمع الاندلسى بالمدينة وهكذا وقفت القبائل لمناصرة نشاط هؤلاء الاخوة وعرفت طبيعة دورهم الجهادى الاسلامى والسياسى فى بلاد المغرب. وكانت المحاولة الاولى للاخوين العثمانين فى المغرب الجزائرى عندما هاجما بجاية بالرغم من فشل هجومها فقد مكنت معركة بجاية رجال القبائل المحيطين بالمدينة بالتعرف على القوة الحربية الحقيقية التى يتصف بها الجند الانكشارى العثمانى ولقد اعجب اهل البلاد لاول مرة بهذه الشجاعة التركية النادرة وهذه الحمية التى يتحلى بها المقاتل التركى مع اصابة قائدهم بجروح خطيرة اثناء المعركة مما اكسب الاتراك كل مودة وعطب وتعاون اسلامى .

ولقد كانت بجاية فى هذه الفترة الزمنية التى تدور فيها المعارك ذات اهمية استراتيجية وقتالية ودفاعية فهى تقع على مجرى وادى الصمام الذى يخترق الجبال

القبلية تحت اسم وادبى الصمام عند مدينة اقبو ومن هنا فلم يكن الاستيلاء عليها سهلا لاسيما انها كانت مسورة واسوار المدينة كانت عالية والمواقع الجبلية حصينة وقد قاتل الاسبان دفاعا عنها قتالا مميتا، لكن هذه المحاولة كانت مقدمة لعدة محاولات ناجحة فيما بعد وقد ادى هذا الموقف القتالى إلى مساندة قبائل مكناسة وزواوة المقيمة بالتلال المحيطة بالمدينة والذين وضعوا انفسهم تحت تصرف عروج واخوته. ورفضت هذه القبائل كلها التعامل مع الاسبان ورفضت التعامل الاقتصادى مع اسواقهم مما سبب عزلهم عن النشاط التجارى .

وهكذا كان ظهور الاتراك بهذه الصورة المشار اليها عن طريق نشاط الاخوة عروج على مسرح الاحداث فى المغرب العربى يمثل حلقة فى سلسلة حلقات تلك الدراسة التى كان المغرب الاقصى على الصورة والتى عرضنا لها تحت السيادة الوطاسية لكن المغرب الاوسط كانت الاسرة الزيانية التى يلقب شيوخها بل كهولها يحكمونه بعد ان عمرت ثلاثة قرون واجهت فيها ضغوط كل من الحفصين فى المغرب الادنى وبنى مرين فى المغرب الاقصى وكانت آواخر القرن الخامس عشر الميلادى قد شهدت تقلص كيان بنى زيان بحيث لم يبق لهم سوى العاصمة تلمسان وبعض الاحواز التى تحيط بها ولقد كانت البلاد من جراء النزاع الطويل مع بنى حفص وبنى زيان (انظر الجزء الخامس من هذه الموسوعة) معرضة للحصار من جانب القوتين عبر تاريخها الطويل مما كان له أكبر الاثر على تدهور الدولة ودورها السياسى وتعرضها للغزو الاسبانى والبرتغالى وادى ذلك إلى تفكك الدولة مما ساعد الاسبان على احتلال المدن الساحلية وتعامل شيوخ القبائل فى السهول الساحلية للمغرب الادنى والاوسط (الحفصى الزيانى) مع سلطات الاحتلال الاسبانى وذلك بحكم سيطرة الاسبان على المداخل الساحلية وتحكمهم فى حركة تجارة البحر المتوسط وبعد ان سلم السلطان

الزيانى ابو حمو الثالث بالتبعية لاسبانيا بعد نكبة وهران عام ١٥٠٩م التى انتصر فيها الاسبان بتاريخ ١٧ مايو ١٥٠٩م على المدينة التى بلغ عدد القتلى فيها اكثر من اربعة آلاف قتيل واستولى الاسبان على ما لا يقل عن ثمانية آلاف اسير ولم يقتل من الاسبان الا اعداد قليلة ومن جراء هذه المعركة سلم السلطان الزيانى ابو حمو الثالث بالتبعية المباشرة لاسبانيا، كذلك خضع للتبعية الاسبانية قبائل بنى عامر العربية الهلالية وغيرهم من القبائل التى تقيم فى انحاء وهران وهذا عن كيان دولة بنى زيان وما يترتب على ذلك من التدخل العثمانى التركى الذى سنرى صورته الفعلية فى الصفحات التالية والذى سيرفع راية الجهاد فى وجه الغزو الاسبانى محررا هذه البلاد من قبضة الحكم الاوربى الايبيرى الصليبى وهكذا سقطت السلطة الزيانية ودانت بالتبعية للسلطات الاسبانية وكما سلم سلطان تلمسان بالتبعية للاسبان فقد جاء الدور على السلطان الحفصى فى تونس ابى عبد الله لكى يسلم بالتبعية أيضا للاسبان بعد ان عمات عوامل الضعف والانهيار فى دولتهم وقبوله احتلال بجاية بعد كارثة غزوها عام ١٥١٠م وبعد قبول شيخ الجزائر الشيخ سلم بن تومى استرضاء الاسبان وقبول احتلالهم حجرة الجزائر عام ١٥١١م وبعد ان توج الاسبان انتصاراتهم بالجمع بين الاميرين الحفصين المتحاربين عبد الرحمن مغتصب السلطة وعبد الله السلطان المخلوع فى معاهدة واحدة استسلامية مما دفع الاسبان إلى احتلال طرابلس الليبية فى نفس العام وقد دفع ذلك ملك اسبانيا فرديناند إلى تعاونه مع فرسان جزيرة رودس من أجل الاستيلاء على مصر .

لاسيما وان المدن والبلاد المغربية فى تونس والجزائر كانت تعمل على كسب رضا الاسبان ومن ذلك ما قامت به شياخة الثعالبة بالجزائر بعد ان وقعت احداث احتلال بجاية بارسال وفد من اعيان المدينة الجزائرية إلى بجاية استرضاء للاسبان (بدلا

من اعداد انفسهم وقواتهم للجهاد والقتال يرسلون للاستلام) وعقد اتفاقا مع السلطات الاسبانية اعترافا بالتبعية وفيه سلم الوفد الجزائرى للاسبان باكبر جزر الجزائر التى يدعوها اسطفله والتى بنى الاسبان على انقاض مسجد اسلامى (ومنارته قلعتهم البحرية المسماه بصخرة الجزائر) كذلك عندما وقع سلاطين الذل والمهانة الحفصيين عبد الرحمن وعبد الله وملك اسبانيا فردناندو، وفيها اعترف عبد الله لعبد الرحمن (لاحظ اسماء كل منهما عبد الرحمن، عبد الله) بملكه نظير تسليم عبد الرحمن لاحتلال اسبانيا لمدينة بجاية وصخرة الجزائر وتدليس وكل المراسى البحرية وتوابعها كل ذلك فى وقت انهارت فيه الجبهه الاسلامية بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢م .

كذلك يقوم الحفصيون بتسليم جميع الاسرى المسيحيين إلى اسبانيا دون مقابل مالى والتعهد بتزويد الاسبان فى بجاية بالمؤن التى يحتاجون اليها وحددت الاتفاقية مقاديرها السنوية مجانا وكذلك ضمانا لتنفيذ بنود هذه الاتفاقية يقوم كل من الأميرين المسلمين بابقاء رهينة فى البلاط الاسبانى وحدث اثناء توقيع تلك الاتفاقية ان كان ابن عبد الله الحفصى صغير السن ونشا وشب على يد الرهبان ومنحه ملك اسبانيا لقبا من القاب العائلة المالكة فعاش حياته ومات مسيحيا .

ومن تلك المحن فقد تعرض الاسلام ودياره للخطر فكان ان استدعى الامير الحفصى عام ١٥١٢م عروج طالبا معاونته ومدافعا عن ديار الاسلام بعد ان اضطر إلى ترك العرش حتى جعل كثيرا من المسلمين ينضمون إلى حركة الاتراك العثمانين دفاعا عن الاسلام ودياره وكان ان سيطروا على جيجل عام ١٥١٦م ورات هذه المدن التونسية والجزائرية فى الوجود التركى حصنا لها بعد ان كانوا قد اضطروا إلى دفع الجزية للاسبان وخضعوا لتهديد مستمر من مدافع السفن الحربية من القاعدة الاسبانية فى نبون الجزائرية واستعدت الجالية الاندلسية التى ذاقت الوان العذاب على ايدى

الاسبان من جراء التهديدات الاسبانية ان تؤيد عروج لاسيما انه كان يوجد من الاندلسيين خمسة عشر الف يحسنون استخدام الاسلحة النارية من بينهم عشرة الاف رجل من العرب الذين زحفوا من الاندلس فى السنوات الاخيرة وهم من خيرة الجند فى الجزائر وقد دعم ذلك الوجود العثمانى وشد من ازره واعطاه دفعة قوية لمحاولة ايجاد قاعدة قوية للقوة الاسلامية انطلاقا منها لطرد المحتل الاسبانى ومن هنا بدا تنظيم عروج العسكرى لاسيما بعد دخول القوات العثمانية التى اقلتها اربعة عشر سفينة حربية اشبه بتحالف عثمانى عربى اندلسى يقود راية الجهاد الاسلامى ضد الوجود الاسبانى، بينمارات قوات التخاذل والانهزام التى تخضع للأسبان من الامير الحفصى احمد امير بونه والشيوخ الثعلبى وامير نيس الزيانى (الامير يحيى) فى هذا التحالف الجديد ما هو الا سطوة قبلية بربرية باسم السلطنة العثمانية .

لكن التوسع العثمانى الاندلسى الزواوى الذى رفع راية الجهاد الاسلامى محاربا لفكرة السيطرة البرتغالية الاسبانية نجح فى ان يوسع دائرة الوجود والتوسع بحدود الدولة الصغيرة التركية فضم اليه مدينة تنيس والمدية ومليانه والبليدة وهكذا لم يات عام ١٥١٧ وهو عام سقوط القاهرة فى ايدى السلطان سليم الاول الا وكان عروج قد تمكن من فتح مدينة تلمسان وضمها للباشوية التركية الجزائرية وهكذا قبلت بعض القبائل القتال بجانب العثمانين وقبول سيادتهم الاسلامية والانطواء تحت راية الاسلام وجهادا للاسبان لاسيما وان قبائل زواوة استطاعت ان تكلف الاسبان ما بين ثلاثة آلاف قتيل او اكثر عند محاولتهم احتلال جزيرة قرقنة مما رفع الروح المعنوية لدى مسلمى الساحل بعد ان كبدوهم خسائر فادحة فى الارواح .

لكن على الجانب الآخر كانت هناك عقبات تواجه التوسع التركى العثمانى وترك فى ذلك خطرا على نفوذها القبلى والذين ينظرون إلى الامور نظرة ضيقة وبروح

قبلية تتناقض مع الروح الاسلامية التى كان يجب ان تسود ارجاء العالم الاسلامى فى ذلك الوقت لاسيما وان الطرف الآخر كانت سفنه ترفع راية الصليب عاليا ومن هنا ظهرت مقاومة شيخ الثعالبة الذى كان رمز القبيلية الضيقة لكن هذا الشيخ القبلى الذى قبل الخضوع ودفع الجزية السنوية للاسبان برفض الانطواء تحت راية الاسلام لكنه لقى حتفه عام ١٥١٥م. وكان هذا الشيخ هو (السالم القومى) الذى قتل بامر عروج نظرا لتحالفه مع الاسبان لكن ابنه يحيى بن سالم التومى ذهب إلى وهران بطلب عون الاسبان لمساعدته فى استرجاع شياخة ابيه وقد راى الاسبان فى ذلك فرصة لتوسع دائرة نفوذهم ومن ثم امدوه بقوات كبيرة استطاع عروج العثمانى ان ينتصر عليها فى معركة باب الواد (سبتمبر ١٥١٦م) ويذكر ان ضحايا الاسبان بلغوا ثلاثة آلاف قتيل واكثر من ٨٠٠ اسير اسبانى وهكذا استطاع النفوذ التركى ان يحرز انتصارا باهرا على الاسبان وقد راى عروج ان الاوضاع غير مستقرة بالمغرب الاوسط فنهض إلى محاربة قبائل بنى يرتلاسن لكنه هزم وقتل عام ١٥١٧م بالقرب من تلمسان وقد تم دفن عروج بمدينة الجزائر العاصمة حيث دفن بجوار ضريح سيدى رمضان وقبره عن يمين الداخل متصلا بجدار المسجد .

وقد ادت وفاة المجاهد البحرى العثمانى إلى نكسة فى حركة المد العثمانى حيث ادت إلى نكسة كبرى لهذه الباشوية الجزائرية مما دفع خير الدين إلى التخلى عن بعض المدن التى كان يسيطر عليها الاتراك ومن ثم يتنقل إلى مدينة جيجل محاولا جمع صفوف قواته التركية وانتظارا لوصول امدادات تركية جديدة وقد استمر ذلك الوضع حتى عام ١٥٢٥ بعد ان تزعمت قبيلة بنى عامر العربية التى تسكن بجوار تلمسان حركة المقاومة للسيطرة التركية لاسيما وان اهل تلمسان قد سلموا سيطرة الاتراك بعد ان عاملوهم بالشدة والقسوة وصادروا اموالهم فكانت العودة إلى جيجل .

والذى يعود إلى النظر فى الجزء الخامس من هذه الموسوعة يدرك ان امارة بنى زيان حتى هذا التاريخ كانت تتنازعها القوى التركية ممثلة فى عروج واخيه خير الدين والحماية الاسبانية ممثلة فى اعلان التبعية والسيطرة على بعض القواعد والمدن الساحلية وكذلك وجود قوى الثعالبة وبنى عامر العربية وقوى الاندلسين والبربر من امازيع وزواوة وذلك حتى عام ١٥٣٤م عند وفاة الامير عبد الله الثيبتى الذى خلف ابا حمو الثالث على الامارة الزيانية .

لكن عام ١٥٤٨م شهد بعدا جديدا فى قوة القبضة التركية على الامور فى تلمسان اذ استطاعت ان تضع الامير الحسن بدلا من ابناء ابى عبد الله محمد الاخيرين وان يكون الحاكم الفعلى للبلاد بيد القائد محمود التركى مع وضع حامية كبيرة من الاتراك فى تلمسان لاسيما ان ابناء السلطان الريانى كانوا يلجاون إلى الجزائر طلبا للنجدة من خير الدين والتزاما بالبيعة والولاء للسلطان العثمانى .

وهكذا كان عام ١٥٤٨م هو عام العودة التركية بصورة قوية وهكذا كانت الفترة السابقة من اعوام ١٥١٠- ١٥٤٨م هى فترة تمهيد يقوم بها رجال الجهاد الاسلامى العثمانى توطئه للسيطرة التامة التركية على بلاد المغرب الاوسط والادتى (الزيانى- الحفصى) .

ولقد كان دخول القوى الاسلامية البحرية المجاهدة بتايد الخلافة التركية العثمانية يهدف فى المقام الاول إلى تخليص بلاد المغرب من المحتلين الايبيرين (الاسبان والبرتغال) والقضاء على نفوذ الفرنجة، ثم ضم واطوء هذه الديار فى ظل الخلافة العثمانية التى سيطرت على بقية العالم الاسلامى الشرقى وكان من الطبيعى ان يمتد نفوذ الاتراك إلى بلاد المغرب وخاصة بعد سقوط بلاد الشام عام ١٥١٦ ومصر عام ١٥١٧م وذلك لمجاورة المغرب لمصر من كل هذا للنشاط الذى قامت له اسرة بابا روسا

من رجال الجهاد الاسلامى البحرى المشهورين فى ذلك العصر وهو القرن السادس عشر الميلادى العاشر الهجرى .

ولقد كان نشاط القوى الاسلامية فى بلاد الجزائر الرامية إلى توحيد الجهود مع السلطان البحرية المجاهدة التى اتخذت لها مواطن قدم فى جيجل وبجاية والتى عملت بالتعاون مع عروج واخوته على التخلص من القيادات الوطنية من بنى زيان وفيما بعد من بنى حفص بعد ان عجزوا عن مقاومة الخطر الاسبانى والذين كانوا يحتلون وهران والمدن الكبيرة فى ذلك الوقت بل ان اسرة بنى زيان قد تهاونوا وخضعوا للنفوذ الاسبانى وطلبوا حمايتهم والحكم فى ظل التاج الاسبانى ودفع الجزية السنوية لملك اسبانيا، بل تمادوا فى دور السلبية والمهانة التى لا تتلائم ابدا مع الروح الاسلامية والاصول العربية وطلبوا حمايتهم من خطر الثائرين من الاهالى ورجال الجهاد الاسلامى المتطلعين للقضاء على حكمهم بالبلاد وبعد تعاونهم مع قوى الاحتلال الايبيرى .

وسار عروج إلى تلمسان حيث اقام حاميات اسلامية تركية عثمانية بتشجيع من القبائل فى مدينة مدية ومليانة وامتد حكمه حتى وصل إلى حدود بلاد المغرب الاقصى وقضى عروج على حكم بنى زيان فى تلمسان ولكن آخر حكام بنى زيان (عبد الله السلطان المخلوع) استنجد باعداء البلاد والاسلام والعروبة الاسبان وارسلت اسبانيا قوات قوامها ١٥ الف رجل تمكنت من التوغل فى اراضى الجزائر ومحاصرة تلمسان ولقد صمد عروج امام هذا الحصار ثم تمكن من ان يخترق خطوط الحصار بعد ان اعلن اعداؤه من بنى زيان الثورة ضده وواصل فراره الا ان الاسبان تعقبوه وتغلبوا عليه وقتلوه عام ٩٢٤هـ/ ١٥١٨م وقد سبق الاشارة إلى ذلك فى الصفحات السابقة .

وبعد مقتل عروج تولى قيادة عمليات الجهاد فى المغرب الكبير اخوه خير الدين بابار رسا الذى اتصل بالدولة العثمانية يعرض على سلطان الخلافة العثمانية التركية الدخول فى طاعته وضم المغرب الاوسط تحت نفوذها فامده السلطان سليم الاول بالفين من خيرة الجنود الانكشارية وسمح له بتجنيد الاهالى والاتراك من تركيا نفسها حتى يتمكن من مواجهة قوى الاستعمار الايبيرى التى تريد السيطرة على القوى الاسلامية فى بلاد المغرب كما سبق لها ان طردت المسلمين من ديارهم فى الاندلس .

وبهذه المبادرة التى قام بها خير الدين اصبحت الجزائر منذ عام ١٥١٨م احدى الولايات العثمانية ولكن بقى على خير الدين ان يبذل جهودا مضنية قبل ان يؤسس ولاية قوية فى حين اننا نجد على الجانب الآخر فان القوى الايبيرية الاسبانية استطاعت ان تعيد إلى عرش الحضرة الزيانية فى تلمسان السلطان أبا حمو الثالث عام ١٥١٨ وهو نفس العام الذى طلب فيه خير الدين دخول المغرب الاوسط تحت لواء الخلافة العثمانية والذى استطاع بفضل المساعدة الاسبانية ان يظل فى حكم البلاد ثم استمر هذا الخضوع للقوى الاسبانية إلى وقت وفاة من خلفه على العرش الزيانى (الامير عبد الله الثبتى) عام ١٥٣٤م. ولقد كانت السنوات الخمس عشرة (١٥١٨- ١٥٣٤م) بعد وفاة أبى حمو الثالث فى نفس العام الذى عاد فيه للسلطة سنوات نزاع اسرع فى تلمسان بين ابى محمد عبد الله الثيتى واخيه ابى سرحان مسعود، والذى استطاع ان ينتصر على اخيه ابى سرحان مسعود وحاول ان يتخذ فى سياسته الخارجية موقفا محايدا بين القوى العثمانية التركية فى الجزائر وبين القوى الاسبانية، لكن اخاه أبو سرحان مسعود ثار عليه وطلب الاعانة من خير الدين، القوات التركية فى عام ١٥١٩م واستطاع بمساعدة القوى التركية الجزائرية ان يستولى على تلمسان ويطرد اخاه عبد الله الثانى وبايع السلطان العثمانى سليم الاول ثم نكث بالبيعة واعلن تمرده على

القوات وطردها من تلمسان والباحث حين يقلب فى صفحات تلك الحقبة واقوال المؤرخين لاسيما المعاصرين او المقربين من الاحداث يدرك مدى قصر النظر الذى كان يحكم عقلية بعض الحكام اذ كيف يبرر سلطان البلاد تعاونه مع القوى الخارجية الاجنبية غير المسلمة والتى لاتضمر سوى الشر بالاسلام واهله .

ويتعاون معها على قوى اسلامية تركية عثمانية مهما يكن نوع الحكم وطبيعة العلاقة بين الحكام الاتراك والحكام السابقين وان الذى يقلب صفحات تاريخ اسبانيا والبرتغال وانجلترا وفرنسا وايطاليا وصقلية فى تلك الحقبة من القرن السادس عشر الميلادى يدرك انه مهما تكن الخلافات بين القوى الكاثوليكية والبروتساتنتية فى عدم السماح للقوى الاسلامية باحتلال شبر من الارض الاوربية مهما كانت درجة التعاون، لكن القوى الاسلامية لم تكن تفطن لاساليب القوى الاوربية التى كانت تسعى للتفرقة بين القوى الاسلامية وجعلها تتصارع مع بعضها البعض حتى نظل ضعيفة وغير قادرة علبى مواجهة الاحداث منفردة بعد استنزاف ثرواتها والعوز العسكرى لحمايتها وهذا ما كان يتجلى فى ارتماء القوى المغربية سواء فى المغرب الاوسط والاقصى فى ظل الحماية الاسبانية او البرتغالية مما دفع الاتراك لاتخاذ مواقف حاسمة ازاء هذا الصراع وضرورة تدخل الدولة المباشر بدلا من القوات البحرية الاسلامية المجاهدة فى غرب البحر المتوسط التى مارست دورها بقوة وفاعلية بعد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين فى الاندلس عام ١٤٩٣م والتى اطلق عليهم الاوربيون قراصنة البحر وللاسف الشديد سار على نهجهم بعض المؤرخين العرب واطلقوا اسم القراصنة على حملة الجهاد الاسلامى التى كانت قوة تعمل لرد فعل طرد المسلمين من الاندلس واحتلال الموانئ والمدن على السواحل المغربية .

السيادة التركية العثمانية المباشر للمغرب

بعد ان طلب خير الدين من السلطان سليم الاول دخوله فى طاعة الدولة فانه اخضع الملاحة فى غرب البحر المتوسط للاساطيل التركية لذا هابته جميع الدول الاوربية واصدر السلطان العثمانى قرارا بترقيته عسكريا واستطاع ان يثار للاندلسين والمورسكين الذين تعرضوا لاقصى انواع العذاب والاضطهاد على ايدى القوى الاسبانية بالقيام ببعض الغارات على ثغور البلاد المسيحية وعلى قواتهم وسفنهم الذاهبة فى طريقها إلى الشرق الاقصى او فى طريق عودتها فى ان واحد حتى انه فرض على كل سفينه تمر من سفن الاعداء ضريبة لابد من دفعها ولم تكن اهداف خير الدين ورجال الجهاد البحرى الاسلامى تقف عند حد ضم بلاد المغرب الاوسط إلى الدولة العثمانية والحكم باسمها بل كان السعى إلى توحيد بلاد المغرب تحت التاج العثمانى لاسيما ان القوات البحرية العثمانية كانت تجد فى ذلك الوقت معاونة من عدد من رؤساء القبائل وحكام المدن المغاربة، ولما توفى خير الدين اسندت ولاية الجزائر إلى ابنه حسن باشا الذى واصل سياسة ابيه فى تدعيم السيطرة العثمانية فى بلاد المغرب، لذا عملت القوى الاوربية إلى محاصرة نشاطة والقضاء عليه، لذا قاد حاكم اسبانيا وامبراطور الامبراطورية الرومانية عام ١٥٣٥ حملة لاستعادة سلطان الحفصين بتونس والذين كانوا يحكمون فى اواخر عهدهم باسم الاحتلال الاسبانى وكانت تونس قد سقطت عام ١٥٣٤م فى يد خير الدين، ونجح شر لمان فى اعادة النفوذ الاسبانى على تونس .

لكن عام ١٥٤٨م شهد عودة القوى التركية إلى ممارسة دورها بقوة فى تلمسان واقاموا على امارتها الامير حسن ابن الامبراطور أبى عبد الله محمد كواجهة للحكم الزيانى لكن كان يخضع لحماية القوات التركية، لكن القوى الاسبانية استطاعت عام

١٥٤٤ ان تعيد السلطان محمد السابع ابن ابى عبد الله محمد الزيانى إلى عرش البلاد، لكن ثورة عارمة قامت في تلمسان استطاعت ان تنهى حكم هذا السلطان الذى تعاون مع الاسبان وان تعبد أخاه احمد الثالث بن ابى عبد الله محمد. غير انه اعلن تقربه إلى السلطات الاسبانية وابتعد عن الاتراك لكنه خلع من السلطان لكن الاحداث لم تكن لتظل والصراع يدور بين الاخوة على عرش البلاد وكان ان اضطرت القوات التركية ١٥٤٧م بقيادة حسن باشا بن خير الدين ونائبة على حكم الجزائر إلى خوض معركة بموقع بالقرب من مستغانم حيث دارت معركة استمرت لمدة اسبوع او يزيد اضطر الاسبان بعد هزيمتهم إلى الانسحاب إلى وهران وهكذا ظلت لعبة الصراع بين الاخوة والصراع على تولى السلطة الزيانية إلى ان استطاعت امارة الجزائر العثمانية ان تعيد تثبيت كيانها السياسى والادارى وتصدر تنظيماتها التى نكفل لها ادارة هذا الاقليم على اسس واضحة وثابتة لاتسمح بتكرار الاحداث التى تدور بين امراء بنى زيان وذلك بعد ان كان قد مضى الوجود التركى اكثر من نصف قرن .

وكما حدث للاسرة الزيانية فى تلمسان حدث للاسرة الحفصية فى تونس التى سقطت فى ايدى الاسبان عام ١٥٣٥م بعد ان حكمت اكثر من مائتى عام (انظر الجزء الخامس من الموسوعة) (اسرة بنى حفص فى المغرب الادنى) .

وكانت هذه الاسرة قد اصابها الضعف نظرا لعدم قدرة سلاطين هذه البلاد على مواجهة الاخطار الداخلية والخارجية وعدم قيامهم بالمسئولية التاريخية للقاة على عاتقهم حيث استطاع الاسبان فى ذلك العام ١٥٣٥م دخول تونس العاصمة بعد معركة استمرت ما يقرب من الاربعين يوما استباح الاسبان العاصمة مدة ثلاثة ايام حتى بلغ عدد القتلى اكثر من سبعين الف نسمة وتبددت ثروات المدينة واثارها ونفائسها واموالها وخضع السلطان الحسن بن محمد لحكم الاسبان بمقتضى معاهدة

نصت على اعتراف السلطة الحفصية بتتبعها للدولة الاسبانية وملكية الاسبان ملكية مطلقة لمرسى حلق الوادى وقرطاجنة وعنابة والمهدية والزام السلطان بدفع مبلغ مالى سنويا للسلطات الحاكمة فى اسبانيا، وان يغلق بلاده امام المهاجرين الاندلسين المسلمين واليهود، ولقد كان انشغال هذا السلطان بما يلبى رغباته الشخصية دون مصالح الرعية والبلاد والدين سببا فى ما اصاب البلاد من فساد فكان ان هيا الله القوى التركية العثمانية لكى تقوم بواجبها الاسلامى مهما يكن نوع الحكم الذى تمارسه لكنها كانت دولة اسلامية تحترم مشاعر البلاد والعباد ولاترفع راية الصليب فوق قصر الحاكم، لكن تونس كانت قد خضعت للحكم العثمانى فى الفترة من ١٥٣٣م/ ١٥٣٥م ثم اضطرت إلى تركها لكى تعود إلى دائرة الحكم الاسبانى المباشر عام ١٥٧٣م على الرغم من انتصار تركيا على الاسبان فى معركة جربة عام ١٥٦٠م التى حلت بالاسبان ككارثة حربية عظمى انتصر فيها العثمانيون انتصارا ساحقا على القوى الايبيرية فى اكتوبر من نفس العام وكانت جربة التى درات فيها المعركة تقع فى خليج قابس التونسى وكانت تخضع لحماية اسبانية من قوة بحرية مكونة من ٦٥ سفينة حربية وقد حاصرها الاتراك حصارا محكما دام طوال ستة اسابيع متواصلة لم يكتب لاحد من القوات او السفن النجاة حيث تم ابادتهم نهائيا مما دفع اسبانيا لكى تطلب المساندة من فرنسا ازاء القوة التركية التى باتت تهدد كل القوة الاوربية فى حوض البحر المتوسط مما دفع القوة الاسبانية ان تعمل ما بوسعها العمل على الانتقام لهذه الهزيمة المخربة التى حلت بها ومحاولة الوقوف امام الخطر العثمانى الذى بات يرسم صورة المستقبل البحرى فى حوض البحر المتوسط منفردا لاسيما وان خطط الاتراك كانت ترمى إلى ضرب القوى الاسبانية فى المغرب وسواحله ومالطة وصقلية وجنوب ايطاليا والعمل على اعادة النفوذ الاسلامى إلى الاندلس لكن العلاقات التركية المغربية لم تكن تسير على نفس النهج لاسيما بعد نكسة الاسطول العثمانى عام ١٥٧١م فى

معركة ليباتو التى انتصر فيها الاسطول الاسبانى على الاسطول التركى العثمانى كرد فعل على هزيمة جربة المخزية .

لكن الباشوية التركية بعد انتصار جربة عام ١٥٦٠م بدات تمارس حكمها المباشر وفق الرواية التركية التى عملت على انهاء الوجود الايبيرى والاسرتين الزيانية والحفصية والتبعية للامبراطورية العثمانية التى نصت باى للبلاد تنفيذا للحكم العثمانى الذى عمل على اخضاع كل الاملاك الزيانية والحفصية لتنظيمات الحكم العثمانى المباشر .

فى اطار الحكومة بين الاستانه والولايات العثمانية فى اطار الحكم الذى تم فيه تقسيم الامبراطورية العثمانية إلى ولايات فقد كان تحطيما للاسطول الاسبانى وكسرا للهجوم الاسبانى فى نفس الوقت والتوسع غربا على سواحل المغرب غرب شرشال بنحو ١٢٠ كيلو متر باتجاه وهران. كذلك تم لهم الاستيلاء على طرابلس وكانت طرابلس- ليبيا قد وقعت تحت سيطرة الاحتلال الاسبانى فى الفترة من عام ١٥١٠- ١٥٢٥م ولما كان الاهالى قد كرهوا الحكم المسيحى وكانوا قد سمعوا عن سيطرة الاتراك على مصر عام ١٥١٧م وقيام دولة الاتراك القوية التى استولت على القسطنطينية عام ١٤٥٣م بل انهم استولوا على الشرق الاسلامى كله وحمل سلطانهم لقب الخلافة وادركوا فى نفس الوقت عدم قدرتهم على محاربة الاسبان فسافر وفد منهم إلى تركيا وكان ذلك عام ١٥٢٥م مستجدين بالخلافة الاسلامية فاستجاب السلطان لطلب الوفد الليبى وأرسل مراد أغا على راس قوة عسكرية ثم امده باسطول بحرى تحت قيادة سنان باشا استطاع ان يستولى على مدينة طرابلس عام ١٥٥١م وعين ورغون باشا واليا عليها وهكذا سقطت تحت السيطرة التركية واصبحت بلاد المغرب منذ ذلك الوقت ثلاث ايالات تركية طرابلس، تونس، الجزائر وكانت القوة الحفصية فى يد خير الدين ثم ابنه

حسن والتوسع غربا حتى ساحل اسبانيا ورفع شعار انقاذ الاندلسين الفارين والعمل على تحرير الاندلس وتهديد خطوط الملاحة البحرية الاسبانية فى المحيط ولاسيما الممتلكات الاسبانية الامريكية ولقد كانت هذه التوسعات والانتصارات دفعا للحدود التركية العثمانية إلى حدود المغرب الاقصى ووقوفا على بوابة المغرب الوطاسى الذى كانت يتهدده فى تلك السنوات الزحف السعدى القادم من الجنوب والذى كان يدخل فى صراع مع بنى وطاس حول السيطرة على مراكش .

ومن هنا كانت الفترة التى استغرقها العمل العسكرى العثمانى فى توطيد نفوذه فى الجزائر اولا ثم تلمسان من عام ١٥٤٨ حتى عام ١٥٦٠م وانتصاره على الاسطول الاسبانى فى جربه ثم ما تلى ذلك من بسط النفوذ التركى على تونس وضم هذه الولايات إلى تركيا وتقسيمها كولايات ما هو الا مقدمة للسيطرة الكاملة على كل بلاد المغرب وتوحيده تحت السيادة التركية بعد فترة زادت عن ربع قرن من الزمان تم فيه اخضاع تونس وتلمسان نهائيا إلى امارة الجزائر كانت فيها القوى الاسلامية التى ترفض الخضوع للسيادة الاسلامية التركية تجد لها مبررا قويا للاتجاه نحو طلب المساندة من اسبانيا بحجة الولاء القبلى او الاقليمى والمحافظة على كياناتها الصغرى التى كانت قد وصلت إلى مرحلة الكهولة والشيخوخه والتى لم يعد وجودها على رأس السلطة مبررا تحكمها للبلاد. ولقد كان من عوامل تاخر فرض السيادة التركية على هذه البلاد هو تخلص القيادات فى بنى زيان وبنى حفص من كل تعهداتها للاتراك وكمحاولة كسب ود السلطات الاسبانية مثلما حصل فى حملة شرلمان نفسه على تونس ١٥٣٥م وفى مقابل ذلك تنازل السلطان الحفصى عن مدينة عنابة وقد ادى هذا التداخل إلى صراعات قوية بين القوى التركية التى نرى فى وجودها فى البلاد الاسلامية باعتبارها مقر الخلافة وفى الخلافة نفسها سندا شرعيا لكى تمارس نفوذها ولكى ذلك كان

يجعل مصير القيادات الزيانية والحفصية بلا ضمان مما كان يدفعها إلى طلب الحماية الاسبانية وقد اخر هذا من فرص النظر إلى مشاكل مسلمى الاندلس ومحاولة ايجاد مخرج لحل قبضاتهم التى كانت تتفاقم فى ظل محاكم التفتيش والاجبار على التنصر او ترك البلاد واغراق السفن التى تنقلهم إلى بلاد المغرب أو دفع حكومات بنى زيان وبنى حفص إلى اغلاق بلادهم فى وجه للاجئين الاندلسين .

ولقد وضعت السلطة العثمانية نصب عينها ضرورة السيطرة الكاملة على جميع بلاد المغرب من طرابلس شرقا إلى المحيط الاطلسى غربا فكانت السيطرة على طرابلس وبجاية وحلق الوادى ثم اخيرا حجر ماديس من أراضى السلطنة الوطاسية بفاس ومن ثم بات واضحا ان سياسة الغزر العثمانى قد حققت اهدافها فى ايجاد مواقع متقدمة لها فى المغرب الادنى والاوسط والاقصى، ولكن هذا لم يكن هدفها النهائى فى امتلاك هذه المعابر حيث انها كانت ترى فى القضاء على كل الجيوب التى اقامتها القوى الايبيرية الاسبانية والبرتغالية عائقا يقف امامها تحد من تطلعاتها إلى الاندلس فى وقت كان العالم الاوربى يموج فيه بالصراعات مما كان سيدفع بالقوى العثمانية بالتدخل لولا انها وجدت تخاذلا من قوى الزيانين فى تلمسان والحفصين فى تونس والذين كانوا يلجأون إلى هذه القوى للاستنجاد بها وكذلك كانت القوى الوطاسية تتخاذل فى تعاونها مع الاتراك العثمانيين من أجل انهاء الوجود الاستعمارى ولم تكن تلجأ إلى طلب المساعدة من القوى العثمانية الا لحظة الاحساس بالخطر الدائم لاسيما فى وجود قوى نامية ناشئة تسعى لكى تجد لها مكانا فى الصراعات التى تجرى على ارض المغرب لاسيما ان القوى التركية بعد ان بسطت لواءها على المغربيين الاوسط والادنى كانت تتطلع إلى المغرب الاقصى الذى كان فى تلك الحقبة من السيطرة العثمانية على بلاد بنى زيان وبنى حفص يواجه صراعا بين الوطاسيين المعاصرين لكل هذه الاحداث وبين

السعدين القادمين من الجنوب لانشاء دولتهم على حساب بني وطاس كما كان للاتراك كلمتهم على حساب بني زيان وبنى حفص وهكذا كان الوجود التركى معاصرا لحكم بني وطاس فى المغرب الاقصى .

الفصل الثالث

الاستعمار الايبيرى (البرتغالى- الاسبانى) وموقف بنى وطاس

أ- الاحتلال البرتغالى

كانت معركة طريف التى دارت رحاها فى جمادى الاولى عام ٧٤١هـ/ ٣٠ اكتوبر ١٣٤٠م بين القوات الاسلامية بقيادة سلطان بنى مرين ابى الحسن على بن عثمان بن يعقوب وبين ملك قشتالة الفونسو الحادى عشر والتى تطلق عليها المصادر الاسبانية واقعه نهر سلادوا على اسم النهر المجاور لطريف فى جنوب اسبانيا بداية النهاية للوجود الاسلامى فى بلاد الاندلس حيث كانت كارثة طريف قد وضعت حدا للمساعدات الاسلامية القادمة من المغرب لاخوة الاسلام فى الاندلس لانه توالى على حكم بنى مرين سلاطين لم تكن لهم قوة اسلافهم ولا حذرهم وحيطتهم وشعورهم بالخطر المحدق بالاسلام واهله ودياره على ارض الاندلس وعاشوا عيشة ترف ولهو ومن تصاريف القدر العجيبة انه فى الوقت الذى كانت فيه عوامل الضعف تدب وتضرب باطيانها فى فاس والمغرب كانت القوة تتجمع فى كل من اسبانيا والبرتغال لكى تأخذ بيدها زمام المبادرة بعد احراز الفونسو نصره الحاسم فى معركة سلادو والذى يقال ان سلاح المدفعية استخدم فيها لاول مرة فى تاريخ أوربا .

ومن هذه المعركة بدات حرب الاسترداد تأخذ بعدا آخر وبدأت حرب الغزو الخارجى ترسم فى اذهان الاوربيين وقيامهم بالحرب المقدسة ضد الوجود الاسلامى وبدات موازين القوى تميل لصالح هذه القوى التى رات فى نفسها القدرة على الامساك بزمام الامور فى الصراع الدائر على أرض الاندلس والعمل على نقله للمغرب من منظور حصار غرناطة بالاستيلاء على الموانئ المغربية وقطع الصلة بينها وبين الامدادات التى قد تصلها من الجانب المغربى فى المستقبل القريب .

ولما كانت القوى الايبيرية البرتغالية تتربص بديار الاسلام وانتهاز الفرص لتحقيق اهدافها فان حكمومة البرتغال انتهزت واستغلت الاحداث والظروف السياسية والاقتصادية السائدة بالمغرب فى عام ١٤١٥م حيث كان الطاعون منتشرا على نطاق واسع بالبلاد والمجاعة تسود الديار من جراء النزاع الدموى الحاد الذى يدور حول تولية عرش البلاد بين السلطان المرينى ابى سعيد عثمان واخيه مولاى يعقوب. وكان ان قامت البرتغال فى سرية تامة ومطلقة باعداد حملة حربية كبيرة احاطتها بكل وسائل الكتمان من اجل تحقيق اهدافها المنشودة بعد أن اعدت لها اعدادا ضخما من اسطول مكون من مائتين وعشرين سفينة حربية تقل ثلاثين الف جندى واستطاعت فى نفس يوم وصول الحملة ١٢ اغسطس عام ١٤١٢م احتلال المدينة والسيطرة عليها. وبذلك سقطت سبتة فى ايدى البرتغالين .

ولقد كان نقل ميدان الصراع من الاندلس إلى الشواطئ المغربية هو انهاء الوجود الاسلامى بالاندلس وبداية مرحلة جديدة من الصراع وهى المرة الاولى فى تاريخ الصراع بين القوى الاسلامية فى حوض غربى البحر المتوسط وبين القوى المسيحية بزعامة اليابوية يتم فيها احتلال مدينة اسلامية وقد كان هذا الاحتلال بداية للتوسع البرتغالى فيما وراء البحار نحو انشاء امبراطورية على حساب الديار الاسلامية بعد ان استطاع ملوك المسيحين فى شبه جزيرة ايبيريا التغلب على القوى الاسلامية من اجل الاسترداد ونجح هؤلاء الملوك فى تحقيق اهدافهم بفضل الخلاف الذى كان يدب بين قادة المسلمين وسوء الظن الذى ساد بين ملوك المسلمين فحرمهم نعمة الاتحاد والتآلف من اجل الوقوف فى وجه هذا الخطر، بل نجح الامراء المسيحيون فى أن يخرجوا باساطيلهم البحرية وجيوشهم البرية ليغزوا الشاطئ المغربى المقابل لاسيما ان الملك جون الاول الذى ارتقى عرش البرتغال عام ١٣٨٥م قال لاولاده ليس هناك ميدان يكسبهم الفخر

من حملة ضد المغاربة فى بلادهم فشرع فى اتخاذ العدة لهذه المغامرة العظيمة التى اثارت كثيرا من القلق لدى ملكى قشتالة وغرناطة (لاحظ تحالف ملوك المسلمين فى غرناطة مع قشتالة التى ابادت ديار المسلمين وقضت على الوجود الاسلامى بالاندلس ولكنه ارسل يهدئ من روعهما ويطمئنها ان الهدف الرئيسى من عزواته ليس الا الوقوف فى وجه رجال الجهاد الاسلامى البحرى والتى اطلقت عليهما المصادر الاوربية ظلما وعدوانا اسم قراصنة البحر المسلمين والذين كانوا يهاجمون المراكب المسيحية، لذا فان الهجوم على سبته ليس الا هجوما على احد معاقل هؤلاء الغزاة البحرين المجاهدين فى سبيل الدفاع عن العقيدة الاسلامية وذكرت بعض المصادر الاخرى ان الاسطول الذى اعد للغزو كان مكونا من اثنين واربعين ومائة قطعة حربية كلها برتغالية الجنسية الا عددا قليلا منها ولم يأت عام ١٤١٥م حتى كانت سبتة قد سقطت فى أيدى البرتغالين وعين حاكما عليها الامير هنرى الابن الثالث للملك جون وهو الذى حمل اسم هنرى الملاح .

وكانت سياسة القضاء على الوجود الاسلامى فى المغرب واتباع سياسة الارض المحروقة واخلاء البلاد من سكانها وشهوة التوسع قد دفعت هنرى الملاح واخيه فرناند والذين نهضا من اجل المزيد من التوسع فى بلاد المغرب وتوسيع دائرة نفوذهما والعمل على احتلال مدن جديدة فكان ان اعدا بعد أحد عشر عاما من احتلالهم سبتة وفى عام ١٤٣٦م حملة للاستيلاء على ميناء طنجة الهام لكن هذه الحملة فشلت فى تحقيق الهدف التى تحركت من أجله وذلك للدور الهام الذى قام به الوزير الوطاسى ابو زكريا يحيى بن زيدان الوطاسى وزير السلطان عبد الحق آخر سلاطين بنى مرين حيث كانت هذه الحملة قد تسربت انباء تحركها إلى مدينة طنجة وكانت الحملة مكونة من ثمانية آلاف جندى حيث لاقوا هزيمة منكرة على ايدى حامية المدينة والاهالى الذين

دافعوا عن ديارهم وعقيدتهم بالاضافة إلى القوات التى قدمت من فاس وبعث بها الوزير الوطاسى واوقع المغاربة بالبرتغالين هزيمة قاسية وتم حصار القوات من الخلف والامام بعد وصولهم بثلاثة ايام مما دفعهم إلى رفع الحصار والاعتراف بالهزيمة والانسحاب ودارت محادثات اظهر فيها الجانب المغربى الاسلامى روح التسامح والمحبة التى عرف بها المسلمون وتركوا الحملة تعود إلى ميناء سبتة والتى وعد البرتغاليون الانسحاب منها فى مقابل تركهم يعودون إلى سفنهم والمدينة المحتلة وكانت روح التسامح التى تعامل بها المسلمون المغاربة قد جعلت البرتغاليين ينكصون بعهدهم وهذه طبيعة الانسان الاوربى الكارهة والحاقدة للاسلام وعقيدته السمحة على مر التاريخ والازمان بعد ان احتفظ المغاربة بشقيق هذا الملاح وهو الابن الرابع والاصغر للملك جون الاول ملك البرتغال رهينة لديهم لكن الروح الصليبية ضحت بابن الملك وتركته سجينا فى سجون فاس فى مقابل تحقيق الهدف والمبدأ الذى تصر اليه الروح الصليبية وهى تدمير ديار الاسلام وطردهم منها وقد ظل فرناندو سجينا حتى مات فى يونيو ١٤٤٣م اى بعد اسرة بسبع سنوات وهكذا كانت هذه الروح الصليبية مشبعة بالكراهية للاسلام .

وفى عهد الملك البرتغالى الفونسو الخامس تمكن البرتغاليون من احتلال ميناء القصر الصغير وهو الميناء الذى يقع فى المسافة بين ميناء سبتة المحتل وميناء طنجة التى حاول البرتغاليون احتلالها ويبدو ان الذى دفع البرتغالين لهذا هو قرب الميناء من سبتة وذلك فى عام ١٤٥٨م وهكذا سارت الحركة الاستعمارية البرتغالية فى طريقها المرسوم نحو التوسع والعمل على امتداد الدائرة الاستعمارية وانتهاز الفرص للاستيلاء على اراضى جديدة فى وقت كان المغرب فيه يعانى من المشاكل الداخلية والصراعات مما دفع الامير هنرى الملامح للعمل على تحقيق هدفه بضرورة الوصول إلى تحالفات جديدة

للعمل على محاربة المسلمين لكن الامير هنرى الملاح مات عام ١٤٦٣م بعد استيلائه على ميناء القصر الصغير، لكن فى نفس العام الذى مات فيه الامير هنرى قام الملك الفونسو الخامس فى السنة المذكورة بقيادة حملة حربية قادها بنفسه من اجل توسيع دائرة السيطرة البرتغالية على بلاد المغرب وذلك عودة للاستيلاء على طنجة لكن هذه المحاولة باءت بالفشل كما باءت قبلها حملة عام ١٤٣٦م وفشلت فى احتلال المدينة رغم المحاولات المتعددة التى قام بها البرتغاليون لكن صمود الحامية المغربية حال دون تحقيق الهدف الصليبى بل ان كارثة حلت الاسبان اذ وقع فى الاسر اكثر من ١٠٠ شخص من النبلاء وعلية القوم ورجال البلاط وقتل اكثر من ٢٠٠ مائتى من نفس الطبقات العليا فى القيادة البرتغالية واطلق البرتغاليون على طنجة مقبرة نبلاء البرتغال لكن رغم المحاولات الفاشلة التى منى بها البرتغاليون الا أنهم وقد رسموا لانفسهم هدفا لا يمكن ان يحيدوا عنه قاموا فى اعوام ١٤٤٨، ١٤٤٩م باعداد حملة للاستيلاء على الدار البيضاء التى كان يطلق عليها فى السابق مدينة انفا واستطاعت الحملة البرتغالية ان تدخل المدينة التى وجدوها خاليه من اية دفاعات مغربية لكنهم اضطروا إلى تركها وان كانوا قد احتلوها دون مقاومة تذكر لما احتلوا القصر الصغير قبل ذلك بعشر سنوات دون مقاومة من المدينة بعد ان جربوة عام ١٥٤٨م على القصر الصغير حملة مكونة من اسطول ضخم به اكثر من مائتى وثمانين سفينة قتالة تصل قواتها خمسة وعشرين ألف رجل وسيطر البرتغاليون على المدينة بعد قتال طويل وضادٍ لان الامدادات المغربية لم تصل إلى سكان المدينة فى الوقت المناسب حيث جاءت متأخرة أربعة شهور عن ميعاد التسليم ولم يجد لها وسيلة لطرد الحامية البرتغالية التى قاومت الحصار المغربى حتى اضطر المغاربة إلى رفع الحصار عن القصر الصغير فى يناير ١٤٥٩م ويبدو ان الهدف من التوسع البرتغالى فى بلاد المغرب عن طريق ساحل البحر المتوسط وليس عن طريق ساحل مراكش المطل على المحيط الاطلسى هو العمل على

شطر المغرب الاسلامى إلى قسمين حتى يمكن التمكن من اراضيه والقدرة على اجتياح الداخل فى يسر وسهولة .

وازاء تضارب وتضاد الاهداف التوسعية البرتغالية الاسبانية فانه قد تم فى عام ١٤٩٤ وذلك بعد نجاح حركة الاسترداد المسيحية من تصفية كل الوجود الاسلامى بعامين اثنين ١٤٩٢م والقضاء نهائيا وللابد على امارة غرناطة الاسلامية بالاندلس ان عقدت البرتغال واسبانيا اتفاقية فيما بيهما لتقسيم خطوط الاحتلال والسيطرة على ديار المسلمين وقد عرفت هذه الاتفاقية باسم اتفاقية توردسلاس وتم بموجبها تقسيم المستعمرات بحيث كانت الاقاليم الشرقية من نصيب البرتغال والمستعمرات الغربية من نصيب اسبانيا هذا بينما بلاد المغرب الاسلامى قد اضيفت لها اتفاقية اخرى عام ١٥٠٩م تم بمقتضاها جعل المستعمرات الاسبانية تقع فى الشرق فى الجزائر وتونس وطرابلس والمستعمرات الغربية تقع فى المغرب الاقصى متخذه من خط طول ٢ شرقا الحد الفاصل مع امتداد ساحلى فى المغرب يجعل مليلة وباديس وغمارة تدخل ضمن الاملاك الاسبانية وكذلك قلعة سانتا كروز فى الجنوب المراكشى .

ولقد كان ظهور السيادة التركية العثمانية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط وكذلك القضاء على غرناطة الاسلامية والنجاح الباهر الذى احرزه التوسع الايبيرى واستكمال حركة الاسترداد المسيحى كل حلقاتها دافعا وراء هذه الاتفاقيات تقسيما لديار الاسلام بالمغرب وارضاء للروح البابوية والمتعطشة للديار الاسلامية وبسبب تحريض رجال الدين المسيحى الكاثوليكن لهذه النشاطات التوسعية فى ذلك الوقت وقد كانت فكرة القفز وراء البحار فلسفة استعمارية ذات شقين فاما الشق الاول فهو ضرب المسلمين فى ديارهم وابعادهم عن اخوانهم فى الاندلس والهدف الثانى العمل على الحيلولة دون تفكير المسلمين بالعبور مرة اخرى لاعادة فتح شبه جزيرة ايبريا مرة اخرى،

كذلك للقضاء على الروح القتالية العالية التى كان بيديها المقاتل المسلم فى شبه جزيرة ايبيريا جعلهم يتتبعون المسلمين فى اى مكان يعيشون فيه لاسيما فى المغرب حيث كان المغرب له النصيب الاكبر من مهاجرى الاندلس. وهكذا كان انتقال الصراع بهذه الصورة التى عرضنا لها انتقالا من شبه جزيرة ايبريا إلى الاراضى المغربية وتلقت المغرب الضربات المسيحية المستمرة والمتواصلة نظرا لما تملكه المغرب من سواحل طويلة على البحر المتوسط وساحل المحيط الاطلسى وبحكم موقعها الجغرافى قريبا من البرتغال واسبانيا وهكذا شهد اواخر القرن الخامس عشر الميلادى بل ربعه الاول انتكاسة اسلامية وتحول سياسة الهجوم الاسلامى إلى الدفاع امام القوى الايبيرية بسبب الضعف والوهن والتدهور الشديد اللذين اصابا جسد هذه الدول وكان المخطط الاستعمارى الايبيرى قد عمل على تطويق بلاد المغرب واحتلال موانيه المطلة على البحر المتوسط ولقد كانت اقدم محاولة استعمارية للشواطئ المغربية هى التى قد قام بها البرتغاليون عام ٦٥٨هـ/ ١٢٥٥م حين قدم البرتغاليون فى هذا العام وفى عهد الامير المرينى أبى يوسف بن عبد الحق المرينى واحتلوا مدينة سلا، لكن المغاربة نجحوا فى طردهم منها بعد اربعة عشر يوما ثم انهم دخلوا مدينة مراكش عام ٦٦٨هـ/ ١٢٦٥م .

ومن هنا فقد استطاع البرتغاليون معرفة مراكز الضعف فى البلاد المغربية. وقد استطاع البرتغاليون ايضا السيطرة على ميناء اصيلا عام ٨٧٦هـ/ ١٤٧٣م. واستولوا فى نفس الوقت على طنجة، ومن حسن نية حكام المسلمين فقد تحالف المسلمون فى المغرب بقيادة الوطاسين مع الاسبان واشتركوا فى الهجوم على مدينة سبتة عام ٨٧١هـ/ ١٤٧٦م بعد احتلالها من قبل البرتغالين باكثر من نصف قرن لكن الهجوم فشل بعد خذل الاسبان للوطاسين، وفى عام ١٤٨١هـ بسط البرتغاليون حمايتهم للمرة الثانية على مدينة اسفى وفى عام ١٤٨٦م/ ٨٨١هـ سيطروا على مدينة ازموا

وفى عام ١٤٩٧/ ٨٩٢هـ احتلوا مدينة ساء الواقعة على المحيط الاطلسى وفى عام ١٥٠٥م نجح البرتغاليون ايضا فى احتلال ساحل اغادير على المحيط الاطلسى وكان ان حدث اتفاق عام ١٥٠٩م بين البرتغال والاسبان ثم بمقتضاه اعطاء الحق للبرتغال للتوسع فى مناطق سواحل المغرب الجنوبية الاطلسية فى مقابل اعتراف البرتغال لاسبانيا بمشروعية التوسع فى الجزء الشرقى من ساحل المغرب الشمالى فى المنطقة من باديس حتى فضاضة ومليلة وربما كان فشل البرتغال فى احتلال الموانئ الشمالية التى تتبع مملكة فاس هو الذى حدا بها إلى الاتجاه إلى البلاد الجنوبية أو مملكة مراكش .

لكن هناك آراء تذكر ان التقسيم الذى تم بين البرتغال واسبانيا قد احيى الدور القديم لقشتالة وحصلت على نصيبها فى بلاد المغرب وان هذا التقسيم قد نبع من مشاعر العداء المتحكم للمسلمين ومن دوافع صليبية كارهة لكل ما هو اسلامى ومن دوافع حركة الاسترداد المسيحى فى ايبريا التى كانت تحكمها قحة المشاعر الصليبية فى اواسط القرن الخامس عشر الميلادى، لاسيما ان البرتغال قد سعت مبكرا إلى البابوية فى روما للحصول منها على البراءة المقدسة لاضفاء الشرعية الكنسية على التوسع البرتغالى وراء البحار وذلك فى اعقاب الدوى الهائل فى الاوساط المسيحية الاوربية اثر نجاح محمد الفاتح الخليفة العثمانى فى احتلال القسطنطينة عام ١٤٥٣م/ ٨٤٨هـ فكان البابا نيقولا الخامس بابا الفاتيكان فى روما قد منح البرتغال فى الثامن من يناير عام ١٤٥٤ وبعد سقوط القسطنطينة بعد شهور حق التاج البرتغالى فى احتلال سبتة باسم المسيحية والبابوية وغيرها من الممتلكات الساحلية فى شاطئ للغرب وما بعدها .

وهكذا كان فكر العصور الوسطى تحكمه روح التعصب المسيحى والتسامح الاسلامى ومن هنا تلاقت كل الاهداف البابوية مع الاهداف البرتغالية والاسبانية فى خط واحد وهو ضرب الديار الاسلامية لاسيما بعد سقوط القسطنطنية عام ١٤٥٣م .

وهكذا اتخذت الروح الصليبية شعارا ترفعه البرتغال بالتعاون مع اسبانيا وبمباركة من البابوية .

ولقد كانت كل السفن الحربية والاستطلاعية والكشفية ترفع شعار الصليب فى حين لم يكن شعار المسلمين المصحف او السيف او شهادة لا اله الا الله محمد رسول الله ترفع وكانت الروح الصليبية واضحة كل الوضوح مهما حاول مؤرخو العصور الوسطى وكتاب الحوليات المسيحية ربط دفاع الحركة الاستعمارية بدوافع سياسية او اقتصادية او غيرها من الدوافع فتاريخ الحركة الاستعمارية فى بلاد المغرب لايمكن ان تتسع له بضع صفحات فى ثنايا هذا البحث الموجز الذى يقدم للقارئ العادى والمتخصص يحتاج إلى جهد جهيد للتوسع فى هذه الحركة التى رفعت شعار الابادة التامة لكل ما هو مسلم والا لما لجأت البرتغال للحصول على براءة من البابوية الا لكى تكون الروح المسيحية هى الدافع وراء كل هذا النشاط وكانت براءة البابوية هى الوسام الاكبر فى حركة الانتشار السريع للقوى البرتغالية بل كانت حافزا مشجعا لالهاب روح الصليب فى نفوس الجند الذين كانوا يندفعون تحت شعار الصليب للتوسع فى اراضى المغرب كلما سنحت لهم فرصة مناسبة وكلما وجدوا ضعفا فى الصف الاسلامى المغربى المسالم الذى كان يتخذ من القرآن الكريم وسنه رسول الله ﷺ منهاجا فى تعامله مع القوى المسيحية التى كانت تنكث بالعقود والمواثيق ما دامت تقف فى طريق تحقيق اهدافها ولم يكن يهمها الا الهدف وهو السيطرة على كل ديار المسلمين .

ولقد كان كل هذا النشاط الاستعمارى البرتغالى يتم فى أواخر عهد الاسرة المرينية وفى سيادة عصر الوزراء الوطاسين الذين كانت بايديهم مقاليد الامور فى البلاد، لكن ضعف السلاطين والوزراء كان وراء كل هذه النكسات الاسلامية والسيطرة الاستعمارية البرتغالية فى ديار المغرب الاسلامية .

وقد اتساع نطاق الغزو البرتغالى للمغرب فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى حيث شملت هذه الفترة موانئ البحر المتوسط والاطلسى على السواء .

وفى فترة سيطرة اليهوديين هارون وشاويل على عبد الحق المرينى تمكن البرتغاليون من تحقيق اهدافهم فى السيطرة على البلاد الواقعة على الساحل ان تولى الوزارة هذان اليهوديان فى الفترة من عام ١٤٢٠- ١٤٦٥م وقد استولى البرتغاليون على ازمور عام ١٤٦٨ فى ظل فترة حكم نقيب الاشراف أبى عبد الله محمد الادريسى فى فاس (٨٦٩- ٨٧٦هـ/ ١٤٦٥- ١٤٧٢م) ومن هنا فقد استغل البرتغاليون فترة الفوضى والصراع الداخلى واستطاعوا السيطرة على الموانئ الهامة وكذلك وقبل سيطرة الوطاسين بعام عام ١٤٧١م سيطر البرتغاليون على ميناء اغادير فى الساحل الاطلسى الجنوبى وكذلك استولوا على أصيلا فى نفس العام وبعد عامين ١٤٧٣م استولوا على أزمور وكذلك على اسفى عام ١٤٨٨ فى ظل حكم الوطاسيين .

وهكذا بسطت البرتغال نفوذها على جميع بلاد المغرب الساحلية ومنها سبتة والقصر الصغير وطنجة وأصيلا وانفا (الدار البيضاء) ومازكان حصن البريجة والعرائش واغادير واسفى والمهدية ومن هنا فلم يبق فى ايدى المسلمين اصحاب الديار الا اعداد قليلة من الثغور المغربية مثل سلا ورباط الفتح وطارد البرتغاليون المغاربة بعيدا عن المدن الساحلية مما دفع الاهالى إلى الانطواء فى اطراف الصحراء والقرى النائية وكان فرض السيطرة البرتغالية على بلاد الهبط الجنوبية وساحل مراكش الجنوبى قد اصبح اكثر وطأة منها فى شمال البلاد واكثر توغلا فى الاراضى الداخلية اذ امتد نفوذهم إلى مدينة مراكش نفسها كما اسسوا هم انفسهم ميناء مزعان ولقد كانت محاولة التدخل فى داخل البلاد عام ١٤٨٩ ردا على حركة الجهاد الاسلامى لطرد البرتغالين من بلاد المغرب والتى قادها اشراف شفشاون مما دفعهم إلى الزحف إلى مراكش والجدير

بالذكر ان البرتغاليين كانوا قد نزلوا عام ١٥٠٢م على مقربة من ميناء ازمور وهو ميناء كبير على المحيط الاطلسى ولكن لم يتم لهم احتلاله الا عام ١٥١٣م كما استولوا عام ١٥٠٧ على ميناء اغادير للمرة الثانية بعد ان كانوا قد احتلوه عام ١٤٧١م لكنهم طردوا منه وعادوا اليه وقد اتاحت الفرصة للبرتغالين عند احتلالهم لميناء ازمور بالتوغل منه جنوبا لغرض سيطرتهم على مازكان وقد حاول البرتغاليون استمالة بعض زعماء القبائل والمدن الداخلية ولكنهم قوبلوا بالرفض الامن فئة صغيرة من ضعاف النفوس وطلاب السلطة من العملاء الماجورين وازاء الفشل فى تحقيق الاهداف صدرت الاوامر من لشبونة العاصمة البرتغالية إلى قواتها المرابطة فى اسفى وازمور ان تتهيأ لاحتلال العاصمة الجنوبية للبلاد مراكش وفى مطلع عام ١٥١٥م كانت مراكش محاصرة بقوات برتغالية لكن المحاولة منيت بالفشل الذريع بسبب المساعدة التى قدمها حاكم فاس السلطان محمد البرتغالى الوطاسى للمجاهدين وكان فشل احتلال البرتغالين لمراكش دافعا للاتجاة لاحتلال فاس العاصمة والقضاء على الحكم الوطاسى فارسلوا اسطولا برتغاليا عظيما إلى ميناء المعمورة فى يناير عام ١٧١٥م ولكنهم انسحبوا بالقوة فى نفس العام نتيجة لفشلهم فى احتلال مراكش والمعمورة وقد ادى التقاعس عن الجهاد إلى فتح المجال امام الاحتلال البرتغالى فى ارسال حملاته إلى مراكش والمعمورة بل انه استطاع ان يمد نفوذه إلى اقليم السوس ودرعه ومن اسقى إلى مراكش وهكذا فان العهد الوطاسى قد شهد سقوط معظم الموانئ الشمالية إلى نهر سبو وموانئ الجنوب من مصب ام الربيع إلى السوس كانت كلها بيد البرتغالين فما عدا سلا ورباط الفتح كما ذكر سابقا التى تحولت إلى حصون اسلامية قوية وقد استغرق البرتغاليون نحو ثلاثة ارباع القرن (٧٥ عام) فى احتلال الموانئ الشمالية ومثلها فى ضم الموانئ الجنوبية وهكذا حصلت البرتغال على النصيب الاكبر من الموانى من الموانى المغربية فى الشمال والجنوب سعيا للدخول إلى داخل البلاد .

(ب) «السيطرة والاحتلال الاسبانى»

لم تكن اسبانيا قد دخلت ميدان السيطرة على بلاد المغرب الاسلامى الا بعد توقيع اتفاقية «توردى سلامى» فى يونيو ١٤٩٤م والتى بمقتضاها تخضع اقاليم طرابلس وتونس والجزائر للسيطرة الاسبانية ومن هنا بدات اسبانيا تمارس سيطرتها وتوسعاتها وكما اتجهت الغزوات إلى تونس ومدن المغرب الاوسط فانها اتجهت إلى طرابلس بليبيا بسبب محاربة المسلمين بها وما كان يتردد عليها من قوافل قادمة من داخل افريقيا وخاصة برنو وتشاد وكانم وكانت تزخر بنشاط تجارى بعد ان استعادت ثقة التجارة البحرية مع الموانئ الايطالية ومع ميناء مرسليا الفرنسى، لذا اغار عليها الاسبان واستولوا عليها فى بداية القرن السادس عشر ولكن هذا لم يدم اكثر من خمس عشرة سنة (١٥١٠- ١٥٢٥م) اقاموا خلالها سورا حول المدينة وما زالت اثاره باقية ولم تلبث اسبانيا ان تنازلت عنها لفرسان القديس يوحنا الذين كانوا يسكنون جزيرة مالطة وظلت سيطرتهم عليها من عام ١٥٢٥ إلى عام ١٥٥١م إلى ان طردهم منها الاتراك ايام سليمان القانونى .

وليس معنى هذا ان الاسبان لم ينافسوا البرتغاليين فى السيطرة على بلاد المغرب الاقصى لاسيما جنوب مراكش اذ تذكر المصادر الاسبانية ان حاكم الجزر قد اقام محطة للصيد وتجارة الرقيق فى مكان سموه (سانتا كوردى ماركيبيا) وانهم احتلوه عام ١٤٧٧م إلى عام ١٥٢٤م ولا يعرف المغاربة اسم هذا المكان كما انه يصعب تحديد موقع هذه المحطة غير انه بسبب تحديد الاسبان للمطالبة بهذا الموقع فقد تحايل الخبراء الاسبان فادعوا انها تقابل منطقة سيدى افنى، ولكن على اية حال فقد انصرف اهتمام الاسبان بالساحل الغربى منذ القرن الخامس عشر وذلك إلى ساحل البحر المتوسط وذلك اثر الاتفاقية المشار اليها والتى قسمت المغرب إلى قسمين الاولى تقع غرب حجر

باديس وقد تركت البرتغال والثانية تقع إلى شرق هذه النقطة ويتولى الاسبان فيها مهمة حرب الاسترداد وكان الاسبان فى ذلك الوقت يحتلون مينائى سبتة ومليلة ومن ثم اتجهوا شرقا إلى ساحل الجزائر ثم تونس وطرابلس .

ولقد قامت اول محاولة لتنفيذ خطة الاسبان فى شمال افريقيا (المغرب العربى) عندما نزلت اول الحملات الاسبانية فى ميناء المرسى الكبير فى غرب الجزائر غير ان التغلغل الحقيقى على سواحل المغرب لم يبدأ الا فى عام ١٥٠٨م عندما استولى الاسبان على حجر بادس وفى العام التالى سقطت وهران وبجاية فى ايديهم وفى عام ١٥١٠م دمر ميناء طرابلس واضطرت موانى دلس الجزائر إلى دفع جزية للاسبان وكانوا قد اقاموا امام هذه الموانئ حصنا على صخرة مواجهة وبعد ذلك عقدت مملكة تلمسان معاهدة صلح فى عام ١٥١٢م اعترفوا فيها باستيلاء الاسبان على عدة موانئ فى غرب الجزائر .

كما ان اسبانيا استولت على مليلة وبونة (وعنابة) ووهران وكان لها وجود على الساحل الاطلسى للمغرب فيما ادعته من حقوق فى الاراضى المقابلة لجزر كناريا وبالتحديد فى النطقة الممتدة ما بين راس كانت وراس تؤيد (اسفى وافنى) ووضح نشاطها فى تجارتها من ميناء ناركوكو (شمال اغادير) استنادا إلى حماية القلعة الاسبانية فى سانت كروز عند عين فوتى .

ولقد كان ضعف بنى وطاس وغيرهم من سلاطين بنى حفص وبنى زيان سببا فى نجاح الحملات الحربية الاسبانية فى الاستيلاء على اجزاء من الشاطئ ثم بناء حصون فيها تقيم بها حاميات اسبانية لعرقلة الكيان الاسلامى وتعطيل مصالحها وكانت الغيرة المسيحية سببا فى قيام كثير من هذه الحملات لاسيما وبعد ان الحرب تنتقل إلى بلد خارجى غير بلادهم، كما ان حصونهم وحامياتهم تمنع الاساطيل الاسلامية من

الخروج من الموانئ الاسلامية لجندة مسلمى الاندلس هذا إلى ان الصراع الدينى للاسلام وقوته يضاف اليهم طمعهم فى الاستيلاء على الذهب والتوابل وملح البارود وغيره من منتجات هذه السلطنات الاسلامية والتى كانت تحمله سفنهم من هذه البلاد ومن هنا كانت تلك الحركة الاستعمارية الواسعة التى تزعم بابا روما الدعوة لها وحمل رايتها ورفع الصليب اعلانا بمحاربة المسلمين فى عقر دارهم وكان ذلك فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى وبالتحديد عام ١٤٥٣م .

لكن القوى التركية العثمانية والقبائل المؤيدة لها دفعت الحركة الاستعمارية الاسبانية إلى ان تتوقف عن التوسع بل تنحسر عن مستعمراتها ولم يبق لها سوى قاعدة مليلة ووهران بعد ان تخلت عما كان بيدها من قواعد ساحلية سيطرت عليها على الساحل التونسى والليبى ولم يبق فى يدها الا القواعد الغربية من السواحل المغربية والقريبة للاساطيل الاسبانية. والتى تكون على مقربة من مضيق جبل طارق بحيث لا يكون الفاصل بعيدا عن الساحلين المغربى والاسبانى فكان لها ميناء سبته وطنجة ولم يكن هذان الميناءان سوى جيوب استعمارية مقطوعى الصلة بالاحواز (الاماكن) المجاورة لهما وسكانها بسبب العداء التاريخى بين القوى الاسبانية المستعمرة وبين شعوب المغرب الاسلامى لاسيما بعد نمو القوى التركية العثمانية كما سبق ان عرضنا سابقا على حساب الانحسار الاسبانى الذى راى فى الوجود التركى لاسيما بعد ترحيب اهالى البلاد به خطرا يتهدده فكان ان انسحب بالقوة، او انصرف الممتكاته فى جزر البحر الكاريبى .

وكان الاسبان قد اتخذوا قبيل طردهم من بلاد المغرب الاوسط وتونس وطرابلس من ميناء المرسى الكبير قاعدة حربية للهجوم على الشواطئ واستمر الاسبان فى هجماتهم فاستولوا على مدينة فضاضة عام ١٥٠٦م ووسعوا من نطاق تحركاتهم

العسكرية في شمال بلاد المغرب وسقطت العديد من الموانئ والسواحل وهكذا فانه على مدى قرن ونصف من الزمان سقطت المغرب الاقصى فى ايدى الاسبان والبرتغاليين واصبح المغاربة تحت رحمة الاسبان والبرتغاليين بعد احتلال معظم ديارهم .

وقد كان للاسبان وجود فى ميناء عنابة منذ عام ٨٦٧هـ/ ١٤٦٣م ومعه بداوا هجومهم الكبير إلى المغرب الجزائرى او التلمسانى باحتلال مدينة المرسى الكبير عام ١٥٠٥م وبمجرد تمركزهم بالمدينة نشطت حركتهم التجارية واقاموا سوقا تجاريا وتعاملت معها القبائل المحيطة بالمدينة وتوسعت دائرة هذا التعاون مع احتلال وهران عام ١٥٠٩م لكن لما احكم الاسبان سيطرتهم على هذه البلاد فانهم فرضوا قيودا شديدة على الحركة التجارية لاضعاف قوة البلاد اقتصاديا ومن ذلك نجد الملك فرديناند فى عام ١٥٠٥م يصدر قرارا بوقف التجارة مع باديس وجميع مغاربة افريقيا وفى عام ١٥٠٦م حرمت الملكة التجارة مع تلمسان وغيرها من المدن المغربية فيما بين مضيق جبل طارق وتونس، لكن الحكومة الاسبانية قررت فى عام ١٥٣٠م احتكار حركة التجارة والتبادل التجارى وسحبت من حاكم وهران وغيره من حكام المدن سلطة البت فى المسائل التجارية التى تخص بادس وتلمسان وتنسى .

وقد استخدم الاسبان اقصى درجات القسوة فى تعاملهم مع السكان المغاربة على الساحل ومن ذلك فانه عندما دخلوا مدينة وهران الجزائرية قتلوا من سكانها اكثر من اربعة آلاف نسمة وبلغ عدد الاسرى الذين سيقوا إلى السفن لبيعهم كرقيق اكثر من ثمانية آلاف رجل بينما لم تخسر اسبانيا غير ثلاثين رجلا وقد كتب قائد الحملة إلى ملك اسبانيا يقول له ان احتلال المدينة كان سهلا والعملية العسكرية كانت ميسورة وهذا الانتصار الميسور للاسبان جعل المسلمين يعتقدون ان الاسبان ما جاءوا إلا من اجل السلب والنهب وانهم متى ادركوا غايتهم وبلغوا هدفهم فانهم سوف يغادرون

البلاد مع الاسلاب وهذا ما جعل الخسائر فى القتلى والاسرى تكون كثيرة حيث ان الاسبان كان هدفهم هذه المرة السيطرة والاحتلال الدائم للبلاد بعكس التوقع الذى كان يدور فى اذهان الاهالى وكان من القبيل ان تكون هذه المدن الساحلية على اتم استعداد للقتال والمقاومة لاسيما وانه قد سبق ان سقطت بعض الموانئ المجاورة فى ايدى الاسبان وكان الامر الطبيعى يقتضى الحذر والحيطة حتى لاتتكرر مثل هذه الاحداث وتقع اعداد كبيرة من القتلى والاسرى فى ايدى الاسبان .

لكن القبائل العربية والبربرية سكان الجبال كانوا دائما يقفون بالمرصاد للقوات الاسبانية لاسيما وانهم عرفوا ان الاسبان لا يستطيعون التوسع خارج المدن الساحلية التى يسيطرون عليها بعد ان حاولوا التوغل للداخل فلاقوا هزيمة نكراء عام ١٥٠٧م على ايدى رجال قبائل دوار العربية عندما كانت حملة اسبانية تتجه إلى مدينة «مسرغين» التى تبعد ثلاث مراحل عن المرسى الكبير فى اتجاه وهران. وكان يقود هذه الحملة قائد القلعة الاسبانية فى المرسى الكبير بقوة من رجال حامية القلعة وبعض اعوانه من القبائل المجاورة حول المرسى الكبير ووهران واستطاع اهالى الجبال المحيطة بمدينة مسرغين بمساعدة قوة من وهران هزيمة الحملة الاسبانية مما دفع حكومة اسبانيا ان ترسل نجدة عسكرية كبيرة خوفا من ان تسترد حامية وهران الاسلامية مدينة المرسى الكبير، ثم حقق الاسبان دخولهم وهران واعقب انتصارهم فى وهران واحتلالهم لمدينة عنابة (بونة) بعد مقاومة لاتكاد تذكر واعقبوه باحتلال طرابلس ثم قام الاسطول الاسبانى بالهجوم على جزيرة جربة لكن الاسبان هزموا وظلت محاولاتهم المتكررة لكسر المقاومة الاسلامية فى جربة وانزلوا بها خمسمائة جندى لاقوا جميعهم حتفهم على ايدى حامية المدينة ومساعدة رجال المقاومة الاسلامية الذين ابدوا مقاومة نادرة للوقوف امام الخطر الاسبانى الذى كان يتفوق عليهم فى قوة اطلاق النيران وحداثة السلاح

المستخدم والمدفعية التى تطلقها السفن والتى لم يكن لاهل السواحل علم بها وهكذا استطاعوا كسر حركة المقاومة .

ولما كانت تركيا العثمانية الاسلامية قد دخلت بلاد المغرب الاوسط والجزائر فانها كانت من جانبها تعمل على طرد الوجود الاسبانى من وهران والمرسى الكبير تحقيقا للسيادة الاسلامية وقام حاكم الجزائر بالكتابة إلى المولى محمد الشيخ السعدى حاكم مراكش واقترح عليه القيام بعمل اسلامى مشترك لطرد الاسبان من وهران والمرسى الكبير وكانت القبائل العربية الاسلامية من سكان المغرب الاوسط قد سبقت إلى حصار وهران والتى كانت ترى فى قدوم القوات التركية والمغربية املا فى تحرير المدينة التى اتخذ حاكمها الاسبانى الاستعدادات الحربية اللازمة لملاقاة الحملة وذهب إلى اسبانيا فى نهاية عام ١٥٤٩م حتى طالت غيبته فى اسبانيا لمدة تزيد عن اربع سنوات حيث اناب عنه فى حكم وهران ابنه «دوين مارتن» وكان ذهابه إلى اسبانيا استكمالا للاستعدادات الحربية وربما كانت فترة غيابه الطويلة عن المدينة هو خوفه من العقاب فى حالة فشل الدفاع عن المدينة وسقوطها فى ايدى القوات الاسلامية المشتركة التركية السعدية لكن تحرير المدينة لم يتم فى هذه الفترة .

كما ان القوى المغربية المجاهدة التى رات فى الوجود الاستعمرى الاسبانى والبرتغالى لارضيها اهدارا لكرامتها العربية الاسلامية فانها لم تطق السيطرة الايبيرية على اراضيها مما كان له صدى قوى فى نفوس سكان البلاد وتبلور ذلك فى حركة الجهاد الاسلامى وجمع الاموال لاسيما أن القوات التركية استطاعت طرد المحتل الاسبانى من طرابلس وتونس والمغرب الاوسط ولم يبق فى يدها الا وهران والمرسى التى سيتم تحريرها مستقبلا على ايدى القوات التركية وكان سكان المغرب الاقصى يرون ضعف الحكام الوطاسين وعدم قدرتهم على الدفاع عن البلاد، بل ان هذه القيادة

الوطاسية سوف تضطر إلى التعاون مع القوى المسيحية فى الوقت الذى تشعر فيه بتهديد قيادات وطنية مجاهدة اخرى فى اقليم المغرب الاقصى ولم يكن لسلاطين بنى وطاس حول ولا قوة لان طبيعة نظامهم لم تكن لتسمح لهم بالاعتماد على الاهالى حتى فى قواتهم المحاربة الا كجنود مرتزقة وبذلك فانهم كانوا منفصلين عن شعوبهم لذا لم يجدوا بدا من الخضوع للغزاة المسيحيين يرتمون فى احضانهم ويحتمون بنفوذهم وكانت البلاد فى تلك الاحوال فى نزاع داخلى بين القوى الجديدة وبين بنى وطاس الذين ارتموا فى أحضان الاسبان والبرتغال حيث كانت حركة الكفاح الاسلامى ضد القوى الاستعمارية الصليبية تجد لها صدى رائعا فى اركان البلاد ولاسيما الجزء الجنوبى الذى رفع راية الكفاح خلف القيادة السعدية الشريفة التى رات فى الوجود الايبيرى اهدارا لكيان البلاد وللروح الاسلامية الوثابة التى ترى فى حرية ديارها املا لابد من تحقيقه بعد ان رات هذه القوى مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادى وبداية القرن السادس عشر الاختلال الكبير فى قوى الصراع وميل التوازن العسكرى إلى صالح القوى المسيحية بعد ان بدات القوى الاسلامية تتعرض للغزو والانكسار بل والانحسار فى عقر الدار بدلا من سياسة الفتح والغزو والجهاد والاستيلاء فكان ان بدات الامواج البشرية المسيحية محاولات التغلب على القوى الاسلامية وكان لها لابد ان تنتقل من اسلوب الدفاع عن اسبانيا وبقايا الاندلس والبرتغال إلى الهجوم فكانت الاحداث التى مرت على ارض المغرب والتى كان يقع على القوى الاسلامية المجاهدة التصدى لها ومحاربتها والقضاء على الجيوب الساحلية الاستعمارية الاسبانية والبرتغالية وهذا ما كان من عمل القوى الوطنية المغربية .

واذا كانت القوى الوطنية المغربية فى بلاد المغرب قد استطاعت فى فترات تاريخية لاحقة من رفع راية التحرير من كل القوى المحتلة الا ان الاوضاع فى بلاد

المغرب الاقصى قد تقف مغايرة لحركة التاريخ اذ اننا لا نزال نجد بعض الجيوب الاستعمارية القديمة تتمثل فى الوجود باحتلال ميناء سبتة ومليلة حتى وقتنا الحاضر وانه من السذاجة التسليم بالواقع الحالى وهو عدم تحرير سبتة ومليلة حتى تاريخ كتابة ذلك البحث وذلك كظاهرة قائمة للحركة الاستعمارية التى قادتها البرتغال واسبانيا فى القرن الخامس عشر الميلادى وبداية القرن السادس عشر، لكن ماذا يعنى استمرار احتلالها من قبل القوى الاسبانية وماذا يعنى مفهوم بقاء هذه الظاهرة فى وقت تم فيه تحرير بلاد العالم من قوى الاحتلال انه ربما تكون العلاقات الدولية المعاصرة فى غرب البحر المتوسط تدفع بالموقف الحالى بين المغرب واسبانيا ان يكون على وضعه لاسيما بعد ان تم تحرير بلاد الريف الاسبانى من قبل القوى الاستعمارية وضمها للديار المغربية .

ان الاسرة العلوية الشريفة الحسنية النسب السلالية المحمدية والتى تتمثل حاليا فى جلالة الملك الحسن الثانى بن الملك الجليل العظيم السيرة العطر التاريخ محمد الخامس لابد انه بذل من الجهود المكثفة مهما تكن مضنية وطويلة للعمل على انهاء الوضع الشاذ لمدينة سبتة ومليلة فى ظل السيادة الاسبانية وذلك لكن تزيل الضجر المستحوذ على نفوس العديدين فى عالمنا العربى والاسلامى وتدخل بدلا منه السرور والفرحة لاسيما على ابناء المغرب نظرا للمكانة الرفيعة التى يمثلها جلالة الملك الحسن الثاني وشعب المغرب العريق فى نفوس ابناء الامة العربية والاسلامية .

الفصل الرابع

«الطرق الصوفية ودورها فى اذكاء روح الجهاد»

كانت الطرق الصوفية من الملامح الهامة فى التاريخ المغربى وثمة وثائق تدل على ازدهارها منذ القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى)، ذلك لان الدين وثيق الصلة دوما بالحياة اليومية لكل مغربى ومن ثم لم تلبث الطرق الصوفية ان اخذت تقوم بدور هام فى الحياة الوطنية فى البلاد وثمة يضعه من الذين انشأوا الاسر المغربية الحاكمة بداوا زحفهم نحو العرش من احدى هذه الزوايا وذلك فى الزمن الذى تؤرخ له اواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر عندما كان يحاول الاسبان والبرتغال ان يحتلوا المغرب الاسلامى كانت الزوايا والاربطة نقط الالتقاء الرئيسية للحياة الوطنية وللمقاومة .

ولقد كان مؤسسو هذه الطرق عادة أولياء يحترم الناس تقواهم وورعهم وكان بعضهم صوفيين اصولين بما فى كلمة التصوف الاسلامى من معنى تقليدى عظيم ومع ان اكثرهم كانوا يعلنون انهم يسيرون على كتاب الله وهدى السنة النبوية المطهرة ونشر الشريعة الاسلامية الا انهم لم يتورعوا فى نشر تعاليم خاصة بهم بالرغم من ان هذه التعاليم كانت تقع ضمن الاطار الواسع لتعاليم الاسلام السمحة، الا انها كثيرا ما كانت تنحرف عن الاصول الدقيقة فى نواح عدة، وقد وقع المغرب لقرون عدة تحت سلطان فرق تركزت فى الطرق الدينية وقد تباينت هذه الطرق فكان منها طرق ترتفع إلى غاية السمو وطرق لم يكن يهمها سوى التطور الروحى والانتماء الصوفى والتقرب إلى الله بالعبادة والعمل الصالح وترويض النفس على تحمل المشاق ومنها طرق كانت تهبط إلى صعيد من الخرافة والشعوذة ومثل ذلك يقال عن شيوخ الزوايا وقد كانت هذه الطرق تضم العديد من افراد الشعب المغربى والذين كانوا ينضمون إلى هذه الزوايا وكان

لابد ان يؤثر بعض من هؤلاء تأثيرا قويا فى شئون الدولة .

وفى ظل ظروف الاحتلال الاسبانى والبرتغالى خاب ظن الشعب المغربى فى الوحدات السياسية التى كانت تعيش بجوار حكم الوطاسين كامارات مستقلة بالمغرب اذ اتجه رؤساء هذه الوحدات إلى لتمكين نفوذهم الداخلى والعمل على الاستقلال عن حكم الوطاسين فى فاس، كما ان حركة الجهاد البحرى الاسلامى لم تستطيع ان تخلص الموانى المغربية من ايدى المسيحين. وفى هذه الظروف الحالكة التى تحيط بالمغرب من جراء خطر القوى الاستعمارية الايبيرية التقت القوى الوطنية المغربية المجاهدة باتجاه صوفى جديد نما وترعرع ضمن ثورة قادها العلماء الصوفية والاشراف وقد اصبح اقطاب التصوف فى هذه الفترة جهابذة العلوم بحيث اضافت إلى ازدهار الثقافة العلمية الاسلامية اشعاعا روحيا جعل من الامة المغربية كتلة متراصه فى وجه العدو الايبيرى وقد اقيمت مراكز المقاومة على طول السواحل المغربية الشمالية الغربية تحت امره الاولياء والصالحين والاشراف والمرابطين .

وكانت الطريق الصوفية التى سادت المغرب فى اواخر عهد الدولة المرينية والعهد الوطاسى الذى نحن بصدد دراسته هنا ان ظهر التنظيم الدينى للطرق الصوفية متمثلا فى طريقتين كبيرتين كانتاهما سمة الطابع الصوفى فى الحياة المغربية وهى الطريقة الشاذلية والقادرية وتعد الطريقة القادرية التى تاسست فى القرن السادس الهجرى الثانى عشر الميلادى على يد عبد القادر الجيلانى اوسع الطرق الصوفية انتشارا، اما الطريقة الشاذلية فقد كانت فى القرن السادس عشر الميلادى يقوم على رعايتها ويحمل اسمها البيت الجزولى وقد انتمت الاسرة السعدية بعد هجرتها إلى اقليم السوس لهذا البيت طريقته وآهلها دعوى الانساب للاشراف للتطور بالتنظيم الصوفى الدينى الجزولى إلى الدور السياسى فى قيادة احداث النزاع الاسرى والقبلى والطائفى بين جمع المغاربة

واحداث القتال ضد البرتغاليين والاسبان وان كانت الدعوة الصوفية قد تاخرت فى المغرب الاقصى كى نرى فى التدهور السياسى والاقتصادى الذى اصاب البلاد فى القرن الخامس عشر فرصة لقيادة المسيرة الجهادية الا ان ذلك لاينبغى على الاطلاق ان المغرب الاقصى منذ القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) قد شهد ظهور العديد من رجالات الطرق الصوفية الذين ذاع صيتهم فى ارجاء المغرب والذين منهم الشيخ القطب الصوفى ابو مدين الغوث المتوفى عام ١١٩٥ وتلميذه القطب الروحى ابو محمد صالح المتوفى ١٢٣٣م وكذلك عبد السلام بن مشمش المتوفى ١٢٣٨م ورغم دور هؤلاء الاقطاب فى الحركة الصوفية الشاذلية الا ان دورهم كان صوفيا روحيا لم يكن لهم ادنى عمل سياسى ولم يستطيعوا ان يثتثمروا نشاطهم الدينى إلى نشاط سياسى وربما لان لظروف السياسية فى ظل حكم اسرة عبد المؤمن بن على قائد الموحدين متعتهم هذا الدور السياسى الذى كانت تتطلع به خلافة الموحدين فى حكم المغرب، ومن ثم كان ان تعاون شيوخ الشمال المغربى مع اخوانهم فى الطريقة الشاذلية مع شيوخ الجنوب التى عرفتها مراكش وحواضرها وشهد العصر المحودى ظهور شيخ الصوفية مولاى بوشعيب الازمورى (ت ١١٦٦هـ) حيث تعاظمت الحركة الصوفية بالمغرب إلى ان جاء القرن الخامس عشر الميلادى لكى تلعب دورها الذى اختارته لنفسها فى ظل ظروف الاحتلال الايبيرى ولكن نجد فى البيت السعدى الشريف سندا يبعث روح المقاومة الاسلامية والدور السياسى الذى تقوم به الطريقة الصوفية الجزولية .

وشهد النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى ذيوع صيت وشهره الشيخ محمد بن سليمان الجزولى ودعوته الصوفية فى جنوب المغرب بصورة لم تشهد مثلها تلك النواحى المغربية حيث جمع تعاليم طريقته فى كتاب باسم «دلائل الخيرات» وينتمى هذا الشيخ إلى جزولة احدى القبائل السملالة البربرية فى بلاد السوس وقضى

بعضا من عمره فى مدينة فاس استطاع ان يؤلف كتابه المشار اليه. وقد مات الشيخ محمد الجزولى بين اعوام ١٤٦٥ او ١٤٧٠م. وسوف يكون لقصة موته باعث للجهاد ضد بقايا اسرة بني مرين ودفعا لحركة الجهاد الاسلامى .

ولقد كان موته فى مدينة اقفال على بعد ثلاثين كيلو مترا من مدينة الصويرة فى وقت كانت تتساقط فيه البلاد فى ايدى الاسبان والبرتغالين وقبل ان تتولى اسره بنى وطاس عرش المغرب بعامين او سبع اعوام. وكان فى ذلك الوقت قد ترك مدينة فاس عائدا إلى بلاد الجنوب حيث ذهب إلى قرية تيست بالقرب من مدينة مازكان وتقابل بها مع شيخ زاوية لمغار ثم تركها بعد ذلك ووتجه للفاء اتباع طريقته إلى مدينة اسفى التى لم يمكث بها طويلا بسبب عداء حاكمها الشديد له فعاد ادراجه إلى الصحراء البادية ليدعو لطريقته بين قبائل حاجة وشياظمة فتبعه كثير من زوايا الصوفية لكنه مات فجأة وقد قيل انه قتل بالسم ومات الجزولى عام ٨٧٠هـ/ ١٤٦٥م وهو المؤكد وليس عام ١٤٧٠م كما ذكرت بعض المصادر وقام على دعوته من بعده عمرو ابن سليمان المغيطى المعروف بالسياف ويقال له المريدى ويبدو ان الذين اطلقوا عليه اسم السياف نظرا لانه استخدم سيفه فى قتل من وضعوا السم لشيخه والانتقام منهم فردا فردا لاسيما ان الذين سموه هم بعض فقهاء عصره والذين كانوا يخشون نفوذه وظل عمرو المغيطى فى تتبعهم وقتلهم وقضى عليهم وقد اتهم تلميذه السلطان عبد الحق المرينى آخر خلفاء بنى مرين (٨٢٣– ٨٦٩هـ/ ١٤٢٠– ١٤٦٥م) وربما يكون قد وضع له السم فى فترة تولى الاسرة الشريفة حكم فاس (٨٦٩– ٨٧٦هـ/ ١٤٦٥– ١٤٧٠م) وذلك لانه ربما كان قد رفض ان يبايع محمد بن على الادريسى الجوطى الذى تولى السلطه فى فاس بعد قتل عبد الحق المرينى لان الشيخ الجزولى ترك فاس فجأة وقد اتهم عمرو السياف فقهاء السلطنة بدس السم لشيخه وقتله وقاد البلاد لثورة مستغلا حالة

التذمر الناجمة عن الاجراءات المالية الجديدة التى سببها السلطان ووزيره اليهودى هارون والتى ضاق بها واثرت فى مجتمع الاشراف فى العاصمة فاس وظل السياف على ثورته هذه مدة عشرين عاما حاملا معه رفات شيخه اينما حل وجعل من الجزولية طريقة صوفية ثم تجاوزت شهرة عمرو السياف انحاء المغرب الاقصى وصار يدعو الناس إلى تعاليم الجزولية كما ذكرها شيخه فى كتابه دلائل الخيرات وجذب الانصار والمريدين إلى مقر رفات شيخه فى افغال حيث دفن بعد ان قتل عمرو السياف عام ١٤٨٥م فى عهد مؤسس الاسرة الوطاسية أبى عبد الله محمد الشيخ الوطاسى وكان سبب قتل السياف انه ادعى النبوة وزعم انه يعلم الغيب وانه مثل الخضر مع موسى عليهما السلام. وان يلقى الخضر وياخذ عنه ومن ثم تم قتله .

ومما يذكر ان ثورة عمرو السياف هذه التى دامت عشرين عاما كانت اثرا مباشرا من اثار دعوة الشيخ الجزولى. والتى مهدت للطريق لان تتواصل المسيرة فان موت الجزولى والسياف لم يمنع مواصلة الحركة الصوفية سعيها للانتشار بين اهالى المغرب لاسيما وانه قد اشتهر من رجالاتها الشيخ عبد العزيز التباع الذى توفى فى مراكش فى فترة حكم ثانى حكام بنى وطاس أبى عبد الله محمد البرتغالى. ثم خلفه على الطريقة الجزولية الشيخ الصوفى عبد الله الغزونى والذى وفد إلى مراكش قادما من الشمال وكانت قد آلت اليه زعامة الحركة خلفا للشيخ عبد العزيز التباع وكانت الوشايات كثيرة من مشايخ عصره لدى السلطان ابى عبد الله البرتغالى الوطاسى لاسيما بعد ان امر بالقبض عليه ورجال طريقته بعد ان وشى به الشيخ أبو عبد الله محمد بن غازى لكن الشيخ التباع استطاع الهرب واستطاع ان يواصل العمل فى طريقته حتى بداية ظهور العهد السعدى .

والذى ينظر إلى ثورة عمرو السياف التى ظلت عشرين عاما وزيادة انصاره ومريدية ثم مواصلة السير على نهج الطريقة بعد وفاته وقيام الشيخ عبد العزيز التباع ومن بعده الشيخ الغزونى انما يدرك ان هذه الثورة كانت بداية احياء طريق العمل السياسى وربطه بالعمل الدينى لاسيما انه فى الجنوب فى اقليم السوس وبالقرب من مراكش كان المجتمع الشريفى الادريسى العلوى السعدى قد بدا يدرك البعد الحقيقى للخطر الذى يتعرض له المغرب من جراء الانقسامات الداخلية والاخطار الايبيرية التى سيطرت على جميع المدن الساحلية ولم تترك للمغاربة غير مدينتى سلا ورباط الفتح، وكان دور الحركة الشريفة فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى محاولة اطواء حركة الصوفية وزعامتها تحت لوائها وكذلك السيطرة على القبائل الجنوبية والعمل على اقصاء الحكم الوطاسى الذى لم يكن له ادنى سند روحى او صوفى او دينى ولم يكن له عون الا مساندة بعض القبائل وان الاسرة الوطاسية قد فقدت مقومات الكيان السياسى الحاكم وانها قد وصلت إلى مرحلة الكهولة والضعف يجعل الطريقة الصوفية تبحث لها عن قيادة تستطيع ان تمسك بزمام الامور والوصول بالشعب المغربى إلى اهدافه فى المحافظة على كيانه السياسى الممزق فى غرب العالم الاسلامى لاسيما انه كان ما يزال ممسكا بمقومات الدولة والعمل على رفع روح الاحياء الوطنى لاسيما بعد ان تحالف الوطاسيون مع البرتغاليين المحتلين وهذا كان يسقط عنهم صفة الحكم الشرعى للبلاد .

وفى الجنوب حيث اقليم السوس كان الجو الصوفى والدينى والجهادى والسياسى ومؤهلا لان تلعب هذه البلاد دورها فى اذكاء روح الجهاد فى سبيل كرامة التراب المغربى ودفع العدوان عن ديار الاسلام لاسيما بعد ان ادركت قبائل هذه الاقاليم ما أحاط البلاد من اخطار وما ساد المجتمع من تفاقم الاحوال سواء فى ظل الحكم

الوطاسى والسيطرة الاجنبية الاوربية واحتلال العدو وطمعه فى بلادهم والسيطرة على مقدراتهم ولم يكن امام زعماء القبائل الا ان يلجأوا إلى رجال الطرق الصوفية والعلماء ورجال الدين لكى يجدوا لديهم الحلول المناسبة التى يستطيعون من خلالها ايجاد السبل الملائمة للخروج من ذلك المازق التاريخى الذى تعيشه البلاد ولم يكن امامهم فى ذلك الاقليم الا الشيخ الصالح ابى عبد الله محمد المبارك الاقاوى االذى يحمل اسم الاقاوى نسبه إلى قرية فى اقليم السوس ووضعوا حالة البلاد التى كانت امامه صورة متكاملة من التمزق السياسى وتفرق كلمة القبائل وخضوع بعضها للسيطرة الاجنبية الايبيرية وقبول تعاملها مع الاسبان والبرتغالين وقيام القوات الاوربية بالهجوم عليهم ومواصلة محاربتهم للسيطرة على بلادهم واجبارهم على التعامل التجارى معهم لاسيما فى السكر الخام الذى كان يكثر انتاجه فى بلاد السوس. وكانت الطريقه الجزلية قد جذبت اليها رجال القبائل مما جعلهم يهرعون إلى راس الرباط وزعيمه أبى عبد الله بن مبارك فى مدينة تارودانت، ومن ثم كان على راية الجهاد التى رفعتها الطريقة الشاذلية الجزولية منذ عام ١٥١١م لاسيما فى مناطق الجونب حيث اقليم السوس واهله الذين يعانون وطأه الاحتلال البرتغالى وسيطرته على اراضيهم الساحلية فى ميناء اغادير والتغلغل منها إلى المناطق الداخلية ومن هنا فقد كان كان على هذا التغلغل ان يواجه من قبل رجال الطريقة الصوفية الجزولية التى كانت قد ضربت بجذورها العميقة فى المجتمع الجنوبى حيث بلاد الهبط والسوس وان الطريقة قد مضى عليها ما يقرب من نصف قرن من الزمان وكانت الظروف التاريخية المعاصرة للاحتلال البرتغالى وكذلك الاحوال السياسية السيئة التى تمر بها الاسرة الوطاسية والمعاناة الاقتصادية التى يعانى منها الشعب المغربى من جراء صد ابواب المدن الساحلية امام التجارة المغربية وما تركه اسلوب الغزو البرتغالى على الحياة الاقتصادية وتصاعد السيطرة التوسعية البرتغالية بعد ان بلغت اقصاها فى الجنوب. فكان على الراية الصوفية ان

نبحث لها عن من يقود حركة الجهاد السلامى ضد القوى المحتلة التى بدات تشكل حاجزا منيعا للعمل على ترويض روح الجهاد وكبح جماع الحماس الشعبى خلف الطريقة الجزولية ولكن كان لابد ان يحدث المخاض الذى ينتج عنه مولد حياة شابة لاسرة جديدة تقود النضال السياسى رالدينى والصوفى من احساس بالخطر البرتغالى المباشر على مركز اقامتها فى مدينة واحة آقة وراء جبال الاطلسى حيث تنطلق القوافل التجارية المتجة جنوبا إلى بلاد السودان الغربى وحيث محاولة البرتغالين تهديد العلاقة التجارية بين مدينة تيدس واقة لاسيما ان مدينة تيدس لها مكانة دينية لدى الطريقة الجزولية الصوفية وانها كسوق تجارى هام وكبيرة تلعب دورا فى رفع روح الجهاد للحركة الجديدة وكانت هذه السوق تعقد سنويا والتى كانت تنافس فى شهرتها تارودانت والتى كانت الطريقة الجزولية ممثلة فى زعيم اقة رؤية فى ضرورة مواجهة هذه الاخطار الخارجية بعد ان فزع الناس من الساحل وبات الهروب للداخل حيث الواحات الجبلية الاطلسية وكان تجمع رجال القبائل حول الطريقة التى كانوا يرون فى الانتماء لها هروبا من الواقع الاليم ونظرة للمستقبل بعد ان فشل حكام بنى وطاس فى القدرة على مواجهة الخطر الخارجى بل وصل بهم الامر إلى التعاون مع المحتل الاجنبى من اجل الكيان السياسى الذى باتت قوى الانهيار تتكالب عليه خارجيا فكان على الداخل ان يعول على اسرة عريقة ذات اصول تاريخية ودينية وبيت شريف لكى تكون المبادرة بيدها لاسيما وان هذه الاسرة او البيت الشريف قد انتمى إلى البيت الجزولى وطريقته منذ مطلع القرن السادس عشر بعد ان هاجرت إلى اقليم السوس وكانت الصلة الشريفة بالبيت النبوى الشريف وطوق الشرافة القرشية المحمدية التى تحملة فى رقبتها دافعا لها لان تتقدم الصفوف لكى تاخذ بالتنظيم الصوفى الدينى الجزولى إلى بعد آخر غير البعد الدينى وهو البعد السياسى الجهادى لكى تعمل على احتواء الازمات التى تنشب من القبائل والاسر والطوائف التى كانت تمزق الكيان السياسى للمغرب لاسيما

ان القتال يدور على ارضه والمطامع البرتغالية والتركية العثمانية تحاول الانقضاض على البقية الباقية حول فاس أو مراكش.

وهكذا كان النسب القرشي المحمدى الحسنى الطالبى هو الركيزة القوية بل هو السند الذى لا سند بعده وغاية ترتكز عليها حركة الجهاد الاسلامى كى تبعث دورا سياسيا جديدا بعد تدهور الدور الوطاسى وبعد حالة القتال والصراع القبلى، فكان ان رفعت الطريقة الجزولية الشاذلية راية الجهاد للاسرة السعدية الشريفة لكى تعود مسيرة المغرب بروح جديدة واسرة جديدة وبدا المغرب عصرا جديدا يعد من امجد واشرف واعظم صفحات تاريخ المغرب طوال عصوره المختلفة حيث يخلد السعديون تاريخ بلادهم بالكفاح الاسلامى .

الفصل الخامس

نظرة اخيرة على الاسرة الوطاسية

حكمت الاسرة الوطاسية بلاد المغرب الاقصى طوال فترة زمنية تصل إلى ثمانين عاما هجريا (٨٧٦- ٩٥٦هـ) وما يقرب من ثمانية وسبعين عاما ميلاديا (١٤٧١- ١٥٤٩م) تبادل فيها حكم البلاد اربعة من أمراء بنى وطاس بدءا من أبى عبد الله محمد الشيخ الوطاسى الذى استطاع ان يسقط حكم الاشراف الورياكين فى فاس بعد ان انهى حكم الشريف محمد بن على الادريسى الجوطى الذى حكم ست سنوات (١٤٦٥- ١٤٧١م) وانتهت الاسرة الوطاسية بسيطرة السعدين على فاس عام ١٥٤٩م بعد القضاء على حكم أحمد الوطاسى وان كان ابو حسون قد عاد بمساعدة الاتراك إلى عرش البلاد الا ان فترة حكمه لم تدم الا ثمانية شهور ٣ صفر ٩٦١ إلى ٢٤ شوال ٩٦١هـ) الا ان هذه الفترة قد حفلت بالاحداث السياسية والاجتماعية والعسكرية التى لم تشهدها بلاد المغرب فى مرحلة من مراحل تاريخها السابق فعلى الصعيد الداخلى شهدت البلاد تحرشا سياسيا لم تشهده من قبل اذ تكالبت القوى الخارجية البرتغالية والاسبانية على احتلال جميع الموانئ والمدن الساحلية على ساحل البحر المتوسط وكذلك الساحل المغربى المطل على المحيط الاطلسى بحيث لم يبق فى ايدى المغاربة سوى ميناء سلا ورباط الفتح وتحكم العدو الايبيرى فى مداخل البلاد ومخارجها ولم يعد للكيان السياسى الوطاسى قدرة فعالة للتصدى لهذا الغزو الخارجي وان كان قد حاول ان يجد سبيلا للتعاون مع القوى الخارجية للمساعدة فى تحرير بلاده فقد تعاون احمد الوطاسى وقبله والده محمد البرتغالى مع الاتراك العثمانين من أجل طرد البرتغالين من بلاده وكذلك تحالف مع الاسبان من اجل طرد البرتغالين لكن هذه المخالفات لم تجد ادنى وسيلة للتغلب على قوى الاحتلال الذى بات يتهدد البلاد بعد

ان تحكموا فى رقاب العباد وبدا نفوذهم يمتد للداخل وقيامهم بغزو العاصمة فاس وقبلها العاصمة الجنوبية مراكش لكن هذا الغزو لم يحقق واصيب بالفشل .

كذلك فان ظهور بعض الكيانات المستقلة الصغيرة داخليا وان كانت تتبع اسميا السيادة الوطاسية الا انها كانت تمارس نفوذها على الاقليم الذى يخضع لها كما خضعت بعض المناطق لسيطرة القبائل وباتت الاوضاع الداخلية تنذر بالخطر اضافة إلى الخطر الخارجى .

وكان ظهور الاسرة السعدية الشريفة التى ظلت تقاوم القوى الاستعمارية الصليبية فترة تزيد عن عشرين عاما بدءا من عام ١٥١٢ حتى عام ١٥٣٢م حيث بدا الصراع ياخذا بعدا جديدا بدا بمحاولة السعدين القضاء على نفوذ الوطاسيين وكان ان احتدم الصراع من عام ١٥٣٢ حتى عام ١٥٤٩ والذى استمر سبعة عشر عاما فى حروب متواصلة مع الاسرة الوطاسية لاسيما مع احمد الوطاسى وان كانت فترة والدة محمد البرتغالى قد شهدت تصادما وطاسيا سعديا استطاع ان ينتزع مراكش من ايدى الوطاسين لكن فترة حكم احمد الوطاسى هى التى جاءت بالقوة الشابة السعدية على انقاض الدولة المترهلة الوطاسية فكانت فترة حكم الوطاسين هى اضعف حلفات التاريخ المغربى اذ انه رغم استمرار فترة حكم متصلة طوال ثمانين عاما الا ان المظاهر الحضارية والثقافية والعمرانية والاقتصادية والتعليمية لم تكن بتلك الصورة التى كانت عليها فى العصور السابقة كالمرابطين او الموحدين او بنى مرين والذين استولوا على السلطة منهم ولا كالسعدين الذين لحقوا زمنيا وامسكوا بزمام القيادة فى المغـرب الاقصـى مـن بعدهم .

لكن الذى ينظر إلى احداث هذه الاسرة التى حاول الكثير من المؤرخين عدم اعتبارها اسرة حاكمة (حسين مؤنس وغيره) واعتبارها حلقة بين مرحلتى الاسرة المرينية

والاسرة السعدية الا ان السلاوى يذكر ما يدل على ان الدولة كانت لها بعض المآثر الحضارية والثقافية العمرانية والاسلامية وكان لها دور لا ينكر فى مجال المحافظة على العقيدة الاسلامية والعمل بقدر المستطاع لكسر حركة الحصار التى كانت تفرض على المغرب لاسيما ان اول حكام الاسرة الوطاسية محمد الشيخ الوطاسى قد شهد انهيار آخر المعاقل الاسلامية فى الاندلس وسقوط غرناطة عام ١٤٩٢م ونزوح الهجرات الاندلسية الكبيرة إلى بلاد المغرب حيث اقرب البلاد الاسلامية قاطبة إلى الاندلس وكان على المغرب الوطاسى ان يعمل على استقبال هذه الملايين المهاجرة إلى بلادهم ومن ثم فان هذه الهجرة الاندلسية كان لها دورها فى الحياة الوطاسية لاسيما ان استمرار تدفق المهاجرين الاندلسين قد استمر طوال فترة الحكم الوطاسى بداية من عام ١٤٩٢ حتى عام ١٥٤٩م اى طوال اكثر من نصف قرن وقد كان للاندلسين فضل لاينكر فى جميع مجالات الحياة اليومية .

ومن ذلك فاننا نجد عن عودة ابى حسون بن محمد الشيخ الوطاسى عندما عاد لتولى السلطة فى فاس ويدخل عاصمة اجداده نجد المؤرخ المجهول الذى كتب كتابا سماه الدولة السعدية يذكر ان العلماء ورجال الدين وعليه القوم واهل الحل والعقد استقبلوا السلطان الوطاسى احسن استقبال ووقف الشيخ الزقاق احد كبار علماء فاس يذكر الناس بما فعله الوطاسيون اثناء فترة حكمهم للمغرب فيقول عن ابى حسون انه بقية امرائكم الذين شيدوا البلاد وسعد بهم العباد وشرفوا المساجد وبنو المدارس وقاموا بامر الدين والدنيا .

والذى ياخذ بهذه الخطبة وما جاء فيها من اقوال لا شك انها كانت على جانب كبير من الصحة والقبول لاسيما انه كان يخاطب أناسا معاصرين للاحداث ويذكرهم بامجاد وافعال الاسرة الوطاسية يدرك ان حكام بنى وطاس قد اهتموا رغم ظروف الفترة

الزمنية بالحياة الدينية والتعليمية فقاموا ببناء المساجد والاغداق عليها والاهتمام بامور رجال الدين والعلماء قربوهم اليهم واهتموا بالحركة العمرانية استفادة من خبرات اهل الاندلس وقاموا ببناء المدارس والاهتمام بالتعليم الدينى فى المدارس التى كانت تقوم على تدريس المذهب المالكى والعلوم المتصلة به وتحفيظ القرآن الكريم فى الكتاتيب التى كانت منتشرة فى طوال البلاد وعرضها وكذلك تدرس العلوم المتصلة بالحياة اضافة إلى الفقه والحديث والتفسير كانت تدرس الفلسفة والرياضيات والطب والهندسة والكيمياء وغيرها من العاوم المعاصرة .

كذلك كان الاهتمام ببناء المدن الجديدة وتحسين القديم فيها واقامة القلاع والحصون لاسيما ان البلاد كانت تتعرض للهجوم المتواصل من قبل البرتغالين والاسبان وكان على الوطاسين كسبا للرأى العام الشعبى والعمل على بناء الاستحكامات والقلاع والحصون والحصول على الاسلحة النارية الحديثة وبناء السفن الحربية وحشدها بالقوات والاهتمام بالجيش ومحاولة تجنيد العديد من ابناء القبائل والاستعانة بالسودان المرتزقة فى صفوف الجيش وكذلك العمل على الذود عن كيان البلاد والبذل والعطاء وتقديم كل عون للحركة الاسلامية المغربية المجاهدة التى تزعمتها الاسرة السعدية فى بادئ الامر وتقديم المال والعتاد والسلاح والخيل والمؤن الحربية للاسرة السعدية ومساعدتها فى جهادها وكذلك عملت أسرة الوطاسين على مساعدة اهل مراكش فى اثناء حصار البرتغالين للمدينة وعملت على اذكاء روح الجهاد الاسلامى والتقرب إلى رجال الطرق الصوفية بعد ان ثبتت فاعليتها فى تحرير بعض المدن والموانئ الساحلية من ايدى البرتغالين وان كانت بعض المواقف قد املت على حكام بنى وطاس التعاون او التحالف مع القوى الصليبية الايبيرية الا ان ذلك قد يكون ضعفا من حكام بنى وطاس فى بعض المواقف التى كانوا يعيشون فيها فى مآزق

عسكرية او دفعا لخطر يتهدد كيان العرش وربما كانت سمة الحكام الذين كانوا يفضلون مصلحة فردية على مصلحة البلاد والعباد وكانت روح العصور الوسطى تسود فيها حالة التحالف مع العدو التقليدى من اجل تحقيق هدف شخصى ادى فى النهاية إلى عزله هؤلاء الحكام ونصب الشعب المشانق لهم ومحاولة ايجاد السبل والوسائل للتخلص منهم والالتفاف حول قيادة وراية جديدة تعمل على اجلاء المحتل الغاصب والقضاء على الامارات والاقاليم المستقلة عن الكيان الشرعى فى فاس، ومن هنا فقد شهدت فترة حكم بنى وطاس فى المغرب اكبر تطور فى الاوضاع السياسية ذلك هو انتقال السلطان الفعلى من ايدى سلاطين بنى وطاس إلى ايدى الجماعات الصوفية الدينية التى انشأها شيوخ وأئمة الطرق الصوفية المجاهدة من امثال الشيخ الجزولى والجيلانى وابن عروس مدفوعين فى ذلك بالحماس الدينى الذى شمل المغرب كله نتيجه لاشتداد خطر الغزو النصرانى البرتغالى والاسبانى على سواحل المغرب، وتلك هى المقدمات التى مهدت لقيام دولة الاشراف السعدين الذين استطاعوا تزعم حركة الجهاد الاسلامى ضد العدو النصرانى والوقوف فى وجهه ووقف تقدمه لابتلاع المغرب الاقصى كله .

وعلى هذا فانه يمكن القول استنادا إلى تلك الاراء ان فترة حكم الوطاسين كانت مقدمة لظهور الدور الدينى الصوفى الذى لعبته هذه الطرق للوقوف والتصدى للخطر الصليبى الزاحف من جنوب اوربا بعد طرد المسلمين من ديارهم، كما ان الفترة الوطاسية قد شهدت تفتح قوى عالمية اخرى كانجلترا وفرنسا وهولندا وغيرهما من الدول الاوربية التى ادركت دور المغرب فى صلة الربط بينها وبين المستعمرات التى احتلتها او فى طريقها إلى تكوين مستعمرات لها وراء البحار. ومن ثم كانت محاولة ايجاد موانئ لها تكون محطات للانطلاق منها جنوبا إلى جنوب القاره الافريقية والمحيط الهندى

والاطلنطى وجزر الهند الشرقية (اندونسيا) والملايو وغيرها من البلاد التى كانت تسعى تلك الدول إلى امتلاكها او الاتجار معها. ذلك لان الاسرة الوطاسية ظات تمارس دورها السياسى فى منتصف القرن السادس عشر الميلادى وهى الفترة إلى كانت فيها هذه الدول غير البرتغال واسبانيا تحاول البحث عن اسواق تجارية لها فى ارض المغرب الغنى بموارده الطبيعية وانتاجه الوفير .

كما ان لا يمكن انكار ان الوطاسين قد حافظوا على استقلالهم فى المغرب الاقصى رغم التدخلات السياسية فى ذلك الوقت وخطر الوجود التركى العثمانى فى المغرب الاوسط والصراع الايبيرى الاسبانى البرتغالى على ارض المغرب، فان بنى وطاس عملوا قدر طاقتهم وامكانياتهم المحدودة لاطواء كل بلاد المغرب تحت الراية العثمانية لكن الوطاسيين حافظوا على عرشهم امام ضغوط قوى النزاع المحيطة به ومن هنا كانوا يهادنون الاتراك تارة والقوة الصليبية تارة اخرى وعندما كانوا يشعرون بشدة الخطر الصليبى كانوا يرفعون شعار الجهاد الاسلامى ومناشدة العمل مع الاتراك العثمانيين من اجل طرد القوى الاستعمارية من المغرب، كما انهم كانوا يلجأون إلى الاسبان متحالفين معهم ضدالبرتغالين ومع الاخيرين ضد الاسبان وكل ذلك من اجل عمل التوازن السياسى المطلوب فى منطقتهم التى تحف بها الاخطار من كل جانب مرعاة للظروف السياسية السائدة، لكن كل ذلك يجعل الاسرة الوطاسية تنجح فى البقاء طويلا فى عرش البلاد بسبب نزوع القوى المحلية التامية فى الجنوب حيث بلاد السوس وهدفها فى اسقاط بنى وطاس بعد ان خاب مسعاهم فى توحيد البلاد تحت قيادتهم وفى القضاء على البؤر الاستعمارية والجيوب الاسبانية البرتغالية التى شكلت اكبر تحدٍ حقيقى بواجه القوى الدينية فى بلاد المغرب خلال النصف الاول من القرن السادس عشر الميلادى حيث كان التنازل عن الموانئ المغربية الاسلامية للبرتغالين او الاسبان

يشكل نهاية النهاية بالنسبة للدولة الوطاسية التى كان سقوطها مؤكدا بل مؤشرا إلى تصاعد قوى السعدين حيث ان ملامح ظهور حركة جهادية جديدة بدات تاخذ زمام المبادرة رافضة للوضع الاستعمارى البرتغالى والاسبانى والامارات المحلية الصغيرة وعدم قبول الحماية المسيحية وتطلعات الطرق الصوفية إلى مراكش فى راية الشرافة الحسنية الطالبية القرشية دفعا لكى تتحرك هذه القوى من جنوب بلاد السوس حيث الاتجاه شمالا لاسقاط قوى الوطاسية التى تهاوت امام ضربات روح الجهاد السعدى وكان على بن وطاس اى يسلموا قيادة المغرب الاقصى كرها منهم للسعدين الاشراف وتلك نهاية بنى وطاس .

حكام الاسرة الوطاسية

١ - ابو عبد الله محمد الشيخ الوطاسى

٨٧٦- ٩١٠هـ- ١٤٧١- ١٥٠٤م .

٢ - ابو عبد الله محمد بن محمد الشيخ الوطاسى- البرتغالى

٩١٠- ٩٣٢هـ- ١٥٠٤- ١٥٢٥م .

٣ - ابو حسون بن محمد الشيخ الوطاسى

٩٣٢هـ- ١٥٢٥م .

٤ - احمد بن عبد الله محمد البرتغالى ابو العباس

٩٣٢هـ- ٩٥٦هـ- ١٥٢٦- ١٥٤٩م .

فترة حكم الاسرة الوطاسية فى فاس

٨٧٦- ٩٥٦ = ٨٠ عام هجرى .

١٤٧١- ١٥٤٩ = ٧٨ عام ميلادى .

٥ - ابو حسون بن محمد الشيخ الوطاسى

٣ صفر ٩٦١هـ- ٢٤ شوال ٩٦١هـ .

يشكل نهاية النهاية بالنسبة للدولة الوطاسية التى كان سقوطها مؤكدا بل مؤشرا إلى تصاعد قوى السعدين حيث ان ملامح ظهور حركة جهادية جديدة بدات تاخذ زمام المبادرة رافضة للوضع الاستعمارى البرتغالى والاسبانى والامارات المحلية الصغيرة وعدم قبول الحماية المسيحية وتطلعات الطرق الصوفية إلى مراكش فى راية الشرافة الحسنية الطالبية القرشية دفعا لكى تتحرك هذه القوى من جنوب بلاد السوس حيث الاتجاه شمالا لاسقاط قوى الوطاسية التى تهاوت امام ضربات روح الجهاد السعدى وكان على بن وطاس اى يسلموا قيادة المغرب الاقصى كرها منهم للسعدين الاشراف وتلك نهاية بنى وطاس .

حكام الاسرة الوطاسية

١ - ابو عبد الله محمد الشيخ الوطاسى

٨٧٦- ٩١٠هـ- ١٤٧١- ١٥٠٤م .

٢ - ابو عبد الله محمد بن محمد الشيخ الوطاسى- البرتغالى

٩١٠- ٩٣٢هـ- ١٥٠٤- ١٥٢٥م .

٣ - ابو حسون بن محمد الشيخ الوطاسى

٩٣٢هـ- ١٥٢٥م .

٤ - احمد بن عبد الله محمد البرتغالى ابو العباس

٩٣٢هـ- ٩٥٦هـ- ١٥٢٦- ١٥٤٩م .

فترة حكم الاسرة الوطاسية فى فاس

٨٧٦- ٩٥٦ = ٨٠ عام هجرى .

١٤٧١- ١٥٤٩ = ٧٨ عام ميلادى .

٥ - ابو حسون بن محمد الشيخ الوطاسى

٣ صفر ٩٦١هـ- ٢٤ شوال ٩٦١هـ .

الباب الثاني

الاشراف السعديون ومسرح الاحداث بالمغرب الاقصى

الشعوب المغربية وبصفة خاصة شعب المغرب الاقصى حيث البوابة الغربية للعالم الاسلامى يشتهر بحبه الشديد للنسب الهاشمى القرشى الشريف بالدوحة النبوية المطهرة وللسلالة التركية الطيبة التى تهفو اليها نفوس المغاربة حبا وبركة بوجود نسل الرسول ﷺ فى ارض المغرب التى تشرفت بالهجرة المباركة من أحفاد النسب المحمدى منذ عصور مبكرة من الدعوة الاسلامية، وعلى هذا فقد ارتبط الحب الشديد للنسب الشريف يتمسك المغاربة بتعاليم الدين الاسلامى الحنيف وتنفيذ تعاليمة بدقة وبصيره، ومن ثم فقد رات الشعوب المغربية فى هؤلاء الاشراف الذين هم نتاج الشجرة الطيبة المباركة التى يتفرع منها النسل الطاهر لرسول الله ﷺ صاحب الدعوة ورسول الهدى للبشرية، أنهم أقدر وأصلح وأنسب الناس قيادة للبلاد للمحافظة على أمور الدين والدينا وان هذا الاحساس من الشعب المغربى فى النسب الشريف قد تأكد بوصول ادريس بن عبد الله العلوى الطالبى إلى المغرب وفراره من مذبحة فخ بالحجاز التى أوقعها بهم العباسيون ونجاحه فى تكوين دولة الادارسة بالمغرب (١٧٢- ٣٤٧هـ- ٧٨٨- ٩٥٨م) ولقد اعتز أبناء المغرب بوجود ذوى النسب النبوى الشريف بين أحضان المغرب وتفرع سلالتهم الشريفة على أرضه .

ولقد كان وجودهم يشكل بناء أسرى اجتماعى وسياسى متميز عن بقية أنحاء الاقاليم المغربيية الاخرى، وهكذا ارتبطت الشرافة القرشية بتاريخ المغرب الاقصى واسرته الحاكمة دون أى بلد اسلامى. فسلطان المغرب هو فى نفس الوقت الامام والزعيم الدينى، وعندما كان أهل المغرب يحسون بالاخطار تتهدد أوطانهم فانهم كانوا يلجأون إلى الاشراف لكى يجدوا لديهم القدرة بما لهم من صلة النسب الشريف فى انقاذ

البلاد، ففى اواخر عهد الدولة المرينية عندما سيطر اليهوديان هارون وشاول على تقاليد الامور فى عهد السلطان عبد الحق المرينى، فان الشعب المغربى ممثلا فى شيوخ مدينة فاس ورؤساءها رؤاد فى الشريف أبى عبد الله محمد بن ادريس الجوطى نقيب الاشراف بفاس المنقذ للبلاد. (٨٦٩- ٨٧٦هـ- ١٤٦٤- ١٤٧١م) والذى ظل يحكم البلاد حتى تغلب عليه محمد الشيخ الوطاسى .

وعلى هذا فانه يمكن القول ان الشرف العربى القرشى النبوى له نماذج عديدة فى ارض المغرب قبل ظهور السعدين على مسرح الاحداث ولقد ظهرت الشرافة العربية فى تاريخ المغرب الاقصى بصفة خاصة مرتين قبل ان تاتى الثالثة على يد الاشراف السعديين وتكون بعدها الشرافة الرابعة والاخيرة وهى الشرافة العلوية التى لاتزال تحكم المغرب الاقصى حتى تاريخ كتابة هذا البحث (١٩٩٢م). وهكذا فى ظل الاحداث التى تتواكب على الساحة المغربية رأت القيادة الدينية الصوفية ان الواجب الاسلامى يحتم عليها الالتفاف حول الراية العربية الشريفة النبوية واحياء دورها التاريخى كما سبق ان كان لها نفس الدور أيام الدولة الادريسية .

ومن هنا كان السعديون يقع عليهم عبء قيادة البلاد مرتدين عباءة الشرافة العربية ويركبون موجة الجهاد والحركة الدينية الداعية إلى بناء مغرب جديدتضع نهاية لضعف الدولة المركزية فى مراكش وحالة التشرذم التى تعيشها دولة بنى وطاس لاسيما وان المشاعر المغربية وبصفة خاصة فى بلاد السوس تلتفت حول السعدين الذين لم يجدوا أدنى صعوبة فى تأسيس دولتهم بل انهم وجدوا الحماس من كل طبقات الشعب ورجال القبائل الكبرى ومشايخ الطرق الصوفية .

كما اننا سوف نرى فى نهاية هذا البحث كيف انه فى نفس الظروف التى تولى فيها السعديون حكم المغرب مدعوين بنفس المشاعر المغربية ازاء الشرافة العربية القرشية

النبوية استطاع الاشراف العلويون السجلماسيون او الفلاليون تكوين دولتهم على انقاض دولة الاشراف السعدين فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) ولا يزال هؤلاء الاشراف العلويون يحكمون بلاد المغرب الاقصى حتى الوقت الحالى كما سبق القول حيث كان جدهم الاكبر الحسن بن القاسم جد العلويين هو أول من ترك بلاد المغرب ثم اتجه جنوبا إلى سجلماسة وذلك بعد قدومه من بلاد الحجاز متمسكا بالنسب الشريف العلوى عاملا مد شرافة الشرق الحجازية فى محيطها العربى إلى الحركة الاسلامية فى بلاد المغرب .

وعلى هذا فان الذى ينظر للدور الذى ستلعبه الاسرة السعدية الشريفة فى تاريخ المغرب فى تلك الظروف حالكة السواء والمنعطف الخطير الذى يعصف بالحركة فى مواجهة تحديات عانية يدرك ان حركة التاريخ عبر سيرها الطويل فى المغرب وانحدار دول ونهايتها (المرابطين، الموحدين، المرينين، الوطاسين) وظهور دول غنية اخرى يدرك ان الدولة كما ذكر ابن خلدون فى مقدمته تمر باطوار عدة بين النشأة والنضج والقوة والكهولة التى تعنى فى النهاية سقوط الاسرة الحاكمة وعودة الدولة إلى دورة جديدة بدماء جديدة ممارسة لدورها باسم اسرة حاكمة جديدة تتخذ من النسب القرشى الشريف والعقيدة الاسلامية شريان حياتها الرئيسى بعد أن أودت بحياة أسرة بنى وطاس، ذلك لأنه كان للدين الاسلامى فى بلاد المغرب شأنها شأن بلاد بقية العالم الاسلامى الواسع فى ذلك الوقت أهمية بالغة فى اذكاء روح البناء الحاكم ومنطلق من منطلق دينى تتواكب تحت لوائه بل اجنحته حركة الدولة التى يكون عامل الشرافة القرشية الطالبية الحسنية الهاشمية هو المحرك الاساسى لكى تمارس نشاطها السياسى والاجتماعى والاقتصادى عبر مراحل بناء الدولة وادوار حياتها التى تمتد اكثر من قرن ونصف من الزمان .

ومن هنا كان النسب الشريف والروح الصوفية والطريقة الجزولية على الساحة المغربية ادراكا بالخطر البرتغالى والاسبانى الذى بات يتهددا دورها فى بناء الدولة السعدية لكى يعود للدين الاسلامى اطاره القوى ويستطيع ان يقف ويواجه تيار التحديات التى جاءت إلى أرض المغرب تحل دياره وتناصبه العداء والتى كانت تتحدى مقدرات الشعب المغربى التى تمس فى نفس الوقت مقومات الاسلام والعروبة بحكم مواجهتها المستمرة مع حركة التاريخ الاوربى وبحكم الاطار الزمنى والظروف السياسية التى يتحرك فيها المغرب تفاعلا مع التحركات المضادة على الجانب الآخر من مضيق جبل طارق التى قدمت إلى الساحل المغربى تحتل ثغوره الحساسة ومدنه السحاحلية الهامة انطلاقا لخنق بقايا الجهاد الاسلامى فى اراض الاندلس .

وفى ظل هذه الظروف كانت كل الاسباب تدفع الاحداث دفعا امامها لظهور الامارة السعدية الشريفة لكى تدعم قوتها وتطورها ونزعتها العربية الشريفة لكى تلعب دورا على مسرح الاحداث السياسية فى بلاد المغرب الاقصى مستفيدة من كل الظروف السابقة والاحوال المحيطة ولكن تدرك ابعاد الصدام المرتقب الذى يرنو ببصره تطلعا لابتلاع المغرب بين القوى التركية العثمانية والاسبانية والبرتغالية لاسيما بعد ان سيطرت كل من هذه القوى الثلاث على بعض الثغور الساحلية فى بلاد المغرب الاقصى .

ومن هنا لم تكن نشأة الدولة السعدية التى نعرض لها على صفحات هذا البحث حتى سقوطها على يد الاشراف العلوين ليلعب الدور الهام الا بالنسب الشريف الذى دفع بها إلى قلب الاحداث حيث كان النسب هو المحرك القوى والفعال بل والمؤثر الحاسم فى الصراع مع بنى وطاس لكى يتم بناء دولة كانت تقيم اوج البناء اعتمادا على البعد الدينى مرتديا عباده الاشراف الحسنين القرشين مضافا اليه البعد الاقتصادى

والاجتماعى ومن هنا جاء الينا الشريف السعدى قويا معتصما بالقوى العربية المغربية التى ساندته منذ الوهلة الاولى التى انطلق فيها مؤسسها الاول محمد القائم الشريف السعدى الذى رأى ان الوقت قد حان لكى يلعب الاشراف دورهم على الساحة المغربية ادراكا بالخطر البرتغالى والاسبانى الذى بات يتهددا الوطن لاسيما بعد تطلع الايبيرين لاحتلال الداخل وقيامهم بارسال حملات عسكرية لاحتلال مراكش العاصمة الثانية لبنى وطاس وبعد ذلك ارسال حملات لاحتلال فاس العاصمة الاولى. ومن هنا تصدت الاسرة السعدية للعدوان الصليبى قادمة من قلب الجنوب المغربى رافعة راية الجهاد الاسلامى ضد القوى الاستعمارية البرتغالية وباسم الجهاد الاسلامى واحياء الدولة الاسلامية على نمط المرابطين والموحدين تصاعدت القوة الكبرى للاسرة وللامارة السعدية وبدات وحدتها السياسية تحاول ان تجد لها طريقا بين القوى الكبرى الثلاث وهى الامبراطوريات المجاورة ومن هنا كان عليها ان تجد لنفسها طريقا لابد ان تلعبه وتمارس فيه وجودها مرتبطا بعلاقات مع تلك الدول .

وهكذا نشأت الامارة السعدية من التنظيم الدينى الصوفى الذى ساد المغرب مع رداء العبادة الشريفة القرشية وكان فرع من الاسرة السعدية قد هاجر فى اواسط القرن الخامس عشر إلى اقليم السوس واستقر فى قرية صغيرة تسمى (تيدس) وتقع جنوب غرب مدينة «تارودانت» وعرف عن الاسرة السعدية منذ استقرارها فى تلك المنطقة بالانتماء للاشراف الحسنين العلوين من نسل محمد بن ابى القاسم من اشراف سجلماسة من نسل محمد النفس الذكية ومن ابناء الحسن بن على .

ومحمد القائم السعدى مؤسس الاسرة السعدية ورافع لواء الجهاد الاسلامى هو محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن على بن مخلوف بن زيدان بن احمد بن محمد بن ابى القاسم بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن ابى عرفة بن الحسن بن ابى بكر

بن على بن حسن بن احمد بن اسماعيل بن قاسم بن محمد النفس الذكية بن عبد الله الكامل بن حسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم .

ويوجه اليهم بعض الاتهامات اعداؤهم بانهم ينتسبون إلى قبيلة بنى سعد التى تنتمى اليها حليمة السعدية مرضعة الرسول محمد ﷺ، لكن الثابت تاريخيا ان الاسرة السعدية كأية أسرة عربيةمهاجرة من الشرق ظهرت فى اوائل القرن الرابع عشر الميلادى فى منطقة الوادى الاوسط لهز درعه بين مدينة زاكورا ومدينة تاكمدارات، ومن هذه المنطقة هاجر الفرع الذى ينتمى اليه محمد القائم إلى بلاد السوس .

ويذكر السلاوى فى كتابة الاستقصا فى اخبار المغرب الاقصى ان الشيخ ابن المبارك رأس الطريقة الجزولية فى بلدة اقة اجتمع بالامير الشريف أبى عبد الله القائم وذلك عام ٩١٥هـ وعهد اليه بامر قيادة حركة الجهاد، ثم عاد الشريف إلى درعه فهو الذى اتخذه لتنظيم صفوفه وجمع اعوانه ورجال القبائل من حوله ثم عاد فى العالم التالى ٩١٦هـ حيث بعث اليه رجال الدين وفقهاء البلاد وشيوخ القبائل لكى يتولى أمرهم وتسلم الامر فيهم فلبى دعوتهم وبايعه الناس على الجهاد والصبر والطاعة والولاء فى قرية تيبدس قرب تارودانت .

ولقد استفاد الاشراف السعديون بنسبهم الشريف وقت ظهورهم على مسرح الاحداث بالمغرب وقيادة أهل السوس المتضررين من الاحتلال البرتغالى على اراضيهم. ولقد دعمت القبائل العربية المقيمة بمنطقة بلاد السوس نضال السعدين ضد الاستعمار البرتغالى وكان على رأس هذه القبائل بنو شبانة وضوى منصور الذين كانوا حلفاء اقوياء لهم منذ بداية تنظيمهم السياسى فى بلاد السوس .

وهكذا كان ظهور محمد القائم بامر الله السعدى بداية ظهور دولة الاشراف

السعديين وهى الدولة التى عرفها المؤرخون باكثر من اسم فى المصادر الغربية والاوربية فأطلقوا عليها الدولة الزيدانية او الدرعية التاكمدارية أو دولة الاشراف الحسنين وذلك الاسم الاخير لان مؤسس هذه الاسرة شريف قرشى هاشمى ينسب إلى النبى ﷺ من جهة الحسن بن على بن ابى طالب وفاطمة الزهراء وقد تسموا بامراء المؤمنين .

وهكذا كان اتفاق اشياخ الصوفية ورجال القبائل والفقهاء وعليه القوم ورجال الدين فى بلاد السوس على أبى عبد الله محمد القائم بأمر الله، انما كان اشارة للتحرك بالجهاد الاسلامى واذن من الصالحين والاولياء والعلماء له بالامامة العظمى نظرا لنسبه القرشى الشريف .

ونذكر بعض المصادر ان السعدين كانوا يعيشون بقرية تسمى (بنو ابراهيم) وهى قرية من اعمال مدينة ينبع الواقعة على ساحل البحر الاحمر بالقرب من المدينة المنورة بارض الحجاز المقدسة، ثم هاجروا إلى وادى درعه بالمغرب وكان بعض من أهل الورع المغاربة من مدينة سجلماسة عند اداء فريضة الحج قد توقفوا فى مدينة ينبع وتصادقوا ان يتقابلوا مع شريف من الشرفاء الحسنين بن الحسن فخاطبوه فى أمر الرحيل معهم وحببوا اليه السير معهم إلى بلادهم بالمغرب ولقب هذا الشريف بالداخل، وعمل اهل درعه على استقدام شريف قرشى هاشمى طالبى مثل اهل سجلماسة فقدم اليهم من يتبع الشريف مولاى زيدان بن احمد وهو الاسم السادس فى ترتيب اسماء محمد القائم بالله فيكون هناك خمسة اجيال عربية قرشية هاشمية طلبية حسنية قد تناسات فى بلاد المغرب وكان زيدان هو ابن عم شقيق الحسن الداخل جد الاسرة العلوية التى تحكم المغرب حاليا) وانتشرت ذرية الحسن فى سجلماسة، أما سلالة زدان مؤسسو الاسرة السعدية فقد انتشروا فى وادى درعه وانحدر منها امراء المؤمنين السعدين. والذين نسبو إلى عشيرة بنى سعد بن بكر والذين عاشوا فيها مع ابناء زيدان سويا فى درعه

حيث كان ابناء سعد يشاركونهم المعيشة فى هذه البقاع الجنوبية من المغرب الاقصى ومن هنا فان اشراف سجلماسة (العلوين) ودرعه (السعدين) ابناء عمومه. لكن نجد اليفرانى فى كتابه النزهة يذكر لنا أيا من الرجلين دخل المغرب هل هو زيدان ام أبوه احمد ومهما تكن الآراء بشأن من كان فيهم أول من دخل المغرب فان الامر لا يعدو أن يكون هجرة عربية قرشية شريفة من جزيرة العرب إلى المغرب، بل ان الحسن بن عبد الله الذى هو جد السعدين هو نفسه- الجامع لنسبهم مع الاشراف العلوين مع جد السجلماسيون وهناك بعض الآراء يذكر ان السعدين والعلوين قد تفرعوا من الجد بعد قدومه إلى المغرب وهو الرأى الاكثر قبولا وملاءمة للواقع وللاحداث التاريخية التى دارت على ارض المغرب بعد ذلك .

اما لماذا اختار اهل الحل والعقد والطرق الصوفية والمشايخ والفقهاء هذا الشريف فان ذلك يعود إلى التيقن الكامل من النسب الشريف الذى كانت تتناقله الاجيال مشافهة جيلا من جيل وهو ان جدهم الاكبر احمد بن محمد على القاسم والد زيدان الذى يقال انه هو الذى هاجر إلى المغرب فانه قدم إلى بلاد السوس وكان يحفظ الصبيان كتاب الله الكريم وقرآنه القويم ويشتغل بالتعليم وهو أول من انتقل إلى اقليم السوس حيث قامت قبائل هوارة فى هذه المنطقة باقامة زاوية له ثم تناسلت الاجيال منه حتى كان جد الاشراف عبد الرحمن فقيها يعلم كتاب الله للصبيان وكان له ولد ابنه محمد ومحمد هذا هو والد محمد بن القائم بامر الله، ومن ثم فقد كان اجداد السعدين منذ ان وطئت اقدامهم ارض المغرب يشتغلون بالتعليم وتدريس القرآن والعلوم الاسلامية لابناء وصبيان هذه المنطقة وكان الفقه والعبادة والتعليم نهج حياتهم. ومن ثم تمضى الازمان والايام والاشراف السعديون لايحيدون عن الطريق الدينى والنشاط الاسلامى الذى اختطوه واختاروه لانفسهم وهم فرع الشجرة النبوية الطيبة الذكية ولم يكن يدور

بخلد وخاطرا أحد منهم ان يمارس نشاطا أو دورا سياسيا فى المغرب، ومن ثم جاء الدور على ابى عبد الله محمد القائم بامر الله الذى بدأ يتطلع للسلطة والسلطان والرئاسة والقيادة الدينية والدينوية وكان ان رزقه الله بولدين هما أبى العباس احمد الاعرج وأبى عبد الله محمد الشيخ وكانا يقرآن القرآن الكريم فى منطقة السوس وذاع صيتهما ونبوغهما بين أهالى المنطقة وكان رؤساء العشائر والقبائل ورجال الدين والفقهاء، يتوسمون فيهما مستقبلا باهرا واياما مباركة من أجل العمل لصالح الرعية، بل ان والدهما كان يعلن أن أمر المغرب سوف يؤول اليهما مستقبلا .

ولقد كانت احداث المغرب فى تلك الفترة تبشر بنجاح النشاط السعدى وقاد محمد القائم بأمر الله السعدى نشاط المجاهدين ضد البرتغالين واعوانهم المغاربة على السواء وبلغ نشاطه محاولة دخول مدينة اسفى عام ١٥١٥م. بعد ان كان البرتغاليون قد سيطروا على موانى وسواحل اقليم السوس نظرا لانه المدخل إلى الاراضى الخصبة المتاخمة للساحل، ومن هنا كان على الحركة السعدية واهالى المنطقة مقاومة هذا النشاط فاقاموا رباطا قريبا من مراكز احتلال البرتغالين وكان هذا الرباط يضم المتطوعين الراغبين فى الجهاد الاسلامى والذين اعتادوا الاقبال على هذا الرباط لشن الغارات المتكررة معا على اعدائهم المحتلين وسرعان ما كبر هذا الرباط وصار زاوية كبيرة اقيمت من الساحل (ساحل المحيط الاطلسى) ومدينة تارودانت ليتولى امر الجهاد ومن هذه الزاوية التى تولاها الاشراف السعديون الحسنيون بدأ التفكير فى تطهير البلاد من الاحتلال الاجنبى .

وعلى هذا فقد كان عام ٩١٦هـ/ ١٥١٠م هو مولد الدولة السعدية الحقيقى اذ ان مبايعة أبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن باقليم السوس اميرا واملها للبلاد المغربية باسم القائم بامر الله يعاونه ولداه احمد الاعرج ومحمد الشيخ مرتكزا على النسب

الشريف والدعوى الجزولية الصوفية. ثم تأيد القبائل والاهالى، ولقد كان تحمل طوائف الشعب لهذا الشيخ بالمسئولية الجهادية يجعل هذه القيادة الجديدة ان تضع امام ثاقب نظرها ضرورة تخليص كل شبر من اقليم السوس من الاحتلال الايبيرى البرتغالى الاسبانى والقضاء على اعدائهم الخونة المغاربة الذين يتعاملون معهم ويمدونهم بالعون من اجل البقاء بالبلاد كغزاة ومحتلين بل انه ازاء مواجهة تحديات الصراع كان يتحتم تحصين مدينة تارودانت لصد أى هجوم يقع عليها وجعلها نقطة تجمع وانطلاق لفتح مراكش ثم السيطرة على جميع اراضى اقليم السوس والعمل على تمكين السعديين من دخول مراكش لتكون عاصمتهم الاولى ثم القضاء على حكم الوطاسين فى فاس وأيضا تصفية كل الوحدات الانفصالية الصغيرة التى تتبع رسميا لحكم بنى وطاس ثم بعد ذلك كان هدف توسيع رقعة المغرب وتكوين دولة مغربية قوية كبرى تصارع فى قوتها وتوسعها دولة المرابطين والموحدين ومن هذا المنطق كان السعديون يضعون نصب اعينهم ضرورة تحقيق هذه الاهداف العظمى والسعى حثيثا إلى الوصول إلى الهدف الاكبر وهو تحرير كل الموانئ والسواحل الواقعة تحت السيطرة الاستعمارية والارتكاز على التأيد المغربى الجارف لهم كسند قوى يدفع بهم إلى تحقيق كل هذه الاهداف التى رسمها للاسرة مؤسسها الاول ابو عبد الله القائم بامر الله .

وعلى هذا فقد استطاع الامير والامام ابو عبد الله القائم يدعمه ويسانده ويشد من أزره والده احمد الاعرج ومحمد الشيخ الذى خطط لهما ملامح المستقبل السعدى فى ضوء الاحداث المحيطة والتطلعات إلى رؤية واسعة فى تثبيت دعائم هذه الاسرة الشريفة واستطاعا أن يجمعا حولهما المجاهدين والمتطوعين والراغبين فى الاستشهاد والجهاد. وان يقفوا على متطلبات حركة الجهاد الاسلامى فى اقليم السوس كله وكان المخطط الاول هو تحرير الثغور المغربية من الايبيرين والمحتلين، وبعد ان تأكد القائم بامر الله من

صدق العزيمة وقوة الارادة ونية الجهاد استفتح عمله فى مجاهدة البرتغالين وطردهم من البلاد فهاجموا مدينة نقتنت بالسوس وانتصروا على البرتغالين وكان تحرير هذه المدينة اول نجاح حربى يحققه القائم بامر الله السعدى ثم حررمدينة اغادير وجعلها دار امارته ولم يحل عام ١٥١٢م/ ٩١٨هـ حتى كان قد آخذ البيعة لابنه احمد الاعرج ونصبه خليفة له على البلاد من بعده وولى له وذلك لكى يضمن للحركة السعدية الجهادية صفة الاستمرارية ويضمن ولاء الانصار لابنه من بعده واخذ البيعة لمحمد الشيخ ابنه الثانى ايضا واتخذ ابو العباس احمد الاعرج لقب ملك بلاد السوس فى عهد ابيه وكان ذلك عام ٩١٨هـ ومنذ ذلك الوقت صار ابو العباس الاعرج زعيما لحركة الجهاد ضد البرتغالين وذلك بعد ان ذاع اسمه وبلغت شهرته انحاء الجنوب بعد انتصاره على البرتغالين فشدت القبائل ورجالها اليه الرحال تبايعه ونلتف حوله وتعاهده على الموت جهادا فى تحرير التراب الوطنى المغربى المقدس. وكانت هذه المرحلة الثانية من الجهاد إلى مدينة افغال حيث رحاب رفات شيخ الجزولية حيث طلب منه شيوخ القبائل ورجالها مساعدتهم ضد البرتغالين فنهض بهم بقواته وولده احمد إلى اغفال بلاد صاصة وترك ابنه الاصغر ابا عبد الله محمد الشيخ واليا على بلاد السوس يدير امورها فى غياب ابيه واخيه واصطدم السعديون ورجال القبائل المؤيدة بالبرتغالين وأعوانهم الخونة من أهل المغرب حيث دارت معركة بالقرب من مدينة اسفى لم يستطع السعديون الانتصار فيها بسبب دعم البرتغالين لرجالهم وخليفهم «يحين بن تافوت» بعد ان حاصرهم السعديون فى حصنهم الحصين اسفى واغلقوا عليهم الابواب، لكن احمد الاعرج استطاع ان يجدد الهجوم ويجمع قواته وان يهزم البرتغاليين وحليفهم «يحيى بن تافوت» وان ينتصر عليهم ومات يحيى بن تافوت عميل البرتغالين عام ٩١٩هـ/ ١٥١٣م وبموته فقد البرتغاليون حليفا قويا وبدأ مركزهم فى الضعف .

لكن الحركة السعدية فقدت آمالها وقائدها أبا عبد الله محمد القائم بامر الله عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م بعد ان استطاع ان يضع اسس بناء الدولة السعدية وان يحدد اطار العمل لولديه أبى العباس احمد الاعرج وأبى عبد الله محمد الشيخ اللذين كان عليهما ان يواصلا المسيرة السعدية انطلاقا للجهاد المحدد وسعيا وراء الهدف المنشود فى تحرير الثغور المحتلة وايجاد الظروف والسبل الملائمة للقضاء على الدولة الوطاسية التى انهكتها الحروب الداخلية والحصار الاقتصادى والسيطرة الاوربية وكان على احمد الاعرج ان يحمل راية الجهاد خلفا لابيه القائم بامر الله .

الفصل الأول

الدولة السعدية بعد مؤسسها محمد القائم بامر الله

٢٩٤- ٦٩٠هـ- ١٥١٨- ١٥٤٤م

(أ) الامير ابو العباس احمد الاعرج

بايعت القبائل المغربية ابو العباس احمد الاعرج بعد وفاة ابيه القائم بأمر الله خليفة له واماما للمجاهدين فى بلاد السوس ومن ثم استقامت له الامور وبدأ يمارس نشاطه فى محاربة البرتغاليين وجهادهم فشن الغارات على العدو البرتغالى وضيق المنافذ على القبائل السوسية المتعاونة مع البرتغالين واستطاع ان يوسع مناطق نفوذه .

وهو الامير السعدى الاول وكان قد تولى امارة السوس كما سبق القول عام ١٥١٢م ثم امارته على مراكش عام ١٥٢٤م. وكان السعديون قد نجحوا فى جعل مراكش امارة سعدية لهم منذ عام ١٥٢٠م وقبل سيطرة احمد الاعرج على مراكش فانه كان قد سيطر على مدينة تارودانت وناركوكو وحصن سانت كروز. وكانت الانتصارات التى احرزها السعديون قد جعلت البرتغالين يعيدون حساباتهم فى البقاء فى المغرب مما دفع ملك البرتغال جان الثالث عام ١٥١٨م بعد ان ادرك الخطر السعدى الزاحف فى تحرير المدن بان لجأ إلى الامبراطور شارل الخامس ملك اسبانيا يطلب منه المساعدة بعد ان خشى البرتغاليون وطأة السعديين فكان ان تركوا مدينة ازمور ورباط واسفى وأصيلا تحت شدة الهجوم الاسلامى بعد أن لاحظوا بسالة وشجاعة الجند المغربى عند سقوط مدينة سانت كروز فى أيديهم وتركوا أغادير لان خطورة السعدين فى الجنوب قد لا تكون بتلك الصورة فى الموانئ الشمالية مما جعلهم يركزون وجودهم فى الموانئ الشمالية خوفا من الخطر التركى العثمانى او تحالف الاتراك مع السعدين .

وكان دخول أبي العباس احمد الاعرج مدينة مراكش عام ٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م بداية تكوين دولة السعدين المركزية والاتجاه نحو توسيع الحدود التي كان يسعى إلى تحقيقها الاعرج وأخوه محمد الشيخ حاكم السوس وكانت فكرة العودة إلى بناء الدولة الكبرى تراود احلامه بعد ان رأى انه فى عام ١٥٣٦م لم تكن الدولة السعدية الا مجرد امارة صغيرة فى مراكش وسوى تتبع الولاء وتخضع للسيادة الوطاسية فى فاس. ومن ثم كانت الامارة السعدية فى تلك الآونة ترى ضرورة استقرار الوضع فى الجنوب ثم التطلع إلى الشمال. ولقد ادى الاسراع فى السيطرة السعدية على مراكش إلى ارتفاع مكانة احمد الأعرج فى بلاد المغرب بعد ان نقل فى نفس العام ١٥٢٤م رفات الشيخ الجزولى إلى مراكش لكى يضفى الشرعية على الوجود السعدى فى مراكش لكن الثورة قامت ضد الاعرج عندما عاد إلى بلاد السوس لاقتسام الخراج مع اخيه فى بلاد السوس وكان ذلك من اسباب حدوث الخلاف بين الاخوين الشريفين، لكن الاشراف السعديين عادوا إلى مراكش فى نفس العام وقضوا على الثورة ولم تمض الا شهور قليلة حتى قتل السعديون محمد بن ناصر بوشتنوف حاكم مراكش بالسم وصفا للاشراف امر مراكش وجميع الاقاليم التابعة لها .

اذ كان اهلها قد اظهروا الولاء للبيت السعدى الشريف وبعد أن تم لهم امر درعه والسوس ومراكش تلقب احمد الاعرج باسم الامير وهو اللقب الوحيد الذى حمله حتى وفاته .

وكان بعد مقتل بوشنتوف قد صار احمد الاعرج سيد مراكش الوحيد وراعى رفات شيخ الطريقة الجزولية ومن ثم كان هو الحاكم الاوحد وتولى أخوه محمد الشيخ حكم امارة السوس وتارودانت .

وكان احمد الاعرج عندما دخل مدينة مراكش قد كتب إلى السلطان الوطاس

محمد البرتغالى يقول له انه ليس الا احد العمال التابعين للسلطة الوطاسية على حكم مراكش وان ما كان يدفعه اهل المدينة من خراج فانه على استعداد ان يؤديه وان يبذله مضاعفا للسلطة الوطاسية وكان ذلك نوعا من المكر والدهـاء كمـا يذكـر ذلك السلاوى .

ولقد كان احضار السعدين لرفات الشيخ الجزولى إلى مدينة مراكش ونقله من مدينة افغال هو البداية الحقيقية للحكم السعدى حيث صارت مراكش هى حاضرة الامارة السعدية الشريفة واليها يسعى رجال الطريقة الصوفية الجزولية للترحم على شيخهم محمد بن سليمان الجزولى صاحب الطريقة الجزولية .

ولقد كانت خطة الامير احمد الاعرج واخيه محمد الشيخ عدم الدخول فى تلك الفترة من جهادهم سعيا لبناء الاسرة الحاكمة السعدية فى صراع مع السلطان الوطاس محمد الشيخ البرتغالى والسعى إلى كسب رضاه ووده. وارسلا رسولا إلى فاس لكى يعبر السلطان الوطاسى عن ولاء التبعية وارسال الخراج المطلوب والهدايا للسلطان لكن سيطرة السعدين على مراكش لم تلق قبولا من السلطان احمد الوطاسى الذى خلف اباه فى الحكم فدارت فيها معارك انتصر فيها احمد الاعرج على الوطاسين عام ١٥٣٦م. وبفضل تاثير الزوايا الصوفية ودورها فى المجتمع المغربى فى ذلك الوقت وتأثير الناس بما تدعو له فان ذلك قد ساعد السعديين على تقوية اواصر العلاقات الطيبة مع قبائل الاطلس. وكان الشيخ الغزونى وانصاره خير سند للسعدين فى مراكش وفى تهيئة الجو العام لهم بين القبائل لترحيب الشعب المغربى بنشاطهم وتضافر القبائل من حولهم مما دفعهم إلى العمل على تحرير اغادير عام ١٥٤١م. من أيدى البرتغالين واكسب ذلك صيتا قويا للاميرين السعدين وادى إلى انزعاج البرتغالين فكان قرار الجلاء عن المستعمرات الجنوبية كما سبق القول .

غير ان الامور لم تسر سيرها الطبيعى فى الحركة السعدية الرامية إلى توحيد المغرب تحت سيطرتها ذلك لان الامر كان يتنازعه قائدان احمد الاعرج الابن الاكبر لمحمد القائم بامر الله وابو عبد الله محمد الشيخ الابن الاصغر وكانت الجفوة قد حدثت بينهما منذ عام ١٥٢٤م كانت لاتزال تترك اثرها فى نفوس الاثنين لكن منذ عام ١٥٤١م ظهر الصراع وادى إلى نزاع مكشوف حيث دخل الاخوين فى صراعهما العلنى الذى استوجب القتال وحشد القوات والاستعداد للجولة النهائية لكى يتقرر مصيرايهما يحكم المغرب مستقبلا ولمن تكون الغلبة فى هذا الصراع .

وعلى الرغم من ان البيعة كانت قد اخذت للأمير أبى العباس احمد الاعرج عام ١٥١٢م فى حياة ابيه الذى لم يتوف الا بعد هذه البيعة بخمس سنوات لان الامير أبا العباس كان الابن الاكبر وكان اخوة ابو عبد الله محمد الشيخ الاصغر سنا منه ورغم صرامة وشهامة احمد الاعرج فان محمد الشيخ تمت ولايته وولى عهده فى الجنوب الا ان الاعرج كان دائما ياخذ رايه ويستشيره فى القضايا الهامة واموره ويعاونه فى المهمات ويستعين به فى المعارك ويستضىء برأية فى الحوادث والقضايا الكبرى، ولقد كان الشيخ ثاقب الذهن نافذ البصيرة يصيب الرأى حازما ومن هنا كانت كلمتهما واحدة وامرهما جميعا واحدا إلى أن دخلت الوشاية من اصحاب النفوس الضعيفة ففرقت بين الاخوين وأفسدت ما بين الاخوين من مودة وانقسمت البلاد وصار الجند والجيش جيشين واخلص كل لصاحبه وبات القتال وشيكا لاشك فيه .

لاسيما ان الطومحات الشخصية كانت تلعب دورها فى هذا الصراع وكان انتصار محمد الشيخ فى اغادير فى بلاد السوس والتفاف القبائل حوله والسعى لتحقيق المزيد من الانتصارات وحمله لقب المهدى فى حين ان أبا العباس احمد لازال يحمل لقب الامير ربما يكون قد اثار حفيظة الاخ الاكبر فغير من اسلوب تعامله مع الشيخ

وانصرف إلى تامين امارته وربما يكون قد انصرف عن جهاد العدو الاسبانى والبرتغال وربما يكون هذا هو السبب القوى من اسباب الصراع الاخوى .

واستطاع محمد الشيخ (المهدى) الانتصار على اخيه الاكبر احمد الاعرج عام ١٥٤٤م فى معركة وادى الطاهرة. واصبحت كلمة اهل السوس على محمد الشيخ وتم القبض على اخيه ابى العباس احمد واودع السجن عام ٩٥٦هـ/ ١٥٤٤م بعد ان كان قد اسر فى معركة سابقة وتم اطلاق سراحه بعد اتفاق عائلى، لكن سرعان ما عاد النزاع بين الاخوين وامكن لمحمد الشيخ القبض من جديد على أخيه ابى العباس احمد الذى كان قد لجأ إلى زاوية سيدى عبد الرحمن السادس فى تنسفت وقام بنفيه واسرته إلى تاقلالت (سجلماسة) وبذلك انفرد محمد الشيخ (المهدى) بامارة السعدين فى المغرب المراكشى ودانت له مراكش عام ٩٥١هـ/ ١٥٤٤م .

وكان الامير احمد الاعراج قد حكم منذ عام ١٥١٨ حتى عام ١٥٤٤م إلى أن تم عزله فى هذا العام من الامارة وتم نفيه إلى سجلماسة لكنه استطاع ان يفر من الاسر بعد خمس سنوات وذلك عام ١٥٤٩م ولجأ إلى غوارة، لكن تمت عودته إلى تافيلالت مرة اخرى عام ١٥٥٤ بعد فراره بخمس سنوات ايضا لانه قبض عليه هذه المرة بعد ان تاكد لاخيه محمد الشيخ (المهدى) انه قام بتأييد أبى حسون الوطاسى الذى عاد لحكم البلاد ودخل فاس عام ٩٦١هـ/ ١٥٥٤م. بتأيد الاتراك وكان اخوه قد احتجزه منذ هذه الفترة حتى عام ٩٦٤هـ/ ١٥٥٧م حيث تم قتل محمد الشيخ عن طريق الاتراك فى نفس العام ولما كان حاكم مدينة فاس قد خشى من احمد الشيخ فى ذلك الوقت ربما يقوم الاهالى باخراجه من السجن لكى يتولى الخلافة السعدية خلفا لاخيه محمد الشيخ بدلا من ابن اخيه عبد الله الغالب مما دفعه إلى قتله هو وابنائه واحفاده السبعة فى مذبحة اليمة عام ١٥٥٧م بعد كان عمره قد ناهز السبعين

عاما وبذلك طويت صفحة احمد الاعرج الابن الاكبر لمحمد القائم بأمر الله الذى كان قد أدى فريضة الحج قبل أن يتسلم مقاليد الامور فى بلاد المغرب كما انه كان يقوم بالتدريس فى مسجد القروين بمدينة فاس وكانت له حلقة دراسية وطلاب يتلقون العلم على يديه وقد اكسبته غزارة علمه وسعة آفاقه وقدرته على الحجة ان اكسبته سمعة طيبة وعلوا فى المكانة مما دفعت به إلى التقرب إلى السلطان الوطاسى محمد البرتغالى حتى صار مؤدبا لاولاده ولقد كان احمد الاعرج مجاهدا على الهمة سار فى طريق الجهاد كما رسمه له والده على خير اداء فهو الذى حاصر مراكش واستولى عليها وهو الذى عمل على الزواج من ابنه حاكم المدينة الامير محمد بن ناصر يوشنتوف لكى يكسب الوجود السعدى فى مراكش الولاء والشرعية وهو الذى قاد القوات ضد الوطاسين وكان صلبا فى رفضه الخروج من مراكش والقتال حتى يهلك الجميع وهو الذى وسع حدود السعدين يصلحه مع الوطاسين بأن جعل سلطة السعدين تمتد من نادلا إلى بلاد السوس وهو الذى وقع هدنة مع البرتغالين عام ١٥٣٧م من اجل التفرغ لقتال الوطاسين وبناء الجبهه الداخلية توطئه للتفرغ لقتال العدو الايبيرى .

ولقد كان ابو العباس أحمد الاعرج هو الذى وضع اسس البناء القوى لبناء الدولة السعدية المغربية كدولة وطنية ناشئة فى ذلك الجزء من العالم الاسلامى بعد ان ترسم طريق الجهاد الاسلامى عاملا على تجديد الدولة التاريخية بالمغرب الاسلامى ولقد وضع الاعرج امامه شرط الجهاد والتصدى للعدو النصرانى واستقطاب الشعور الجهادى ضد العدو المستشرك والعمل على ايجاد نوع من العلاقات المحلية والقبلية توطئه لانتزاع القيادة الرمزية من بنى وطاس .

ولقد كان لقب النسب النبوى نسل السلالة الهاشمية فرع الشجرة الذكية النبوية ذوى العصبة العلوية الشريفة هو المسار الذى سار عليه خلفا لابيه. لكن حتمية

القيادة الواحدة دفعت الاخوين لان يكون ما بينهما من اقتتال تفردا لحكم البلاد بعد ان رأى كل منها فى الآخر عائقا يحول دون تحقيق اماله الكبرى فى بناء الدولة السعدية لاسيما ان احمد الاعرج ينظر إلى اخيه محمد الشيخ كوزير له لا يجوز له التصرف فى شئون المغرب الجنوبى والانفراد بالخراج دون ان يكون للاعرج النصيب الاكبر منها. لكن محمد الشيخ رأى فى الانتصار العظيم على البرتغالين واسترداد اغادير وترك البرتغالين لجميع الجيوب الاستعمارية البرتغالية فى الجنوب وتلقبه بالمهدى حافزا له بأن يكون الحاكم الفعلى للبلاد ولا يحد من طلبه صغر سنه او بيعه المشايخ وعليه القوم ورجال القبائل لابى العباس احمد الاعرج ومن ثم كان ما حدث من احداث بين الاخوين وتم اسر احمد الاعرج ونفيه إلى تافايلات (سجلماسة) ووضع حد فى الثنائية الحكم فى المغرب بين الاخوين السعدين وكان على محمد الشيخ (المهدى) بعد ذلك ان يقود مسيرة الحركة الاسلامية السعدية التى رفعت لواء الجهاد الاسلامى. وطويت صفحة فى تاريخ المغرب لكى تبدأ صفحة جديدة يسعى فيها محمد الشيخ إلى تحقيق الطموحات الكبرى نحو بناء الكيان السعدى الواسع العريق الذى كان يسعى إلى تحقيقه على طراز الدولة المرابطية او الموحدية وهى الدول التى كانت ذات شأن وباع طويل فى توحيد المغرب الكبير وامتداد نفوذ المغرب الاقصى إلى المغربين الاوسط الادنى وسوف نرى فى الصفحات القادمة الدور الكبير الذى يلعبه محمد الشيخ المهدى على مسرح الاحداث السياسية فى بلاد المغرب وما هى مراحل حركاته نحو انهاء الوجود الوطاسى نهائيا من البلاد والدخول فى صراع مع القوى الايبيرية والتوسع شرقا عبر المغرب الاوسط والدخول فى قتال مع الاتراك ومحاولة القضاء على النفوذ التركى العثمانى فى تلك الانحاء وتوسع حدود الدولة وعلاقاتها بالقوى الخارجية .

(ب) ابو عبد الله محمد الشيخ المهدى (الامير السعدى الثانى)

٩٥٠- ٩٦٥هـ- ١٥٤٤- ١٥٥٧م

ذكر السلاوى ان مولد محمد الشيخ ابى عبد الله بن محمد القائم بامر الله كان عام ٨٩٦هـ/ ١٤٩٠م وقد لقب بالمهدى ولقبه للبربر (اسغار) أى الشيخ باللغة البربرية وقد أسبغ على الحركة السعدية ودولتها صفة المهدية وقد قصد إلى بلاد الحجاز لتأدية فريضة الحج مع شقيقه الاكبر احمد الاعرج ثم اقام بمدينة فاس العاصمة .

وكان السلطان ابو عبد الله محمد الشيخ يلقب من الالقاب السلطانية بالمهدى بلغ فى العلم درجة حتى كان يخالف القضاة فى الاحكام ويرد على فتاواهم فيجدون الصواب معه وقع ذلك منه مرارا وله حواشى على تفسير القرآن كثيره ومتعددة وكان عالما بكل معانى الكلمة فى العلوم الاسلامية الشرعية وفى التفسير وكان المهدى قد نشأ عن الصلاح والتقوى منذ صباه ومهتما بالعلم فى صغره وتعلق باهداب الدين وحفظ القرآن الكريم وصحيح البخارى وآخذ عنه جماعة من الشيوخ وكان اديبا متقنا وكانت له اليد الطولى فى التفسير والفقه والحديث وكان له اهتمام بالعلماء والجلوس اليهم والاخذ باطراف المسائل العلمية وكان المهدى طموحا واستطاع بطموحاته وتفكيره أن يحقق كثيرا من اهدافه .

وقد برز اسم محمد الشيخ كبطل عظيم بعد انتصاره على البرتغالين وتحريره لاغادير وكذلك انتصاره على اخيه احمد الاعرج فى معركة وادى الكاهرة ويعتبر المؤسس الحقيقى لدولة الاشراف السعدين. وقد استطاع فتح افنى غام ٩٤٨هـ/ ١٥٤٢م واسترد مدينة أصيلا والقصر الصغير عام ٩٥٥هـ/ ٩٥٦هـ ٥٤٩ ١٥٥٠م. ولم يبق فى يد البرتغالين سوى طنجة وسبتة ومزغان وتقوم بالدفاع حاميات صغيرة لاتتجاوز فى مجموعها ٢٥٠٠ رجل .

ولقد عرفت تلك الفترة بالكفاح فى الداخل ضد الوطاسين الذين شعروا بخطر الحركة السعدية عليهم وكفاح السعدين ضد مراكز الاحتلال الايبيرى وكفاحهم لتوحيد البلاد .

وقد رفض محمد الشيخ الاعتراف بالمعاهدة التى وقعها اخوه احمد الاعرج مع الوطاسين ومن هنا فقد نظم قواته واتجه بسرعه إلى مهاجمة فاس. ومن هنا استطاع عام ٩٦١هـ دخول العاصمة الوطاسية لذا يعتبر هذا العام اهم الاعوام فى تاريخ الدولة السعدية فقد تم فيه القضاء على الحكم الوطاسى نهائيا والسيطرة على جميع البلاد الشمالية والشرقية بعد ان استجاب السعديون لامانى وتطلعات الشعب المغربى فظهروا كقادة متجاوبين مع المشاعر الاسلامية الجهادية وذلك بالقضاء على الامارات المحلية ورؤسائها الذين قبلوا التحالف مع اعداء الاسلام. ومن ثم فقد اتجه محمد الشيخ إلى تحقيق اهدافه الكبرى وبناء المغرب الكبير ولكن السعديين وجدوا انفسهم امام قوة كبرى فى الشمال هم البرتغاليين والأسبان وفى الشرق الاتراك العثمانيين وكان محمد الشيخ المهدى قد اتخذ من مراكش عاصمة له فى هذا العام ٩٦٢هـ وكان عليه محاولة تحديد علاقاته بالقوى الداخلية فى البلاد وكذلك القوى الخارجية .

ولقد كان دخول محمد الشيخ إلى فاس قد وضع حدا لحكم الاسرة الوطاسية ا[illegible]لت الحكم فى البلاد، لذا كان الرجل الذى قضى على دولة بنى وطاس يؤهله مقامه [illegible]حل شريف ينتمى إلى سلالة الرسول ﷺ ان يتفانى الناس فى خدمته اذ اعتبره الجد[illegible] سيد مراكش اذ انهارت كل معارضة له بعد ان عمل على تحقيق كل [illegible]افه وبناء الد[illegible]سعدية بالمغرب تضارع دولة المرابطين والموحدين .

وقد وضع محـ[illegible]شيخ السعدى نصب عينية ضرورة طرد الاتراك العثمانين [illegible]حتلوا المغرب الاو[illegible]ام ١٥١٨م قاصدين تكوين الامبراطورية المغربية الكبرى

التى تخضع للنفوذ العثمانى وكان محمد الشيخ قد استغل فرصة اخلاء الاسبان لمدينة تلمسان وحاول الاستيلاء عليها والتى تعتبر مدخلا إلى بلاد الجزائر وكان محمد الشيخ يرغب فى ضم بلاد المغرب الاوسط إلى املاكه ثم التوسع شرقا وصولا إلى حدود المغرب الشرقية. والقضاء على النفوذ التركى لاسيما بعد ان فر اليهم ابو حسون الوطاسى ومساعدتهم له واحتلالهم فاس واعاده الوطاسى سلطانا على البلاد لذا بعد طرد الوطاسى بل قتله فان السعديين لم يسلموا بالوجود التركى العثمانى على ارض المغرب وبدا الرفض السعدى فى اظهار القوة السعدية والوقوف بحزم للمحاولات العثمانية باسراع محمد الشيخ إلى تجريد حملة إلى تلمسان بعد عام واحد من دخول فاس (١٥٥٠م) منتصرا على السلطان الوطاسى عام ١٥٤٩م وفى أعقاب الانتصارات الكبرى على البرتغالين بتحرير أصيلة والقصر الصغير من أيديهم واندفع محمد الشيخ بنفسه إلى المغرب الاوسط ودخل تلمسان دون مقاومة من أهلها بعد حصار دام تسعة أشهر وذلك عام ٢٣ جمادى الاول ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م وطرد الاتراك منها .

وكانت هذه الحملة السعدية من الحملات الكبرى التى اعدتها القيادة السعدية فى عهد محمد الشيخ اذا كانت قواتها تتألف من ثلاثين الف مقاتل مسلحة بالمدافع الثقيلة بقيادة محمد الحران وعبد الرحمن بن المهدى السعدى ودخلت تلمبسان بل اكثر من ذلك فان تقدمها لم يقف عند المدينة بل اندفعت القوات شرقا وتعدتها فى زحفها إلى مدينة مسنغانم ودخلت مدينة وجدة ودبدو، وكان محمد الشيخ قد ارسل قبل ذلك إلى شرق المغرب قوة من ستة آلاف فارس احتلت كرسيف والتى تقع على نهر ملوية عند التقائه مع وادى فرع النهر. وبهذه الحملة الصغيرة ضمن ولاء قبيلة مديونة والتى كانت تقطن فى المنطقة الواقعة بين مدينة تلمسان ووهران والتى كانت قد أرسلت عددا من فرسان القبيلة يتراوح عددهم ما بين عشرة إلى خمسة عشر فارس

تقابلوا مع الشريف السعدى يطلبون تعيين قائد لهم للقيام بحصار وهران .

وكان في منتصف شهر ابريل ١٥٤٩م قد شهد تقدم حملة الحران بن محمد الشيخ إلى وجده وانسحاب القائد التركى من المدينة إلى تلمسان وتردد الاخبار بان الاتراك سوف يتركون الجزائر وان باشا الجزائر سيسافر إلى تركيا ويحل محله الشريف السعدى ولقد كانت هذه الاخبار سببا فى ان حملة الحران لم تلق فى طريقها ادنى مقاومة تذكر بل انخرط فى صفوفها رجال القبائل من بنى راشد بعد ان فقدوا الهدف من عداء العثمانين ووحدوا هدفهم فى مناصرة السعدين ودخلت الحملة تلمسان دون صعوبة تذكر فى ٩ يونيو ١٥٥٠م ولقد كان فى مخطط السعدين أن يتقدموا شرقا للتوسع وضم المزيد من الاراضى لكن الحران بن محمد الشيخ قائد الحملة أصيب بمرض شديد منعه من مغادرة تلمسان وبدلا من أن يتجه شرقا اتجه فى طريق العودة إلى فاس فى يوليو ١٥٥٠م مصطحبا معه الجانب الاكبر من قواته عائدا إلى بلاده ثم توفى بعد ذلك بشهرين وآل مصير الحكم السعدى فى تلمسان إلى اخيه الاصغر عبد القادر مع قوة صغيره من رجال الحملة بينما قام على قيادة جيش الحران فى فاس أخوه عبد الرحمن .

ولقد ترك استلاء السعديين على تلمسان اثرا معاكسا فى الجانب التركى العثمانى اذ بادر باشا الجزائر فى ذلك الوقت وقد أحس بالموقف الخطر الذى يواجهه من قبل السعدين فسارع إلى جمع قواته فى أنحاء البلاد وعمل على اعادة توزيعها وتنظيمها وجعلها تتمركز فى موقع حصين على الضفة اليمنى من وادى نهر شلف حيث كانت هذه القوات التركية تحت امره أمهر قواد الاتراك فى الجزائر حسن كورسو والذى برز اسمه فى هذه المعركة بعد ان حشد خمسة آلاف جندى من حملة البنادق وثلاثين مدفعا إلى جانب فرسان من القبائل الموالية للاتراك واكتسح رجال القبائل

الموالية للسعدين، وكان خبر هذه الاستعدادات التركية الكبيرة قد افزع الخليفة السعدى محمد الشيخ فى مراكش وخاف على قواته التى تحت امر ابنه عبد القادر فارسل اليه على وجه السرعة قوة مغربية مكونة من عشرين ألف رجل وتجر معها خمسة عشر مدفعا فى مواجهة ثلاثين مدفع تركى .

ولقد كان القائد التركى فى انتظار وصول المدد السعدى بالمرصاد حيث كان بقيع بقواته عند مشارق تلمسان منتظرا قتال السعدين ودارت بين الطرفين معركة بالقرب من وادى متيجة فى ٤ سبتمبر وكانت هذه عبارة عن مناوشات ثم كانت المعركة الثانية فى اقليم تسالا ومنه انتقل القتال إلى سهل طروا بالقرب من مستغانم لى إلى تحرك القنال دون انتصار إلى تلمسان مرة اخرى دون ان يحسم القتال فى معركة حاسمة وبعد هذه الجولات كان محمد الشيخ لازال مصمما على السير فى خطته بالوقوف فى وجه الاتراك العثمانين وكسر شوكتهم ثم التوسع شرقا لذا نجده يبادر للمرة الثانية بارسال نجدة سريعة من فاس يقودها ابنه مسعود على رأس قوات من ١٥٠٠ رجل من حاملى البنادق النارية يضاف اليهم ١٥٠٠ فارس واكثر من ستة آلاف من راكبى الجمال حيث انضم إلى أخيه عبد الله فى الثانى والعشرين من اكتوبر عام ١٥٥٠م .

وفى فبراير ١٥٥١م وبالقرب من موقع قبة سيدى المرسى قرب نهر بوعزوز كانت المعركة الفاصلة حول مصير تلمسان هل تبقى فى أيدى السعدين المغاربة أم سيعود اليها الاتراك العثمانيون مرة اخرى وكان العثمانيون قد ارسلوا على وجه السرعة امهر واكفاء القادة الاتراك وهو القائد صفا الذى حل محل حسن كورسو. وكانت قواته تتكون من ٣٤٠٠ رجل من حاملى الاسلحة والبنادق النارية يضاف اليهم أربعة آلاف فارس وعدد كبير من رجال القبائل الموالية للاتراك .

وعلى الجانب الآخر كانت قوات السعدين التى قدرتها المصادر التركية بسبعة عشر الف مقاتل ضمت قوات المولى عبد الرحمن بن محمد الشيخ إلى جانب قوات اخوته عبد الله والمسعود ودارت هذه المعركة وانهزم السعديون بعد ان تلقوا هزيمة ساحقة قتل فيها المولى عبد القادر وجرح عبد الرحمن وتتبع الاتراك فلول السعدين حتى نهر ملوية ووصلت خسائر السعدين إلى ما بين اربعة الف إلى عشرين الف ما بين قتيل وجريح واسير وبعد هذه المعركة ترك السعديون تلمسان للاتراك .

ولقد كان من نتائج هذه الصراعات مع الاتراك وطردهم السعدين من المغرب الاوسط ان وجد محمد الشيخ نفسه ازاء قوى خارجية طامعة فى بلاده فكان عليه ان يحدد علاقاته بهذه القوى فتحالف مع الاسبان ازاء العداء الناشب مع الاتراك والعثمانين المتحالفين مع القوى البحرية الاسلامية المجاهدة التى تعمل تحت قيادة الاتراك العثمانين. ومن هنا كان على محمد الشيخ ان يحافظ على كيانه السعدى وأن يحفظ بلاده من خطر الانطواء تحت حكم الاتراك فاتجه إلى المسيحين وقد حاول بعض المؤرخين ايجاد العديد من المبررات ازاء التحالف السعدى الاسبانى لكن مهما تكن المبررات التى تساق فى هذا المجال فان طلب العون والمساندة بل والتحالف مع اعداء الاسلام ضد الاتراك لم يكن له ما يبرره وهكذا تم الاتفاق مع الاسبان لمساعدته فى الصراع الجديد الذى يواجه الدولة السعدية ضد الهيمنة العثمانية ولم يجد محمد الشيخ ازاء موقف رجال الدين الا ان يقوم بقتل كبار رجالهم والمناوئين لسياسته قبل البرتغالين ومنهم الشيخ ابو مالك عبد الواحد بن احمد الواتشريش من علماء فاس المناصرين لبنى وطاس والذى كان احد ثلاثة تم قتلهم فى عهد محمد الشيخ السعدى وقد قال عنهم محمد الشيخ السعدى بعد قتل كبارهم وبشأن موقف فقهاء فاس ومكناسة من سياسته الان تمهد لنا الجلوس على عرش المغرب بعد قتلنا هؤلاء الثلاثة

الواتشريشى، والزقاق بفاس وجرزور بمكناس فانهم كانوا يقطعون امعاءنا على المنابر ويوقدون علينا نار الفتنة عند الاكابر. لكن كانت هذه من الاخطاء الكبرى التى ارتكبها النظام السعدى فى عهد محمد الشيخ لاسيما ان الدعوة السعدية قد اعتمدت فى الوصول إلى الحكم على رجال الطرق الصوفية ورجال الدين الذين دفعوا بوالد محمد الشيخ محمد القائم بامر الله ليحمل راية الجهاد ضد المحتلين الايبيرين فكيف لايكون لهم موقف معارض لسياسة التقارب مع محتلى الارض وغاصبى العرض ومدمرى الديار الاسلامية. لكن المشاعر الاسلامية فى المغرب تجاه ماتم من تحالف بين السعدين والاسبانين قد اخذت موقفا مضادا من محمد الشيخ السعدى لاسيما تأييد الطرق الصوفية التى قامت على اكتافها الدعوة السعدية والتى رات فى هذا التحالف خروجا على الخط الاسلامى المجاهد وتوقف حركة الجهاد الاسلامى فى تحريرها بقية الثغور المغربية. وكان قد تم الاتفاق بين الاسبان السعدين على ارسال اسطول مغربى بعون اسبانى لكى يحتل الجزائر ثم بعد ذلك يزحف جيش مغربى إلى مدينة وجدة بالمغرب الاوسط ثم تتحرك القوات المشتركة إلى تلمسان ومن ثم تتقدم إلى الجزائر تمهيدا لطرد الاتراك العثمانين من المغرب الاوسط وهكذا يعتبر ما قام به محمد الشيخ السعدى من تحالف مع الاسبان قد وقع فى نفس الخطا الذى وقع فيه سلاطين بنى وطاس من قبل بتحالفهم مع القوى المسيحية ضد الاتراك المسلمين ورجال الجهاد الاسلامى البحرى وذلك على حساب الهدف الاسمى الذى ارتكزت عليه الدعوة السعدية وهى محاربة المحتلين الايبيرين مغتصبى الاراضى الاسلامية فى الاندلس والمغرب .

وبعد معارك تلمسان بين الاتراك العثمانين والسعدين فان الموقف التركى بدا يتغير بالنسبة للدولة السعدية الناشئة حيث ان فشل السعدين فى صدامهم مع العثمانين

قد دفع بالسلطان العثمانى سليمان القانونى ان يرى ضرورة بسط النفوذ العثمانى على كل البلاد المغربية وانه لذلك لابد من حفظ مركز الامبراطورية العثمانية السياسى والحزبى فى العلاقات المغربية التركية لذا كانت السياسة التركية ترى ضرورة ضم المغرب ولكن بصورة مرحلية سعيا لاستقطاب الشعور الاسلامى الجهادى ضد العدو المشترك الصليبى لذا حاول السلطان سليمان القانونى عقد تحالف مع محمد الشيخ ضد القوى المسيحية، لكن السلطان العثمانى كان يطلب من محمد الشيخ الدعوة له على منابر بلاده المغربية والخضوع لسلطانه بعد أن تمت مراسلات من قبل العثمانين فى أول رجب ٩٥٩هـ يناير ١٥٥٢م كانت تنطوى هذه المراسلات على اعتبار الشريف محمد الشيخ السعدى كوالى من ولاة الدولة العثمانية او حاكم من حكام الولايات بل نعتته المراسلات بحاكم ولاية فاس العثمانية او حاكم من حكام الولايات بل تنعته المراسلات بحاكم ولاية فاس واعتبار حاكم الجزائر فى مرتبة امير الامراء، لكن ورود هذه الرسالة على هذه الصورة كان دافعا للتحالف مع الاسبان والاستهجان بصاحب الرسالة السلطان التركى حيث كان رد محمد الشيخ السعدى قاسيا وعنيفا وشديد اللهجة حيث رد على سفير السلطان (العالم العلامة أبى عبد الله محمد بن على الجروبى الطرابلسى) حيث قال له «سلم على امير القوارب سلطانك وقل له ان سلطان المغرب لابد ان ينازعك على محمل مصر ويكون قتاله معك عليه انشاء الله وياتيك إلى مصر والسلام» .

لكن الخلافة العثمانية التركية والتى كانت ترى فى ضرورة استمالة السلطان السعدى قابلت هذا الرد بروح اسلامية وارسلت له رسالة اخرى عام ١٥٥٦ .. بعد ان ردوا على الرسالة الاولى بحمله صالح باشا الرايس حاكم المغرب مع السلطان الوطاسى أبى حسون عام ١٥٥٣م حيث اجبروا السعدى على ترك فاس وتسيد الاتراك على شرق

المغرب ومناطقه الوسطى عدة شهور قبل ان يعاود محمد الشيخ هجومه وتخليص فاس وهذه الاراضى من قبضة الاتراك والوطاسين .

وكانت رسالة ١٥٥٦م التركية إلى السلطان السعدى بعد فشل خطة الاتراك فى الاستيلاء على وهران لقطع الصلة بين التقارب (السعدى الاسبانى البرتغالى) الذى تجلى فى تبادل عدد من المراسلات بين الاطراف الثلاثة منذ يناير ١٥٥٥م حيث كان وصول وفد اسبانى إلى فاس للاعداد للحملة المشتركة التى كان قد تم الاتفاق والمساعدة العثمانية فى محاربة النصارى ولكن كانت هذه الشروط تضع مقابل ذلك ان يعترف محمد الشيخ السعدى بدخوله فى طاعة العثمانين الاتراك وان يضع اسم السلطان التركى على السكة (العملة) وان يخطب له على منابر الدولة .

لكن ازاء كل هذه المراسلات التى لم تجد ادنى استجابة من السلطان محمد الشيخ، فقد قرر الاتراك ورجال السلطان العثمانى لما وجدوا من معارضة محمد الشيخ السعدى وعدم رغبته فى الخضوع للدولة العثمانية فكان تدبير مؤامرة لاغتياله وعن طريق بعض الاتراك الذين يخدمون فى الجيش السعدى وقد كانوا من بين حرسه الخاص حيث قاموا فى غفلة من رجاله باغتياله عام ٩٦٤هـ فى موضع يقال له اقلقال أو اكلكال بالقرب من مدينة ترودانت وحمل راسه فى مخلاة إلى القسطنطينة .

وقد جاءت حادثة مقتل محمد الشيخ بالمؤامرة التركية العثمانية ما هى الا مقدمة أو محاولة من السلطات التركية للسيطرة على المغرب الاقصى. ولقد كان من بين أبناء محمد الشيخ الامير السعدى الثانى ثلاثة ابناء تولوا الخلافة وكان لهم دور بالغ فى حياة الملك واولهم عبد الله الغالب. ثم أخوه عبد الملك صاحب معركة القصر الكبير ومحقق المعجزة السعدية الفريدة فى تاريخ المغرب ثم ثالثهم ابنه محمد المنصور صاحب الفتوحات الكبرى ومؤسس الامبراطورية المغربية ببلاد السودان الغربى .

ولقد كانت محاولة القتل هذه توحى بفشل السياسة العثمانية فى استمالة الامارة السعدية الناشئة وتطويع حاكمها لقبول فكرة الخضوع لسلطاتهم العثمانية والاعتراف بالحكم باسم السلطان العثمانى. ولكن نجح العثمانيون فى الخلاص من حاكم عنيد فى مقاومته لحكمهم وكانت سياسة اللجوء إلى الاغتيال هى أقصر طريقة يلجأ اليه العثمانيون بعد ان فشلوا فى اتباع اسلوب الغزو الحربى. وقد وضعت نهاية مؤلمة للمؤسس الحقيقى للدولة السعدية .

ولقد اضمر الاتراك العثمانيون شرا بالسلطان السعدى محمد الشيخ منذ ان رد كتابه إلى السلطان العثمانى مخاطبا اياه بسلطان القوارب الحوانة (الحوانة تعنى قراصنة البحر) او رجال البحر، وقد يكون هذا الانزلاق اللفظى وأسلوب الشيخ السعدى البدوى الذى عاش جو الصحراء السوسية والذى كانت لاتزال تغلب عليه سمات البداوة وهى طابع فكرة السياسى، وقد يكون المبرر المقول لخطة الاغتيال تعود إلى مخاطبة سليمان القانونى بذلك اذ انهم فشلوا فى تحقيق اهدافهم فى احتوائه واطوائه تحت رايتهم العثمانية فكان الخلاص منه بالاغتيال ووضع راسه فى مخلاة وارسالها إلى القسطنطينية حيث ظلت معلقة على ابواب المدينة بما يزيد عدة سنوات حتى طالب ابنه عبد الملك احمد المنصور السلطان مراد برفعها واعادة دفنها فاجيبا إلى طلبهما وتم لهم، ما ارادوا وبهذه الصورة طويت صفحة أمير المؤمنين محمد الشيخ السعدى .

(جـ) عبد الله بن محمد الشيخ بن محمد القائم بامر الله السعدى (الغالب بالله)
٩٦٤- ٩٨١هـ ١٥٥٧- ١٥٧٤م

بعد ان انتهت حياة محمد الشيخ السعدى هذة النهاية الاليمة على يد الاتراك العثمانين الذين دبروا قتله فان الامور فى الدولة السعدية قد آلت من بعده إلى ابنه عبد الله الغالب الذى ظل على رأس السلطة السعدية طوال سبعة عشر عاما هجرية بعد ان كادت صورة مقتل والده قد أدت إلى اندلاع نزاع دامٍ طويل وحاد بين افراد البيت السعدى بعد ان تمت فيه تصفيات جسدية كثيرة هبت خلالها رياح فيها تنذر بالخطر والانقسام وتلاشى الكيان السعدى فى ظل الاقتتال حيث راح ضحية توليه حكم عبد الله الغالب عمه احمد الاعرج الذى كان قد تجاوزت سنه تسعين عاما وقتل جميع ابنائه ذكورا، واناثا كبارا وصغارا وذلك قبل ان تؤول اليه السلطة من أهل مراكش حيث شك فى ذلك عامل السعدين على مراكش على بن ابى بكر ازناك فقام بهذه المذبحة البغيضة .

وقد ولد عبد الله الغالب بن محمد الشيخ المهدى بمدينة تارودانت عام ٩٣٣هـ/ ١٥٢٧م وكانت سنه وقت توليه الحكم خلفا لوالده اثنين وثلاثين عاما وكان عاقلا حازما جامعا للملك محافظا على انتظام ملكه وقد صار معروفا عند الجميع عزم الامير السعدى الجديد على التخلص بالعرش ممن يثق بهم من رجال البلاط السعدى وابناء البيت السعدى فرار اخوته عبد الملك، عبد المؤمن، احمد المنصور) إلى الجزائر خوفا من بطشه وقسوته، بل ان الخوف بلغ بالناس إلى حد الاحجام عن دفن ضحايا مذبحة الحاكم آنذاك من السعدين وابنائهم، لكن بعض رجال الدين قام بدفن احمد الاعرج فى مقبرة جدهم الشيخ محمد القائم بأمر الله وشيخهم الجزولى صاحب الطريقة

الجزولية ورغم قسوة عبد الله الغالب بأمر الله الا انه كان على علم واسع بعلوم الدين آخذا بقسط وافر منه وكان الغالب ولى عهد ابيه محمد الشيخ على فاس وقت مقتله مما دفع بازناك بقتل اقاربه قبل قدومه إلى مراكش خوفا ان تقوم الرعية باخراجهم من السجن وتوليه كبيرهم احمد الاعرج خليفة على البلاد .

وقد بايعه أهل فاس فى ذى الحجة عام ٩٦٤هـ، وبدا الغالب عهده بالانتقام من الاتراك قتله ابيه محمد الشيخ فحاصرهم حصارا شديدا عنيفا وقتلهم فى حصارهم عن آخرهم وكانت تلك لطمة للاتراك العثمانين الذين كانوا يرغبون فى ان يحققوا النجاح العثمانى المنشود فى بسط السيادة العثمانية على بلاد المغرب الاقصى فى عهد ابن محمد الشيخ عبد الله الغالب بالله بعد ان فشلوا فى تحقيق ذلك الهدف فى عهد ابيه وافترض الاتراك تحقيقه لهم لاسيما انهم كانوا يرغبون فى الدعوة لسلطانهم على منابر المغرب وكتابة اسمه على سكنهم (العملة) كما كان يفعل بنو وطاس لكن فترة حكم عبد الله الغالب كانت على النقيض من ذلك تماما .

لكن تلك السياسة المعاكسة لرغبة الاتراك كلفت عبد الله الغالب كثيرا من المتاعب فى فترة حكمه ولم تكن له سياسة توسعية كوالده لكنه اكتفى بتأمين الاملاك التى تحت يديه وتحصين المدن والثغور الهامة بالعدد والعدة. ولقد ادرك عبد الله الغالب خطورة التبعية للامبراطورية العثمانية التركية الاسلامية وكذلك رفض التبعية للبرتغال والاسبان شان الامارات المغربية السابقة الصغيرة ومن هنا كان عليه ان يتمسك بخيوط السياسة السعدية فى المحافظة على استقلال البلاد وايجاد سياسة تكفل له السير بالمسيرة السعدية دون الخضوع لاى من الامبراطوريات الثلاث (العثمانية البرتغالية والاسبانية) المعاصرة لفترة حكمه لكن فترة حكمه قد شهدت العديد من الثورات والحركات الانفصالية وذلك عكس اقوال بعض المؤرخين الذين ذكروا ان ايام حكمه

لم تحدث فيها فتن ولا حروب اهلية فساد البلاد الامن والامان وعم البلاد العدل فصرف همة باصلاح الاحوال فى البلاد وقد يكون ذلك صحيحا فى اواخر فترة حكمه. لكن الصورة كانت عكس ذلك تماما عند تولية الحكم آثر مذبحة عمه احمد الاعرج اذ نجد ان الثورات قد تجددت وقيام الحركات الانفصالية عن الامارة السعدية والتى منها الثورة التى قادها المولى عثمان فى بلاد السوس بجنوب المغرب فى عام ١٥٥٨م وكذلك ثورة المولى عمر فى شرق البلاد المغربية فى مدينة (ديدو فى عام ١٥٥٨) ايضا وثورة المولى عبد المؤمن بن محمد الشيخ فى نفس العام، ثم كانت المذبحة الثانية الكبرى التى ارتكبت فى عهده بعد مذبحة الاعرج والتى قتل فيها ثلاثة من اخوته والذين رفضوا البيعة لولاية العهد بعد ان حاول عبد الله الغالب بامر الله أخذ البيعة لابنه محمد المتوكل (المسلوخ) ليكون خلفا له من بعده واحدثت هذه البيعة انقساما حادا فى الاسرة راح ضحيتها ثلاثة من اخوته وفر أربعة من أخوته بعد قتل الثلاثة السابقين خوفا من احتمالات البطش والقتل وهم المولى عمر وعبد المؤمن وعبد المالك واحمد المنصور إلى تلمسان والجزائر حيث لاذوا بالفرارا إلى الترك العثمانين. وكذلك من الذين قتلهم عبد الله الغالب بن اخيه محمد بن عبد القادر (الذى قتله الاتراك فى معركة تلمسان سابقا) وهو ابن اخ عبد الله الغالب وحاكم مدينة مكناس والذى سار فى الناس بالعدل والحكمة وصعد نجمه بين أهالى مكناس وعلا اسمه فى أنحاء البلاد فخشى عبد الله الغالب من التفاف الناس حوله وانصرافهم عن ابنه محمد المتوكل وولى عهده حاكم فاس فقام بقتله هو ايضا ليلحق بالكثير من افراد الاسرة السعدية الذين قتلوا (هكذا ذكر المؤرخ المجهول (تاريخ الدولة السعدية) وأخذ عنه (عبد الكريم كريم- المغرب فى عهد الدولة السعدية) .

وقد صرف عبد الله الغالب كل همه فى اصلاح العمارات وبناء العديد منها

ونشطت الزراعة والصناعة وحظت مراكش فى عهده عدة خطوات نحو التقدم والازدهار وبنى بها جامع المواسين والمارستان الجديد وقد شهد عصر، أقصى تقدم شهدته من حيث العظمة المعمارية والازدهار الفكرى لاسيما انه كان يقرب اليه العلماء ورجال الطرق الصوفية والعلماء وقد ازدهرت العاصمة فى عهده بالعلماء الكبار ،الى عهده أرجع المؤرخون الكثير من المنشآت السعدية فى العاصمة السعدية وعددوا مآثره واضافوا اليه تشيدالقبة على ضريح ابيه محمد الشيخ ومجدد ابنية القصبة الموحدية والقصر والمسجد ومنارنه وقد شيد فى مراكش الاحياء الجديدة السكنية والتى كانت بها حدائقها الخاصة وينابيعها المائية وفنادقها وابوابها وطبقتها النبيلة وصناعها وهو صاحب جامع الاشراف المواسين) نسبه إلى أسرة الاشراف التى كانت تحمل هذا الاسم فى المدينة وكانت ملحقات المسجد تشتمل على نافورة عظيمة وحمام ومدرسة وهى مدرسة سعدية، اصيلة كانت من اضخم المدارس التى شيدت بالمغرب، كذلك المارستان الذى اقامه فى حى الطلعة وقد طال حكمه سبعة عشر عاما ظهر فيها السلطان الغالب عبد الله بين معاصريه بانه رجل دولة من طراز فريد محنك سياسيا بالغ المهارة وحاذق فى ادارة دفة الملك حيث ظهر كاقوى ابناء الاسرة السعدية فى تأمين حكم البلاد لابنه محمد المتوكل كمرشح وحيد يحكمها من بعده او بالقسوة والشدة فى مواجهة الانقسامات والثورات وضرب رؤوسها بكل قوة وعنف دون تردد، كما تجلت حكمه سياسته الداخلية إلى توطيد معالم الاستقرار السياسى فى الدولة السعدية والتحقق من التمسك بسياسة الجهاد الاسلامى ضد الاسبان والبرتغال حيث سار على سياسة ابيه قبل هذه الدول وعمل على مهادنتهم وعدم الدخول فى قتال معهم. لقد كان على عبد الله الغالب بالله أن يفهم حق الفهم ان الدول المسيحية الايبيرية (اسبانيا والبرتغال (وهى التى ارتكبت خطأ تاريخيا اذ أنها هاجمت المغرب دولة وشعبا وحاولت ان تثبت اقدامها على التراب المغربى مستغلة حالة انحلال الدولة الاسلامية المغربية العظمى وان

يعمل على اعادة المغرب إلى مكانته السابقة فى عهد المرابطين والموحدين او بنى مرين، كما ان الاوربى لم يكن مكروها لدى المغاربة لكونه أوربيا، ولكن بسبب أنه معتدٍ ومحتل لارض اسلامية مغربية. بل كان اكثر تشددا فى معاداة الاتراك قتلة ابيه والبعد عن انصارهم رجال الثغر والجهاد البحرى الاسلامى، ولقد كانت سياسة معاداة الاتراك من الاخطاء السياسية التى وقع فيها بعض حكام السعدين بحجة منع الاتراك من ممارسة اسلوب السيطرة على المغرب الاقصى، ولو ان السعديين تحالفوا مع الاتراك أو تظاهروا لهم ببعض التبعية الاسمية لتغير وجه التاريخ الاسلامى فى منطقة غرب البحر المتوسط ولاستطاع الاتراك بالتعاون او بالتمركز الكامل فى المغرب الأقصى لقلب الميزان العسكرى فى تلك المنطقة ولمد الاتراك العثمانيون ايديهم بكل صدق وقوة لاخوانهم فى العقيدة الاندلسين (المورسكين) الذين قاموا بالثورة عدة مرات ضد الحكم المسيحى بالاندلس المحتله ولتمت عادة الوجه الاسلامى مرة أخرى ولتم للاتراك التقدم شرقا فى اتجاه وسط أوربا بعد ان توقف زحفهم الاسلامى غربا أمام ابواب فينا ودفعت علاقة عبد الله الغالب مع الاسبان وتنازله عن ثغر العرائش واصيلا لهم بالاتراك العثمانين إلى ضرورة العمل على تأدية لاسيما وان صالح رايس قائد جيش الجزائر وحاكمه أحس بالحرج الشديد ازاء هذه العلاقات الموجهة ضد الاتراك العثمانين والتعاون السعدى الاسبانى البرتغالى فاعد حملة عسكرية للسيطرة على المغرب الاقصى لكنه مات قبل تنفيذ هذه الحملة وآل حكم الجزائر من بعده إلى حسن بن خير الدين الذى قام عام ٩٦٥هـ بتجهيز حملة عسكرية تركية مكونة من قوات كثيفة وازاء هذه التحركات التركية فقد قابلتها تحركات سعدية مضادة حيث قاد عبد الله الغالب قواته والتقى الجمعان بالقرب من وادى اللبن الذى يتبع ولاية فاس فكانت الدائرة على جيوش الاتراك فرجعوا منهزمين عن المغرب الاقصى إلى ان بلغوا مدينة بادس وكانت فى ذلك الوقت تخضع للحكم التركى ولم يقم الاتراك بادنى تدخل فى شئون المغرب

مرة اخرى طوال حكم المغالب بل التفوا باستضافة أخوته. الذين نجوا من القتل وهم عبد المالك واحمد المنصور وعبد المؤمن .

ولقد كانت سياسة الغالب السلبية ازاء الجهاد الاسلامى وتحالفه مع الايبيرين من اسباب استحكام العداء بين الاتراك العثمانين والسعدين وتسليمه الثغور المغربية للعدو الصليبى ومنها تسليمه مدينة البريجة عام ١٥٦٢هـ للاسبان بعد ان كان قد حررها المسلمون من النصارى ورحلوا عنها وكان موقف السلطان هو الاستسلام للاسبان وعدم الرد على حملتهم التى احتلوا فيها بادس عام ١٥١٤هـ وكان السلطان الغالب قد كاتب ملك اسبانيا بشأن اخلاء مدينة بادس خوفا من سقوطها بأيدى الاتراك وسكنها النصارى بعد ان تم اجلاء كل المسلمين عنها وكان اخلاؤهم فى شهر رمضان وذلك لصالح ملك الاسبان نظير مساعدته للسلطان الغالب ضد الوجود التركى .

وكانت الاوضاع قد تغيرت فى غرب البحر المتوسط بعد ان تحالفت كل الاساطيل الاوربية تحت امرة اساطيل البابوية فى روما لقتال الاتراك منفردين وقد تم لاوربا مجتمعة الانتصار على الاتراك فى معركة لبياتنو عام ١٥٧١م بعد ان أوقعت بالاسطول التركى هزيمة فاسية اشترك فيها الاسبان وجنوة والبندقية وفلوانس وغيرها من الدول الاوربية والامارات الايطالية اضافة إلى فرنسا والمانيا والقديس يوحنا العائد من الحروب الصليبية وكانوا على اهبة الاستعداد وقد انتهت بهزيمة العثمانين الذين حولت هذه المعركةسياستهم من الهجوم إلى الدفاع عن النفس امام القوى المعادية لامبراطوريتهم لاسيما وان أبا محمد الغالب قد تحالف مع الاسبان والبرتغالين والذى وقع فى أخطاء تاريخية قاتلة اذ تنازل لاسبانيا عن مدينة حجر بادس وخاب ظن المغاربة فى اسرة السعدين لانهم كانوا باملون من سلطاتهم تحرير بقية الثغور المغربية بدلا من

التنازل عن موانى وبلاد محررة وهكذا تخاذل الغالب بالله عن اسمى قضية رفع المغاربة شعارها وهى الجهاد من اجل التحرير ونصرة الاسلام وتحالف مع الاسبان وقد تنازل الغالب عن المرسى رغبة فى تامين الدولة السعدية ضد غارات العثمانية حيث ان الدولة السعدية لم يكن بها فى ذلك الوقت اسطول قوى يستطيع ان يقف فى وجهة الاسطول التركى العثمانى ويستطيع مجابهته وكانت وجهة نظر الغالب فى تنازلة عن ميناء حجر بادس هو الحيلولة دون تردد الاساطيل التركية للموانئ المغربية وخاف السلطان الغالب ان تخرج سفن الاتراك إلى تلك البلاد المغربية فكتب إلى ملك اسبانيا واتفق معه على اخلاء هذه الموانئ وباع له البلاد وتخليتها من المسلمين وتنقطع صلة الاتراك بهذه الموانئ من ناحية وتركها المسامون وسكنها النصارى برأى السلطان الفاسد فكتب أهل بادس إلى سلطانهم الغالب لعدم علمهم بالاتفاق السرى والموقف المخزى الذى اتخذه بشأن هذه البلاد واضاف صاحب تاريخ الدولة السعدية المؤرخ المجهول ان السلطان الغالب لم يكتف بذلك بان خان قضية الاندلس وشعب المورسكين المطهدين من الاندلسين بعد ان وعدهم بمساعدتهم وتقديم كل عون لهم فقاموا بالثورة تنطلق فى غرناطة عام ١٥٦٨م ويتحرك الاندلسيون منتظرين مساعدة أبى محمد عبد الله الغالب لكنه كان قد تخابر سرا مع ملك الاسبان وأعلمه بهذه الثورة ونقض تعهده لهم وتخاذل عن مساعدتهم واتفق مع الاسبان على ذلك وهكذا غش اهل الاندلس وعرضهم للهلاك فى دينهم واولادهم وممتلاتهم وكان السبب فى انتقام الاسبان النصارى فيهم وكانت هذه الفعلة الشنيعة ابشع اعمال الغالب بعد ان وعدهم بالوقوف معهم ونصرتهم وتقديم العون العسكرى والمادى والسلاح لهم فلما ظهرت الثورة الاسلامية بغرناطة تراخى عما وعدهم به من الاعانة والنجدة وكانت بينه وبين ملك الاسبان مراسلات سرية واشار على الاسبان ان يخرجوا المسلمين من الاندلس وان يتم ترحيلهم إلى المغرب الاقصى وان تتسم سكانهم فى المدن الساحلية لكى يتم تعميرها وخاصة الاكثار

من الاندلسين فى مراكش وفاس للانتفاع بهم والاستعانة بخبرتهم فى ادارة دولته وتقديم خدماتهم للشعب المغربى لاسيما فى الجيش والاسطول والصناعات الحربية ولقد حاول الغالب بالله ان يغطى سياسته المتناقضة

مع مبادئ التحرر والجهاد التى قامت عليها الدولة السعدية فحاول احتلال مدينة البريجة (مازاكان) عام ٩٦٩هـ فارسل جيشا بقيادة ولده محمد المتوكل (المسلوخ) لحصار المدينة لكن الحصار أصيب بالفشل بعد ان كتب الغالب إلى ابنه ينهيه عن احتلالها بعد ان كان النصارى قد اجلوا عنها ورحلوا عنا .

ويبدوا ان قصة تنازل الغالب عن حجر بادس وتراجعه عن احتلال ومحاصرة البريجة كذلك تراجع ابنه محمد عن مساعدة مسلمى حجر بادس واغاثتهم من الاسبان والتهاون فى المعاملة مع المحتلين قد اغضب رجال الطرق الصوفية الذين جاءوا بالاسرة السعدية إلى عرش المغرب فقام الغالب بالتنكيل بهم وبخاصة متصرفى الشرافة الذين أحس هو بنفسه بسخطهم الشديد على سياسته. وكان ميناء بادس الذى تنازل عنه الغالب يقع فى شمال المغرب على البحر المتوسط وهو قريب من مدينة فاس بل هو منقذ المدينة إلى الشمال، كذلك فان الغالب كما سبق القول كان موقفه مخزيا بالنسبة للاندلسين وكانت المراسلات السرية سببا فى فشل الثورة وطردهم من الأراضى الاندلسية .

بل انهم لم يكتف بذلك بل عمل على اسكات كل صوت وحركة تدعو للجهاد بعد ان تكل بالصوفية وكان عليه ان يقضى على مراكز الجهاد التى كانت تقاوم الاسبان وتعمل على طردهم من المغرب وقدم للعدو الاسبانى اجل خدمة بان قام بهجوم على هذه الامارات التى كانت ترفع راية الجهاد الاسلامى ومنها ولاية تفشاون فى الشمال واخرج عنها اصحابها بنى راشد وذلك فى صفر عام ٩٦٩هـ وذلك لسبب

واحد فقط هو انهم كانوا يجاهدون الاسبان والبرتغالين ويحاربون السفن المسيحية التى ترفع راية الصليب وقد خشى الخليفة الغالب من نزعه القتال وروح الجهاد التى كانت تسود هذه الامارة وربما تكون اعمالهم سببا فى افساد ما تم الاتفاق عليه مع الاسبان وتحالفه معهم ضد الاتراك فاخلى هذه المدينة ووزع بنى راشد فى بلاد المغرب المختلفة ويتحامل ربما لاسباب خاصة المؤرخ المجهول صاحب كتاب تاريخ الدولة السعدية فيصف عهده بانه عهد الخيانة والاستسلام فقد تنازل عن ميناء حجر بادس وسلم مدينة البريجة وتخاذل عن اهل الاندلس وعدم تقديم السلاح لهم وغشهم لكى يصلح ما بينه وبين الاسبان وما يمكن القول عن عبد الله الغالب انه استطاع ان يحافظ على الكيان الذى كان تحت سيطرته كما انه قاد البلاد نحو الاستقرار رغم اختلاف المؤرخين على فترة حكمه وما حدث فيها من مواقف لاتتلائم وموقف حاكم مسلم ينتمى للاسرة السعدية الشريفة لكن الدكتور عبد الكريم كريم المغربى الجنسية والحاصل على الدكتوراة من جامعة عين شمس عن عصر المولى احمد المنصور كتب فى كتابه المغرب فى عهد الدولة السعدية محاولا الدفاع عن موقف الغالب بالله وتحالفه مع الاسبان والبرتغالين محاولا ازالة ما اقترفه الغالب فى حق المغرب والاسلام والمسلمين ولكن دفاعه كان ضعيفا غير مقبول لاسيما موقف الغالب من رجال الدين والعلماء والطرق الصوفية الذى ادانته جميع المصادر المغربية واسلوب التعامل مع رجال الفكر الدينى وقادة حركة الجهاد الاسلامى والحماس الشعبى واقطاب الحركة الدينية والفكرية والعالمية .

حيث قام الغالب بالله كما ذكر السلاوى بقتل وصلب ابى عبد الله محمد الاندلسى وكان ذلك بامر مباشر من السلطان بسبب التفاف الشعب حوله وتنديدة بموقف السلطان من النصارى والاندلسين، كما ان السلطان الغالب امر بقتل الشيخ

ابى العباس احمد يوسف الراشدى شيخ الشرافة وكذلك بسط سيطرته على الزوايا الاسلامية التى كانت تنادى بمجاهدة الاسبان والبرتغالين لاسيما زاوية الشيخ المغازى والى كثرة الناس حوله وقام بتدميرها والقبض على الشيخ ابى محمد عبد الله بن حسين المغازى وشتت رجاله .

وهكذا طبعت صورة الغالب بالعنف والميل إلى سفك الدماء ضد معارضى امارته فى الداخل لاسيما من آل البيت السعدى أخوته واعمامه وكل اقاربه وكذلك اهل الحل والعقد وعليه القوم وأشياخ القبائل وايضا كانت نكينة باقطاب الطرق الصوفية والمرابطين ورجال الجهاد الاسلامى فى الزوايا فى حين كانت سياسته الخارجية قبل القوى النصرانية المهادنة والاستسلام والتخاذل وتقديم كل عون ومساندة لهم وكانه بهذه السياسة قد تخلى عن الخط الاسلامى نهائيا ولم يعد عنده الا كبت كل صوت معادٍ للاسبان والبرتغالين والتعرض للمسيحين بل اكثر من ذلك سمح للنشاط التبشيرى المسيحى فى بلاده ولذا نقول انه من الصعب ان نعثر فى تاريخ تلك الفترة على بلد مسيحى رحب ببعثة اسلامية لكن البعثات التبشيرية المسيحية فى المغرب كان لها شان فى عهد عبد الله الغالب فقد ارسل ملك اسبانيا نفسه بعثة تبشيرية مسيحية استقرت فى مراكش وكان لهذه المدينة اسقف كاثوليكى لسنوات طويلة وكانت ثمة بعثات مسيحية فى اكثر المدن المغربية مثل فاس ومراكش واسفى وازمور والجديدة وكانت هذه البعثات المسيحية تقوم بعملها بموافقة وعلم السلطان الذى تسمى باسم الغالب بالله .وكانت علاقته تتصف بالتحرر بالقوى الاوربية المسيحية إلى حد طبع مواقفه منها بصمات الاتهام والشبهة فى حين تتصف بالقسوة والشدة، داخليا وكذلك بهذه الصورة مع الاتراك العثمانين وعلى النقيض نهائيا مع الاوربين الذين اتخذهم اصدقاء له وحلفائه على خط مستقيم .

لمن بعد المصادر المعاصرة (ابراهيم شحاتة حسن فى كتابه موقعة وادى المخازن فى تاريخ المغرب) بذكر مطلعا على بعض الوثائق الاوربية ان هناك تقاربا قد حدث بين الاتراك العثمانين والمغاربة السعدين لاسيما بعد انتصار الاتراك على الاسطول الاسبانى فى معركة جربة عام ١٥٦٠م وان فيلب الثانى ملك اسبانيا قد توقع هذا التحسن فى العلاقات ومن ثم ارسل إلى اليزابث ملكة بريطانيا سفيرها فى فرنسا اثر هذه المعركة قائلا ان الاتراك بعد انتصارهم الكبير على الاسطول الاسبانى سوف يعدون انفسهم للقيام بحملة عسكرية للاستيلاء على اسبانيا والقضاء على قوتها وسوف يزداد تحالفهم مع السعديين ويظهر اسطولهم بصورة علنية قوية على سواحل المغرب وبالتالى سيعرضون طرق الملاحة والتجارة للخطر بل ان اسبانيا نفسها لن تنجو من هجوم تركى اضافة إلى احتمال هجوم على مالطة وصقلية وجنوب ايطاليا .

وقد دفعت الروح الاسلامية المجاهدة ازاء انتصار الاتراك على الاسبان عام ١٥٦٠م بقيام السعدين بالهجوم على الاسبان بعد ان طرا تحسن فى العلاقات التركية العثمانية السعدية عام ١٥٦٢م وقيام تعاون وتحالف بين القوتين الاسلاميتين ضد البرتغال فى طنجة (مازكان والبريجة) وضد الاسبان فى قرطاجة مما دفع المغاربة بان يحاصروا طنجة ومازكان حصارا شديدا بل انهم اتخذوا العدة للهجوم على اسبانيا. وهكذا كانت رسائل السفير الانجليزى إلى ملكته الانجليزية اليزابث فى ١١ مايو ١٥٦٢م قائلا انهم اظهروا براعة فى قتال البر وتشددوا فى موقفهم مع الاسبان وان هناك مساعدات تركية كبيرة قد وصلت اليهم وانهم ابدوا ارتياحا كبيرا بهذه المساعدات التركية واانهم اتخذوا الاستعداد للهجوم الكبير على ساحل غرناطة وبداوا حصار قرطاجنة فاذا تمكن المغاربة من الاستيلاء على المدينة وهو امر ممكن جدا واستطاعوا الحفاظ بها فان الاتراك سوف يتدفقون إلى هذه الاماكن لكى يلعبوا دورهم

ويقدموا الدعم والمساندة للسكان الاندلسيين القدامى الذين لا يزالون يعيشون فى اسبانيا (المورسكين) بل انه على طول الساحل من جبل طارق حتى طرابلس توجد اعداد كبيرة من المسلمين على اهبة الاستعداد للقفز على الساحل الاندلسى ولكنهم فى حاجة إلى سلاح وقيادة .

هذه صورة كانت فى اوائل فترة حكم الغالب بالله وهكذا كان الجانب المسيحى يبدى تخوفا دائما من التحالف السعدى التركى والذى كان عام ١٥٦٣م بداية تباعد التقارب السعدى التركى لصالح القوى الاسبانية المدعمة من البرتغالين. ولكن مهما يكن الامر فقد يكون هناك تحامل شديد على الغالب او ان المؤرخ المجهول اراد ان يصور الغالب نظرا لمواقعه السياسية تجاه الاسبان والبرتغالين بصورة لم تكن مالوفه لاية شخصية سياسية سعدية وقد يكون من رأيه ان الغالب تخطى حدود التعامل كسلطان مسلم يقود بلدا اسلاميا وتنازله عن هذين الثغرين للاسبان .

لكن على الجانب المعاكس لآراء المؤرخ المجهول من سياسة السلطان السعدى ابو محمد الغالب نجد المصادر الاوربية تذكر ان اعوام ١٥٦٥/ ١٥٦٦م شهدت استعدادات مغربية تركية اندلسية وعن ارهاصات لثورة الاندلسين فى غرناطة حيث استعداد المورسكين للثورة بل ان هناك وفدا مغربيا من قبل ملك فاس قد وصل إلى اسبانيا تحت ستار جمع الخراج منهم كدليل على تبعيتهم وولائهم للسيادة السعدية المغربية وكان ذلك فى عام ١٥٦٥م. مما دفع ملك اسبانيا ان يشكل نوعا من الفرق المتطوعة لكى تقيم كل فرقة فى مدينة لمواجهة احتمالات الثورة بين المورسكين الذين استقبلوا مندوب السلطان السعدى أبا محمد عبد الله الغالب، بل ان المورسكين قد تلقوا فعلا مساعدات من المغاربة والاتراك وامدوهم بالمؤن والذخائر وان السفن كانت تصل اليهم حاملة هذه الاسلحة والمعدات وانه نظرا لهذه المساعدات فان عام ١٥٦٩م قد

شهد زيادة قوة المورسكين وان نسبتهم العددية قد صارت كل عشر مسلمين يقابلهم واحد مسيحى فقط فى مدينة قادس وان هناك مساعدات ضخمة من الاتراك والمغاربة تصل اليهم .

ومن هنا فانه يمكن القول استنادا إلى المصادر الاوربية لاسيما البريطانية (الانجليزية او الفرنسية منها) تستطيع القول ان عبد الله الغالب قد ادى دوره فى مساعدة السكان المورسكين الاندلسين وانه كان يقدم لهم السلاح والعتاد وانه لم يكن دائما على خط مستقيم كما ذكر المؤرخ المجهول معاديا للاتراك العثمانين بل انه ان كانت سياسته تعتربها بعض الفتور لكنها سرعان ماتعود إلى احسن ما يكون بل ان العلاقات المغربية التركية بين اعوام ١٥٦٠- ١٥٧١م كانت علاقات حسنة وطيبة بل ممتازة شهدت نوعا من التعاون والترابط والاتفاق بشأن قضية بقايا الاندلسين فى اسبانيا وان الاتراك العثمانين كان لهم دور رائد فى تحريك هذه العلاقات ومحاولة ايجاد تعاون اسلامى مشترك بعد ان تعاون الاسبان مع البرتغالين فى احتلال بادس عام ١٥٦٤م .

وقد تحسنت العلاقات المغربية فى هذه الفترة عام ١٥٦٠- ١٥٧١م واصبحت المواقف تكاد تكون متطابقة مع الاخذ بالحذر والحيطة من الجانب السعدى تجاه النوايا التركية الرامية إلى السيطرة على المغرب الاقصى وان كانت الاعوام السابقة التى تولى فيها الغالب الحكم منذ عام ١٥٥٧- حتى عام ١٥٦٠م قد شهدت تقاربا مغربيا اسبانيا وبرتغاليا .

لكن هناك نقطة تظهر لماذا تخاذل السعدى عام ١٥٦٢م عن السيطرة على مازاكان (البريجة) ونجد تحليلا لها ان معركة دامية قد وقعت امام ابواب المدينة عند مهاجمة المغاربة لها وان فيليب الثانى ملك الاسبان قد طلب من قواده فى المدن الجنوبية الاندلسية ضروة تقديم العون للملك البرتغالى سواء من الرجال والسلاح

والعتاد ومساعدة البرتغالين ضد الحصار الذى يضربه حولها الشريف السعدى وقدم الاسبان ما طلب منهم من المؤن والعتاد والسلاح والرجال، بعد ان كان المجلس الملكى البرتغالى قد قرر اخلاء مازاكان لولا ان القوات المغربية انسحبت وقد يكون هذا الانسحاب بناء على تعليمات سعدية واتفاق بين الاسبان والسعدين وقد يكون السعدى فى فترة تقاربه مع الاتراك (١٥٦٠– ١٥٧١م) قد لاحظ وعلم بنوايا الاتراك فاراد ان يجد توازنا فى السياسة الخارجية دون تغير موقفه العدائى للاستعمار الايبيرى وكذلك حفظ كيانه السياسى تجاه سلطنه الاتراك وصولا إلى خلق هدف يحقق له القدرة على الامساك بزمام الامور فى بلاده .

وقد كان عبد الله الغالب حريصا على علاقات التقارب تلك مع البرتغالين والاسبان حرصا على المحافظة على خلافة ابيه فى مراكش والى حد التشكك من السعى السلمى العثمانى لدى الشريف السعدى فى مراكش والخوف من ضغط المرابطين المتصوفين على الشريف للاستجابة لطلب التقارب مع العثمانين باسم الوحدة الاسلامية الجهادية لانقاذ بقية الثغور المغربية المحتلة لكن سياسة الحذر والمراوغة التى سار عليها الغالب بالله قبل العثمانيين والتى لم يقبل بها العثمانيون كانت وراء نشاطهم المعادى له والوقوف ضده وهناك بعض المصادر تذكر ان المغاربة لم يرتدوا عن حصار مدينة البريجة (مازاكان) بسبب اوامر من السلطان الغالب يرفع الحصار عنها ولكن بسبب نقص التموين والمواد الحربية اللازمة للاستمرار فى الحصار وكذلك فان المغاربة قد ارتدوا عن حصارهم بسبب الخسائر الفادحة فى الارواح والعتاد. كما ان الغالب السعدى وهو سليل الشرافة القرشية لم يكن ليرتمى فى احضان القوى الاوربية مخالفا مبادئ الاسلام والشريعة الاسلامية مهما تكن الضغوط التركية شديدة عليه لمحاولة احتوائية تحت سلطانها وهو الذى حقق فى نهاية مارس ١٥٥٨م انتصارا كبيرا

على قوات الاتراك فى موقعة وادى اللبن واوقف بهذا الانتصار التوسع العثمانى التركى فى شرق الامارة السعدية بعد ان تخطى الاسبان حدود مدينة تازة وقد كان النصر المغربى فى وادى اللبن يعود اساسا إلى مهارة المغاربة ولاسيما الاندلسين منهم فى استخدام الاسلحة النارية الحديثة من البنادق والمدافع وكان جيش باشا الجزائر قد عاد إلى تلمسان بعد هزيمته فى موقعة وادى اللبن التى سحقت فيها قواته وعاد بسرعة إلى الجزائر خوفا من انتشار الثورة ضد الاتراك فى مدينة مستغانم والجزائر وكذلك خوفا من حملة اسبانية كان يجرى الاعداد لها لاستعادة بجاية من أيدى الاتراك العثمانين، لكن مهما يكن من نتائج غزوه وادى اللبن وما ترتب عليها من نتائج فى المجال العسكرى فانها فتت فى عضد الدولة العثمانية بالرغم من آثارها السلبية .

ولقد كانت القوات التركية قادرة على احتلال فاس بعد ان كانت على مسيرة يومين منها لاسيما وان الاتراك قد احتضنوا شقيق عبد الله الغالب مولاى عبد المؤمن ابن محمد الشيخ ونصبوه حاكما على تلمسان نكاية فى الغالب وذلك منذ عام ١٥٥٩م بل انه تزوج من بنت باشا الجزائر التركى لاسيما ان عبد المؤمن كانت قد ساندته القبائل عربية وبربرية وكان متوقعا تدخل تركيا وباشا الجزائر لصالح عبد المؤمن ابن محمد الشيخ شقيق عبد الله الغالب ولكن الامور فى تركيا العثمانية كانت قد تغيرت ومات سليمان القانونى وتولى الخلافة بدلا منه السلطان مراد الثانى. الذى لجأ اليه عبد المالك بن محمد الشيخ واخوه احمد المنصور بعد اخيهما عبد المؤمن واتصلا بالسلطان العثمانى فى اسطنبول (القسطنطينة) وكان قد طلبا من السلطان العثمانى مساعدتهما فى التغلب على عبد الله الغالب لطرده من الحكم بعد تعاونه مع الاسبان والبرتغالين وعدم دخوله فى تحالف اسلامى تركى مغربى ضد القوى الايبيرية، لكن السلطان التركى مراد الثانى لم يستجب لهما وفضل ارسال سفارة إلى مراكش

للاطلاع على الامور الداخلية وفعلا قدمت السفارة التركية وقام الامير السعدى عبد الله الغالب باستقبال السفارة التركية احسن استقبال وتلقاه بالتبجيل والاحترام بما يليق بسفارة سلطان المسلمين الاعظم ودفع لها اموالا وافرة وذخائر من الذهب والياقوت وكانت هذه الهدايا سببا فى انصراف السلطان العثمانى من مساعدة عبد المالك واخيه احمد المنصور فى ذلك الوقت. وقد تكون هذه السفارة وقد قدمت إلى المغرب فى فترة تحسن العلاقات المغربية التركية (١٥٦٠- ١٥٧١م) .

وحول هذه السفارة والهدية يذكر المؤرخ المجهول ان الهدية وصلت إلى السلطان مراد الثالث مع رسوله المرسل إلى السعدين وعرض على السلطان ما اتفق عليه وهو ان الامير السعدى على استعداد لدفع المال سنويا إلى الخلافة التركية ورجع مبعوث السعدى إلى مراكش ولما علم عبد الله الغالب بما ذكر من شروط فانه قبلها ورضى بكل ما جاء فيها وقد يكون ذلك من الاسباب القوية التى ادت إلى تحسين العلاقات بين الجانبين واستعدادهما للعمل سويا من اجل طرد المحتلين ومعاونة الاندلسين المورسكين فى الاندلس ولقد كان من أثر هذه الاتفاقية ان عبد الله الغالب قد ضمن وقتيا عدم تدخل العثمانين فى شئون بلاده والوقوف عند حد القبول بشروط السلطان مراد الثالث ومن هنا فقد وجد فرصة الاستعداد لمقاومة التدخل الخارجى والوقوف بالمرصاد للتحركات الاسبانية والثورات الداخلية والمطامع الاخوية من جعل اخيه عبد المالك واحمد المنصور وعبد المؤمن اللذين تضافروا جميعا من اجل اسقاط عبد الله الغالب لكن التحسن فى العلاقات المغربية التركية فى تلك الفترة سبقته تنازلات مغربية لقوى اوربية جديدة بدات تأخذ بنصيب لها فى التجارة العالمية لمحاولة ايجاد راس قدم فى الثغور المغربية تلك القوى هى فرنسا التى عقدت معاهدة مع عبد الله الغالب من اجل تامين تجارتها فتنازل لها عن ميناء القصر الصغير عام ١٥٥٩م كامتياز

للفرنسين وقد يكون ذلك في اطار التعاون المغربي الاوربي والتعاون الاقتصادى من اجل حصول المغرب على الاسلحة الحديثة وايجاد اسواق اوربية لعصرف منتجاته من السكر وملح البارود والمواد المغربية التي تلقى اقبالا شديدا عليها من الدول الاوربية .

وهكذا شهد عصر عبد الله الغالب وخاصة الفترة ما بين ١٥٦١- ١٥٦٥م تدخلات كثيرة في السياسة الخارجية وعمل دؤوب من الغالب لمواجهة التحديات الخارجية والداخلية والامساك بخيوط اللعبة السياسية يتوازن شديد وقيادة فائقة للمسيرة السعدية سعيا لانقاذ البلاد من حرب اهلية لاسيما وان خطر عبد المالك بن محمد الشيخ واخويه لازال ماثلا امام الغالب وكذلك الموقف الاسباني والبرتغالي وثورة الاندلسين المورسكيين في اسبانيا ورغم ما تحامل به المؤلف المجهول على الغالب واتهامه له بالخيانة والتخاذل من وجهة نظره لكن الغالب كان يعمل على السير بتوازن بين القوى العالمية في غرب حوض البحر المتوسط لاسيما بعد انتصار الاتراك على اسبانيا عام ١٥٦٠م وهى الفترة التي شهدت تقاربا مع الاتراك وتبادل السفراء والهدايا والقبول لطلبات الاتراك وتنسيق الجهود التركية المغربية الاسلامية والتوجه للعمل من اجل الموقف الجهادى الاسلامي وعدم تراجع السلطنة المغربية عن هذه السياسة .

بل ان عام ١٥٦٤م قد شهد انصراف العثمانين عن سياستهم الجهادية في غرب البحر المتوسط وتركوا بادس وغمارة تسقط في ايدى الاسبان في ابريل عام ١٥٦٥م وتكبدوا في سبيل الاستيلاء عليها من الاتراك خسائر فادحة .

كما ان فترة حكم الغالب التي انتهت عام ١٥٧٤م قد شهدت قبل وفاته بثلاث سنوات تحطيم الاسطول التركى العثماني في معركة لبيانتو عام ١٥٧١م مما اضاف عاملا آخر في موقف النشاط البحرى الاسلامي في غرب حوض البحر المتوسط لصالح الملاحة البحرية الاوربية وسيطرتها التامة على طرق الملاحة وتحكمها في حركة

التجارة العالمية لكن الاتراك العثمانية لم يتركوا الميدان نهائيا اذ نجد انه فى عام ١٥٧٣م وقبل موت الغالب بعام واحد حققوا انتصارا اكبر على الاسبان فى معركة حلق الوادى فى ٣ سبتمبر عام ١٥٧٣م على يدى الوزير ستان باشا فى ٦ جمادى الاول عام ٩٨١هـ .

ولقد اضطربت الدولة السعدية فى مراكش بعد موت الغالب وبدات عوامل التفكك والانهيار تأخذ بعدها لاسيما بعد ان ظهر خطر عبد المالك واخويه احمد المنصور وعبد المؤمن ومساندة الاتراك لها وظهور الاتراك بمظهر القوة لاسيما بعد انتصارهم فى معركة حلق الوادى ضد الاسبان وهو الانتصار الحاسم على الاسبان فى تونس والذى قضى على نفوذهم نهائيا. وكانت ردا على انتصار الاسبان فى معركة ليبانتو وبهذا الانتصار فقد ضموا تونس نهائيا إلى امبراطوريتهم العثمانية .

ومهما يكن من فترة حكم الغالب وما شهدتها من احداث وانتصارات وصراع بين القوى الاسلامية التركية وانتصارها على الاسبان مرتين فى جربة عام ١٥٦٠ وحلق الوادى ١٥٧٣م وهزيمتها فى ليبانتو عام ١٥٧١م الا انها فرضت سيادتها فى الجزائر وتونس وطرابلس وما تم من مهادنة بينها وبين عبد الله الغالب (١٥٦٠- ١٥٧١م) وكذلك فانه مهما يكن تجنى المؤرخ المجهول على فترة حكم الغالب فان اليفرانى دافع عن فترة الغالب وقال عنها من ماجاء على لسان المؤرخ المجهول انما هو من وضع اعدائهم للحط من تدرهم واخراجهم من نسبهم الشريف ووصف دولتهم باوصاف لاتتناسب مع نسبهم الشريف بتعاونهم ومهادتهم للقوى الاستعمارية. لكن ابن القاضى اضاف قائلا ان ابا محمد عبد الله الغالب اشتغل بتامين وتاسيس ما بيده من املاك سعدية وتحصينها بالعدة ولم تطمع نفسه إلى الزيادة على ما ملك ابوه محمد الشيخ من قبله .

وهكذا انتهت فترة حكم الغالب بكل احداثها الداخلية والخارجية عام ١٥٧١م لكى تؤول قيادة البلاد إلى ولى عهده محمد المتوكل (المسلوخ) وكانت وفاة الغالب فى ٢٩ رمضان ٩٨١هـ/٢٢ يناير ١٥٧٤م .

(د) الامير الرابع (محمد المتوكل بن عبد الله الغالب ابن محمد الشيخ السعدى)
٩٨١- ٩٨٤هـ- ١٥٧٤- ١٥٧٦م

آلت اليه مقاليد الحكم بعد وفاة ابيه وهو الامير الرابع من امراء البيت السعدى القرشى الشريف النسب لكن المتوكل كانت امه أمه (عبدة) غير انه كان من أنبغ الامراء السعدين ثقافة وعلما وتدينا ومن اجل توليته ولاية العهد حدث الانشقاق الذى سبقت الاشارة اليه بين افراد البيت السعدى وما آلت اليه من قتل وطرد وعزل وسجن فقد تم التخلى عن سياسة ولاية العهد لاكبر الابناء الذكور من البيت السعدى وهى القاعدة التى كانت تسير عليها الدولة السعدية فى ذلك الوقت وكان يتبعها العثمانيون ايضا .

وكان المتوكل ابو عبد الله محمد بن الغالب واليا على فاس العاصمة الثانية فى البلاد ووليا للعهد قبل وفاة أبيه الغالب وقد اجتمع أهل الحل والعقد وعليه القوم ومشايخ الطرق الصوفية واعيان البلاد وشيوخ القبائل على مبايعته خلفا لوالده وارسلوا اليه فى فاس فى اوائل شوال عام ٩٨٢هـ لكى يعود إلى مراكش ليتولى خلفا لابيه ولكن اهل فاس كانوا بايعوه ايضا وتم امره وقد جمع المتوكل بين القوة العلمية والحجة الذكية وقوة الشكيمة والدهاء .

وتقول المصادر المعادية للأسرة السعدية ان الشريف الامير الجديد محمد المتوكل قد ذاع صيته منذ عهد ابيه انه يهتم بحياة اللهو والمجون وانه كان يسرف فى هذا النوع والنمط من الحياة بين اروقة القصور فى فاس وهو ولى للعهد. وانه لم يكن مقبولا عن عامة الشعب وبعض رجال الحل والعقد واشياخ القبائل .

وقد حكم عامين اثنين فقط هما (١٥٧٤– ١٥٧٦م) لم يطرا على فترة حكمه فيها ادنى تغير بل كانت انماطا سياسية كسابقة عهدها دون ادخال ادنى تغير عليها. فقد سار المتوكل على سياسة ابيه فى مهادنة المسيحين ومعاداة الاتراك العثمانين وكان حكم هاتين السنتين لم يتم فيها ادنى تغير فى الداخل او الخارج وكانت سياسة المتوكل التى سار عليها هو ووالده وجده ضد الاتراك لم تصرف انظارهم عن المغرب الاقصى بقصد الاستيلاء عليه والانتقام من حكامه الضالعين مع المسيحين اعداء الاسلام والاتراك والجزائرين من رجال الجهاد الاسلامى البحرى .

ولقد كانت مؤامرة اغتيال جدة محمد الشيخ المهدى والحملة التركية بقيادة حسن بن خير الدين لكى تؤدب الغالب ثم محاولة الاستيلاء على سياسة المتوكل الرعناء قد دفعت بالاتراك العثمانين بتجديد التدخل من الشرق فى الشئون المغربية تايدا للقوى السعدية المعارضة وهم اعمامه (عبد المالك واحمد المنصور وعبد المؤمن ابناء محمد الشيخ المهدى) والذين كانوا سينكرون سياسة التقارب والاتصال بالايبيرين (الاسبان والبرتغالين) على حساب الصداقة التركية الجهادية الاسلامية و،من هنا طالبوا الاتراك بتمكينهم من العرش السعدى مع طرد المتوكل من السلطة السعدية ومن هنا فقد قام اعمامه ينافسونه وعادت مراكش إلى ما كانت عليه الاحوال ايام بنى وطاس من الفرضى من جراء منافسات امراء البيت الحاكم السعدى والتى كان من جرائها عودة النشاط إلى اصحاب الرباطات المتصوفة والاتراك العثمانين وعودتهم إلى التدخل

المباشر فى شئون المغرب الاقصى. اضافة إلى تدخل النصارى .

وقد ساعدت الظروف كلا من عبد المالك واحمد المنصور على تحقيق اهدافهما نظرا لما طرا على علاقات عبد المالك بالعثمانين من ايام منفاة بين رحاب ضياقهم واقامتهما بالجزائر. ثم الاتصال بالسلطان العثمانى فى القسطنطينية كما انه من الثابت ان عبد المللك واخوته فى سنوات منفاهم مع امهم بعيدين عن الغرب ومسعاهم لدى العثمانين قد وجد ترحيبا فى بلاط باشا بالجزائر وبلاط السلطان بالسقسطنطينة وقد أدت هذه العلاقات إلى تزوج عبد المؤمن بن محمد الشيخ المستهدى ببنت حاكم الجزائر وتعينه قائدا على تلمسان فيها بين اعوام ١٥٥٩- ١٥٧١م وتمثل سنوات مسعاة مشاركة فى الجهود الحربية فى تونس وانتصار جربة عام ١٥٦٠م ومعركة وادى الحلق عام ١٥٧٣م ثم اقامته مع امه واخته واخويه احمد المنصور وعبد المالك وزوجته التركية وابنه اسماعيل معا فى العاصمة التركية نحو ثلاث بتونس والتى حصل بعدها على تفويض من السلطان العثمانى بغزو مراكش وفاس واعداد العدة للتوسع بالمغرب وكيف امدت الخلافة العثمانية عبد المالك بالقوة التركية التى دخلت فاس مع عبد المالك وقدرتها المصادر بخمسة او اربعة آلاف والتى لم تكن لها ان تتحرك لولا القدرة العسكرية الفائقة التى تمتع بها عبد المالك واخويه (احمد، عبد المؤمن) وارسالهما البشرى إلى السلطان بفتح تونس عن طريق قارب سريع لاحد رجال الجهاد الاسلامى، اثره المباشر فى احتفاء السلطان بهما وبذل المال والسلاح لهما واصدر الاوامر السلطانية إلى حاكم الجزائر بارسال هذه القوات معهما إلى المغرب واستغل عبد المالك واحمد ظروف الانتصار لكى يشفعوا لدى السلطان العثمانى فى دفن راس والدهما محمد الشيخ السعدى التى كانت لاتزال معلقة بالقسطنطينة وقدم الاخوان السعديان فرمان من السلطان العثمانى إلى حاكم الجزائر ونهض عبد المالك واخوه احمد إلى المغرب

ومعهما جند الاتراك العثمانى الذى سيكون العون الاساسى فى طرد محمد المتوكل من عرش المغرب واستيلاء عبد المالك على الحكم وكتب المولى عبد المالك إلى انصاره بالمغرب يعرفهم بقدومه فاخذوا الاستعدادات اللازمة لمؤازرته ونصره ساعة وصول القوات لذا فما ان دخل عبد المالك بالجيش التركى حتى انضمت اليه جموع القبائل والقواد المغاربة كما انضم اليه رئيس جند الاندلس ورجاله وذلك لان هذه القوات الاندلسية كانت تسخط على المتوكل وابيه عبد الله الغالب لسياسة المهادنة مع الايبيرين المسيحين الذين طروهم من ديارهم وبلادهم بالاندلس ولانهم كانوا يكرهون عبد الله الغالب وابنه المتوكل لخيانته لهم فى العودة إلى ديارهم .

لذا فان محمد المتوكل بن الغالب (المسلوخ) لما علم بانحياز جند الاندلس إلى قوات عمه عبد المالك ترك الميدان وفر من المعركة امام الجيش التركى المغربى بقيادة عميه عبد المالك واحمد المنصور. وكان ذلك من اسباب ضياع ملكه إلى الابد ولم يستطع مواجهة جيش عبد الملك حينما التقت القوات بالقرب من فاس وهرب إلى مراكش واستولى عبد المالك على فاس فى ذى الحجة عام ٩٨٣هـ بعد هزيمة المتوكل بخندق الريحان بسلا وتقدم المولى احمد المنصور إلى مراكش لاخذ البيعة باسم اخيه عبد المالك المعتصم وذلك بعد ان بويع الاخير بالخلافة من قبل اهل فاس وبذلك خلص الحكم لعبد المالك بن محمد الشيخ ولقب بالمعتصم ثم لحق المعتصم بمراكش ودخلها فى ١٩ ربيع ثانى عام ٩٨٤هـ/ ١٥٧٦م .

وبنجاح دخول عبد المالك إلى العاصمة مراكش وفوزه بعرش الامارة السعدية تاكد انتصار فكرة الجهاد الاسلامى ضد القوى الايبيرية ونجاح خط التعاون التركى المغربى وطوع البلاد للشريف الجديد ضد الامير المخلوع محمد المتوكل بل ضد خطه السياسى ومعالم حكم ابيه من قبل المعادية للاتراك وزاد من التايد المغربى الجارف التى

رضى للوالى الجديد عبد المالك اظهار المواقف المغربية المعادية للاسبان والبرتغالين. وتخوف هؤلاء من الترابط المغربى التركى العثمانى فى عهد عبد المالك الذى لم يطل به العمر فى الحكم اكثر عامين فقط .

لكن الاميرالمخلوع محمد المتوكل استمر فى مقاومته وطلبه العرش لذا فقد استطاع الدخول إلى مراكش والاستيلاء عليها فى مارس ١٥٧٧م وان كانت هذه الهجمة على العاصمة لم تسمح له بالسيطرة عليها ذلك انه لم يستطع الا دخول حى الملاح الذى اصابه هجومه بالتخريب اما القصبة مركز المدينة فقد كان بها وقت هجومه على العاصمة ستة آلاف مقاتل بقيادة القائد ابن جارمان وذلك لحماية اخت السلطان عبد المالك الاميرة مريم بنت محمد الشيخ والتى كانت مقيمة بها آنذاك .

لكن محمد المتوكل بن الغالب تمكن من الذهاب شمالا حيث القواعد الاسبانية والبرتغالية فى سبتة وطنجة ومليلة وحيث مقره الاخير فى اصيلة لكى يواصل فيها المقاومة والتى كانت فى ذلك الوقت تحت حكم صهره القائد عبد الكريم بن توده والذى سمح لحاكم طنجة البرتغالى بدخول المدينة (اصيلة) نظرا لاستنجاد المتوكل بالبرتغالين ولجوئه اليهم فى سبتة وطنجة حيث وجه من طنجة خطابا إلى علماء ورجال الدين المغاربة يشرح لهم فيه اسباب لجوئه إلى الاسبان معللا ذلك باحقيته فى عرش البلاد لكن العلماء ردوا عليه بخطاب مطول استنكروا فيه تصرفه هذا وتخليه عن مدينة اصيلة للبرتغالين. هذا وسوف نرى ان عدم استكانة محمد المتوكل ولجوئه إلى البرتغالين طلبا للعرش سوف تؤدى إلى عواقب وخيمة للعرش البرتغالى وسوف تكونخطواته مجدا وشرفا للعرش السعدى الشريف تحت حكم عبد المالك محمد الشيخ المهدى .

وكان على محمد المتوكل ان يكتفى بهزيمته النكراء فى موقعة خندق الريحان والتى سبقت الاشارة اليها وكانت سببا فى قراره من العاصمه والتى دارت رحاها فى شهر يوليو ١٥٧٦م على مقربة من وادى الشراط بين سلا وفضالة حيث كان عبد المالك قد عبر نهر ملوية سابقا وانضم اليه اثنا عشر قائدا مغربيا بقواتهم ضد المتوكل لكن قوات المتوكل كانت تزيد عن اربع وستين الف فارس (٦٤ الف) ونحو خمسين الف (٥٠ الف) من المشاة من بينهم ثلاثه وعشرون الف حاملو بنادق نارية (٢٣ الف) فرسا ومشاة مع مائة وثلاثه وخمسين مدفعا (١٥٣ مدفع) فى حين ان قوات عبد المالك التى احرزت هذا الانتصار كانت قوات محدودة العدد والعدة لكنها كانت حسنة التدريب وتتكون من اثنى عشر الف (١٢ الف) من حاملى البنادق النارية الراجلين، ٢٨ الف فارس من بينهم ثلاثة آلاف تركى ويجرون معهم ٤٦ مدفع ولم يقم عبد المالك بقيادة هذه القوات المذكورة بنفسه رغم خطورة المعركة انما كان على رأس هذه القوات اخوه احمد المنصور واثنان من ابناء عمومته هما مولاى عمر ومولاى الناصر القائد بن عبد الكريم والنص، وانتظر عبد المالك بفاس بعد ان كان قد دخلها حتى بلغته انباء الانتصار والهزيمة الفادحة لقوات محمد المتوكل التى راح ضحيتها خمسة عشر الف قتيل فى مقدمتهم كبار قادته ورجال دولته فضلا عن فقده جميع مدافعه ومعداته الثقيلة .

وكان حسن التنظيم والاعداد والتدريب والتخطيط واساليب التنظيم العسكرى العثمانى وراء هذه الانتصارات اذ بفضلها استطاع عبد المالك ان ينتصر ولم يفقد فى هذه المعركة سوى القليل من الرجال .

وكان قد تاكد فشل محمد المتوكل بن الغالب فى استعادة مراكش من ايدى عمه عبد المالك ومن كان تصميم الاخير على ضرورة القضاء على المتوكل ومنعه من

استقراره فى اقليم السوس والاجزاء القريبة من مراكش وقطع كل صلة بينه وبين القبائل التى كانت تمد له يد العون فى اقليم السوس حيث توجه محمد المتوكل إلى تلك الارجاء ومن ثم تبعه احمد المنصور وكانت بينهما حروب كثيرة ومواقع تصادمية واستطاع المنصور الانتصار فيها على ابن اخيه المتوكل وهزم كعادته فى المعارك التى خاضها ففر إلى جبل درن ثم دخل طنجة طالبا النجدة من البرتغالين والاسبان لكن عبد المالك اصدر اوامره بتضييق المنافذ عليه ومحاولة القضاء عليه نهائيا. وبعد ذلك فما كان من المتوكل الا ان طلب عون ملك البرتغال دون سباستيان الاول الذى زين له السيطرة على بعض الثغور واعادته إلى عرشه وهنا تبين ان الاتراك كما ساعدوا عبد المالك بن محمد الشيخ ومكنوه من استعادة عرش ابيه، فاننا نجد ان بعض القوات التركية تساعد محمد المتوكل وتعمل على اعادته إلى عرش مراكش ومن ذلك فاننا نجد بعض القوات التركية تقبل الانضام اليه لاسيما بعض القوات الانكشارية التى وصلت إلى اقليم السوس متضامنة ومساعدة له والذين اتخذه الاعوان والمستشارين واسدوا له النصح والمخالصة وتفانوا فى خدمته والاستماتة دونه وكانوا من عوامل قوته فى بلاد السوس واشتركوا فى حروبه الجنوبية التى خاضتها ضد قوات احمد المنصور وكذلك فان موقف القوات الاندلسية قد تغير بعد دخول عبد المالك إلى مراكش ومن ذلك نجد سعيد الدغالى قائد هذه القوات والغز واللذين كانا على صلات قوية بعبد المالك والاتراك ينقلبان على عبد المالك ويحاولان القيام بالثورة ضده والعمل تغير تاييدهم له وتأييد محمد المتوكل لاسيما وان عبد المالك بعد ان انتصر فى مراكش وتكشفت له ثرواتها العظيمة فانه اكتفى بارسال اخيه احمد المنصور فى قوة من ثلاث آلاف جندى وفارس لتعقب ابن اخيه محمد المتوكل فى الشمال ايضا بعد تعقبه سابقا فى الجنوب فى بلاد السوس ولكن هذه المرة فى جبال الاطلس الكبير مما دفع المتوكل إلى دخول طنجة والاحتماء بالبرتغالين قبل الاتصال بملكهم دون سباستيان .

وهكذا فان صفحة المتوكل بن الغالب لم تنته بسيطرة عبد المالك على مقاليد الامور فى مراكش ومطاردة محمد المنصور له فى بلاد السوس جنوبا والاطلسى شمالا، ذلك لان الاحداث لم تكن لتستقر لعبد المالك فقد كان المتوكل لازال يبحث عن مساعدة له ومعين يستظل تحت لوائه فى اعادته إلى عرش البلاد مهما تكن هذه المظلة ومهما يكن ما يقدمه من تنازلات من ارض الاسلام والمسلمين فى مقابل شهوة شخصية واهداف ومطامع دنيوية لاتخرج عن حب الزعامة والقيادة الفاشلة بغض النظر عما يعود على العقيدة والتراث والشعب المغربى ومن هنا فسوف تكون جولة قادمة على ارض المغرب يروح ضحيتها ثلاثه ملوك من بينهم محمد المتوكل او محمد المسلوخ .

الفصل الثانى

امير المؤمنين عبد المالك بن محمد الشيخ بن القائم بامر الله السعدى
قائد اعظم انتصار فى تاريخ المغرب– معركة النصر الكبير
٩٨٤– ٩٨٦هـ/ ١٥٧٦– ١٥٧٨م

هو الامير السعدى الخامس فى سلسلة سلاطين السعدين وقائد اعظم انتصار فى تاريخ المغرب من الفتح الاسلامى حتى العصر الحديث. ولد عام ٩٥١هـ/ ١٥٤١م وكان عمره وقت وفاة ابيه ستة عشر عاما ١٥٥٧م بينما كان اخوه عبد الله الغالب الذى آلت اليه مقاليد الامور فى سن الاربعين وقد تغلب عبد المالك قبلّ أنّ يلقب بالمعتصم بلقب الغازى فى سبيل الله وكأن له اخ شقيق هو عبد المؤمن. وكان عمره خمسة وثلاثين عاما عندما استطاع ان يستولى على مقاليد الامور فى المغرب وعلى الرغم من أن فترة حكمه كانت قصيرة قضى معظمها فى مطاردة ابن اخيه محمد المتوكل الا أن أنها شهدت أهم احداث فى تاريخ المغرب وكانت نهايته وهو يقود القوات المغربية لتسجل امجد واعظم بطولات التاريخ الاسلامى على ارض المغرب وكما سبق القول عن عبد الملك لم يكد يستقر فى مراكش حتى أخذ فى مطاردة المتوكل الذى فشل فى استرداد عرشه فما كان عليه الا ان يتصل بالاسبان والبرتغالين حلفائه القدامى فرفض الاسبان مساعدته لانشغالهم فى حروبهم فى الاراضى المنخفضة (هولندا) وكذلك كشوفهم الجغرافية فى العالم الجديد (الامريكتين) فاتجه إلى البرتغال وقد أرسل المتوكل كما سبق القول رسالة إلى العلماء يبرر لهم ارتماءه فى احضان القوى الاوربية معللا لهم ان تحالفه مع البرتغالين انما من اجل استرداده حقه فى العرش السعدى الا ان العلماء استكبروا عليه ذلك ومن ثم كان الاتفاق مع سايستيان ملك البرتغال على أن يترك للبرتغالين جميع الموانى الشمالية المطلة على البحر المتوسط

لكى تكون تحت سيادتهم وحكمهم فى مقابل معاونته فى استعادة عرش المغرب .

وعمل عبد المالك بعد استقرار الامور له فى البلاد باعادة القوة التركية التى شاركته فى فتح فاس ومراكش إلى الجزائر بعد مبايعة البلاد له وقبل ان يطارد ابن اخيه واعطاهم الهدايا وبذل لهم الاموال وزودهم بكل مايحتاجونه اليه وركب بنفسه لوداعهم فى نهر سبو ولكن هذا الموقف لم يرض القائد التركى رمضان باشا الذى ارسل قواته للتدخل فى شرق المغرب فما كان من عبد المالك الا ان طلب تدخل السلطان العثمانى مراد الثالث الذى تدخل لصالح عبد الملك وقام بعزل رمضان باشا عن ولاية الجزائر. وكان عبد المؤمن بن محمد الشيخ مقيما بالعاصمة التركية قد عرض الامر على السلطان العثمانى الذى قرر عزل الحاكم التركى فى الحال وهم الذين ساندوا عبد المالك ضد ابن اخيه وهم الذين كانوا يسعون إلى التحكم فى المغرب الاقصى بسياسة المراحل وان المرحلة الاولى قد بدأت فى عهد الغالب فكان عليهم ان تكتمل الحلقات فى عهد عبد المالك .

ولقد كان للدولة العثمانية خطتها فى ذلك فهى التى مارست وجودها فى غرب البحر المتوسط وخسرت معركة لبيانتو وامدت عبد المالك بالقوات التى لاتقل عن خمسة آلاف مقاتل وعشرين مدفعا وعشر سفن تغامر بها فى مساعدة عبد المالك فقبل عودة هذه القوات فورا من اجل طلب الدعم المادى أو العطاء المادى الذى اطلق عليه الاوربيون الهدية او البقشيش وذلك نكاية منهم لتصوير الدور الاسلامى التركى البطولى بانه كان من اجل الاموال والهدايا والتحف وماشاكل ذلك متناسين الدور الاسلامى الجهادى الذى كان يلعبه الاتراك على الساحة العالمية فى ذلك الوقت باعتبارهم حماة الخلافة الاسلامية وسدنتها فكيف لايكون شعار الجهاد هو شعارهم والفتح الاسلامى هو غايتهم وليس الكسب المادى الذى صوره رجال السفارات والقناصل الاسبان

والبرتغالين والانجليز المقيمين فى المغرب فى ذلك الوقت ان حق الاخوة الاسلامية هو الدافع الاول فى التحرك التركى وربما ياتى بعده محاولة مد النفوذ التركى إلى المغرب الاقصى وان تقبل بعودة قواتها بهذه السرعة الا اذا كان ذلك متفقا عليه بين القيادة التركية وعبد المالك او يكون عبد المالك قد احس ان دورهم قد انتهى بدخول فاس ومن ثم فانه لايقبل بالوصاية والسيطرة التركية فما كان عليه الامر برحيل القوات إلى الجزائر وربما تكون طلبات قادة القوات التركية ولاسيما رجال الاسطول منهم قد دفعت عبد المالك إلى رفع شكواه إلى الباب العالى وربما يكون عبد المالك قد استاء من موقف الاتراك وتأييدهم لابن اخيه محمد المتوكل وهزيمة اخيه احمد المنصور امام قوات المتوكل فى درن واضطرار القوات إلى العودة إلى مراكش وقيام عبد المالك بمنع القوات التركية من العبث بمدينة مراكش وفاس وعدم اطلاق ايديهم خوفا من السلب والنهب وحفاظا على املاك الاهالى كسبا لتايدهم له ودعما لموقفه من طلب العرش لاسيما وان المتوكل كان لايزال حيا ويقاتل من اجل العودة ولقد احسن عبد المالك صنعا فى ذلك اذ كسب تأييد الشعب ونادى به سلطانا على البلاد .

ولقد كان عامة الشعب فى المغرب يحسون باحساس الدين الاسلامى الذى يربطهم بالاتراك ومن هنا كانت لهم محبة خاصة فى قلوبهم، كما ان عبد المالك والذى عاش واخوته وامه فى رحابهم فى الجزائر وتركيا والذى كان يرى فى الوجود التركى عونا له ودعما لنفوذه لاسيما وانهم امدوه بالعون من اجل استعادة الحصول على عرش ابيه ودفعوا بقواتهم فانه كان لابد ان يظهر للجانب التركى الولاء والاخلاص للباب العالى ولابد ان تكون علاقاته العسكرية والمالية بل وان تكون التعاون والتحالف ما يحقق الوجود التركى والعثمانى دوره فى عهد عبد المالك وبما يسعى اليه الاتراك من تحقيق ضم المغرب اليهم مرحليا على خطوات ولقد كان ذلك ما قام به

عبد المالك لانه ليس من المعقول ان يقوم بطرد هذه القوات فورا دون اتفاق مسبق وتقديم المبررات لدى السلطان العثمانى وارسال الهدية المطلوبة والتى قدمت سفينة تركية إلى المياه المغربية لتقوم بنقل الهدية إلى العاصمة القسطنطنية كما أنه قد يكون قد عمل عبد المالك على كسب ود الاتراك العثمانين اثناء وجود قواتهم بان يردد الدعاء للسلطان العثمانى مراد الثالث على منابر المساجد فى فاس وايضا فى مراكش من باب الاعتراف بالعون والجميل وان ذلك كان لفترة قصيرة اثناء وجود القوات التركية فى فاس فقط لان الوجود العسكرى كان يكسب الاتراك نفودا سياسيا فى ذلك الوقت ومن هنا كان لابد من الدعاء للخليفة التركى على منابر المساجد قبل وقوع النفور والاستياء من تصرفاتهم .

ولم يكن استيلاء عبد المالك على السلطة بدعم الاتراك يمر بسهولة من جانب العدو الايبيرى من الاسبان والبرتغال اذ نجد عبد المالك يرسل السفن التركية إلى موانئ تطوان والعراش وسلا ويقوم بنفسه بتشرد القلاع الحربية فى مراكش وسلا والعرائش تحسبا لادنى تدخل من قبل القوات الاسبانية او البرتغالية وقام بتوزيع القوات التركية المتبقية على هذه الحصون وكان نصيب قلعة مراكش ٥٠٠ (خمسمائة جندى تركى) وظهرت مظاهرة بحرية تركية كبيرة تعلن فرحتها بانتصار عبد الملك على قوات محمد المتوكل والتى منه خمسون سفينة تمركزت فى شمال انطوان وثلاث وعشرون سفينة فى ميناء سلا والعراش منها ثمان سفن حربية وفدت ايضا من الجزائر وكذلك ست سفن اخرى مغربية تم الاستيلاء عليها من قوات محمد المتوكل وثلاث سفن تركية ملك محمد عبد المالك بن مراد الرئيس وست فرقاطات تركية اخرى. ومن ثم فقد تكون اسطول تركى مغربى مكون من ثمان وثمانين سفينة (٨٨ سفينة) وذكرت المصادر الغربية الاسبانية بان هذه القوات البحرية ربما تبحر إلى الاندلس وان الاوامر قد

صدرت لهذه السفن بالتحرك قبل السواحل الاندلسية لاسترداد هذه الديار وحماية اهلها المضطهدين من قبل محاكم التفتيش والقتل الجماعى للمسلمين وان هناك قائدا تركيا قد وصل من القسطنطينة إلى الجزائر لقيادة هذه القوات الاسلامية المشتركة وللقيام بعمل اسلامى يخدم قضايا مسلمى المورسكين وان هناك عشرة آلاف جندى تركى. وتوقعت المصادر الغربية الاوربية بعد سيطرة عبد المالك ان يزداد الدور التركى فى المحيط الاطلسى وسواحل المغرب الشمالية والجنوبية وان هناك اكثر من ثمانين سفينة حربية معدة ومجهزة للقيام باية مهمة تطلب منها ولقد كان وجود هذه القوات بهذه الكثرة العددية والكثافة العسكرية دافعا للطرف الاوربى الايبيرى ان يعد للامر عدته ويعيد حساباته على ضوء التحركات الجارية لاسيما وان محمد المتوكل كان لايزال يدفعهم دفعا للتدخل لصالحه وانه لازال خصما عنيدا لم يستسلم لعمه عبد المالك رغم هزائمة المتكررة وخسائره الفادحة وانصراف القبائل من حوله وكانت الدول الاوربية تدعم المتوكل لاسيما البرتغال التى افزعتها القوة التركية الحربية والبحرية وان هذا الوجود التركى يشكل تهديدا مباشرا على وجوده فى الثغور المغربية وكذلك تهديدا على الوجود الاسبانى داخل بلاده والثغور المحتلة فعلا فى الاراضى المغربية ولاسيما ان عبد المالك وتحالفه الشديد مع الاتراك قد دفع بالعلاقات مع القوى الايبيربة إلى حالة من العداء وعدم الاستقرار والتوتر لاسيما ان السفن التركية لازالت رابطة فى الموانى المغربية واخبار نقل الاسرى الاوربين إلى القسطنطينة وارسال الهدايا إلى السلطان والتحول الحاد فى السياسة المغربية قبل الاتراك وانتهاج سياسة مضادة للبرتغالين والاسبان على عكس سلفه الغالب وابنه المتوكل اللذين كانا صديقين مخلصين لهما. لاسيما وانه ظهر للعيان خير الاستعدادات التركية فى الجزائر لنجدة واغاثة الثوار المورسكين فى مدنهم الاندلسية، وقد كان هذا لابد أن يحرك المشاعر الاوربية ضد الوجود التركى وضد القيادة المغربية الجديدة المتمثلة فى شخصية عبد المالك بن محمد

الشيخ وساعده الايمن اخيه احمد المنصور اللذين تحكما فى مصير المغرب فى تلك الفترة الدقيقة من تاريخ الصراع فى غرب البحر المتوسط ومحاولة ايجاد نوع من التوازن السياسى بين القوى المتصارعة .

لكن الاحداث كانت تتلاحق من حول عبد المالك الذى اراد ان يمسك بزمام الموقف تفاديا للدخول فى صراعات كبرى عالمية لاسيما وان الموقف الداخلى لم يستقر بعد ولم يمض على تمكنه من السلطة الا فترة زمنية قصيرة لم يتمكن خلالها من اعادة ترتيب البيت المغربى استعدادا للانطلاق للخارج لدعم موقف المغرب قبل الصراعات العالمية التى تدور من حوله .

لقد كانت خصومة محمد المتوكل عقبة كبيرة تقف فى طريق عبد المالك لتحديد رؤية سياسية ثابتة لاسيما انه كان يشكل اكبر تهديد لا من وسلامة البلاد لاسيما ان عبد المالك كان يعانى ضائقة مالية من جراء الوفاء بالهدايا للاتراك وقد خطط عبد المالك لتنفيذ خطة الاستيلاء على عرش المغرب تخطيطا سليما فانه اذ قد ضمن القوات التركية لمساندته فى الغزو فانه اراد يأمن جانب الاسبان لعدم وقوع رد فعل عدائى من جانبهم ضد مشروعه الخاص بغزو المغرب بمساندة القوات العثمانية وكذلك دفع القبائل المغربية للثورة ضد المتوكل وقد افادت الانباء الواردة إلى تركيا عن انتشار الثورات ضد محمد المتوكل ومطالية الثوار الثائرين بتولية عبد المالك بن محمد الشيخ اماما لفاس ومراكش ومن هنا فان قوات عبد المالك ورمضان باشا حاكم الجزائر لم تدخل فاس الا فى مارس ١٥٧٦م. وفى المقابل تحرك البرتغاليون والاسبان لتامين اهدافهم والثغور التى يسيطرون عليها ومحاولة تطويع القيادة الجديدة فى فاس ومراكش فكان نزول ملك البرتغال إلى سبتة وطنجة لاعداد حملة للتوسع فى الاراضى المغربية وفتح المزيد من الثغور المغربية وضمها إلى بلاده وكان تحرك الملك البرتغالى هو

الخوف من التحرك التركى ذلك لان الاسبان والبرتغالين قد احسوا بان قدوم الاتراك إلى المغرب الاقصى ليس من اجل مساعدة عبد المالك فحسب والحصول على امارة ابيه ولكن من اجل الحصول لانفسهم على ملكية بعض الثغور المغربية وربما الدخول فى قتال ضد قوات البرتغال والاسبان لتحرير طنجة فى مقابل ان يكون ميناء العرائش للقوات البحرية التركية وفى سبيل ذلك تحرك ملك البرتغال «دون سباستيان» طالبا من فيليب الثانى ملك اسبانيا مساعدته لمنع الاتراك من الحصوال على ميناء العرائش. ولقد صدق حدس الاوربين اذ تم عزل رمضان باشا والى الجزائر الذى كان يصارع السلطان السعدى عبد المالك وتم تعين باشا جديد للجزائر هو حسن اغا «البندقى» رفيق عبد المالك وصديقه ومن ثم فقد سارت العلاقات بين الباشا الجديد وعبد المالك على احسن ما يكون وتمت مراسلات تتلخص فى ضرورة التنسيق العسكرى والسياسى بين المغرب والعثمانين من اجل دعم الوجود التركى بالمغرب وتوحيد السياسة الدفاعية قبل القوى الاوربية ولقد كان الشروع التركى ينص على استقبال عبد المالك للقوات البحرية التركية فى مينائى سلا والعرائش بحيث يتمكن بمساعدة المغاربة من طرد البرتغالين من طنجة وسبتة فضلا عن ان هزائم الاسبان سوف تقوى مركز عبد المالك وتدعم مشروع الجهاد الاسلامى .

وقد استجاب عبد المالك لطلب الاتراك العثمانين ارتباطا بما تعهد به لهم ومساندته فى العودة إلى عرش المغرب وانطلاقا من دور الحركة السعدية الشريفة فى مجاهدة المحتلين ومساندة رجال البحر المسلمين المجاهدين دعما لشعار الجهاد والرافض من موقف محمد المتوكل بن الغالب المتهم من الشعب المغربى بالارتماء فى احضان سلطان الاحتلال البرتغالى والتنازل لهم عن اراضى الاسلام والمسلمين والاستعانة بهم فى قتال عمه عبد المالك لكن من الناحية الاخرى فقد كان عبد المالك يريد ان يتحرر

من القيود التركية التى ربما تحد من قدرته على اتخاذ القرار ومحاولة التقارب مع البرتغاليين والاسبان ولكن ليس بالصورة التى كان عليها أخوه الغالب وابنه محمد المتوكل حتى لاينال عداوة الشعب المغربى الذى كان يرى فى كل تقارب مع الاستعماريين خيانة للمبدأ التى قامت عليه الدولة السعدية وهو جهاد المحتلين والعمل على طردهم من الديار المغربية .

لكن عبد المالك كان يرغب فى التقارب مع فيليب الثانى ملك اسبانيا لكى يحاول تقليص الوجود البرتغالى فى المغرب والقضاء على كل الجيوب البرتغالية توطئة لما سوف يكون الوضع العسكرى المغربى بالتعاون مع الاتراك والانقضاض مستقبلا على القواعد الاسبانية لتصفية كل الجيوب المحتلة، وكان عبد المالك قد حاول التقارب مع ملكة انجلترا اليزابيث لكى يستغل موقف الصراع بين الاسبان والانجليز لصالح القضية المغربية .

ولقد كان الهدف المعلن لملك البرتغال هو ضرورة اجلاء عبد المالك عن السلطة وايعاد محمد المتوكل والتوسع فى الاراضى المغربية ذلك هو الهدف المعلن ولقد كان هدف اسبانيا، ايضا ولكن غير معلن وكان هناك ارتباط بين ملك اسبانيا وابن اخته ملك البرتغال وكان مشروع سباستيان بضرورة احتلال العديد من الموانئ المغربية على الساحل الاطلسى للمغرب والاعداد لحملة برتغالية اسبانية مشتركة بهدف امتلاك ميناء العرائش بصفة خاصة وكذلك ان ملك البرتغال لم يقتنع بمحاولات عبد المالك فى التباعد بالتدريج عن اصدقائه الاتراك العثمانين حرصا على ايجاد صيغة للتوازن فى العلاقات لكن ذلك ام يجد لدى سباستيان ملك البرتغال فكان تحركه وكانت معركة القصر الكبير .

الفصل الثالث

معركة القصر الكبير (وادى المخازن او الملوك الثلاث)

١٦ اغسطس ١٥٧٨م- ٣٠ جمادى الاولى ٩٨٦هـ

هذه المعركة صفحة مضيئة ابد الدهر فى تاريخ المغرب بل هى قمة معارك الاسلام الكبرى سجلت المجد والفخار للمغرب العربى ابد الدهر فقفزت بالمغرب مع نهاية القرن السادس عشر الميلادى إلى مقدمة الصفوف الكبرى فى المجال العالمى ووضعت حدا ونهاية للدولة البرتغالية ومات فيها ثلاثه ملوك قبل ان ينقشع غبار المعركة عن نصر كبير مؤزر لجند الاسلام لذى يقوده عبد المالك بن محمد الشيخ الشريف السعدى سليل الدوحة النبوية والشجرة الحسنية القرشية .

هى يرموك خالد بن الوليد فى بلاد الشام، وقادسية سعد بن ابى وقاس فى بلاد الفرس، ومعركة عين جالوت بقيادة السلطان قطز سلطان مصر على التتار والمغول، هى معركة حطين عام ١١٨٧م بقيادة صلاح الدين الايوبى وانتصاره على الصلبين هى بدر الكبرى فى تاريخ المغرب الكبير هى صورة حية للدورالبطولى الرائع الذى قدمه المقاتل المسلم العربى المغربى فى سبيل الدفاع عن ارضه وعرضه ودياره فكانت فتحا مبينا ونصرا مؤزرا وضع نهاية للغطرسة الاوربية .

قاد قوات المغرب المؤمنة برسالة ربها الرافعة لقرآنها، الطائعة لمولاها الشريف بن مولاى عبد المالك بن محمد الشيخ السعدى ويعاونه أخوه وساعده الايمن حاكم فاس مولاى احمد (المنصور) وكبار قواد المغرب، وعلى الجانب الآخر كان دون سباستيان يعاونه خائن قضية الاسلام والمسلمين محمد المتوكل بن عبد الله الغالب ومعهما قوات جرارة من كل الدول الاوربية وقوات البابا فى روما والجمهوريات الايطالية وفرنسا

والمانيا وانجلترا وغيرها من المتطوعين من كل دول اوربا .

وكان سباستيان شابا برتغاليا مغروا يعادى الاسلام والمسلمين نظرا للتربية المسيحية المتعصبة على يد رجل الجزويت وما بثه فى نفسه من تعاليم معادية للاسلام فضلا عما كان يحس به من سياسة خاله الملك الاسبانى فيليب الثانى قبل مسلمى غرناطة من المورسكين ومن هنا كانت نفسه تهفو إلى نشر التعاليم الجزويتية وتربى ايضا على سياسة ان الهجوم خير وسيلة للدفاع لذا كانت خطته مهاجمة المغاربة فى عقر دارهم والعبور إلى افريقيا وخوض الحرب المقدسة شخصيا ضد المسلمين الكفار هكذا كان يتصور فى فكره الخيالى صورة المسلمين .

وكان سباستيان منذ عام ١٥٦٢م قد حاول العمل مع خاله ملك اسبانيا من اجل تنسيق وتوحيد سياستها قبل التحرك التركى الاسبانى أثر انتصارهم فى معركة جربة عام ١٥٦٠م وتحطيمهم الاسطول والوقوف بحزم ضد فكرة أحياء وحدة القوة الاسلامية التركية المغربية فى بلاد المغرب توطئه لاعادة تحرير الاندلس، ولم يكن مشروع محاربة المغاربة فى عقر دارهم ولد ابنها (المتوكل عام ١٥٧٦م و١٥٧٧م) بل ان هذا المشروع يعود فى ذهن سباستيان لبناتو امام الاسطول الاسبانى عام ١٥٧٣م لاسيما ان ملك البرتغال كان يضع فكرة الاستيلاء على ميناء العرائش فى المقام الاول لتاكيد رغبته فى السيطرة على الملاحة والتجارة المارة بالمغرب إلى بلاد السودان الغربى وكذلك الرغبة فى السيطرة الداخلية والتوسع من الموانئ البرتغالية داخل المغرب والتجوال فى الاراضى المغربية وايجاد حكومة مغربية موالية لهم كما كان فى عهد الغالب وابنه محمد المتوكل لاسيما وان فرنسا حصات على ميناء القصر الصغير لكى يكون مركزها التجارى ومحاولات انجلترا أيضا الحصول على امتياز يسمح لها بالتجارة وميناء ترسو اليه السفن الانجليزية فى طريقها عبر المحيط الاطلسى والاتجار مع المغاربة

لاسيما أن الفرنسين والانجليز وغيرهم من رعايا الدول الاوربية قد باعوا اسلحة حربية حديثة كثيرة إلى المغاربة منقذين فى ذلك تعليم البابوبية التى تحرم مبادلة الاسلحة مع المسلمين لاسيما الاسلحة الهجومية والدفاعية لاسيما الجانب الانجليزى الذى كان يجاهر بالتجارة فى الاسلحة وتصديرها إلى المغرب عن طريق ميناء العرائش ووصلت الاخبار إلى ملك البرتغال بذاك فان هناك سفنا انجليزية انزلت اسلحة نارية هجومية ودفاعية لانواع حديثة من القذائف، ولقد ساعدت الظروف الداخلية فى المغرب الملك سباستيان عام ١٥٧٤م لكن ليبدا فى تنفيذ خطواته العملية لتنفيذ مشروع احتلال ميناء العرائش لمنع دخول الاسلحة إلى المغرب وتحرم التجارة فى هذا النوع من الصادرات الانجليزية وتفتيش السفن التى تحمل اسلحة فى الدخول والخروج من ميناء العرائش واسفى .

وقد أراد ان ينفذ مشروعه هذا عمليا فقام فى نوفمبر عام ١٥٧٤م بزيارة الثغور المغربية المحتلة وهى سبتة وطنجة ووعد بتكرار الزيارة لهذه الثغور وكاتب خاله فيليب الثانى ملك الاسبان لكى يعملا سويا من اجل كسر شوكة النفوذ التركى وعدم السماح له لممارسة نفوذة فى بلاد المغرب الاقصى وضرورة الحيلولة دون سماح عبد المالك للسفن التركية بان تتخذ موانئ المغرب قواعد لها وان سيطرة البرتغالين والاسبان سويا على العرائش سوف يفرض الحصار نهائيا على السفن المغربية التركية .

وفجر الموقف وازداد اشتغالا بسيطرة عبد المالك بن محمد الشيخ على مقاليد الامور فى المغرب وزاد ذلك من احساس سباستيان الاول من ضرورة القضاء على هذا السلطان وهو فى مقتبل فترة حكمه وتمت مراسلات مع خلاله ملك اسبانيا بهذا الشأن يلتمس فيها تقديم عون عسكرى وقوات وذخيرة ومؤن لاسيما ان الاسبان قد راوا فى الصراع الدائر على ارض المغرب بين عبد المالك بن محمد الشيخ وابن اخيه فرصة

طيبة لتنفيذ المخطط دفعا للخطر التركى لانه لابد من احد من طرفى الصراع سوف يلجأ لطلب العون والمساندة من البرتغال والاسبان لكن محمد المتوكل كان هو الذى يدق أبواب الاسبان والبرتغال طالبا للنجدة من واقع هزائمه المتكررة ومطاردته من الجنوب إلى الشمال ومن ثم وجد الاسبان والبرتغاليون فى محمد المتوكل لقمة سائغة للتدخل المباشر بحجة طلب العون لتحقيق هدفهم البعيد من أجل السيطرة الكاملة على كل التراب المغربى وازاحة الوجود التركى العثمانى .

وتفيد بعض المصادر الاوربية نفسها فى رسالة إلى ملك الاسبان فيليب الثانى ان محمد المتوكل رفض فى بداية الامر طلبا برتغاليا بان يقبل مساعدة من الاوربين بحجة ان عقيدته الدينية لاتسمح له بان يتلقى العون من المسيحين) لكنه عاد فيما بعد وقبل التعاون والمشاركة فى القتال بقواته معهم ووقع معاهدة تسمح لهم بالاستيلاء على ميناء العرائش .

وعلى الجانب الآخر كان عبد المالك صديقا عظيما للاتراك على الرغم انه لاينسى لهم انهم هم الذين قتلوا ابيه محمد الشيخ وانهم ظلوا معلقين راسه مدة عامين على ابواب القسطنطينة وكان هذا شعورا خفيا بالنسبة للاتراك ولكن كيف وهم الذين ساعدوه فى الصعود إلى عرش المغرب .

ولقد شاركت اسبانيا بصورة فعلية وكاملة فى هذه الحملة وامدتها بكل العون والدعم المطلوب بل ان الهدف العسكرى من هذه الحملة قبل ان يقودها سباستيان بنفسه، كان المقترح ان تكون بقيادة احد كبار القواد الاسبان وقد وافق الملك الاسبانى على اختيار هذا القائد الاسبانى المسمى (دى اطياتو) لكن الملك الاسبانى راى ضرورة التقليل فى خط سير الحملة وعدم الاعلان عن الهدف الحقيقى واعلنت الحملة انها فى طريقها لمساعدة السلطان محمد المتوكل والتحالف معه وان طريقها هو ميناء اغادير وازمور .

وقدمت اسبانيا خمسين سفينة حربية وخمسة آلاف فارس وجندى وكميات هائلة من المؤن والذخائر يقدر ما تحتاج اليها الحملة وهكذا زاد اصرار الملك البرتغالى على تنفيذ الحملة وحصرها فى مجال العلاقات المحلية وحسم التنافس على العرش بين عبد المالك ومحمد المتوكل وان دور محمد المتوكل فى تحيقق هدف البرتغال وبعث الروح العسكرية للبرتغالين من جديد وركب ملك البرتغال رأسه ورفض كل عروض السلام المقدمة له من جانب المغاربة وكذلك الدخول فى مباحثات بين السلام المزمع توقيعها بين العثمانين والاسبان والتى تشارك فيها فرنسا وبولونيا حيث راى فى اى توقيع هذه المعاهدة حرمانه من تنفيذ حملته على المغرب والتى اعد لها طويلا وعكف على تنفيذها والح فى الاسراع فى ارسالها وقيادتها بعد ان تلقى الدعوة بالمساعدة الكبيرة من كل الدول الاوربية التى كاتبها فى شأن هذه الحملة .

وكما وعد الملك فيليب الثانى ملك اسبانيا ابن أخته فقد قدم له خمسين سفينة حربية وخمسة آلاف مقاتل وكمية كبيرة جدا من المؤن والاسلحه والذخائر وهكذا فان فيليب الثانى قد وفى بكل ما وعد به ابن اخته من توات وسفن حربية ومؤن وبذلت حكومته كل ما فى وسعها لتوفير منتجات الاندلس ونابلى لكى توضع تحت تصرف قائد الحملة الاوربية حيث كان يحلم بالمجد والانتصار وتنفيذ مخطط اوربى بابوى لضرب الوحدة الاسلامية التى باتت علائمها فى الظهور بالتعاون المغربى التركى ومع نهاية فبراير عام ١٥٧٨م اعلن دون سباستيان الاول ملك البرتغال بان الحملة على اهبة الاستعداد للانطاق لدك المغرب وانهاء حكم عبد المالك وانه سوف يقود هذه الحملة بنفسه وانه لم يعول على شئ دون ذلك سوى احتلال العرائش واسقاط عبد المالك حليف الاتراك .

وهكذا بدات مطامع الملك البرتغالى الشاب فى الاستيلاء على المغرب تدخل

التنفيذ فى ٢٥ يونيو غادرت القوات الاوربية البرتغالية الاسبانية ميناء لشيونة البرتغالى فى طريقها لاحتلال المغرب وخوض اكبر معركة فى تاريخ المغرب وهى معركة القصر الكبير او وادى المخارن او الموك الثلاث حيث كان لها نتائج خطيرة على المعسكرين الاسلامى والمسيحى . بعد ان كان سياستيان الاول يريد ان يستعيد هيبة البرتغال فى بلاد المغرب. وكان محمد المتوكل قد وعد ملك البرتغال بالتنازل له عن جميع ثغور وسواحل المغرب كما ان عبد الكريم بن تودة صهر محمد المتوكل قد تنازل للبرتغاليين عن ميناء اصيلا. وكان فى ذلك الوقت قد ظهر الاسطول المغربى القوى والسفن الكبيرة التى قام عبد المالك فى مدة وجيزة بتجهيزها وتعاون مع الاسطول التركى وخشى البرتغاليون ان يفكر عبد المالك فى العبور إلى الاندلس وساعدة المورسكين وتحرير شبه جزيرة اييريا من القوى المسيحية لذا كان التصميم على الخروج إلى المغرب لاحتواء ثغورة وسواحله ومهاجمة عبد الملك فى عقر داره وكان اغراء محمد المتوكل بالتنازل عن جميع الموانى والسواحل المغربية بعمق يصل إلى ثلاثة عشر كيلوا متر وراء جميع المراكز البرتغالية قد زاد من غرور الملك البرتغالى .

وتذكر المصادر ان القوات التى تحركت من لشبونة كانت عشرين الف جندى اسبانى، اثنى عشر جندى برتغالى، الف جندى ايطالى، ثلاثة الاف جندى المانى، اربعة آلاف جندى بابوى بعث بهم بابا الفاتيكان، اضافة إلى اعداد كبيرة من متطوعى اسبانيا وانجلترا والف وخمسمائة من الخيل واثنى عشر مدفعا ونحو الف سفينة حربية ونقل جنود وتعاون الجميع اضافة إلى اعداد كبيرة من متطوعى اسبانيا وانجلترا والف وخمسمائة من آلاف جندى برتغالى عند نزوله إلى طنجة .

وقد قدر حجم القوات المشاركة فى هذه المعركة بما لايزيد عن خمسين الف جندى اوربى جاءوا جميعا من اجل احتلال المغرب بمصاحبة الملك سباستيان فى

حملته المغربية واصدر ملك اسبانيا اوامره إلى جميع السفن الاسبانية بحماية الحملة البرتغالية وفى الثانى عشر من يوليو ١٥٧٨م نزلت الحملة إلى مدينة اصيلة على مساحة مرحلة من المدينة وتقرر ان نواصل السير إلى ميناء العرائش والقصر الكبير سوى ما يقرب من الفى جندى مما يسهل عليهما احتلال الموقعين فى يسر وسهولة ومن ثم أخذت خيل البرتغالين فى الاغارة على اطراف البلاد وانضم اليه محمد المتوكل برجاله وقام الجيش البرتغالى بدخول بعض الموانئ .

وكان خليفة المغرب عبد المالك على اهبة الاستعداد لملاقاة هذه الحملة وبادر بالكتابة إلى اخيه احمد المنصور فى فاس لتجهيز الجيوش استعدادا الملاقاة البرتغالين. وفى ١٢ يوليو عام ١٥٧٨م استولت الحملة على اصيلا وبقيت فيها ستة ايام حتى يوم الاثنين ١٦ يوليو ولقد كان على الحملة ان تقضى ما بين يومين إلى ثلاثة ايام حتى تتمكن من الوصول إلى القصر الكبير فضلا عن عبور النهر قبل ان تزحف إلى داخل البلاد المغربية وان عليها عبور النهر للوصول إلى العرائش. وكان عبد المالك قد استنفر قواته للجهاد وراسل كل البلاد والقبائل المغربية وسارت كل القبائل لامداد الجيش بالرجال والعتاد والمؤن واتجهت وفود الشعب المغربى إلى القصر الكبير ولحقوا بالجيش فى سلا وجاء جيش فاس بقيادة احمد المنصور للجبهة الاسلامية والجهاد الاسلامي وكراهية الاحتلال البرتغالي ولتدخله فى شئون المغرب الداخلية وتزاحم الناس للعمل من اجل رفع راية الجهاد ولم يكن من السهل تحديد عدد القوات المغربية المشاركة فى القتال لانها كانت تضم اعدادا كبيرة من المتطوعين ورجال الطرق الصوفية وقوات الجزائر التركية وذكر المؤرخ المجهول فى كتابه تاريخ الدولة السعدية ان عدد المسلمين كان حوالى سته وثلاثين الف جندى وعدد النصارى مثلهم مرتين او ثلاث.

واستفاد عبد المالك من تاخير وصول الحملة إلى هدفها المنشود خمسة عشر يوما حتى يتم لقاء القوات المتحاربة ووصول سياستيان إلى اهدافه لاسيما وانه يتابع اخبارها منذ بداية تركها وزاد من استعداداته بعد ان بلغته الاخبار بانها تضم الف سفينة حربية وبها ٣٥ الف من رجال الحرب المحترفين فضلا عن عشرات الالاف من المتطوعين الاوربين وانها تحمل مؤنا تكفى لاكثر من ستة شهور وانها تطعم اكثر من ستين الف نسمة وانها تحمل اكثر من سبعين مدفعا واعدادا كثيرة من الحمير والتيران لحمل وجر المدافع والذخيرة التى تكفى لقتال ستة شهور وقد ذكر اليفرنى نقلا عن ابن القاضى ان هذه الحملة كانت فى جيوش جرارة بلغت مائة الف وخمسة وعشرين الف مقاتل (١٢٥ الف مقاتل) قصدرا احتلال المغرب وحصر المسلمين وادارة رحى الحرب عن الاسلام والمسلمين (أهل الدين اليقين) وذكرت المصادر الاوربيـة انهم ستـون الف مقاتل .

وكان عبد المالك الخبير بشئون الحرب والقتال بعد اشتراكه فى العديد من المعارك مع الاتراك فى الجزائر ولاسيما معركة تحرير تونس من ايدى الاسبان عام ١٥٧٣م قد ادرك ان الحرب النفسية والمراسلات بينه وبين دون سياستيان الاول منذ ان وطئت اقدامه ارض المغرب لابد ان تتكشف عن ابعاد جديدة فى رؤية هذا الملك الشاب لمسار الحروب ولما سيكون عليه الموقف بعد ان ابدى عبد المالك نوعا من المرونة والدبلوماسية الذكية وهو الذى كان يتمتع بالحنكة والفطانة والكياسة وحسن التخطيط والاعداد المتقن لجيشه الكبير بل انه كان ذا عقلية علية عبقرية جبارة وكان يحفظ كل القرآن الكريم والاحاديث النبوية ملما بعلوم الدين اضافة إلى انه كان حاكما عصريا يتكلم بالاضافة إلى العربية والبربرية اللغات التركية والايطالية والاسبانية ويعرف الانجليزية وكان يرتدى الزى المغربى وأحيانا كثيرة بالزى التركى، كل هذه الصفات

جعلته انسانا ذكيا يستخدم صفاته فى معرفة الاخرين لاسيما ذلك الشاب المتحمس الذى لم يصل إلى سن الثلاثين بعد فاستخدم اسلوب المراسلات حيث دارت بعض المكاتبات بين عبد المالك بن محمد الشيخ والملك البرتغالى وكان ان ارسل عبد المالك رسالتين إلى سياستيان احداهما وهو لايزال فى أصيلا بتاريخ ٢٢ يوليو ١٥٧٨م يحذره فيها من القتال لان القتال هلاك لسياستيان وقواته الكبيرة وهذا امر مؤكد الحدوث لان القوات المغربية لاتهزم وانها تملك قوة عسكرية كبيرة وان السلطان التركى ممده بقوات جرارة وانه مؤيده فى مقاومة الغزو البرتغالى وانه بامكان السلطان ان يمده بقوات كثيرة وان يكرر معه ما حدث عندما ساعده على استرداد ملكه، وانه على استعداد لان يعطى البرتغال مزايا اكثر مما وعده به محمد المتوكل ابن اخيه لان ابن اخيه لايستطيع ان يفى بما وعد به ملك البرتغال لانه لايملك شيئا من هذه الموانئ ولا الاراضى التى تحيط بالموانى وتقدر بثلاثة عشر كيلو مترا، وان عبد المالك على استعداد لان يتنازل لابن اخيه محمد المتوكل عن الاراضى التى يرغبها لتكون تحت حكمه فيما عدا مراكش والاراضى المحيطة بها .

ولقد كان اسلوب المراسلات من قبل عبد المالك نوعا من جس النبض لدى سياستيان لمعرفة ما يدور براسه من أفكار بشأن مواصلة القتال والتقدم للمجابهة والصدام ام أن هناك تراجع عن الدخول فى قتال مباشر بين القوتين .

لكن الجيش البرتغالى الذى كان يضم جنسيات اوربية عديدة تقدم إلى داخل المغرب واتجه عبد المالك إلى القصر الكبير ثم عسكر فى منطقة تسمى سوق المحتسب على بعد ست أميال جنوب وادى المخازن وكانت القوات التركية تبذل اقصى المساعدة لعبد المالك وكذلك القوات الجزائرية. وعندما كانت ترسل كتب عبد المالك إلى دون سياسيتان كان يعسكر فى منطقة شهد رات ولكنه تركها ونزل إلى وادى المخازن .

ووادى المخازن هذا الذى حملت المعركة اسمه مع اسم القصر الكبير والملوك الثلاث هو رافد من روافد نهر لوكوس الثلاث الذى يصب عند ميناء العرائش والرافدان الاخران وهما وادى وارور، ووادى ريسانة اى ان موقع المعركة قد حاصرته الروافد الثلاثة وكان المعسكر المغربى على الضفة اليمنى لوادى المخازن فوق سطح هضبة ومن هذه الهضبة اطلت الحملة على سهول القصر الكبير ما بين وادى لوكوس وروافده ووادى راوؤز حيث كانت تتجمع قوات عبد المالك وقد وقعت المعركة على مقربة من مدينة القصر الكبير على مساحة لاتزيد عن اثنى عشر كيلو متر من ارض الصراع الدامى. ومدينة القصر الكبير هى المدينة التى سميت المعركة باسمها فى بعض المصادر وازاء تصميم الملك البرتغالى على القتال وخوض المعركة فانه لم يستمع إلى التقارير التى كانت تصل اليه لاسيما من رجاله ورجال ملك اسبانيا من الجواسيس اليهود الذين كانوا يعملون لصالحه والذين اخبروه بان قوات عبد المالك تزيد عن سبعين الف جندى وانه قد وصل إلى سلا وان هناك نجدة تركية مكونة من مائة وخمسين سفينة حربية وان هناك قوات تركية تزيد عن خمسة الاف تركى قد وصلوا فعلا إلى القوات المغربية للمشاركة فى القتال وان الاوامر صدرت فعلا من الباب العالى إلى باشا الجزائر لامداد عبد الملك بالقوة التى يحتاج اليها، لكنه هو وقادته البرتغاليون والاوروبيون رفضوا تصديق كل هذه الاخبار وتوقعوا انها خديعة من عبد المالك وان قواته الحقيقية لاتزيد عن ثلاثة الاف فارس واثنى عشر الف رجل اى ان قوات الحاكم السعدى جميعها لا تزيد عن خمسة عشر الف مقاتل بما فيهم كل المتطوعين ورجال القبائل والطرق الصوفية ومن هنا استهان بالامر وكانت العاقبة وخيمة .

ولما تيقن عبد المالك ان ملك البرتغال ليس له هدف سوى الحرب وقام بالاستيلاء على القصر الكبير ليكمل هدفه فى الاستيلاء على العرائش، لكن عبد

المالك اراد ان يضعه فى موقف لاتردد بعده بعد ان يذل كل السوئل لكى يثنيه عن القتال فقد راسله بخطاب شديد اللهجة حقره فيه اشد التحقير وذلك لاستدراجه نهائيا لكى لا يرجع عن غية وكتب اليه يقول انى تقدمت اليك ست عشرة مرحلة اما ترحل إلى مرحلة واحدة وقال له اذا رحلت إلى فانت نصرانى حقيقى شجاع والا فانت كلب ابن كلب لذا غضب سياستيان لما وصله الكتاب وشاور أصحابه فاشاروا عليه بالتقدم وقال له محمد المتوكل بن عبد الله الغالب نتقدم ونملك تطوان والقصر والعرائش ونجمع فيها من العدة ونتقوى بها وبما فيها من ذخائر فتقدم جيش ملك البرتغال من موضع يقال له تهدرات ونزل على وادى المخازن وكان ذلك التقدم مكيدة مديره من عبد الملك صاحب الخطط العسكرية الباهرة .

وقامت القوات البرتغالية بعبور جسر الوادى فامر عبد المالك بهدم القنطرة وبهذا فقد نجح الخليفة السعدى فى استدراج دون سباستيان وجيشه إلى قلب البلاد المغربية وكانت مكيدة عبد المالك هى المباعدة بين الجيش البرتغالى ومراكز تموينه وكان عبد الملك قد وجه كتيبة من أربعة الاف جندى من الفرسان بقيادة اخيه احمد المنصور فهدموا القنطرة وحالوا بين العدو وبين العودة من حيث اتوا ولم يكن امامهم الا القتال. وزحف عبد المالك بجيش المسلمين إلى معركة القصر الكبير بالقرب من وادى المخازن وصار النهر على يمين القوات الاسلامية المغربية .

والتقى الجمعان ودارت معركة من أعنف المعارك التى شهدها المغرب الاقصى فى تاريخه حيث أقبل المتطوعون من كل حدب وصوب طمعا فى الشهادة وقد بدات المعركة ببعض طلقات المدافع التى لم يكن لها تأثير فى صفوف الجانبين، لكن المدفعية المغربية قد احدثت ارتباكا فى صفوف المشاة الاوربين وتراجعوا إلى الوراء لكنه نقدم الصفوف واصدر اوامره لهذه القوات بالتقدم وبدا القتال وكانت بداية القتال شديدة

الوطأة على الجانبين واظهرت القوات الايطالية والاسبانية المصاحبة للحملة بسالة كبيرة فى القتال مما أدى بالقوات المغربية إلى محاولة امتصاص الصدمة الاولى وما تلاها توطئه للهجوم الكبير الذى لايبقى ولا يذر وكانت القوات الاسلامية المغربية قد انقضت على المؤخرة فى معركة تطويق بارعة تدل على مهارة المخطط وبراعة المنفذ وجسارة المقاتل ولكن هذه القوات وقد رأت انها محاصرة من كل جانب وانه لامفر من ابادتها بدات فى التراجع حيث صب عليها المغاربة وابلا من النيران واستخدمت السيوف فى الرقاب، لكن الجانب البرتغالى لم يكن له ان يستسلم بعد ان شاهد حمى الوطيس فدفع بقوات الاحتياط إلى المقدمة لتعويض خسائره فى القتلى والجرحى. وتركزت المعركة بشدة على هذا الجانب (المقدمة) مما جعل المغاربة يندفعون بحماس شديد لقتال فرسان الصليبيين ومن معهم من قوات محمد المتوكل وارغموهم على الفرار واندفع المغاربة يكبرون إلى القوات الالمانية التى تقهقرت ايضا وكر المغاربة على عدوهم عدة مرات حتى استطاعوا بقوة ايمانهم من فتح ثغرة فى صفوف المشاه البرتغال والقوا فى قلوبهم الرعب وزلزلوا زلزالا شديدا وتفرقت القوات. ولم يبق امام القوات الاسلامية المغربية سوى الميسرة التى كانت لم تفزع بعد من القتال حيث استطاع المغاربة احراز النصر على كل الاجنحة التى خاضوا قتالها وكانت، الميسرة بقيادة اللواء الملكى يقوده سباستيان بنفسه وكان قد تركه ليكون لقمة سائغة للقوات المغربية حيث كان فى المقدمة والتى تدور فيها اعنف المعارك وعلى نتائجها تكون نهاية المعركة. حيث كان الايطاليون والاسبان لازالوا يقاتلون فى دفع بالقوات المغربية التى تطلب بعض التعزيزات وتحقق الانتصار وهلك معظم الجيش البرتغالى رغم ضراوة القتال وما بذله النصارى من ثبات وعزم على تحقيق النصر، لكن هيهات فقد ولى المشركون الاديار ودارت عليهم دائرة البوار وحكمت السيوف فى الرقاب وقتل الطاغية البرتغالى غريقا فى الوادى وكذلك صديقه محمد المتوكل الذى وجد غريقا أيضا .

وكان السلطان عبد المالك مريضا فى محفته وتوفى عند الصدمة الاولى ذلك لانه عندما رأى رجاله يتراجعون فى بداية المعركة ثارت حميته وغيرته الاسلامية فصاح الله اكبر وارتمى من محفته وركب فرسه واندفع بين صفوف المقاتلين. يشجعهم ويجمع صفوفهم فارتدوا يقاتلون العدو بعد ان كانوا قد تقهقروا واوقف تراجعهم وقاتل بشدة فى الوقت الذى كان فيه رجاله يتوسلون اليه بالعودة إلى محفته وحمل بعد ما كاد يسقط من فوق فرسه يتوسلون اليه بالعودة إلى محفته ووضع فى المحفة التى كانت قد حملت جثته بعد أن اسلمت الروح إلى بارئها قبل ان تنعم بيوم النصر وكان عبد المالك فطنا ذكيا اذ اشار إلى من حوله بضرورة كتمان خبر موته حتى يتجلى الموقف ويتقرر مصير المعركة، ولم يطلع على خبر موته سوى حاجبه رضوان العلج الذى كتم خبر موته .

وهكذا انتهى يوم الاثنين السادس من اغسطس عام ١٥٧٨م، الثلاثين من جمادى الاول عام ٩٨٦هـ عن انتصار اسلامى كبير ومقتل سياستيان وحليفه الامير السعدى المولى شريفه (محمد المتوكل) ابن الجارية السوداء. وموت صاحب الانتصار الكبير عبد المالك بن محمد الشيخ السعدى .

وكانت هزيمة منكرة للجيش البرتغالى الاوربى وانتصارا حاسما للمغاربة وللاسلام. وقد لعب رضوان العلج صاحب الملك السعدى دورا كبيرا فى هذا الانتصار الرائع اذ كان يتردد على خباء الخليفة عبد المالك ويعلن ان الخليفة يامر فلانا بان يذهب إلى موقع كذا ويقاتل فيه وفلانا ان يلتزم الراية ويقاتل وقاد رضوان العلج المعركة وعلم اخوه احمد المنصور بموته وكتم الخبر حتى انتصر المسلمون على معسكر النصارى وولى البرتغاليون الاديار وانجلت المعركة عن مصرع سباستيان ولم ينجو من القوة الاوربية سوى عدد قليل جدا ووجد المتوكل كما سبق القول غريقا فى وادى

لوكوس وإخرجه الغطاسون وامر المولى احمد المنصور الذى خلف اخاه عبد المالك بسلخ جلده وحشوه تبنا وطيف به فى مراكش وغيره من البلاد المغربية. واسفرت هذه المعركة عن موت الملوك الثلاثة والتى اتخذت هذه المعركة فى بعض المصادر اسم معركة الملوك الثلاثة او وادى المخازن وان كانت العديد من المصادر تشير اليها على انها معركة القصر الكبير لكنه كان المعلم الكبير القريب من ميدان المعركة والذى لايبعد عن وادى المخازن باكثر من اثنى عشر كيلو متر وان كان اسم معركة وادى المخازن متعارفا عليه فى بعض المصادر .

وقيل ان عبد المالك مات مسموما وقد دس له السم غريمه المتوكل محمد بن الغالب والذى كان يهدف من ذلك إلى اعلان موته قبل بدء المعركة أو فى بدايتها. لكى يكون ذلك سببا فيفت فى عضد القوات وتسود صفوفهم الفوضى والاضطراب مما يؤدى فى النهاية إلى هزيمتهم .

وان كانت بعض المصادر قد حاولت ان تنسبب موت عبد المالك بوضع السم له إلى الاتراك العثمانين، الذين لم يكن لهم مصلحة فى سمه وهو حليفهم وقواتهم تقاتل معه وهو زوج ابنه احمد باشا والى الجزائر وعاش فترة من عمره فى تركيا هو واخوته وأمه وكان مقربا إلى السلطان مراد الثالث، بل ان عبد المالك اشترك بنفسه مع السلطان مراد الثالث فى قتال فى بلاد اليونان، لكن ابن القاضى يذكر ان رضوان العلج الذى قاد المعركة بعد وفاة عبد المالك وكان قائد الاتراك بعث لبعض قواده ان يلقاهم بكعك مسموم هدية لعبد المالك وقصد بذلك قتله، ولكن من غير المعقول اطلاقا ان يكون الاتراك وراء وضع السم له لانه ليس لهم مصلحة فى ذلك لانه كان لايزال صديقهم وقواتهم هى التى جاءت به إلى عرش المغرب وقد كان الانتصار زيادة لمكانتهم فى حين ان الهزيمة كانت ستقضى على آمالهم فى المغرب الاقصى وتضع

نهاية لوجودهم فى تونس والجزائر .

وهكذا كانت معركة القصر الكبير قد شغلت الراى العام العالمى لفتره طويلة لما لها من نتائج فهى بالسنة للمسلمين فى المغرب وبقية العالم الاسلامى بمثابة معركة بواتية - او بلاط الشهداء فى اوربا وقد اسفرت المعركة عن العديد من النتائج التى تركت بصماتها واضحة جلية على خريطة العالم المعاصر فى ذلك الوقت فقد استمرت المعركة ست ساعات هزمت فيها البرتغال وحلفاؤها جميعا فى اخر شهر من فصول العام وهو شهر اغسطس ولم ينج من الاسر والقتل الا مائة رجل (مؤرخ مسيحى زاهر رياضى) وحدد القشتالى ان عدد القتلى والاسرى بلغ ثمانين الف رجل وانهت معركة القصر الكبير اسطورة دولة البرتغال القوية وابرزت افلاس الحملات الصليبية على العالم الاسلامى والتى كان البرتغاليون يتقربون بها إلى البابوية فى بلاد المغرب او غيرها من بلاد العالم الاسلامى .

ومهما يكن من كتابات ابن القاضى او اليفرنى وغيرهم من الكتاب فان الاتراك لم تكن لهم يد فى قتل عبد المالك وهم الذين امدوه باكثر من ثمانية آلاف مقاتل منهم ستة آلاف فقط من حاملى البنادق النارية اضافة إلى اكثر من اثنى عشر مدفعا .

وهكذا انتهت المعركة التى كانت محاطة بمشاعر اوربا الصلبية مما دفعت بملك اسبانيا ان يرسل إلى دون سباستيان الخوذة التى كان يلبسها الامبراطور شرلمان اثناء حملته على تونس عام ١٥٣٥م. وقد عجلت هذه المعركة بنهاية البرتغال واندماج املاك العرش البرتغالى فى الامبراطورية الاسبانية وتسلم البرتغاليون مناثر هذه الهزيمة النكراء بهذا المصير السياسى وانضمامهم للاسبان .

ولكن على الجانب المغربى فقد اكدت هذه المعركة قوة المغرب والمغاربة سياسيا واكدت استغلال المغرب كدولة محلية بعيدة عن التبعية للدول الامبراطورية المحيطة بها،

كالاتراك العثمانين والاسبان والبرتغالين وان هذا الانتصار العظيم قد دعم هذا الاستقلال ودفع المغرب إلى مصاف الدول الكبرى وبدات كل دول اوربا تخطب ودها وتقدم التهانى لها بهذا الانتصار العظيم وترغب فى اقامة علاقات تجارية اقتصادية وسياسية معها. كما ان النفوذ التركى لم يكن بالقدر الذى كان يتوقعه الذين جاءوا بعبد المالك إلى عرش المغرب .

وهكذا استطاعت الراية الاسلامية التى رفع لواءها السعديون والاتراك ورجال الطرق الصوفية والمتطوعون والتى تعلقت حولها قلوب وعيون المسلمين فى شتى بلاد المشرق والمغرب ترقب هذا الحدث التاريخى الهام الذى استطاع ان يحقق النصر الباهر على القوى المسيحية الكاثوليكية والتى ضمت البرتغال واسبانيا والمتطوعين من الالمان والايطالين والانجليز والنمساويين ومن امامهم تولت البابوية تدفع دفعا لهذا الصراع الذى كانت نهايته كما شاهدنا الهزيمة الساحقة لهذه القوات، ولقد كان من اثر تحقيق هذا الانتصار ان دفعت الاحداث العالمية بالمغرب بعد ان قطفت ثمار النصر الباهر فى معركة القصر الكبير ان تحول دوره من الدفاع الداخلى فى علاقات المغرب الدولية إلى دور يدفع المغرب إلى شغل موقع فعال فى العلاقات الدولية بعد ان علت هيبة السعديين فى العالم الاسلامى باعتبارهم قد دافعوا عن ترابهم المقدس وحفظوا وصانوا كيان المغرب، كما كان الدور الرائع الذى لعبه عبد المالك الذى ارسى فنون الحرب والقتال واحرز هذا الانتصار الباهر على الاسبان فى تونس من قبل وتدرب فى اسطنبول على مستوى الاداء والخبرة والمهارة واجاد فن التخطيط القتالى وحسن التدبير والحشد والاعداد والمهارة فى ادارة المعركة بل اية معركة انها من اخطر المعارك التى خاضها جند الاسلام فى المغرب .

ولم تكن مصيبة البرتغال فى فقد ملكها ورجال بلاطها وطبقة النبلاء وجيشها

الكبير ولكن كانت المصيبة الكبرى من اثر هذه المعركة انها ادت إلى فقدها سيادتها واستقلالها وكيانها وضمت نهائيا إلى اسبانيا وظلت تابعة لحكم الملك الاسبانى فيليب الثانى واسرته اكثر من ستين عاما ١٥٨٠م إلى ١٦٤٠م وترسخت دعائم الحكم السعدى فى نفوس الرعية واركان الدولة على الرغم من ان بعض الجيوب الاستعمارية كانت لم تزل غير محررة ولم يستطع حكام المغاربة استثمار انتصارهم بالقضاء على هذه الجيوب الاستعمارية فى الثغور، لكن المعركة اظهرتهم كحكام اقوياء يمكن الاعتماد عليهم فانهم استطاعوا حفظ التوازن بين قوى الشرق والغرب مما جعل للمغرب دورا سياسيا بارزا فى السياسة العالمية كما عادت المعركة بالشهرة والثروة للسلطان احمد المنصور واستغل ذلك فى تاسيس امبراطورية فى غرب افريقية لينافس بذلك اكبر امبراطوريتين فى ذلك الوقت هما الامبراطورية التركية والامبراطورية الاسبانية .

لكن على الصعيد الداخلى والخارجى فقد كان اولى بالسلطان الجديد احمد المنصور ان يستثمر هذا الانتصار لاسيما انه كانت توجد لديه اعداد كبيرة من الاسرى الاوربين ويكون مقابل اطلاق سراحهم هو رحيل كل القوات الاسبانية البرتغالية من جميع المدن المحتلة وخاصة سبتة وطنجة ومايلة واصيلا التى احتلت حديثا وقبل المعركة بشهر او وشهرين وظلت تحت الحكم الاسبانى حتى عام ١٨٨٩م اى انها ظلت أحد عشر عاما بعد المعركة وهى خاضعة للحكم الاسبانى. وقد تكون هذه المعركة قد اضعفت اطماع الدول الاوربية فى الموانئ المغربية ومحاولة السيطرة عليها لكن الدول الاوربية كانت لاتزال ترنو ببصرها لمحاولة ايجاد مواقع ساحلية لها كما حدث فى طلب فرنسا وانجلترا وهولندا الحصول على امتيازات تجارية لها فى المغرب والحصول على موانئ تكون مراكز لها .

لكن المغرب لعبت دورها التاريخى والعالمى فى الصراع العالمى بين القوى الاوربية انجلترا وفرنسا واسبانيا وورثت العرش البرتغالى وهولندا ومحاولة الدولة المغربية ان يكون لها دور فى تخطيط السياسة العالمية والتماس الدول الكبرى لاسيما انجلترا التى كانت ترى فى القيادة المغربية ركنا بارزا فى السياسة العالمية ولمحاولة الاستفادة من وضع المغرب العالمى فى تأييد ولى العرش البرتغالى ضد المطامع الاسبانية لاسيما انه كان لاجئا لدى المغرب .

كما ان الاستقرار الداخلى ودعم الحكومة المركزية وادارة احمد المنصور مقاليد الامور بالحكمة والرؤية واستخدامه الدهاء والدبلوماسية فى الامساك بخيوط اللعبة الدبيلوماسية وازالة الخطر الاسبانى والبرتغالى واستخدام الاسلوب البارع فى درء الخطر العثمانى التركى وكسر فكرة الغزو التركى للمغرب نهائيا وابطال مفعول هذا المخطط وعمل حاكم المغرب فى السعى إلى تحقيق التوازن والمهادنة فى علاقات المغرب الدولية والعمل على ان تلعب المغرب دورا تاريخيا جديدا يختلف عن الادوار السابقة امام ابيه محمد الشيخ او اخيه عبد الله الغالب او عبد المالك صاحب انتصار القصر الكبير لاسيما ان المنصور كان يطمع فى الانتقال بالدولة المغربية إلى الدولة الاسلامية الكبرى والذى تسمى هو باسم الامام أمير المؤمنين خليفة المسلمين بعد ان سقطت الخلافة الحفصية فى تونس وبعث فى دولته نزعة الخلافة الاسلامية التى كان يحلم باخضاع بقية بلاد المغرب وبلاد العالم الاسلامى الشرقى لهذه الخلافة القرشية الفاطمية العلوية الحسنية .

الفصل الرابع

احمد المنصور الذهبى والدولة السعدية

٩٨٦هـ– ١٠١٢هـ– ١٥٧٨– ١٦٠٨م

لقد كان من اولى نتائج معركة القصر الكبير ظهور خليفة سعدى جديد يعتبر من اعظم خلفاء الدولة السعدية قاطبة حيث قاد الدولة نحو القوة والاستقرار وشهد عصره توسعا للدولة ونموا فى علاقاتها مع القوى الخارجية الاوربية الاسلامية. ذلك هو أبو العباس احمد المنصور الذى تولى الحكم مباشرة بعد وفاة عبد المالك وتلقب بالمنصور تيمنا له بالنصر فى هذه المعركة ويعتبر احمد المنصور رابطة عقد الدولة السعدية فقد ظل متربعا على عرش البلاد قرابة ربع قرن (ستة وعشرين عاما) شهدت فيها البلاد مظاهر التقدم والحضارة والمجد والعظمة .

وقد ولد احمد المنصور عام ٩٥٦هـ وتربى بمدينة فاس حيث اخذ يدرس العلم والادب والفقه فى مدارسها ثم اقام فى بلاد الجنوب حيث سجلماسة فى اقليم السوس ولما تولى أخوه عبد الله الغالب امر المغرب رحل هو واخواه عبد المالك وعبد المؤمن إلى الجزائر ثم تركيا وقد اكسبه مقامه فى تركيا الاطلاع على شئون اوربا والبحر المتوسط واكتسب مهارة ودهاء ساعدته فى توجيه سياسة المغرب الخارجية وكان يهتم بمشكلات بلاده ويطلع على شئونها اطلاعا واسعا وكان ولوعا بالمعارف العلمية إلى جانب انه كان عالما لصيقا بالعلماء ورجال الدين مما جعل العامة والشعب يطلقون عليه عالم الخلفاء وخليفة العلماء كما كان شاعرا من اعظم الشعراء، كما كان يقول بعضهم انه اشهر ملوك وسلاطين المغرب وكان له ديوان اسماه ديوان الشرفاء. وكان لهذا الرجل الصغير دور كبير فى توطيد حكم اخيه عبد المالك بالمغرب ولذا رشحه لولاية عهده بدلا من اولاده وكان خليفته على فاس ومنها كان يرسل النجدات ويقود

الجيوش لمحاربة اعداء الدولة وكان له دور كبير فى معركة القصر الكبير (وادى المخازن) وانه كان يقود القلب الايسر (الجناح الايسر فى المعركة وصاحب الهجوم الكبير والاكبر على القوات البرتغالية بعد امتصاص الصدمة الاولى وهو الامير السعدى السادس فى سلسلة الحكامالسعدين الذين حكموا المغرب فى ظل الخلافة السعدية الشريفة .

وقد بايعه رجال البلاط وقواد الجيش بالخلافة فى ارض المعركة بعد الانتصار مباشرة ولقبه رجال الحل والعقد بالمنصور تيمنا بالنصر الكبير الذى احرزه المسلمون فى هذه المعركة وكانت بيعته فى نهاية جمادى الاول عام ٩٨٦هـ وهو نفس اليوم الذى حسم فيه مصير المعركة بالانتصار الباهر. واعلنت له البلاد بالطاعة وسارعت القبائل والمدن والاقاليم والولايات ورجال القبائل وشيوخها بالولاء وتدخل الاتراك فى تولية العرش. ومن ذلك التدخل بان حاكم الجزائر التركى حسن اغا قد تدخل فى الشئون الداخلية للبلاد وساند حق اسماعيل بن عبد المالك صاحب انتصار معركة القصر الكبير فى المطالبة بوراثه عرش الديار السعدية بعد ابيه وتدخل باسمه فى نزاع مكشوف مع احمد المنصور وكان حسن اغا باشا الجزائر يرمى فى خطته التطلع إلى توطيد النفوذ التركى العثمانى بالمغرب استنادا إلى صلة المصاهرة ومن هنا فقد تعرض المنصور لمؤامرة منهم كاد ان يفقد فيها سلطانه بعد ان علم الاتراك بامر بيعته فاتفقوا مع كبار رجال الجيش والذين كانوا من الاتراك على تنحية المنصور واخذ البيعة لاسماعيل بن عبد المالك لتولى عرش المغرب متطلعين لشعبية عبد المالك وصدى انتصاره فى معركة القصر الكبير وحق ابنه اسماعيل فى ولاية العرش كما ان الاتراك عملوا على بث روح التفرقة بين افراد الجيش المغربى مما اضطر المنصور إلى الفرار إلى مراكش ولكن المغاربة رفضوا ذلك واصروا على بيعة المنصور .

وقد استقبل المنصور وفود الملوك والرؤساء للتهنئة بالنصر الكبير وكان من بينهم الوفد البرتغالى الذى جاء بهدية قيمة وطلب تسليم جثة الملك دون سباستيان الاول والتى كان قد دفنها انصاره ورجاله فى مكان معلوم ليتم اخراجها بعد انهاء المعركة وفك اسرى المعركة وقد استجاب لهم المنصور وكان المنصور فى تلك اللحظات بتوجس خيفة من الاتراك وحقيقة موقفهم لانه لو كان يضمن مساندتهم له لطلب من رسول البرتغال رحيل القوات البرتغالية من جميع الموانئ المغربية المحتلة ولاستجاب الاوربيون لكل مطالبه نظرا للافراج عن الاسرى. وكان كذلك اول ما فعله المنصور انه قام بعد استتباب الامر له بالتنكيل ببعض كبار رجال الجيش المغربى لاسيما من تعاون مع الاتراك والتخلص من الشكوك فى افعالهم .

وبهذا فقد اصبح المنصور سيد البلاد والمطاع وكان السلطان رجلا قوى الارادة، لاسيما وان الانتصار قد ملأه بالفخر والاعتزاز والحماس وهو الذى جنى ثمرة كل هذا الانتصار اذ قبل من الاسرى دفع الفدية وقام السلطان احمد الغالب المنصور باطلاق سراحهم فامتلأت خزائنه بالمال البرتغالى والاوربى وعاد النبلاء ورجال البلاط البرتغالى بعد ان تم اطلاق سراحهم إلى البرتغال فوجدوها قد أقفرت وساد الفقر اركان البلاد من جراء دفع الفدية الكبيرة التى دفعت لهم فلم يملكوا الا أن يرسلوا سفراءهم إلى احمد المنصور يطلبون مساعدته على هيئة قروض. ووجه السلطان اهتمامه إلى كل النواحى العامة وادار المنصور سياسة بلده بنفسه بحزم ونزاهة معتمدا على جماعة من الشورى .

ونظرا للدور الذى لعبه احمد المنصور فى معركة القصر الكبير فانه كان لايزال يردد احداثها فى كل جلساته ويمجد بالدور الذى لعبه شقيقه عبد المالك قائلا ان كل الظروف التى كانت تحيط بالملك دون سباستبان كان تؤهله للانتصار ولكن حسن تدبره وقيادته للميسرة جعل نكبة البرتغالين تفوق كل احتمال ففى ست ساعات فى يوم من

ايام اغسطس الحارة ابيدت هذه القوة البرتغالية ولم ينج من الموت او الاسر الا اقل من مائة شخص ولم يكن هذا كل شئ فى نكبة البرتغال زاهر رياض المالك الاسلامية فى غرب افريقيا ص ١٧٤) .

وكما سبق القول فقد اكسبت المعركة المغاربة صيتا فى العالمين الاسلامى والمسيحى فان كل ما تمتعوا به من قبل بل لم يبلغوه من بعد وبالرغم من هذا فقد بدا المنصور عهده مثقلا بالمشاكل كانت السلطنة منقسمة كما كانت هناك جماعات على استعداد لان ينتصر المناوئون الثلاثة او الاربعة الذين يصارعون احمد المنصور على ولاية العرش ويدعونه لانفسهم والذين يستترون على ادعاءات اقوى من ادعاء المنصور نفسه ولذا لم تكن كل طوائف الشعب ترحب بارتقائه العرش وكانت ترى فى اسماعيل بن عبد المالك صاحب الانتصار والذى توفى وهو يقود المعركة ولذا انكروا عليه الانتصار الذى يتمتع به بطل شعبى واصبح ظاهرا ان الحزم الذى قاد به عبد المالك البلاد ربما قد يفلت من يد المنصور كما ان اوربا لم يكن لها ان تسمح ان تستمر هذه الهزيمة القاسية دون انتقام وكانت الاداة المحتملة للانتقام من قبل اوربا المسيحية هو فيليب الثانى ملك اسبانيا الذى لم يكن يفصله عن المغرب الا عدة اميال بحرية يسيرة وكان الاتراك فى الجزائر اقرب من ذلك وكانوا مازالوا يحقدون على المغاربة لمقاومتهم القوية للانضمام إلى الامبراطورية العثمانية وكان المنصور الذى قد خرج لتوه من معركة ليس لديه النية فى الدخول فى معركة اخرى مع ملك اسبانيا فيلبب الثانى الذى اعلن حالة الاستعداد بين قواته عندما علم بهزيمة ابن اخته دون سباستيان ملك البرتغال وقوات اوربا من خلفه وشحن الثغور البرتغالية لانه كان يعد نفسه قائما على ممتلكات البرتغال، كما ان المنصور كان يدرك تمام الادراك ان القوى الصليبية الاوربية وقد هالها وازعجتها هذه الهزيمة لايمكن ان تترك عام الهزيمة يمر

دون الانتقام وكان تدخل الاسبان واردا فى فكرة احمد المنصور .

وبالرغم من كل هذا بدات الوفود المختلفة من الرسل تصل إلى مراكش مهنئة بالانتصار حاملة معها الهدايا وكان أولها من باشا الجزائر حيث انه ما ان استقر حكم المنصور بالمغرب حتى ارسل السلطان مراد الثالث العثمانى وسائر الممالك الاسلامية المجاورة للمغرب تهنئة بالانتصار فى معركة القصر الكسير وقد استقبل الخليفة السعدى وفود التهنئة من تركيا والجزائر واسبانيا والبرتغال وفرنسا وملكة انجلترا وسفرائهم وغيرها من الدول .

وكانت اليزابيث ملكة انجلترا توافقه لان تواصل التبادل بالسلاح مقابل ملح البارود المراكشى فقد ارسلت سفيرا لها. وكان السفير التركى أقل الجميع نصيبا من الترحيب والود اذ ظل ينتظر المقا لة وقتا طويلا ومن هنا فان الخليفة المنصور لم يحسن استقبال وفد تركيا ولم يرد على رسالة مراد الثالث مما جعل السلطان مراد لاينسى هذه الاهانة لان رسالة السلطان كانت بشأن تبعية المغرب للامبراطورية العثمانية كما ان هذا الاهمال والتصرف من جانب المنصور قد اثار خفيظه وحنق على علوج وزير البحر التركى .

وعلى هذا فان الخليفة المنصور لا يزال حاكما قويا مكتنه بعض الاجراءات ان يظهر حزما ادى إلى تقوية مركزة قبل ان تمضى فترة طويلة على توليه حكم البلاد اصبح مركزه على العرش قويا إلى حد لم يعد هناك ما يهتم به او يخشاه ولم تكن الشئون الخارجية اقل من ذلك اثرا اذ بدت الايام دون اى هجوم او تحرش بالمغرب من اى جهة سوى حملة فاشلة تركية استدعاهما مراد الثالث قبل ان تصل إلى هدفها فى مراكش بعد ان كان على علوج قد نجح فى ايغاد صدر السلطان التركى وامر بارسال حملة لمنازلة المنصور. وقد بلغ الخبر الخليفة السعدى بانه اتجه إلى فاس وشحن الثغور

واستعد للحرب وارسل هدية عظيمة إلى السلطان العثمانى واعتذر عما بدر منه فى حق رسول السلطان ووصول رسول المنصور إلى تركيا ونجح فى ازالة النفور من صدر الخليفة فقبل السلطان مراد الثالث اعتذار المنصور وتقبل هديته وصدرت أوامر السلطان بالرجوع عن حرب المنصور وقد استطاع المنصور بحنكته السياسية وحسن تدبيره ان يحافظ على استقلال بلاده. ومن ثم فان المنصور قد ادرك ان خطر الاعتداء الخارجى الاجنبى قد أصبح اقل مما كان يظنه واصبح المنصور قادرا على ان يتمتع بثمرات النصر بتحصيله الفدية عن الاسرى والتى حاول كتاب الغرب ان يضفى عليها نوعا من الثراء الفاحش الذى ظلت خزائن المنصور الشريف تفيض بالذهب الاجنبى عدة سنين (التير والذهب كان يتحصل عليه من بلاد السودان الغربى) ولقد فاض الذهب عن حاجة المغاربة وقدمت منه عطاءات وديون لملك فرنسا والدوق انطونيو المطالب بعرش البرتغال والذى اعطى كل ما كان يريده بفضل الحاح الملكة اليزابيث ملكة انجلترا .

ولقد اولى المنصور اهتماما بالميادين التجارية فاحتكر الصناعة واخرج من صناعة السكر كل من كان يعمل بها من غير المغاربة وقاوم التهريب واستغل ارباح السكر الذى كانت اوروبا تقبل على استيراده فى اثراء البلاد وجمع الضرائب وبعث بجنوده يجمعونها بكل نشاط .

واذا كانت بعض الثورات قد واجهته من بعض اعضاء البيت السعدى او زعماء القبائل الا ان ذلك لم ينقص من سيادة السلطان وامساكه بمقاليد الامور بحزم وقوة لاسيما وانه قام بالقضاء على ثورة الناصر الذى بدعى بالعرش فى عام ١٥٩٥م فى اقليم الاطلسى اذ انتهت ثورته بهروبه إلى اسبانيا عام ١٥٩٦م .

وقد اضاف سمة حضارية على العاصمة مراكش اذ جعل منها مدينة اكثر تقدما ورفاهية وفخامة اكثر مما كانت ايام الموحدين كما فعل اخوه الغالب من قبل، فاقام

كثيرا من المنشآت التى دعا لاقامتها مهرة الصناع والمهندسين من جميع البلاد الاسلامية وكانت حفلات استقبال السفرا الاجانب تفوق حد التصور فى فخامتها فقد استقبل عام ١٥٧٩م الامير جوان مبعوث ملك اسبانيا فى موكب ضخم وفخم حيث اصطف لتحيته المئات من حملة الحراب والفرسان على رؤوسهم القبعات المزينة بالريش الطويل وكان السلطان جالسا فى البهو على جاشية من الحرير بينما زين جدران القصر بتحف ثمينة ويحف به ثمانية من القضاة. وقد استفاد المنصور من الاتراك نظامهم الحربى فكان الجيش مكونا من اعداد الاسرى الذين كان حكام الاقاليم يرسلونهم اليه سنويا على ان يقوم رجال الجيش الاخصائيون فى التدريبات العسكرية على تدريبهم وقف قواعد عسكرية ونظامية دقيقة ويلقنونهم الولاء للسلطان وللعرش السعدى والموت دون السلطان والبلاد .

وتركز اسراف السلطان احمد المنصور الشخصى فى بناء قصر كبير متسع فخم كبير فى مراكش استخدم فيه الالاف من البنابين والعمال والمهندسين وقدمت السفن الكثيرة تحمل من الهند اثمن مواد الشرق لتزينه وامدته ايطاليا وايرلندا بالرخام اللازم لالاف الاعمدة حيث ذكر اليفرانى ان الايرلنديين كانوا يبادلون الرخام فى مراكش بما يوازى ثقله ووزنه من السكر واحيط القصر بحدائق واسعه تتناسب مع فخامة السلطان حتى اصبح قصر البديع كما اطلق عليه والذى اكتمل بناؤه بعد ست سنوات من المعركة (القصر الكبير) فى مظهر من الروعه والابهة التى لاتضارع لكن عند التنازع على العرش قام السلطان مولاى اسماعيل عام ١٧٠٧م بتدمير قصر البديع هذا الذى بناه احمد المنصور (ومولاى اسماعيل هذا هو المظفر بالله اسماعيل بن الشريف على الملقب بالنصر وهو من الاسرة العلوية وقد حكم البلاد فى الفترة عام ١٦٨٢ حتى ١٧٢٧م) .

وبالرغم من علاقات احمد المنصور الشريف بجيرانه ظلت علاقات صداقة الا ان الاستعدادات الحربية ظلت تشكل حاجة ملحة فالاتراك كانوا لازالوا يكنون العداء للاسرة السعدية التى حالت بينهم وبين ضم المغرب الاقصى لامبراطوريتهم العثمانية والقوى الاوربية المسيحية اعداء دائمون للاسلام لايوثق بهم مطلقا وكان فيليب الثانى ملك اسبانيا لايكف عن الالحاح بالمطالبة بميناء العرائش الصغير التى تطل على المحيط الاطلسى وهو الحارس الطبيعى للطريق الغربى المؤدى إلى المضيق وكذلك كانت عيون الاتراك والفرنسين والهولندين ترقب بحذر اى منها يفوز بهذا الميناء فقد كانوا جميعا يتمنون الاستيلاء عليه واكثر من ذلك فان انجلترا كانت لديها المخطط للاستيلاء على موانى فى جنوب المغرب حيث مناطق انتاج السكر الذى كانت انجلترا فى امس الحاجة اليه نظرا لانه مادة تجارتها مع المغاربة .

ومن هنا فانه تحت كل هذه الظروف استمرت رغبة المنصور الدائمة فى ان يكون جيشه قويا وعلى اهبة الاستعداد دائما للدفاع عن البلاد ضد اى هجوم خارجى لاسيما وانه كان يحصل على السلاح الذى يحتاجه من اليزابث ملكة انجلترا وهى الملكة المسيحية الوحيدة التى كانت تتحدى الحظر البابوى على التجارة مع المسلمين فى المواد الحربية وكانت اوربا فى ذلك الوقت بناء على تعليمات البابوية تعتبر مجرد تحالف او متاجرة فى السلاح من قبل ملك مسيحى مع ملك مسلم خيانة كبرى للعالم المسيحى يستحق الملك الذى يخرق هذه الاوامر القتل ولايعفو له ابدا من البابوية التى كانت تصدر صكوك الغفران فى ذلك الوقت لكن ملكة انجلترا والتى كانت فى امس الحاجة إلى ملح البارود اللازم لصنع الذخيرة والذى كان لايوجد الا فقط عند المغاربة والتى كانت الظروف تحتم عليها التجارة مع المغاربة، قد حاولت دائما اخفاء دورها فى هذه التجارة غير المشروعة مع العالم الاسلامى ولقد تحطم جيش اوربا بقيادة

ملك البرتغال دون سياستيان فى موقعة القصر الكبير بواسطة الاسلحة الانجليزية التى كانت ترسلها ملكة انجلترا للمغاربة وثارت حفيظة فيليب الثانى ملك اسبانيا عندما علم بذلك واعترض بشدة عندما علم برغبة البزايت ملكة انجلترا فى تقوية العلاقات التجارية مع السلطان السعدى احمد المنصور إلى حدان الشريف السعدى اضطر إلى رفض طلبها ترضيه لملك اسبانيا ولكن عودة التجارة كانت رغبة ملحه في الحصول على ملح البارود. ولم يمض وقت طويل حتى علمت اسبانيا والعالم المسيحى ان المغاربة يحصلون على حاجتهم من السلاح والمدافع والسفن الحربية واشرعتها وخشب السفن من انجلترا التى توسعت فى تجارتها مع المغاربة .

ولما احس احمد المنصور بقوة نفوذه فى البلاد فقد عمل على اختيار ابنه محمد الشيخ وليا للعهد خلفا له من بعده ليكون خليفة البلاد فاثار ذلك سخط ابن اخيه الذى من ام تركية وهو داود بن عبد المؤمن الذى كان والده يحكم تلمسان من قبل الاتراك وكان له دور كبير فى عودة عبد المالك إلى عرش المغرب لاسيما ان أباه كان رفيق المنصور فى رحلته إلى الجزائر او تركيا فقام بثورة ضد عمه على الرغم من قيام ابيه وهو نفسه بخدمات لعبد المالك والمنصور لكن المنصور استطاع القضاء على ثورته عام ٩٨٨هـ وانتهى امر ثورته، كذلك فان المنصور ارسل حملات حربية إلى عرب الخلط نظرا لخروجهم على الشرعية فى مراكش وتكل بهم وقضى على ثورة بلاد غمارة كذلك كانت اخطر الثورات ثورة ابن اخيه الناصر بن عبد الله الغالب شقيق محمد المتوكل وثورة ابنه وولى عهده محمد الشيخ حاكم مدينة فاس وكان وراء ثورة الناصر ملك اسبانيا فيليب الثانى الذى كان يؤيده ويقدم له كل عون ممكن، لكن المنصور استطاع القضاء على هذه الثورة عام ١٠٠٥هـ .

وقد برزت فى عصر المنصور اهم النظم الادارية اذ انه اعتمد فى ادارة البلاد على مجلس الشورى الذى كان يتكون من اثنى عشر عضوا يتم اختيارهم من عليه القوم وكبار رجال الجيش والقصر وحكام الاقاليم ويتلخص هذا النظام فى انه جعل الحكومة السعدية الشريفة مكونة من اتحاد القبائل يديرها جهاز حكام وهى التى توزع الارض وتفرض الضرائب وتتكون من الوزراء ورجال القصر والحكام وسادت البلاد مظاهر التحضر فى مختلف مرافق الدولة ومجالاتها، كما ان المنصور قد انشأ الكثير من المدارس ومعاهد العلم والمستشفيات والقناطر والحصون والقلاع والطرق وفى عهده تم تأسس العديد من المدن وتوسعه القديم منها واضافة احياء جديدة اليه فى شتى انحاء الامبراطورية المغربية .

ويعد عصر المنصور من أعظم عصور الحكام السعدين لما قام به وفعله طوال مدة حكمه التى امتدت اكثر من ستة وعشرين عاما مما ساعده على ان تكون المشروعات متكاملة نظرا لطوال فترة حكمه ولقد ازدهرت العلوم والفنون والثقافة والحضارة وترك مظاهر حضارية امتدت بعد فترة حكمه على مدى سنين طويلة .

لكن رغم هذه الانجازات الا ان التداخلات الخارجية فى شئون المغرب ومحاولة النيل من البلاد وحاكمها الشريف احمد المنصور لم تتوقف فالاتراك من جانبهم لاينفكون يساعدون احد امراء البيت السعدى كلما لاحت له الفرصة فكما ساعدوا ابن اخيه اسماعيل بن عبد المالك فى المطالبة بالعرش فانهم هذه المرة يدفعون ابنه وولى عهده محمد الشيخ وربما كانت هناك جهات اخرى تساعده ولقد كانت ثورة محمد الشيخ من الخطورة ولقد قدر لهذه الثورة النجاح نظرا للمساعدة الكبيرة التى قدمها الاتراك له ومحاولة تدخلهم فى شئون المغرب لاسيما وان محمد الشيخ لم يكن محبوبا من عامة الشعب ورجال الحل والعقد نظرا لانه لم يكن يسلك السلوك

الاسلامى فقد قام بوضع السم لوزير ابيه ابراهيم السيفانى، ولم يكترث باوامر ابيه المنصور حول ضرورة التوجه اليه فى فاس وتوجه إلى تلمسان للاستعانة بالاتراك وبلغها فعلا، لكن الابن كان يريد عرش المغرب بعد ان توسع حكمه فبلغ سجلماسة ودرعه وفاس ومعظم الاقاليم الجنوبية ولما راى المنصور ان شوكة ابنه قد باتت تهدد العرش ونظام الحكم فى البلاد خرج اليه سرا فى قوة مكونة من اثنى عشر جنديا وقبض عليه فى فاس واودعه سجن مكناسة وانتهت ثورة محمد الشيخ المامون عام ١٠١١هـ/ ١٦٠٢م وقبل وفاة المنصور بستة اعوام (توفى المنصور عام ١٦٠٨م) .

كذلك فان اسبانيا فى عهد فيليب الثانى كانت ترى خطورة كبيرة على امنها فى قوة احمد المنصور الشريف لاسيما ان الاسلحة كانت لاتزال تصل اليه من انجلترا رغم القرارات البابوية بمنع التجارة فى السلاح مع الدول الاجنبية (الاسلامية) لذا فانه عمل على شغل المنصور عن التفكير فى مساعدة المورسكين الاندلسين او التعاون مع انجلترا بشان ولى عهد البرتغال والصراع بين الكاثوليك والبروتستانت فاطلق سراح المنصور بن عبد الله الغالب وامدة بالسلاح والعون والرجال وشجعه على القيام بالثورة والقضاء على الحكم فى البلاد .

وقد كان هذا التدخل ردا على مساعدة المنصور لملكة انجلترا اليزابت والمطالبة بعرش البرتغال بعد ان ضم ملك اسبانيا البرتغال لملكه بعد معركة القصر الكبير ١٥٧٨م وبالتحديد عام ١٥٨١م ولكن احمد المنصور استطاع اخضاع ثورة الناصر بعد ان اشتعلت فى البلاد المغربية طوال اكثر من عامين والصراع على اشدة، ولكن يتنازل ملك البرتغال عن مدينة اصيلا جعلت المنصور يبتعد عن مؤازرة ملكة بريطانيا وولى عهد البرتغال المطالب بالعرش البرتغالى (دون انطونيو) وكانت سياسة المهادنة مع القوى الخارجية وبخاصة الدول المسيحية قد حققت للمنصور الكثير من الاستقرار والمكاسب

مما جعله يفكر فى التوسع جنوبا فى بلاد السودان واكتساب الصحراء وذلك بعد ان تعلل المنصور بضرورة الجهاد جنوبا لقطع الطريق على البرتغاليين والاسبان والقوى الاوربية الاخرى التى بدات تتدخل فى السيطرة على افريقيا وبعد ان تعذر العودة إلى الاندلس مرة اخرى ومساعدة المسلمين الاندلسين فى استعادة حقوقهم وكان المنصور على حق لمحاصرة المد المسيحى فى افريقيا وليس منعللا بذلك الهدف فهو على حق كل الحق فى ارسال حملاته العسكرية إلى بلاد السودان لمنع محاصرة الدول الاوربية له من الجنوب لاسيما وان الاسلام قد انتشر وتوسع فى حوض نهر النيجر حيال مملكة سنغاى ومالى وبعض الامارات الاسلامية الاخرى كامارات بلاد الهوسا السبع وبرنو وكانم وغيرها من الامارات الاسلامية التى كانت ترتبط بعلاقات اقتصادية وثقافية ودبلوماسية مع بلاد المغرب فمن هنا عملت مراكش على نشر الثقافة الاسلامية منها وانتشرت مع حركة الاسلام الواسعة فى هذه الانحاء معظم الحضارة العربية الاسلامية (انظر سلطنة البرتو الاسلامية رسالة ماجستير للمؤلف، ١٩٧٥) (السياسية الخارجية لسلطنة سنغاى الاسلامية، رسالة دكتوراه للمؤلف، ١٩٨٣) .

كذلك فان المنصور وقد كان يرى انه القرشى كريم الدوحة النبوية الفاطمية العلوية الحسينية احق بالخلافة الاسلامية فى العالم الاسلامى كله مشرقا ومغربا دون الاتراك العثمانين العجم ومن هنا كانت انظاره تتجه إلى بلاد الشرق للدعوة بخلافته وكسر الطوق الذى تحاول الخلافة التركية العثمانية فرصه حوله لمحاولة احتوائه كبقية بلاد المغرب الاسلامى ولذلك فان المنصور احمد لم يكتف بما وصلت اليه دولته من اتساع فى بلاد السودان الغربى انما اتجه نحو بلاد الشرق الاسلامى لمناوأة الاتراك والدعوة للخلافة السعدية التركية لانه كان يرى انه اولى بالخلافة الاسلامية بدلا من سلاطين الاتراك نظرا لانهم من الاعاجم وليس لهم سلالة وصلة بالنسب العربى او

القرشي او الهاشمي وارسل احمد المنصور رجاله داعين له للتبشير بخلافته إلى بلاد الشام والحجاز ومصر ولتوثيق علاقاته مع رجال الدين فى هذه البلاد وعلمائها وكذلك بعض البيوتات (بيوت) المشهورة المعروفة والشخصيات البارزة فى المجال السياسى والدينى فى الشرق الاسلامى وبصفة خاصة فى الديار المغربية حيث راسل العديد من المشايخ لاسيما وان المنصور منذ فتح بلاد السودان الغربى (سنغاى) قد بدأ يفكر فى وضع يده على الطرق التجارية الرئيسية فى افريقيا وخاصة مع بلاد برتو والهوسا والكانم وغيرها من السلطنات لكن الاحداث الداخلية والمؤمرات التى ايدها الاتراك وفيليب الثانى ملك اسبانيا ضد الدولة السعدية جعلت المنصور يكون مشغولا عن تنفيذ افكاره بالنسبة لبلاد المشرق ويتجه لمحاربة المؤامرات التى دبرها ضده ملك اسبانيا، ومن ثم اتجه إلى اقامة تحالف وعقد معاهدات مع ملكة انجلترا اليزابث ضد اسبانيا لاسيما بعد تحطيم الاسطول الاسبانى مع معركة الرمادا لغزو اسبانيا فى عقر دارها وفعلا كاد ان يتم هذا التحالف بين انجلترا والمغرب الاسلامى لولا ان اليزابث ملكة انجلترا وهى الملكة المسيحية (٥٥٧هـ-١٦٠٢م) لايمكن ان تكون السبب فى تمكين حاكم مسلم مهما كانت درجة صداقته وتعاونه ومهما تكن الاسباب وتسمح له باحتلال بلاد مسيحية لان ذلك خيانة كبرى فى عرف العالم الغربى المسيحى فى حين كان ذلك العكس بالنسبة لبعض الملوك الذين كانوا يستعينون بحكام الغرب المسيحين لاحتلال بلادهم بطرد حاكم ووضع حاكم آخر بدلا منه .

ومن هنا يجب ان نلاحظ سلوك حكام المسيحية وسلوك حكام المسلمين فى الاستعانة بالمسيحين على حساب الاتراك المسلمين اخوانهم فى العقيدة من اجل البقاء فى الحكم او الاستيلاء على مقاليد البلاد نظير التنازل عن ديار الاسلام للملوك المسيحيين فى اوربا .

ولكن انجلترا بدلا من ان تساعد احمد المنصور على غزو اسبانيا والعودة بالمسلمين إلى ديارهم رات ان توجهه وجهة اخرى بعيدا عن اسبانيا والغرب وذلك بان يقوم المنصور بغزو مستعمرات اسبانيا فى العالم الجديد وافريقيا وبلاد الشرق الاقصى بدلا من غزو اسبانيا نفسها وكذلك كانت ثورة ابنه محمد الشيخ سببا فى عدم تفكيره فى الغزو الخارجى حيث مات بعد القضاء على ثورة ابنه .

وكانت العلاقات التركية المغربية وقد تحسنت تحسنا ملحوظا فى عهد احمد المنصور واستمرت الرسائل متبادلة وازاء تحسن العلاقات فان احمد المنصور وجد الفرصة سانحة امامه للانطلاق بسياسته الخارجية واعادة علاقاته مع الاسبان للحصول على مكاسب له بعد تدخله فى قضية العرش البرتغالى وكانت مسالمة الاتراك وآمن خطرهم عاملا قويا فى ممارسة سياسة التوسع فى بلاد السودان الغربى .

لكن يقع على التوجه السياسى التركى بعد معركة القصر الكبير يقع عليها العبء الاكبر فى عدم استفادة المغرب من انتصاره الكبير اذ ان العلاقات المغربية التركية لو كانت بالصورة السوية العادية لحقق المغرب مكاسب كثيرة من جراء هذا الانتصار ومنه اولا تحرير الثغور المغربية المحتله ولكنها لم تكن متعاونة ومتضامنة، وكانت حالة الحرب الطويلة بين الاتراك والفرس عاملا قويا فى درء خطر الاتراك عن المغرب حيث كانت هذه الحروب منهكة للقوى التركية حتى اصبح من الواضح انه لا خطر على البلاد من قيام مغامرة تركية جديدة لغزو بلاده، كذلك فان عرش اسبانيا والبرتغال لم تكن لهما الخطورة التى كان يظن فيها المنصور احمد لاسيما ان اسبانيا تواجه الثورة فى الاراضى الواطئة (المنخفضة) هولندا وكذلك واجه فيليب الثانى ملك اسبانيا الحرب مع اليزابث ملكة انجلترا. لذا لم يكن احمد المنصور يخشى اسبانياالكثر من الاتراك .

ازاء كل هذه الاحداث لاسيما انه عقد حلفا مع اسبانيا وملك فارس (ايران) ضد تركيا فانه وجد نفسه لابد ان يحقق حلمه فى تكوين امبراطورية مغربية واسعة ولانفاذ اخوة الاسلام جنوب الصحراء الكبرى من الوقوع فى قبضة القوى الاوربية المستعمرة التى اتخذت لها مراكز على ساحل افريقيا الغربى وصولا إلى جنوب افريقيا ولمنع حصاره من الجنوب وبناء خلافة اسلامية فكان مخططه من اجل استخدام جيشه لغزو بلاد السودان الغربى وان يستولى على هذه الديار ويقيم كيانا اسلاميا واحدا تحت رايته الشريفة القرشية حيث كان هو الوحيد الذى يحق له استخدام لقب امير المومنين وليس الاسكيا داود واسحق اسكيا سنغاى الذى تلقب بلقب امير المؤمنين ولم يكن وراء هذا الغزو كما حاولت كتب الغرب ان تصور الغزو من اجل جلب ثروة الذهب والوصول إلى مصادر هذا المعدن النفيس او تجارة الرقيق لكن المنصور صمم على الوصول إلى بلاد السودان وكانت مخاطرة جيش المغرب فى اختراق الطرق الصحرواية الصعبة حيث كانت فى فكر العديد من رجال الحكم والمجلس الاستشارى المغربى ان الغزو لهذه البلاد البعيدة التى لم يفكر احد من رجالات الحكم السابق فى الدولة المرابطية او الموحدية او المرينية او الفتوحات الاسلامية الوصول إلى تلك الديار حيث ارسال حملة كبيرة لم يكن الا نوعا من الجنون الذى لاطائل وراءه سوى اهلاك القوات المغربية عبر الطرق الطويلة الصعبة الاختراق وحيث المسافات البعيدة الطويلة وقلة المياه وندرتها وعدم وجود المحطات التى تتوقف عندها الحملة للراحة والتزود بالطعام والماء، لكن المنصور كان قد فكر فى المخاطرة واعد لها عدتها ووزنها وقدر كل حساباتها وتم اختيار قائد هذه القوات وتم الاعداد والتجهيز واختيار عناصر الحملة وتم حشد المؤن والعتاد واختيار الادلاء الذين خبروا الطرق الصحراوية ووصلوا إلى بلاد سنغاى من قبل وكان لهم اتصال بسكانها وسلاطينها وتجاروا من قبل معها وعرف مخاطر الطرق وكيفية التغلب عليها وملاقاة الصعاب واجتياز المخاطر واعد للامر عدته واتخذت

الخطوات الفعلية لانطلاق الحملة إلى غاياتها المرسومة التى لم يكن بد من المجلس الاستشارى ان يوافق على خطة احمد المنصور لغزو بلاد السودان الغربى (سنغاى) فكانت حملة احمد المنصور السعدى لغزو بلاد سنغاوى الاسلامية جنوب الصحراء الكبرى وقيام كيان اسلامى كبير يشمل هذه البلاد .

الفصل الخامس

احمد المنصور الذهبى وفتح بلاد السودان الغربى
«سلطنة سنغاى الاسلامية»

انتشر الاسلام فى بلاد جنوب الصحراء الكبرى منذ القرن الاول الهجرى بل ان هناك اقوال تذكر ان عقبة بن نافع القهرى عام ٥٠هـ قد وصل جنوبا حتى وادان، لكن الانتشار الواسع والمكثف للاسلام كان فى القرن الثالث الهجرى حيث بدات تظهر امارات اسلامية بالقرب من نهر السنغال ونهر النيجر وكان رجال الطوارق البربرية يتقدمون جنوبا فى هذه المناطق للتجارة والرعى مما ساعد على انتشار الدين الاسلامى واعتنقه السواد الاعظم من سكان تلك المناطق وظهرت سلطنات اسلامية (اودغست، غانا، مالى، كانم، برنو، الهوسا، كبى، سلطة برنو الاسلامية، رسالة ماجستير للمؤلف عام ١٩٧٥ جامعة القاهرة) ومن ثم بدات هذه البلاد تتطلع إلى بلاد المغرب للاتصال بها حيث ان الطرق الصحراوية لم تكن تشكل عائقا يمنع وصول حركة التجارة والنقلة والترحال والتبادل التجارى والثقافى والعلمى .

ومع نهاية القرن الخامس عشر الميلادى وبداية القرن السادس عشر ظهرت حركة الكشوف الجغرافية وما قامت به البرتغال واسبانيا فى هذا المجال واحتلال العديد من الثغور المغربية على ساحل البحر المتوسط والمحيط الاطلسى تامينا للوصول لبلاد القارة الافريقية ووصولا إلى بلاد الهند ومحاربة الاسلام والبحث عن مملكة الملك يوحنا الموجودة فى قلب افريقيا (الحبشة) للاتصال بها وعقد معاهدات معها لحصار البلاد الاسلامية وكانت فكرة الاستيلاء على بلاد غرب افريقيا والتوسع للداخل وصولا إلى مناطق الغابات بدلا من الارتكاز فى الساحل وحصار البلاد المغربية من الجنوب لاسيما بعد الانتصار الكبير الذى احرزه المغاربة فى معركة القصر الكبير عام ١٥٧٨م على

الجيش البرتغالى .

فكانت فكرة المنصور فى كسر الحصار من حوله والدخول إلى هذه الديار قبل ان تمتد اليها يد الاوربين رجال الاستعمار نهبا لمواردها وقطيعة لاهلها مع اخوانهم سكان المغرب وبقية بلاد العالم الاسلامى (قطع الاستعمار كل صلة مع هذه الاقطار وبلاد العالم الاسلامى عندما احتلها وسيطر عليها) .

ولقد ارتبطت اكبر هذه السلطنات واهمها فى القرن السادس عشر الميلادى وهى سلطنة سنغاى (راجع رسالة الدكتوراة للمؤلف بعنوان السياسة الخارجية لسلطنة سنغاى الاسلامية ١٩٨٣) ولقد كان الاتصال مع بلاد المغرب يتم عبر الطرق الصحراوية. وقد اتصل سلاطين سنغاى (تقع على ثنيه نهر النيجر وتمتد غربا حتى المحيط الاطلسى) بسلاطين المغرب وخاصة خلفاء الدولة السعدية بعلاقات من المودة والصداقة. بل ان هذه العلاقات السودانية المغربية ترجع إلى عهد بعيد ذلك لان شعوب المغرب كانت اكثر الشعوب الاسلامية اتصالا بسنغاى وبقية بلاد السودان الغربى ومع نهاية القرن الخامس عشر الميلادى وبداية السادس عشر وقعت احداث خطيرة بين السعدين فى مراكش وسلاطين سنغاى جعلت السعدين ينظرون إلى سلاطين سنغاى بعين الريبة والشك وخاصة بعد ان اتخذ الاسكيا محمد الكبير لقب امير المؤمنين فقد كان هذا مصدر ازعاج للسعدين الذين كانوا يرون ان هذا اللقب حق لهم وحدهم فى المنطقة لانهم سلالة الدوحة النبوية الشريفة وليس فى افريقيا والمغرب وبلاد السودان ولكن فى كل العالم الاسلامى فهم احق بها من الاتراك العثمانين لانهم عرب اشراف وان اتخاد الاسكيا لهذا اللقب منافسة لهم فى الزعامة الروحية فى افريقيا وانه بذلك يتحدى مركزهم الروحى والسياسى، بل انهم كانوا يرفضون الدعاء للسلطان العثمانى بالخلافة ومن ثم اعتبروا حاكم سلطنة سنغاى الاسلامية معزولا شرعيا ما لم يوافق فى

الدخول فى طاعتهم والاعتراف بخلافتهم القرشية .

لذا فان العلاقات بين البلدين بدات تسوء منذ عهد السلطان السعدى الثانى احمد الاعرج والاسيكا اسحق الاول سلطان سنغاى (١٥٤٣- ١٥٤٩م) وقد يكون هذا هو جوهر الخلاف وليس الذهب ومصادرة تكوين امبراطورية ونهب ثروات بلاد السودان التى كان دائما يروج لها كتاب الغرب المعادون لادنى تقارب اسلامى او تكوين وحدة اسلامية ويؤولون هذا التقارب بما يروق لهم. وتحقيق اهدافهم ويباعد بين بلاد الوطن الاسلامى الواحد لكن مراسلات تمت بين السلطان احمد الاعرج وبين السلطان اسحق وكان هذا اول اتصال مباشر بين سلاطين المغرب السعدين وسلاطين سنغاى فى عهد اسرة الاساكى ومن هنا فقد جرى تبادل الوفود حين اختلاف المصالح مراعاة للاخوة الاسلامية والشعور الاسلامى، لكن السعدين كانوا فى حقيقة الامر يسعون ايضا إلى بعض الموارد المالية لمواجهة الاخطار التى تحدق بالبلاد لاسيما ان السلطان احمد الاعرج كان لم يفرغ بعد من تصفية مشاكله مع بنى وطاس حكام المغرب والامارات المستغلة والجيوب الاستعمارية الايبيرية فى المغرب وكان لايزال يحكم فى بلاد الجنوب حيث مملكة السوس قبل دخول فاس لذا نجد احمد الاعرج السلطان الثانى فى سلسلة سلاطين البيت السعدى يكاتب الاسكيا اسحق الاول فى ان يسلم له ملاحات تغازه وكانت ملاحات تغازه هى المصدر الرئيسى للملح الذى تحتاج اليه بلاد السودان وكان فى هذه المنطقة مخزن كبير للملح يحفر اليه وهو هنا اثمن من الذهب والمرمر وكان الملح يحمل على جمال إلى مدينة تمبكتو حيث يباع وزن الملح بوزنه ذهبا واحيانا اكثر من وزنه، وبالرغم من أن تغازه بعيدة عن السودان وقريبة من مراكش ولم يكن حكام فاس او مراكش يسيطرون عليها لان قبيلة مسوفة البربرية هم المسيطرون عليها وكانوا تابعين لسلطنة سنغاى الاسلامية، لكن احتلال تغازه كان بالنسبة

للمغاربة يعطيهم قدرا من التحكم فى اسواق الذهب ومن هذا كان ملح تغازه السبب الثانى بعد سبب الخلافة فى التدخل المغربى فى بلاد السودان اضافة إلى تكوين امبراطورية اسلامية ودرءا الخطر الاوربى عن ديار الاسلام والمسلمين .

لذا فاننا نجد فى عام ١٥٤٦م ٩٥٣هـ حاول محمد الشيخ والد المنصور ٩٥١-٩٦٥هـ أن يحمل اسكيا اسحق سلطان سنغاى على ان يتنازل عن مناجم الملح لكن الاسكيا اسحق رفض الطلب للمرة الثانية بعد ان رفضه لاخيه احمد الاعراج ولكن محمد الشيخ كان قد فرغ من حروبه الداخلية واستقر له امر المغرب فانه وجه اهتمامه إلى ما يدور على حدود المغرب الجنوبية والتى كان فى نظرة انه يجب على الاسكيا سلطان سنغاى ان يتنازل عن ملاحات تغازه لصالح المغرب على اعتبار انها اقرب للمغرب منها إلى بلاد السودان لكن هذه المرة كان رد سلطان سنغاى التحدى لسلطان المغرب اذ تمثل فى ارسال سرية من جنود الطوارق وامرهم بالاغارة على درعه حتى يصلوا إلى اسوار مراكش ان تمكنوا من ذلك وان يصلوا إلى سفوح جبال اطلس فى المغرب ثم إلى سجلماسة وامرهم ان يسلبوا منها اكبر مايستطعون وان يصعدوا حتى ابواب مدينه مراكش اذا امكنهم ذلك. ولكن المغيرين لم يتجاوزوا درعه وبالرغم من انهم سببوا خسارة جسيمة فانهم كانوا حريصين على ان لايقتلوا احدا ويبدو ان اسحق قد امر بهذا الامر غير العادى لانه لم يرغب فى ان يثير حربا مع الشريف السعدى ونجح فى ذلك .

وبعد عشر سنوات جاء انتقام مولاى محمد الشيخ قاسيا وشديدا فقد اوعز إلى قائدة الفلالى الزبيرى ومره ان يقتل حاكم تغازه فقتله مع الطوارق الذين كانوا يقدمون باستخراج الملح من تغازه ومن ثم فقد اختار سلطان سنغاى مكانا آخر غير تغازه لاستخراج الملح بدلا من تغازه يسمى تغازه الغزلان .

وبالرغم من ان المغاربة لم يكن لهم سبب للخوف على تجارتهم مع السودان من التوقت فان امتلاك تغازه كان يعطى المغاربة التحكم فى مصدر الملح والحصول على كميات كبيرة من الذهب .

وعندما ارتقى احمد المنصور الشريف عرش المغرب عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م كان اسكيا اسحق لايزال حيا لكن اسكيا داود خلفه بعد ذلك بقليل وكان قدر المغاربة قد وصل إلى القمة بعد انتصارهم الباهر فى معركة القصر الكبير وكان على المنصور ان يولى امر ملح تغازه اهمتاما اكبر بعد ان فرغ من قتال النصارى واخذت أوضاع المغرب الداخلية والخارجية تعرف نوعا من التحسن والاستقرار وثم الصلح مع الاتراك وذلك عن طريق السفارات والهدايا وكذلك امن جانب الاسبان وخطرهم فوجه اهتمامه إلى بلاد السودان بعد ان أصبح التوسع فى البلاد المجاورة امرا بعيد المنال وفى ذاكرته، كان محمد الشيخ والدة قد سبقه اليه وهو التوسع جنوبا واحتلال مواقع استراتيجية هامه فى الصحراء المغربية تشهر بواحاتها ومعادنها واهميتها فى المواصلات ومن ثم يتم اتخاذ هذه القواعد نقاط ارتكاز للتوسع فيما جاورها من بلاد السودان ولتأسيس امبراطورية مغربية فى هذه الانحاء وضم الديار الاسلامية فى وحدة واحدة .

وراى الخليفة المنصور ان الامر يستحق محاولة القيام ببعض الخطوات فى هذا الشان فاقترح على الاسكيا داود حاكم سنغاى ان يترك له ملاحات تغازه عام واحد ولعل الاسكيا ادرك قوة سلطان المغرب وانه قادر على احتلال تغازه فاتفق معه على ذلك ووضعا اساس علاقات صداقة بين الدولتين .

وكان الشريف المنصور عندما صعد لحكم بلاده لايزال شابا نشيطا طموحا نظم المملكة وكان من أهم انجازاته انه نظم الجيش المغربى وزوده باحدث الاسلحة وتدريبه على احدث اساليب القتال وتحت كل الظروف استمرت رغبة المنصور فى المحافظة على

جيشه دائما على اهبة الحرب والاستعداد ويزوال الخطر الاجنبى كان الشريف المنصور يخطط من اجل استعمال جيشه فى عمليات عسكرية جديدة فصمم ان يغزو السودان واستخدم اولا اسلوب الدبلوماسية والمهادنه فارسل سفيرا له إلى السلطان الجديد الحاج محمد خليفة داود يحمل معه هدايا ثمينة فقوبل السفير المغربى بحفاوة كبيرة ورد بهدية قيمة. ولقد اعتقد سلطان سنغاى انها مجرد استطلاع حربى والوقوف على حالة البلاد وهكذا كان التمهيد للغزو بالطرق الدبلوماسية، ولقد كان السلطان السودانى يعمل على عدم الصدام مع المغرب ويرى ضرورة مسالمة المغاربة مهما كلفه ذلك من ثمن، لكن الخليفة المنصور السعدى كان قد عقد العزم على تجهيز القوات لفتح واحات قوات وتكورارين على ان تكون محطات ينطلق منها الجيش المغربى لفتح بلاد السودان وهكذا بدا رسم خطة غزو السودان بعد احتلال هاتين الواحتين وبعد ان جرب امكانية تحرك اعداد كبيرة من القوات عبر الصحراء. وقد كانت هذه الحملة هى الغزوة الأولى لفتح السودان .

وجاءت الخطوة الثانية بعد وفاة السلطان داود صديقه فى عام ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م والذى كانت تربطه روابط حسنة بالمنصور فارسل المنصور وفدا إلى جاو عاصمة البلاد عام ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م ومعه هدية قيمة ولتقديم واجب التعازى وتهنئة السلطان الجديد ثم الاطلاع على احوال البلاد كلها، ودار الحديث حول ملاحات تغازة لكن سلطان سنغاى اكد للوفد المغربى عدم تنازله عن ملاحات الملح فى تغازة .

وانه لم يطل الوقت بعد عودة سفير المنصور إلى المغرب حتى وصلت الاخبار إلى عاصمة بلاد السودان عن جيش مغربى قوامه عشرين الف خرج يقصد بلاد السودان وان قائده قد امر ان يتبع طريقا دائرية عبر وادان فى جنوب شرق موريتانيا ومنها إلى بلاد السنغال ليستولى على كل المدن التى يستطيع الاستيلاءعليها ثم يهاجم تمبكتو

اكبر المدن فى سنغاى بعد ان كان المنصور قد قرر ان يحسم النزاع عسكريا لاحتلال الملاحات المذكورة ومهد لذلك بالسيطرة على جميع المناطق الصحراوية الساحلية الممتدة من سوس إلى بلاد السودان واصبحت ظروف المنصور بعد السيطرة والتحكم فى المنفذين درعة شمالا ونهر السنغال جنوبا وقد تمكنت الحملة من المنافذ والطرق المؤدية اليها نحو بلاد السودان خبر مشجع ومساعد فى آن واحد على رسم سياسة توسعية بالسودان وخاصة ان حكام السنغاى قد رفضوا كل تفاهم حول ذلك الموضوع وهو ملاحات تغازة التى كانت حجة المنصور الظاهرة، فى حين كان بناء وحدة اسلامية قوية هو السبب غير المعلن حتى لايتعرض لمخاطر من جانب القوى الاوربية التى تعارض كل تقارب اسلامى منذ ذلك الوقت .

لذا وجه المنصور قوة عسكرية قوامها مائتا جندى مسلحين بالعتاد النارى الحديث لاحتلال تغازة وساعدت الظروف السلطان السعدى لتحقيق هدفه بوصول احد افراد الاسرة المالكة فى سنغاى وهو الامير على بن داود الذى يطلب مساعدة المنصور فى الوصول للحكم وطلب منه مساعدته العسكرية ضد اخيه الاسكيا اسحاق وكتب لذلك طلبا يطلب فيه كتابة من أمير المؤمنين الخليفة السعدى يرغب فيه امداده بالعساكر ليعود إلى عرشه بسنغاى لانه احق من اخيه اسحاق وكان المنصور قد مهد لمشروع الغزو بعدم تدخل سلطان برنو اثناء قدوم رسول تلك السلطنة إلى المغرب عام ٩٩٠هـ ١٥٨٢م بطلب العون من الخليفة المنصور (سلطنة برنو الاسلامية، رسالة ماجستير للمؤلف غير مطبوعة، جامعة القاهرة ١٩٧٥م) واعترف امير برنو بسلطة المنصور على الصحراء، وارسل المنصور إلى سلطان سنغاى يطالبه بالدخول فى طاعة الخلافة المغربية الشريفة اسوة بسلطان برنو واطلعه على طلب اخيه على بن داود الذى يطلب المساعدة العسكرية وفى هذه المراسلات اخذ يلوح له بامكانية مساعدة اخيه على الذى هو مستعد

لاعلان طاعة المنصور والاستجابة لمطالبه عند عودته إلى عرش سنغاى بدلا من الحاكم الحالى اسحق بن داود .

والذى يطلع على ما بذله المنصور فى الطريق السلمى وارسال صورة طلب على ابن داود بالمساعدة العسكرية يدرك تمام الادراك ان الهدف لم يكن طمعا فى ذهب او تكوين امبراطورية انما كان اعلانا بالطاعة والدخول فى ظل الخلافة السعدية الشريفة والانطواء فى وحدة اسلامية وان يكون هذا الاعتراف اسميا كما فعل امير برنو الذى لم تذهب الجيوش السعدية لاحتلال بلاده، لكن هكذا يحاول مؤرخو الغرب الاساءة إلى كل عمل اسلامى من شأنه ان يقوى روح الاسلام ويعمل على تضامن المسلمين ووحدتهم وتصوير الفتح من اجل السلب والنهب والحصول على الذهب والرقيق، تلك هى فريتهم على الاسلام فى كل للعصور اذ لماذا ارسل المنصور كل هذه الرسائل ما دام يريد ذهبا ورقيقا، انه كان يريد قيام وحدة اسلامية ومنع وقوع هذه البلاد فى قبضة المحتلين الغربين ذلك وان دخول هذه البلاد فى ايدى السعدين قد آخر استعمار الاوربى لاكثر من قرنين من الزمان حتى ضعفت السلطة السعدية فى هذه البلاد فوقعت فريسة فى ايدى القوى الاوربية الاستعمارية لاسيما الفرنسية والانجليزية ولقد تضافرت العديد من الاسباب لتساعد المنصور وتقنعه بارسال جيشة وقواته إلى هذه البلاد بعد ان فشلت جميع المحاولات لاطواء سنغاى تحت الولاية السعدية والاعتراف بدخولها فى طاعة الخليفة احمد المنصور السعدى .

ولكى يكسب حملته صفة الشرعية فانه استند إلى فتاوى العلماء المغاربة الذين اجازوا له التدخل حماية للاسلام وصونا للاراضى الاسلامية وعملا على الوحدة الاسلامية، كذلك فانه قام باستشارة عالمين كبيرين من علماء مصر هما ابو عبد الله محمد بن يحيى الشهير ببدر الدين القرافى والامام العارف بالله ابو عبد الله محمد

الشيخ ابى الحسن البكرى، من كبار علماء مصر فى هذا الوقت وقد اجازا له القيام بالحملة لفتح بلاد السودان وتوحيد البلاد الاسلامية فى ظل الخلافة السعدية الشريفة لذلك دعا الخليفة السعدى رجال دولته والوزراء والحكام وزعماء القبائل الكبيرة إلى اجتماع لكى يحصل فيه على موافقتهم على القيام بالحملة التى ينوى القيام بها فاخبرهم انه قرر ان يهاجم بلاد السودان من اجل ان يوحد قوة الاسلام تحت قائد واحد وخلافة واحدة ففتح السودان الغنى لكى يعطى القوة لجيوش الاسلام وفى ذلك رفع لروح المسلمين الحقيقية وكذلك قال لهم ان اسكيا اسحق صاحب سنغاى ليس قرشيا فليس له الحق فى ان يأخذ لقب امير المؤمنين او خليفة وقد ذكر لهم المنصور ان استغلال امكانيات وخيرات بلاد السودان سيدفع حركة الجهاد فى سبيل اعلاء كلمة الله وصد اعداء الاسلام ولانقاذ الاندلس وارجاعها إلى خطيرة الاسلام والمسلمين ولكى يستطيع المنصور ان يقوى جيشه ويمده بالاسلحة الحديثة والاستكثار من بناء السفن الحربية اللازمة للاسطول لغزو العدو فى عقر داره بالاندلس ذلك لان المنصور كان يرى ان الاسلام فى بلادهم فى خطر وان الجهاد اصبح واجبا مقدسا على المسلمين وان الدور العظيم للدولة السعدية لايقف عند حد التصدى للقوى البرتغالية والاسبانية والتركية او عند حد تصفية بعض الجيوب المستعمرة فى بلاده انما يتعداها إلى تحطيم الحزام الصحراوى والوصول بنجاح إلى منحنى ثنية نهر النيجر ووضع يده على سنغاى وفى اثناء عرض هذه القضايا ابدى بعض المستشارين بشكهم فى نجاح الحملة بحجة صعوبة اجتياز الصحراء وعدم تفكير اية دول من الدول المغربية السابقة فى غزو السودان، لكن فى النهاية وافق الجميع على فكرة المنصور. وقد اقنع المنصور الجميع بتفوقه العسكرى وما يتوافر لجيش المغرب من اسلحة حديثه وذلك عكس ما كانت عليه الدول المغربية السابقة ومن ثم استطاع اقناعهم بفكرة الغزو لانه كان يعمل على نشر لواء خلافته القرشية الهاشمية على العالم الاسلامى ومن ثم كان يسعى لتوحيد مسلمى

غرب افريقيا ولجمع كلمة المسلمين بهذه البلاد وتوحيد قواهم للوقوف صفا واحدا امام الهجمات الخارجية التى يمكن ان يقوم بها الاسبان بصفة خاصة او غيرهم من الاوربين الذين كانوا يتربصون الدوائر ببلاد السودان ذات السواحل الاستراتيجية التى تتحكم فى طريق الهند البحرى .

ومن هنا فقد أخذ المنصور فى الاستعداد للغزو واهتم بنفسه شخصيا بالاشراف على ما تتطلبه الحملة من وسائل ومعدات والاستعداد لهذه الحملة القوية بصفة خاصة ووضع الامكانيات الضخمة التى كان المنصور يتوفر عليها، لذا فانه قدر صعوبة الصحراء وكفاءة القوات وان القوات الصغيرة ذات الكفاءة العالية والتجهيزات الكاملة اقدر فى الوصول إلى سنغاى لاسيما وان اسلحة المغاربة افضل وخاصة فى الاسلحة النارية فهذا التفوق فى السلاح يفوق الكثرة العددية .

وقام احمد المنصور قبل ارسال حملته بمراسلة علماء ورجال الدين والقضاة فى سنغاى ومنهم القاضى عمر بن محمود بن عمر اقينت، المسموع الكلمة فى بلاد السودان ليعرض له الدخول فى طاعته وليس نهب الذهب كما صور ذلك مؤرخو الغرب والدعوة لخلافته القرشية الهاشمية وامامته على مسلمى البلاد .

ولقد صمم المنصور على ان يكون كل ما يرسله إلى بلاد سنغاى سواء اكان انسانا او حيوانا او عتادا او سلاحا من افضل ما تملكه دولة المغرب وكان قبل ذلك اختيار القائد المناسب واختار لهذا القائد جودر، كان اندلسيا من بلاد الاندلس تربى فى القصر الملكى فى مراكش ولم يكن ضد القائد له خبرة بالقيادة العسكرية لكن شبابه آهله لهذه القيادة وقيادتها لكن امانته وقدرته التنظيمية وهى صفات ضرورية فى قائد يحتاج اليها ما دام قد خرج إلى الميدان ورقى إلى رتبه الباشوية وكان تحت امرته عشرة قواد وبلغ عدد افراد القوة اربعة الاف من الاقوياء الذين اختيروا من بين افراد الفرق

لشجاعتهم وصلابتهم وحبهم للنظام ومن هؤلاء الفان من المشاة المزودين بالاسلحة النارية نصفهم من الاندلسين الذين هاجروا إلى مراكش وكذلك خمسمائة من الخيالة حاملى الاسلحة النارية والباقى من الاتراك الذين دخلوا خدمة الجيش الشريفى السعدى، ١٥٠٠ من الخيالة الخفيفة مزودين بالحراب الطويلة ولكنهم مغاربة. وتكونت المدفعية من ستة مدافع كبيرة وعدد من المدافع الصغيرة، وبلغت دواب الحملة ثمانية آلاف جمل والف حصان .

وقد انتهى الاستعداد للحملة وجرى الاحتفال بها واستعراضها يوم الاثنين ١٦ ذى الحجة عام ٩٩٨هـ/ سنة ١٥٩١م بحضور الخليفة والجمهور المغربى واخذت الحملة طريقها إلى بلاد السودان بقيادة جودر باشا وهيئة مستشاريه وكبار قواده وكانت اهم تعيلمات المنصور إلى قائده جودر باشا هو احتلال جاو العاصمة وتميكتو وجنى القضاء النهائى على دولة سنغاى وضم حدودها إلى سلطنة المغرب .

وقد فكر المنصور فى الاحتمالات التى قد تحدث فى البلاد بعد ان تخرج الحملة إلى اهدافها حيث هناك خطر جيرانه الاسبان والاتراك اذ ربما يعتديان عليه بعد ان يعرفوا انه مشغول فى حملته هذه لاسيما وان قرار انسحابها نوع من الاستحالة بعد وصولها. وكان عليه لابد ان يرسل هدية سنويا إلى السلطان التركى مراد الثالث لاستمالته وصرفه النظر عن التوسع فى المغرب الاقصى اضافة إلى تصميم المغاربة على ان يكون خليفتهم شريفا قرشيا لاعثمانيا قد سبب المرارة فى استطنبول وكانت علاقته باسبانيا باحسن ما يكون ولم يعد يخشى فيليب الثانى بعد هزيمة انجلترا لاسطوله الارمادا فغزوه بلاد السودان ربما تعطى فرصة لاحدهما لغزو المغرب وبصفة خاصة ميناء العرائش لذا فانه طلب من سفير انجلترا استئجار عدد من عمال بناء السفن والمراكب الانجليز لبناء نوع من السفن الحربية فى ميناء العرائش وقت انصراف الحملة إلى بلاد

السودان وكانت هذه خطة ذكية لصرف كلا الطرفين عن ميناء العرائش .

وسلكت الحملة طريقا خاصا نحو السودان عرف فيما بعد بطريق جودر بعد ان سار فيه نحو الجنوب عبر جبال اطلس إلى مقاطعة درعه حيث وجد كل ما يطلبه جاهزا وعلى اتم استعداد وبدات المسيرة واوغل فى الصحراء بعد اختراق الحدود الجنوبية لبلاد المغرب حيث وصلت إلى بلما ثم منها إلى طريق لمتونة ومنها إلى الساقية الحمراء حيث تكثر آبار المياة ثم منها إلى واحة تكوارين وتغازة ثم إلى كرير وبعد ذلك وصلت الحملة إلى تمبكتو فى جمادى الاولى عام ٩٩٩هـ بعد ان كانت تحركت فى محرم من نفس العام فيكون قد قطعت الرحلة فى شهور اربعة وكانت مرت عدة شهور لم تصل انباء عن الحملة للخليفةالمنصور حتى برز فجأة احد رجال الطوارق الذى كان يرعى جماله بالقرب من اروان على بضعة ايام شمال تمبكتو وشاهد الجيش يتجه إلى تمبكنو ولقد سر المنصور بذلك سرورا عظيما وعرف ان الحملة نجحت فى عبور الصحراء وبذلك قطعت المسافة التى تقدر بنحو الف كيلو تمر خلال اربعة اشهر بعد ذلك ان قامت بنحو ستين مرحلة .

وكان اهل سنغاى فى اشد حالات الحيطة من نيات السلطان العدائية ولكنهم كانوا واثقين من ان الصحراء سوف تحميهم كحاجز طبيعى للدفاع عنهم ولم يخطر ببالهم امكانية عبور جيش مغربى لهذه الصحراء ولذلك كانوا بعيدين عن اى استعداد. وقد سمع الاسكيا اسحاق اخبار الحملة قبل ان يصلوا نهر النيجر بفترة. وكان الاسكيا قد اتخذ قرارا حاسما لكنه جاء متاخرا حيث ارسل الاوامر إلى زعماء القبائل الصحراوية ان يطمروا الابار التى يمكن ان يستفيد منها المغاربة ولكن الرسل وقعوا فى ايدى قطاع الطرق ولم تصل الاوامر إلى زعماء القبائل مما اضاع اثمن فرصة فى يد الاسكيا وهى ردم الابار وموتهم عطشا. وقام الاسكيا بجمع قوات من بلاده والبلاد

المجاورة إلى مساندته كامارات الهوسا (كبى) ومالى والطوارق .

ورغم ان الحملة قد فقدت عددا كبيرا من قواتها اثناء الطريق بفعل الجوع والعطش والارهاق إلا ان جودر تمكن ببقية القوات ان يصل إلى تمكينو حيث ان الحملة فقدت بعض الرجال والعتاد والعدة وبعض الحيوانات .

ولقد وصلت الحملة إلى سنغاى عن طريق غير الطريق الذى كان يتوقعه اهل سنغاى ومن هنا فقد فوجئوا بها تصل إلى تمبكتو وهم لايعرفون كيفية المواجهه مع هذه القوات. حيث ان جيش السنغاى كان مكونا من عشرين الف من الفرسان وعشرة الاف من المشاة وان اغلبية الجيش كانت مكونة من حاملى الاقواس فيما بلغ عدد الفرسان وهم حملة الحراب عدة الاف. ورغم ان السنغاى مسلمون الا انهم كانوا يعتقدون اعتقادا كبيرا فى السحر. بل ان بعض المصادر قدرت عددهم بمائة الف جندى ولم يكونوا مدربين على اساليب القتال الحديثة التى اتبعته المغاربة .

واستعد الاسكيا اسحاق الثانى لملاقاة القوات المغربية فى موقع يسمى ستكى بالقرب من تنديبى فى منطقة فسيحة سهلة تقع على الضفة اليمنى لنهر النيجر حيث يحدها من الشمال النهر ومن الجنوب جبال ينجان ومن الغرب توجد بعض راوفد صغرى لنهر النيجر ودارت هذه المعركة فى هذا المكان المتسع الذى لم يبعد عن العاصمة جاو باكثر من خمسة وثلاثين ميلا حيث بدا اسكيا اسحق يقيم المتاريس فى الطريق ويستعد للحرب ومن هنا فان جودر صمم على ان يقاتلهم، وقبل ان تبدأ المعركة اراد السنغاى ان يبثوا الفوضى بين صفوف مهاجمهم بان جعلوا امامهم قطيعا كبيرا من الماشية ولكن المغربة فتحوا صفوفهم ومرت القطعان دون ان تحدث ضررا، وبدا المغاربة المعركة كعادتهم بالاحاطة بالاعداء من الجبهتين وعلى الرغم من التفوق العددى للسنغاى الا انهم كانوا ضعيفى التسلح فام يكن امامهم فرصة للانتصار امام

الاسلحة النارية والنظام الجيد الذى يتفوق فيه المغاربة .

بوما ان التحم الجانبان حتى ظهرت قوة كلا الدولتين ومقوماتها وليس العدد فعدة المغاربة البنادق والمدافع وعدة السنغاى السيوف والرماح والقسى ركبهم يرمون بالرصاص مما جعل الماشية التى ارسلها الاسكيا عندما احست باصوات الرصاص وطلقات المدافع تندفع للخلف على اصحابها ولم تدم المعركة غير يوم واحد انتهت بهزيمة اهل سنغاى وانتصار المغاربة بفضل الاسلحة الحديثة وحسن التنظيم الحديث ومن مبيدان المعركة اتجهت القوات إلى جاو لاحتلالها وكان الاسكيا اسحاق قد امر باحراق العاصمة بعد ان استماتت جيوش سنغاى فى الدفاع عن بلادهم حتى أبيد معظم افراده .

وكان دخول جودر العاصمة جاو فى ٢٠ رجب ٩٩٩هـ/ ٢٣ مايو ١٥٩١م حيث هجرها معظم سكانها ولم يبق من سكانها الا رجال الدين والعلماء والطلبة ومن لم يقدر على الخروج والهرب كالتجار، اما باقى قوات سنغاى وقوداها فقد اسرعوا بالهرب والفرار إلى قواربهم وركوب النهر ولم يستطع المغربة مطاردتهم لانهم لم يملكوا القوارب التى تسهل لهم مطاردة اعدائهم واكتفوا باحتلال العاصمة واستقبل المغاربة فى العاصمة جاو بحماس من التجار والعلماء ورجال الدين وقد ظن المغاربة انهم سيجدون مدينة جاو العاصمة مزينة ذات مبان فخمة وان استيلاءهم عليها سيكون خير مكافأة لهم بعد سيرهم الشاق المضنى فى الصحراء ولكنهم وجدوا بدلا من ذلك مجموعة من الاكواخ المبنية بالطين على مثال المبانى السودانية وليس هناك من اثر لثروة كانوا ينتظرونها. بل ان مسكن الملك لم يكن ليتميز كثيرا عما يحيط بالقصر من اكواخ هذا إلى ان السكان كانوا قد حملوا معهم ما ظنوه ذا قيمة للمغاربة .

ولما وصلت بشرى النصر إلى مراكش اقيمت الافراح وكتب المنصور إلى الجهات المختلفه يزف اليها النبأ العظيم ومن ذلك الرسالة التى أرسلها من مراكش يوم الجمعة

السابع من شعبان ٩٩٩هـ/ ٣١ مايو ١٥٩١م وقد تضمنت اخبارا عن الحملة التى حققت النصر وكان جودر قد كتب إلى المنصور بخير الفتح فبعث اليه بهدية فيها عشرة الاف مثقال ذهبا ومائتان من خيار الرفيق .

وفتح اسكيا باب المفاوضات مع جودر وارسل وفدا سودانيا إلى العاصمة ليعرض الصلح عليه مقابل الاعتراف بطاعة المنصور والتعهد بارسال الخراج السنوى، وكان انسحاب اسحاق الاول إلى الداخل قد جعل لكل من القائدين فترة من الوقت يتمتع بها فقد عرض اسكيا الصلح والمهادنة مقابل اموال يؤديها للمنصور بعد اقتناعه بفشل المقاومة وجودر باشا وجد فى ذلك فرصة لاراحة قواته واعادة تنظيمها فقبل الهدنة على ان يترك المغاربة البلاد على ان يكون للمغاربة وحدهم حق تصدير الملح والاصداف إلى بلاد السودان لانها كانت وثيقة الصلة بتجارة الذهب وكان عرض اسحاق الاول سخيا جدا وقبول المغاربة له يعطيهم سيطرة تامة على الحياة الاقتصادية للسودان الغربى وكان هم اسحق الاول ان يجنب بلاده احتلالا عسكريا ربما يكون عبئا ثقيلا لا يمكن لشعبه احتماله وقد يصبح التخلص من السيادة المغربية فى المستقبل امرا مستحيلا .

ويبدو ان الظروف قد اجبرت جودر باشا ومن معه على قبرل الهدنة والمفاوضات وذلك للتعب الذى حل بالقوات المغربية من طول المسافة وخوض المعارك والامراض. وقبل الباشا جودر العرض لساعته اذ كان يملك السلطة الضرورية لذلك حيث كان المرض قد تفشى بين افراد جيشه ومات عدد كبير منهم فكانت رغبته الوحيدة ان يعودوا ادراجه باسرع مايمكن وابرام عقد الصلح على شرط قبول مولانا احمد المنصور. ثم تراجعت القوات المغربية من جاو العاصمة إلى تمبكتو وارسل عقد الهدنة إلى الخليفة السعدى. ومعها رسالة عما فيها قاساة الجيش فى عبور الصحراء .

وظلت حالة الجيش المغربى فى تدهور ففى مدى اربعة عشر يوما مات اربعمائة

ومرض الباشا نفسه وضرب المرض بسهمه فى الاواب التى كانت تعتمد عليها الحملة وهى العمود الاساسى لتحركات الجيش حيث انه لايستطيع الحركة بدونها وكانت تمبكتو افضل كثيرا من جاو وحيث الجو احسن حالا من العاصمة وكان مبعث الراحة فى نفوس المغاربة وجود مسجد سانكورى الجميل الذى كان لايزال يسمو على كل شئ آخر. وكان جو تمبكتو يدعو إلى الراحة النفسية اذ كانت العاصمة الثقافية لبلاد السودان وملجأ الطلاب من بلاد بعيدة وطلابها كتجارها افضل ما فيها حيث لم يكن لديهم ما يخشونه من المغاربة فقد بقى التجار والعلماء والطلاب فى المدينة كما سبق القول ولم يهربوا إلى الصحراء، لذا وجد المغاربة الحياة التجارية الثقافية هادئة لم يصبها ادنى اضطراب ومظاهر الحياة عادية لا ينقصها ادنى متطلبات .

ولما وصل رسول جودر باشا إلى مراكش حاملا شروط الصلح نقم عليهم المنصور ولم تحدث الرسالة سرورا لدى السلطان، بل لم يرض عن الشروط التى عرضها الاسكيا اسحق وانتقد بشدة عدم ترك جودر حامية فى جاو وعدم أخذه رهائن من اسحق فصمم المنصور على ان يبدله بقائد آخر اقل منه تساهلا واكثر حزما وكان ذلك القائد الجديد محمود باشا زرقون وعينه على راس القوات المحاربة وترك لجودر مهمة ادارة شئون البلاد المفتوحة، وقد وصل زراون على وجه السرعة وتسلم مهمته لكنه كان من الواضح ان فقد الرجال والعتاد فى البلاد قد يستنفذ موارد الدولة .

وقد انقسم الراى فى مراكش إلى ما حققته غزوة السودان إلى آراء مختلفة اذ راى الشعب املا فى ضم هذه الديار إلى خطيرة الاسلام سيساعد على قوة الحركة الجهادية ضد اعداء البلاد والدين، وهناك فريق راى ان السيطرة على البلاد قد تضربالتجارة والاقتصاد والنواحى الثقافية والحضارية لاسيما ان استمرار الوجود المغربى فى البلاد سوف يحتاج إلى حامية كبيرة وتحصينات مستمرة لمقاومة الخسائر التى

لايمكن تجنبها سواء من انتشار الامراض المعدية او لمخاطر الحروب الاخرى. فقد دلت تجربة هذه الحرب على معظم الخسائر فى مثل هذه الاحوال كانت من الامراض والحرب كما ان الحاجة ستكون ماسة إلى حمل السلاح الدائم لكن المنصور الذى كان يرى فى فتح بلاد السودان حماية لهذه الديار من التعرض لخطر السيطرة الاوربية ومنعا للالتفاف من خلف ظهره وعملا على تدعيم الوحدة الاسلامية وبناء كيان كبير يخضع للخلافة السعدية والاستفادة من موارد البلاد وثرواتها من اعداء دولة كبرى تماثل امبراطوريات الاتراك العثمانية والاسبان، لكن التجار كانوا يعارضون استمرار الغزو خوفا على مصالحهم لانه ربما يكون تصميم الخليفة السعدى المنصور إلى الوصول إلى اهدافه قد يؤدى إلى خراب الاقتصاد فى سنغاى ونضوب موارد الذهب لاسيما اذا تدخلت الدولة فى شئون التجارة حيث انه من الطبيعى ان تكون التجارة هى موضع الاهتمام الاكبر للتجار. ففى الماضى كان الزنوج مستعدين دائما ان يبادلوا بذهبهم الملح ومواد التجارة التى ترد من بلاد ما وراء البحر المتوسط (البلاد الاوربية) .

وقام محمود رزقون بالدخول فى قتال عنيف مع اسكيا اسحاق مما اضطره إلى الفرار من العاصمة والدخول إلى بلاد الوثنين فى الجنوب الذين قتلوه هو وحراسه وبقية اسرته وهكذا سقطت دولة الاساكى على ايدى القوات المغربية السعدية ودخلت البلاد فى طاعة الخليفة المنصور السعدى ما بين البحر المتوسط حتى الغابات الاستوائية وبالسيطرة على سنغاى فقد ظهرت دولة اسلامية كبرى كان على المنصور ان يقودها بحنكة ودراية للاستفادة من هذا الفتح لكن متطلبات سنغاى وما كانت تحتاج اليه من موارد كبيرة وقوات كثيرة وطرق المواصلات الصعبة وعدم تلاحم البلدين ووجود الصحراء الواسعة التى يستغرق عبورها اربعة اشهر وما تلاقية القوافل فى الطريق ووقوفها عقبة كداء فى طريق التلاحم الاسلامى والبناء القوى للوحدة المغربية السودانية التى

كان يهدف اليها المنصور لكن بعد فتح بلاد السودان اصبح المنصور الخليفة الوحيد فى جميع هذه البلاد مما زاد من مكانته ومركزه الدينى والسياسى على السواء. ولقد كان تاثير الفتح واضحا لما وصلت اليه البلاد من الرخاء والرفاهية وقد ارتفعت عملة بلاده وتسابق التجار على التعامل بالدينار المنصورى. ورغم القضاء على السلطه الشرعية فى البلاد واحتلالها والقضاء على سلطانها الفعلى الا ان المغاربة عجز واعن ادارتها وضبطها. كذلك فانهم لم يتمكنوا من اكتساب ثقة اهل البلاد طوال الفترة التى خضعت فيها البلاد للنفوذ والحكم السعدى الشريف مما ادى إلى ظهور بوادر التفكك والانهيار فى بلاد السودان لاسيما وانه كان للعلماء دور بارز فى الحياة السياسية والتاثير على مجريات الامور وكان ذلك من اسباب بطش محمود بن زرقون باكبارهم وشيوخهم حتى يتمهد الامر للحكم المغربى .

ولقد ساعدت على بسط النفوذ المغربى بسرعة فى البلاد ذات الطابع من الفوضى الذى طبع الحياة اليومية وذلك من أثر الصراع المرير من اجل العرش وقد انعكس ذلك على حالة الامن العام وعلى النشاط الزراعى والتجارى وعلى الصيد اذ خاف المزارعون والتجار والصيادون على نشاطهم وكان الحكام طغاة يحاولون ان يجمعوا فى الفترة التى يقضونها فى الحكم ما يمكن جمعه وكان الوباء الذى حل بمدينة تمكيتو من اثر انتشار مرض الطاعون من اسوا الكوارث التى حلت بالبلاد منذ عام ١٥٨٣م. ولقد قال محمود كعت التكبكتى صاحب تاريخ الغتاشى واصفا ما قال عن اثر الحملة السعدية فى بلاد سنغاى جبر الله كسر بتمكينو وكثر قراءها من كوكبا إلى جنى وجمع شملها وأقامها أتم قيام وعمرها وافاض الله البركة فى برها وبحرها فى أوائل دولة جيش مولانا احمد المنصور واكثر الخير فيها حتى كاد الناس ينسون دولة سنغاى .

وهذه شهادة من مؤرخ دولة الاساكى حكام سنغاى وهو من أهل الديار واعترافه

بفضل الحملة السعدية يدحض كل الاراء الباطلة والمقولات الكاذبة التى سار عليها مؤرخو الغرب وما رموا به الحملة المغربية باقوال فرية المقصود بها الاساءة إلى كل عمل اسلامى وعلى المحلل العلمى الدقيق ان ياخذ دائما فى الاعتبار ما ترمى اليه اقوال مثل هؤلاء المؤرخين المفرضين الغربين الذين روا فى الفتح الاسلامى المغربى لبلاد السودان سدا يحول دون تحقيق اهدافهم بالاستعمار والتبشير بالدين المسيحى. لاسيما ان فتح بلاد السودان قد تبعه وصول جماعات كبيرة من العلماء المغاربة للتدريس ولاسيما فى جامعة سانكرى والدعوة للاسلام واصلاح المفاهيم الخاطئة عن الاسلام وبناء المدارس الاسلامية والمساجد في المدن الكبرى ولقد أرسل المنصور أثر وصول أول بشرى بالنصر مع محمود زرفون ستين عالما وفقيها مغربيا مهمتهم الدعوة للاسلام وليس لاستيراد الذهب ونهب مصادر البلاد كما صور ذلك يوفيل وغيره من كتاب الغرب بل ان الاعمال الانشائية انطلقت في طول البلاد وعرضها ووصل المهندسون والبناءون من المغرب لبناء المبانى الحديثة والمساجد وديوان الحكومة على احدث طراز معمارى فى المغرب واستعان بالاندلسين وكان نصف الحملة الاولى تنهض بتعمير سنغاى وادخال احدث الاساليب فى الادارة والزراعه والصناعة والتعليم وافساح المجال امام الخبرات المغربية للاسهام فى الرقى بالمجتمع السنغائى بعد انضمامهم إلى اخوانهم بالمغرب .

ولقد حقق المنصور هدفه فى السيطرة على بلاد السودان الغربى باعتبار ان واجب الخلافة الاسلامية يلقى عليه مسئولية الدفاع عن ديار الاسلام بمقتضى ان يضع يده على مقدرات المسلمين وخبرات ارضهم لغرض النهوض بمهمة الجهاد الاسلامى باعتباره خليفة لرسول الله ﷺ فواجبه ان يجاهد فى سبيل الاسلام وان يتبعه المسلمون فى ذلك قادة ورعايا باعتباره القائد الاوحد الذى يفرض عليه ان يحمل المسلمين على

الوحدة باللين او بالشدة واعتبار المنصور نفسه الخليفة الوحيد للمسلمين بالنظر لانقراده بين ملوك المسلمين وامرائهم بالنسب الهاشمى القرشى مصداقا للحديث الشريف الائمة من قريش ابرارها بسرارها وفجارها امراء فجارها وخاصة عندما برزت قوة المغرب السياسية والعسكرية والاقتصادية فالمنصور كان يرى نفسه خليفة مستمدا سلطة الخلافة من نسبه .

وهكذا تحققت مخططات المنصور الواسعة رغبة فى الجهاد والاستظهار على عدو الدين وفتح الاندلس والاقطار البعيدة لاسيما وان اجداده وآباءه اقاموا الدولة السعدية منذ نشاتها كدولة قامت على الجهاد ومن هنا فكان عليه ان يواصل مهمة الجهاد بجد ومثابرة واعطاء ذلك الاولوية المطلقة لاسيما كرد فعل على سقوط الاندلس والرغبة فى العودة عن طريق الكفاح تساوى فيها ابناء الاندلس المهاجرون والمغاربة لاسيما وان حركة الجهاد الاسلامى بضم بلاد السودان قد حققت احدى الظواهر التى اختلطت فيها السياسة بالدين وبالوطنية خلال العهد السعدى لاسيما وان الدولة قامت على هذا العنصر المهم من احترام الشعب والالتفاف المتعاظم حول الشرفاء المجاهدين .

وقد استعاد ملوك السعدين الشرفاء من هذا المد العاطفى فى توجيه الحملات العسكرية وخاصة منها ما وجه إلى بلاد السودان حيث قيل دائما ان هذه البلاد تعج بالوثنيين وتحتاج إلى من يرشدها إلى طريق الاسلام والدعوة الاسلامبية وكان هذا هو المغزى الحقيق وراء هذه الحملة وليس غيره من الاهداف المادية الاخرى. واستغل المنصور ما كانت تلقاه كلمة الجهاد من قبول واقبال فى كسب التاييد لتحركاته الخارجية وكان فتح السودان نصرا مؤزرا ولذا كانت مداهمة بلاد السودان لنشر الاسلام وتعميق مفاهيم الدعوة الاسلامية والحصول على الدعم المادى والبشرى لاسيما تجنيد السودان فى الحربية والاسطول وقصر جلب الاموال لتجهيز الجهاد فى اسبانيا وللمرابطة

على المسيحين قبالة الساحل الاوربى ولادخال عقيدة الاسلام إلى الوثنيين الذين تضمهم دولة سنغاى والاقاليم المجاورة لذا فان حملة جودر ضمت كما سبق القول اشخاصا مؤهلين للقيام بالدعوة الاسلامية دائمة ووعاظ للجيش نفسه وهم الذين رافقوهم فى رحلة اختراق الصحراء الصعبة، بل ان معظم الجنود كانوا اندلسين غيورين على الاسلام بعد ان فقدوا ديارهم واوطانهم وكان حماسهم للاسلام شديدا بالقدر الذى يؤهلهم للقيام بالدعوة إلى تعاليم الدين الاسلامى الحنيف ولقد انتشر الاسلام انتشارا واسعا على ايدى رجال الحملة المغربية ومن ذلك فى منطقة مسينا غرب سنغاى وامارة تاندريما حيث كان المغاربة يجدون بعض سكانها على الوثنية لذا تعمدوا ان يجعلوا مقدار الجزية كبيرا وذلك لحمل الناس على الدخول فى الاسلام وقد نجحت هذه الوسيلة فى دخول الناس افواجا فى الدين الحنيف (المؤلف المجهول نذكره النسيان فى اخبار ملوك السودان ص ٢٣) كذلك فان الدعوة الاسلامية اثرت فى بلاد الموشى بعد ان بث الجيش المغربى الدعوة الاسلامية وحمل الناس على اعتناق الاسلام حيث انه كان واجب الدعوة هو العمل الحقيقى لرجال الدين الذين صاحبوا الحملة وكذلك رجال الجيش المغربى بل ان ترك الجيش إلى مثل هذه الجهات كان ياخذ شكلا دينيا ويكون ذلك عند صعود المؤذن او المنادى على ظهر الجامع او اى بناء مرتفع وينادى فى الناس ويحدد مكان الفرقة ومكان الاجتماع وتعتقد ان هدفا دينيا ونفسيا كان يكمن وراء مثل هذه المظاهر مما يدفع الناس إلى الدخول فى الاسلام. وهكذا كان هدف نشر الاسلام فى بلاد السودان من العوامل الرئيسية التى حركت همة المنصور لقتال النظام واخضاعه (احمد المغربى، بداية الحكم المغربى فى بلاد السودان الغربى ص ١٣٢– ١٣٣) .

كما لايمكن ابدا انكار ان الحملة المغربية قد نجحت كل النجاح فى مقاومة

حركة التبشير المسيحى فى بعض الجهات الافريقية لاسيما وقد تسرب بعض المبشرين الاوربين المسيحين إلى داخل الاراضى السنغالية انطلاقا من المستعمرات المسيحية الساحلية واقنعوا بعض القبائل بالدخول فى المسيحية ويبدو ان اخبار نشر المسيحية بين هذه القبائل قد وصلت إلى المنصور بدليل وجود رسالة كتبها لاحد عماله يخبره فيها بان الفتح لما انتهى فى الجيوب إلى من يليهم اى قبائل سنغاى وجد ان هناك قبائل قد اعتنقت المسيحية ففاوضها المغاربة الفاتحون فى امر التخلى عن ذلك وهكذا فان نشر الاسلام قد كان من بين خطط المنصور السودانية الكبرى وليس الحصول على الذهب- وان ما قام بها جنوده قد خدم هذا الهدف كذلك فان كثيرا من العادات والتقاليد والمراسم المغربية قد انتقلت إلى بلاد السودان. وخاصة الاحتفال بالمولد النبوى الشريف وختم القرآن الكريم وصحيح البخارى ومسلم فى ليالى رمضان وذبح اضحية عيد الاضحى وترتيل الامداح النبوية لليلة القدر وقد اهتم المغاربة وباشوات السودان بهذه المظاهر الاسلامية والسلوكيات التى تتلائم مع التعاليم الاسلامية، كذلك بالنسبة لمدينة ديبى عاصمة اقليم مسينا مثلا الواقع قرب سنغاى وهو من الاقاليم التى لم تكن تخضع لحكم السنغاى قبل قدوم المغاربة وفقد تقدمت العقيدة الاسلامية بها والانتشار الاسلامى بشكل سريع بسبب دور العلماء لاسيما وان السيطرة المغربية قد ركزت مجموعات متفقة اشتغلت بالعلم والتجارة الدائمه فى المدينة وضواحيها وقد حققت تلك المجموعات شيوع التعاليم الاسلامية والعادات والمراسم الدينية على وجهها الحقيقى وتلقين دروس الدين الاسلامى وشئون الشريعة والفقه والادب العربى وانتشار اللغة العربية واللسان العربى (وجهه نظر غربية مؤلف مونتيل) ولقد حاول بعض المؤرخين الاوربين الاساءة إلى احمد المنصور على اعتبار انه كان رجلا استعماريا يهدف إلى بناء امبراطورية بغض النظر عن اى اعتبار آخر وانه كان يفاوض الانجليز او الفرنسين فى موضوع احتلال الهند واسبانيا، ولكن المنصور كان يضع نصب عينه

اضعاف اسبانيا واستعادتها لأنه كان مصمما على اعادة الحكم المغربى والاسلامى والمسلمين اليها .

ومما يثبت وحدة الهدف الاسلامى عند المنصور بعد فتح بلاد السودان تلك المسالة التى كتبها إلى الملكة اليزايت ملكة انجلترا يقول لها فيها ان تلك الاقاليم ازدادت فى الامبراطورية المغربية فى قوة جديدة للحلف المغربى الانجليزى وهذه الممالك السودانية ازدادت بحمد الله ملكنا ونظمها الفتح الالهى، لكن بريطانيا (انجلترا) تراجعت عن هذا التحالف لانه ربما يؤدى ذلك إلى احداث رجة فى البلاد الاسلامية الاسيوية وبعث الوحدة الاسلامية بشكل غير مرغوب فيه عند المسيحين. ولقد كان السلطان السعدى يعتقد ان استعمار الهند المتاخمة لبلدان اسلامية كثيرة سوف يقوى مركز المغرب ويجعل هذه الدول الاسلامية تتحالف مع جيش المغاربة المسلم الذى يوجد على راسه خليفة شريف ويساعده على اعادة فتح الاندلس ومن ثم فان جيوش المسلمين قاطبة حينئذ فتسرع إلى النهوض بهذا العرض الجهادى وهو تحرير الاندلس الذى كان الشغل الشاغل للخليفة السعدى .

ولقد حققت الحملة السعدية على بلاد السودان اسمى اهدافها ايضا بالقيام بالعمل الوقائى والذى يرمى إلى منع العثمانين من الوصول إلى بلاد وسط افريقيا وشل حركة المستعمرين القائمين فى غامبيا ومنع القوات المتواجدة من التوغل شرقا والوصول إلى مصادر الذهب والملح وبالتالى منع اى امتداد نحو المغرب فى المستقبل وهكذا نجح المنصور فى دفن الاطماع التركية الذين كانوا قد أمدوا الماى ادريس الوما سلطان برنو بالاسلحة وكانوا يمهدون للسيطرة على وسط افريقيا (راجع رسالة الماجستير للمؤلف- سلطنة البرنو الاسلامية جامعة القاهرة، ١٩٧٥) وكذلك الاطماع البرتغالية إلى الابد والتحكم فى تلك الاطماع اذ ما قدر لها ان تبعث وتنطلق من جديد ونجحت الخطة

فى منع القوتين بشكل مباشر او غير مباشر فى التحرك إلى بلاد السودان ووقف زحفهما إلى تلك البلاد .

وهكذا كان نجاح احمد المنصور بمشروع فتح بلاد السودان قد اعطاه المظهر الاسلامى بانه الخليفة المسلم الذى يقوم باحدى واجباته الدينية المقدسة، وان فكر المنصور كان بمتد إلى الوصول إلى برنو وكانم وصولا إلى كل بلاد المغرب من الجزائر إلى مصر وتمركزه على امتداد الشريط الصحرواى الذى يحد تلك البلاد جنوبا ولقد كان المنصور مفكرا ومخططا ذكيا يهدف إلى غايات اوسع من السيطرة على بلاد سنغاى والاقاليم المجاورة له .

ومهما تكن النتائج التى حققها الفتح المغربى للسودان الغربى والتى وصل اليها المنصور من تحقيق الروابط الاسلامية والدينية والسياسية والتى ربما لم تعمر طويلا بعد وفاة المنصور ولم يقم الخلف الذين سؤل اليهم مقاليد الامور على الحفاظ على هذه المكاسب التى حققها المنصور بالحملات التى تحملت الصعاب الا انه حقق نجاحا باهرا وضع فيه حاجزا بمنع اختراق حدود سنغاى الشرقية وجعل اسم احمد المنصور خليفة الاشراف السعدين فى المغرب وما يحمله هذا الاسم سليل الدوحة النبوية من الهيبة والقوة الروحانية إلى كل اذن افريقى فى هذه الجهات وعمل ذلك على امكانية استغلال هذه الشعوب باسم الجهاد الاسلامى لمجاهدة الممالك المسيحية والتى ربما كانت فى الاقاليم المجاورة وقطع كل آمل وراء المخططات التى تريد بديار الاسلام الشر ونشر عقيدة غير اسلامية .

وهكذا تمكن المنصور فى ادخال هذه البلاد فى طاعة السعدين الاشراف وانتشار الدعوة للخلافة القرشية السعدية فى اقطار السودان كلها لانها اولى بمعرفة قدر الخلافة وشرف اثارها واحقيتها بقيادة المسلمين فى كل جهة من جهات العالم

الاسلامي ومن هنا فقد ترك الفتح المغربى القرشى العربى الاسلامى بصماته الواضحة القوية فى شتى المجالات الحياتية فى بلاد السودان وكان له مآثر عظيمة حاول كتاب الغرب التهوين من آثارها وطمس الحقائق حول الدور الباهر الذى تركه الحكم السعدى لاسيما وان فترة حكم باشوات المغرب لهذه الانحاء قد زاد عن قرن ونصف من الزمان كان له الفضل كل الفضل فى نقلة حضارية كبرى شهدتها هذه البلاد فى ظل الحكم المغربى بحيث حظيت المجالات المختلفة بالاهتمام الكبير من قبل الحكام الذين اولوا جل اهتمامهم لكل النشاطات العملية والفكرية والثقافية والعمارية والاجتماعية والصناعية والزراعية والاقتصادية وبدات معالم الحياة تاخذ بعدا آخر مغايرا لما كان عليه الحال وقت حكم الاساكى فقد عمل المغاربة على صبغ هذه الانحاء بالصبغة المغربية ولم يأل جهدا فى تنفيذ المشروعات الكبرى التى من شانها ان تعود بالنفع على الشعب السودانى ما دام قد ارتبط مصيره بالوحدة المغربية الاسلامية واستقرت الاعاد الكبيرة من الجنود المغاربة الذين سقط مصيرهم فى هذه البلاد وكان عليهم وعلى من ياتى من جند جديد من المغرب ان يتواءم مع طبيعة الحياة الجديدة وان يذوب فى المجتمع السودانى الاسلامى حيث ان الاسلام لا يفرق بين الالوان والاجناس ومن هنا فان المغاربة الذين قدموا ذابوا فى المجتمع السودانى وتزوجوا من السودانيات وباشروا حياتهم العادية بين مواطنى هذه البلاد لاسيما لان هناك اعدادا كبيرة من الحرفين والصناع والعلماء والاطباء قد رافقوا هذه الحملة وكان يقع عليهم العبء الاكبر فى العمل على نقل البلاد نقلة حضارية كبرى والاخذ بيدها إلى مدارج الرقى والتحضر والاخذ بالاساليب الحديثة والعصرية ونقل مفاهيم الحضارة الاسلامية الراهنة والانتقال بالانسان السودانى فى ظل المتغيرات المغربية من حالة سكنى الاكواخ والبيوت المبنية بالطين والقش إلى البناء الحديث العصرى والاعداد وفتح العديد من المدارس والجامعات والاهتمام ببناء الانسان السودانى ودفعه إلى مزيد من التطلع إلى فنون جديدة وتجديد

الوجه الحضارى والثقافى للسودان بعد ظهور عوامل جديدة واصبحت الطرق مطروقة والقدوم سهلا وميسورا لابناء المغرب مما سهل عليهم التحرك باعداد كبيرة لاسيما وان الخليفة المنصور السعدى شجع جميع طوائف الشعب المغربى على الانتقال جنوبا دعما لروح الاخوة الاسلامية وعملا على ترسيخ قيم اسلامية جديدة وربط بلاد السودان بمعالم الحضارة الحديثة والاخذ بالاساليب المتطورة فى شتى نواحي الحياة، لاسيما ان صلة الربط كانت مباشرة بين بلاد السودان والمغرب وزاد الاهتمام بالبريد حيث كان البريد هو صلة الربط الوحيدة لاسيما للاطلاع على مجريات الامور بالبلاد ومتابعة كل صغيرة وكبيرة ولقد اولى المنصور اهتماما خاصا بهذه الوسيلة وقسم المسافة إلى تمكينو والى مراكش إلى عدة مراحل وجعل على خدمة البريد مجموعة من الجنود تنحصر مهمتهم فى نقل البريد من المغرب إلى بلاد السودان والعودة منه ولقد كانت الرحلة ما بين مراكش وبلاد السودان يقطعها رجال البريد فى فترة لاتزيد عن اربعين يوما للذهاب إلى مراكش والعودة إلى بلاد السودان ولقد كانت هذه فترة قياسية اذ كيف يقوم رجل البريد بقطع مسافة قطعتها قوات جودر فى اكثر من مائة وخمسة عشر يوما يقطعها رجل البريد فى عشرين يوما فقط بالاضافة إلى انه كان يقضى وقتنا فى مراكش حتى تكون المراسلات المرسلة إلى السودان جاهزة للاعداد .

وعلى اية حال فان الذين حاولوا ان يطمسوا معالم الدور العربى فى بلاد السودان وان ينقصوا من الدور الرائع الذى لعبه المغاربة انما كانوا يخدمون اهدافا استعمارية تبشيرية للاساءة للفترة التى كانت فيها البلاد فى ظل الحكم السعدى الشريف سواء الاشراف السعدين، والاشراف العلوين وذلك بشان مؤرخى الغرب فى محاولة الانقضاض على كل عمل اسلامى من شانه ان يقوى روح الوحدة والتضامن وللعمل الاسلامى المشترك البناء لما فيه خير الاسلام والمسلمين وتصويره على انه انهيار وليس تقدما .

(ب) مآثر الدور المغربى فى بلاد السودان
١٥٩١- ١٧٦٠

لقد اولى المغاربة اهتمامهم الاكبر فى بلاد السودان بترقية الفرد السودانى وبنائه علميا وفكريا وثقافيا وحضاريا واعطوا اهتمامهم الاكبر بالجانب الاسلامى العلمى وصقل مواهب ابناء الشعب السودانى، ومن هنا عملوا على ارسال العديد من العلماء ورجال الدين والفقه والشريعة والمدرسين والمساعدة على انتقالهم وانتقال الكتب والمكتبات والورق والوراقين ومن هنا توالت هجرة العلماء المغاربة فى ظل الحكم السعدى والعلوى ولاسيما ان الحياة الثقافية والفكرية قد واصلت تقدمها وتطورها. واذ كان حاكم السودان محمود زرقون قد انزل بالعلماء ورجال الدين السودانين ضربة مؤلمة بترحيلهم إلى المغرب، فان الثقافة العربية الاسلامية كانت من العمق والانتشار بحيث تابعت طريقها ومسارها الطبيعى لاسيما بعد ان استئناف المدرسون والاساتذة والعلماء دروسهم ومن هنا تركت الحركة الفكرية مآثرها الفريدة على اوجه الحياة اليومية .

ولقد ساهم العلماء المغاربة مساهمة فعالة فى الحركة العلمية واخذوا يشجعون روح البحث العلمى والفوا فى كثير من المواضيع وامتاز نشاطهم العلمى بتخرج اعداد كبيرة من الطلاب على ايديهم فاغنوا المكتبه السودانية بالجديد والطريف فى شتى الموضوعات وكانت المؤلفات المغربية فى بلاد السودان يتهافت التجار على بيعها فى مكتبات تمبكتو وجنى وجلو وغيرها من المدن الكبرى فى بلاد السودان. كما ان وفود الاعداد الكبيرة من العلماء ورجال الجيش والادارة والحكم قد ساعد على تطور اللغة العربية التى لم يدخل عليها المدرسون المغاربة الجدد الجزالة وياخذونها بالتبسيط فقط ولكنهم فوق ذلك لم يتورعوا عن ادخال بعض التعابير من اللهجة المغربية الدارجة الامر

الذى جعل هذه اللغة واسطة مهمة وفعالة فى التبليغ للدعوة الاسلامية ونشر تعاليم الاسلام في يسر وسهولة وكذلك قام الائمة ورجال الدين فى المساجد بعد ان اجاز لهم العلماء ورجال الفتيا للمدرسين ان يتحدثوا للمسلمين باللهجات المحلية فى امور الدين والعبادات واصبح شيئا مالوفا فى كل المساجد ان ينهى الفقية حديثة ويلقى خلاصته باحدى اللهجات المفهومة ثم يقوم المترجم بنقل ما القاه باللغة السنغائية .

ولقد حظى التعليم بنوع خاص من المغاربة بصورة لم تكن معروفة من قبل واتيح التعليم لكل فئات الشعب السودانى فلم تعد المدارس وقفا على ابناء العلماء انفسهم وعلى عدد قليل من الطلبة يتفق القاضى عليهم من الوقف، بل اصبح التعليم مفتوحا امام كل راغب فى التعليم سواء فى الكتاتيب او الجوامع او المدارس او الجامعة الكبرى جامعة سانكرى (انظر كتاب حركة المد الاسلامى فى غرب افريقيا للمؤلف. جامعة سانكرى فى قلب القارة الافريقية ص ٢١٤- ٢٢٢) بل اصبح التعليم بجميع اطواره مفتوحا امام كل راغب وتكفلت الادارة المغربية بجميع نفقات وتكاليف مراحل التعليم المختلفة وبالطلاب الغرباء والاساتذة. وقد ذكر عبد الرحمن السعدى فى كتابه تاريخ السودان. ان مدينة تمبكتو فى بداية الحكم المغربى قد اضحت تعج بالعديد من الطلاب الذين كان بعضهم يهاجر من اقصى الغرب الذى كان محروما من التعليم ومن بلدان افريقية اخرى وتم تنظيم مراحل التعليم وهذا التقسيم لم يكن متعارفا عليه قبل قدوم المغاربة فقد اصبح التعليم تعليما ابتدائيا ومتوسطا ومتخصصا واعطيت اجازات علمية فى بداية العهد المغربى وشهدت البلاد توسعا فى حركة التاليف والوراقة اذ اننا نجد بالقرب من جامعة سانكورى او سانكرى كانت توجد حوانيت الوراقين على جانبى الطريق والتى كانت تباع بها الكتب المنسوخة والمخطوطة للطلبة ورجال العلم والدين وكانت جلها من التآليف الجديدة فى نسخ متعددة او فى هوامش جديدة وشرح لكتب

قديمة وذلك لغرض بيعها فى السوق المحلى او تصديرها لجهات بعيدة فى بلاد الهوسا او برنو، او مالى او الاقاليم المجاورة لسنغاى بعد ان شع نور العلم والتعليم فى هذه البلاد واصبحت قبلة العلم والعلماء وكعبة لطلاب العلم من كل انحاء الديار السودانية بل انه اصبح من المشاهد المعتادة رؤية فقيه او عالم اسلامى يملى على الكتبة فصولا من كتاب ولا ينتهى من املائه الا وكان للوراق عدة نسخ من هذا الكتاب وهكذا كان العهد المغربى السعدى دافعا للحركة العلمية والتعليمية فى سنغاى شهد به ابناء الاقليم وعلى راسهم عبد الرحمن السعدى فى كتابه تاريخ السودان بل ان الفتح المغربى لبلاد السودان قد ساعد على ظهور نوع جديد من العلماء اهتم بجانب الدراسات التاريخية وتسجيل الاحداث وهو ما لم يكن موجودا قبل الغزوة المغربية فقد ظهر مؤرخون سودانيون وصفوا تاريخ المنطقة بانفسهم وكان لهم الفضل كل الفضل فى معرفة تاريخ السودان وبصفة خاصة احداث تلك الفترة ومنهم على سبيل المثال احمد فراطو عن تاريخ برنو وعبد الرحمن السعدى عن تاريخ السودان ومحمود كعت عن تاريخ الفتاش والمؤرخ المجهول عن تذكره النسيان وبرز كتاب التراجم وعلى راسهم احمد بابا التمكينى اضافة إلى تنوع الاعمال الاخرى فى الاصول والتفسير وعلوم الدين والفقه وعلوم الشريعه والدين وعلوم اللغة العربية كالنحو والصرف والبلاغة والبيان والعروض وظهر الشعراء والادباء وبدات الحركة الفكرية تؤتى ثمارها المرجوة بفضل انفتاح الباب امام علماء المغرب للرحيل إلى الجنوب بصورة جماعية بعد ان كانوا افرادا قبل الفتح المغربى ورحيل علماء بلاد السودان إلى المغرب للاطلاع على مراكز العلوم والحضارة والثقافة فى مراكش وفاس واغمات وسجلماسة وغيرها من بلاد المغرب. وقد عاد هؤلاء إلى بلادهم بعد ان كانوا قد اطلعوا على فنون جديدة وعلوم لم يكن قد اخذت طريقها للمعرفة من قبل فى بلاد السودان .

ولقد تعاون السودان فى تلك الحقبة الزمنية (١٥٩١- ١٧٦٠م) بقدر واسع فى اثراء حركة الفكر العربى الاسلامى ودفع الفكر الاسلامى والثقافة العربية إلى جهات اوسع وابعد فى القارة الافريقية وصولا إلى وسط القارة وسواحل بنين والا كن والجوكون حيث المناطق الجنوبية التى لم يكن للحركة الاسلامية ان تصل اليها الا بفضل الوجود المغربى المكثف فى بلاد السودان واسبغ علماء السودان (احمد بابا، محمود كعت، عبد الرحمن السعدى، وغيرهم من علماء هذه البلاد على حركة الفكر الاسلامى والتعليمى دورا لا يقل شانا عن غيرهم من علماء الشرق الاسلامى والمغرب ذلك لان مؤلفاتهم قد اخذت طريقها للتدريس بين ايدى الطلاب فى جامعات المشرق والمغرب، بل ان بعضا من هؤلاء الاساتذة السودانين مارسوا تدريسهم فى جامعات المغرب احمد بابا، عبد الرحمن السعدى فى جامعات القروين وفى الجامعة المصرية الازهر فى ذلك الوقت) بل ان عديدا من الاساتذة السودانين قد تضلعوا فى علوم التفسير الحديث مما جعلهم يقومون بتدريس هذه المواد فى جامعة الازهر .

لكن رغم ما استجد من علوم دراسية لم تكن معروفة من قبل الا ان علوم الشريعة الاسلامية بفروعها المختلفة وعلوم اللغة العربية ظلت هى الاساس فى الحركة العلمية والتعليمية فى السودان خلال فترة الوجود المغربى فى بلاد السودان، بل ان هذه العلوم كانت جميعها تدور حول المذهب المالكى الذى كان هو مذهب هذه البلاد والذى قدم اليها من المغرب وقد ساد المغرب والسودان معا ومن هنا حرص اهل السودان على اتباع تعاليم هذا المذهب والاخذ بها فى جميع مناحى الحياة اليومية ولقد التزمت المدرسة الشرعية السودانية بقالب معين فى الفكر الشرعى لم تحاول الاخذ باسلوب العرض والتحليل والاجتهاد مما اصاب هذه المدرسة بالقصور واتهمت بالمعرفة السطحية لاغراض العلوم الشرعية .

ولقد حفلت الحياة العلمية بالعديد من العلماء السودانيين الذين ساهموا فى اثراء النهضة العلمية بتلك البلاد فى المجالات الشرعية والعلمية والادبية والذين ظل نشاطهم قائما حتى نهاية القرن السابع عشر وكان لهم ابداعات فى ميدان التاليف والمناقشات فى المسائل العلمية والشرعية والدينية واللغوية وساهم علماء سنغاى فى خدمة العام ونشره بين طبقات الطلاب الدارسين والمثقفين والمتطلعين إلى المعرفة لاسيما وان العلماء قد حظوا بمكانة عالية فى اعين الناس وقد استمر التقدير والاحترام للعلماء سواء تعلق الامر بالسكان او بالحكام، بل ان السودانى وصل به الحد فى تقدير واحترام رجال العلم والدين إلى انه اعتبر عالم الدين والفقية والقاضى جزءا لايتجزا من كيان الشرع نفسه، ومن اجل ذلك فقد نسب لبعض من هؤلاء العلماء بعض الخوارق والكرامات ووضعوا فى مصاف الصالحين والاولياء وذلك لما تركوه من آثار وبما طبعوا به المدرسة السودانية فى هذا المجال لاسيما انهم كانوا بعيدين عن الحكم والسياسة، وقد احترم السلطان احمد المنصور نفسه صاحب فكرة الغزو وخليفة المسلمين فى المغرب والسودان رجال الدين والعلماء السودانين وقدرهم حق التقدير والاحترام ومن ذلك فان العالم السودانى احمد بابا عندما قدم للسلام على المنصور جعل موظفو القصر حجابا بينهما فرفض احمد بابا ان يتحدث مع المنصور الا اذا رفع الحجاب وقد لبى طلبه وتكلما وجها لوجه فى امور السودان وما لحق بالعلماء من جراء تعسف الحاكم محمود زرقون .

هكذا حظيت فترة الحكم المغربى باهتمام وعناية كبيرة بالتعليم من جانب السلطة والشعب نظرا لارتباط التعليم بالمقومات الدينية التى كان يهدف المنصور ورجالات حكمه إلى ترسيخها والدعوة اليها بين الاهالى ونشر الدعوة الاسلامية بين الوثينين. وقد حظيت هذه النهضة بسمعة مدوية فى العالم الاسلامى من ازدياد حركة

النقله والترحال لاسيما جامعة تمبكتو وكانت سمعتها تضارع جامعة فاس والقاهرة وتونس وغيرها من الجامعات الاسلامية فى ذلك الوقت، بل ان هناك آراء تذكر ان محمود زرفون الذى خلفه جودر فى حكم بلاد السودان ارسل العلماء السودانين ليس مبعدين او مضطهدين كما قبل بل للاطلاع على جامعات ومعاهد العلم وامهات الكتب ودراسة طرق العلم والتدريس فى بلاد المغرب والا لماذا سمح لهم بالعودة من المغرب إلى السودان بعد قضائهم فترة من البحث والتدريس والاطلاع والتاليف، بل العديد منهم قد الف كتبا فى بلاد المغرب والذين منهم احمد بابا الذى الف جزءا من كتابه نيل الابتهاج بتطريز الديباج فى السودان واتم الجزء الباقى فى مراكش مما يعطى الدلالة بانهم كانوا فى رحلة علمية وليس للنفى والا لاختار لهم محمود زرقون باشا السودان مكانا بعيدا إلى الجونب حيث الوثنين والذى كان يقوم فيه حكام سنغاى السابقين من الاساكى بارسال المنفين او المسجونين إلى هذه البقاع، كما انه قد سمح للعلماء السودانين بان يصحبوا مكتباتهم معهم فى رحلتهم إلى المغرب. وان يقابلوا الخليفة المنصور السعدى نفسه ويتحدثوا معه فى شئون بلادهم .

وهناك العديد من الطلاب صحبوا هؤلاء العلماء فى رحلتهم إلى المغرب حيث درسوا امهات الكتب على الاساتذة السودانين والمغاربة وحيث كانوا يحضرون بمجالس العلم بفان ومراكش او يتجهون إلى مصر والحجاز لاداء فريضة الحج .

ومن المؤكد ان المدن السودانية التى كانت تضم المراكز الثقافية والحضارية السودانية قد تحولت اثناء الحكم المغربى من مراكز للاشعاع الدينى إلى مراكز للاشعاع الثقافى والحضارى واصبحت من المدن المشهورة فى العالم العربى والاسلامى كبقيه المدن التى ترقد فيها معالم العلم والثقافة وتعج بالاساتذة والطلاب والمؤلفات الكثيرة. ولكن تطلع العالم الاسلامى باثرة والعالم الاوربى المعاصر فى ذلك الوقت بمعرفة

الكثير عن المراكز الحضارية الاسلامية جنوب الصحراء الكبرى وبدات محاولات العديد من الاوربين لمحاولة معرفة الكثير عن جامعة سانكرى فى تمكيتو التى اصبحت مركز الحضارة والثقافة العربية الاسلامية فى ذلك الجزء المجهول من العالم الاسلامى واصبحت تشكل مدرسة جامعة إلى جانب المدارس والجامعات العربية الاسلامية فى البلاد الاخرى ولقد تركت فترة الحكم المغربى بصماتها المتعددة فى مختلف المجالات الحضارية وشهدت الحياة الاجتماعية والمجتمع السودانى تطورا واسعا فى القرن السابع عشر الميلادى وتغيرت اساليب وانماط الحياة والمعاملات والسلوكيات اليومية والحياة القبلية والطبقات الاجتماعية وعادات الملبس والماكل والطعام والاحتفالات والزواج والفنون (انظر حركة الفنون والعمارة فى غرب افريقيا، للمؤلف، مجلة الفيصل السعودية العدد ١٠٧ ، فبراير ١٩٨٦) .

وهكذا ساهمت حركة النشاط المغربى اثر الفتح فى التطور السياسى والاقتصادى والثقافى فى جميع المجالات المختلفة فى المجتمع السودانى (انظر رسالة الدكتوراة، للمؤلف، السياسة الخارجية لسلطنة سنغاى الاسلامية جامعة اسيوط، ١٩٨٣) .

محمد الغربى، بداية الحكم المغربى فى السودان الغربى، بغداد، ١٩٨٢) للاستزادة عن اثر الفتح المغربى لبلاد السودان الغربى حيث ان المجال هنا لايتسع للحديث عن مآثر تلك الغزوة بهذه الصورة التى يراد منها اختصار العناصر بصورة تتناسب مع دراسة الموضوع عن الدولة السعدية وليس عن فتح السودان، ذلك لان هذا الموضوع قد اعدت فيه العديد من الدراسات الاكاديمية والتى فيها كانت الدراستان لدرجة الدكتوراه) ونكتفى بهذا القدر عن غزوة بلاد السودان فى عهد المنصور وعلى الذى يريد الاطلاع والتوسع فى هذا الموضوع ان يعود إلى هاتين الدراستين ويضاف اليها دراسة الدكتور عبد الكريم كريم. عصر المولى احمد المنصور الذهبى دكتوراة،

آداب عين شمس ١٩٦٩) وبهذا يتاح للباحث المتعمق الاطلاع على هذه الرسائل الثلاث حول الموضوع. ليدرك ان ما اشيع حول الغزوة والاضرار ببلاد السودان وانها آخرت تقدم السودان والسودانين لم تكن غير فرية اوربية باطلة يراد من ورائها الاساءة والتقليل حول كل عمل عربى اسلامى من شانه ان يعود بالفائدة والخير على بلاد الاسلام ان الذين يطالعون هذه الرسائل الثلاث يدركون البعد المغربى فى تغير وجه الحياة السودانية بصورة تامة وفقا لما كان يسود عالم المغرب العربى فى ذلك الوقت من القرن السابع عشر الميلادى .

الفصل السادس

الدولة السعدية بعد احمد المنصور الذهبى

تعرضت المغرب بعد وفاة المنصور الذهبى لكثير من المحن والشدائد، بل ان الاخطار قد زادت على البلاد واشتدت وطأة التدخل الاجنبى الخارجى والاحتلال الاوربى والتركى، فقد استفاد فيليب الثالث ملك اسبانيا من هذه الظروف لتصفية قضية المسلمين الاندلسين (المورسكين) نهائيا واستغل طلب ابناء المنصور لمساعدته فى مقابل تنازلات اقتصادية وسياسية واستراتيجية ولم يلبث فيليب الثالث ان امر فى عام ١٦٠٩م بطرد جميع المسلمين الاندلسين (المورسكين) من جميع المدن والقرى الاسبانية. وقد تم تنفيذ هذا القرار بالفعل ونجحت اسبانيا فى تصفية بقايا الاندلسين ويبلغ عدد الذين طردوا على هذه الصورة نصف مليون مسلم من ديارهم فنزلوا سواحل تونس وطرابلس والجزائر والمغرب الاقصى ويقدر بعض المؤرخين (فيليب حتى، تاريخ المغرب) ان عدد المسلمين الذين طردوا من الاندلس منذ سقوط غرناطة حتى النصف الاول من القرن السابع عشر الميلادى بنحو ثلاثة ملاين مسلم هاموا على وجوهم فى شتى انحاء البلاد الاسلامية لكن وفاة احمد المنصور الذهبى كانت دافعا لفيليب الثالث لتصفية جذور المشكلة ومن هنا فقد استطاع ان يضع نهائيا حلا لمشكلة التواجد الاسلامى فى اسبانيا .

ولقد اهتزت صورة المغرب بعد وفاة المنصور ذلك لان المغرب الذى كان ينعم بالقوة والسيادة والاستقرار والياس والشدة فى مواجهة الاخطار والاحداث فى عهد الخلفاء السعدين الاوائل حتى وفاة المنصور، ذلك لان هؤلاء الخلفاء كانوا يضعون فى خططهم الاهتمام ببناء الكيان المغربى القوى ورفع شان هذه الديار امام القوى الخارجية التى تتربص به الدوائر والمحافظة على الاستقلال الوطنى والامساك بلعبة التوازن

فى العلاقات بين القوى الكبرى فى ذلك العصر .

لكن المغرب بعد وفاة المنصور مباشرة بدا يعانى من عوامل الانحلال والانقسام والصراع والتفكك والتقهقر والانطواء داخل حدوده والتشرذم وقيام كيانات صغيرة على ارضه لاسيما فى عهد الخلفاء المتاخرين الذين تدافعوا على كرسى الحكم الذى كانوا يتقاتلون عليه من اجل الفوز به وعلى حساب الكرامة المغربية او القتل والتدمير وقد ادى ذلك إلى الضعف امام اعداء المغرب فى الداخل والخارج. وفقد الشعب ثقته فى حكام السعدين بعد ما كان يرى ويستمع ويشاهد الاحداث والصراعات الدامية على ارضه من اجل المنصب لا من اجل المصلحة العليا للقيادة الاسلامية الشريفة، فبدأ الشعب يتطلع إلى قيادة اسلامية جديدة شابة تستطيع ان تمسك زمام الامور وتاخذ بيد الشعب إلى طريق الوحدة بعد ان تهالكت القيادة السعدية وبدات النهاية تقترب والكهولة تعنى النهاية وبات الامر مجرد سنوات قصيرة حتى تكون النهاية قد حلت وبدات اوضاع سياسية جديدة بقيادة اسرة شريفة جديرة تقود المسيرة إلى ما يحقق اهداف الشعب العربى المسلم .

ولقد كان هناك الكثير من الاسباب والعوامل التى عجلت بوضع نهاية للاسرة السعدية بمجرد وفاة الخليفة احمد المنصور الذهبى لاسيما ان نظام ولاية العهد الذى كانت تسير الدولة على اساسه فى تولية الحكم قد دفع البلاد إلى كوارث ومتاعب كثيرة لأنه لم يكن يلتزم بان يكون اكبر ابناء الخليفة هو ولى العرش ولكن كانت هناك اعتبارات اخرى فى اختيار ولى العهد مما كان يترتب عليه حدوث التنافس والتطاحن والاقتتال بين ابناء الخليفة او احد ابناء البيت السعدى بالقوة اكثر من غيره او انه يستطيع ان يجد الانصار الذين يؤيدنه فى تولى الحكم فانه كان يتحدى ولى العهد الشرعى وينقض على مقاليد الحكم ويعمل على الاستيلاء على السلطة الشرعية

عن طريق القوة وكانت هذه الافعال التى تدور حول العرش تدفع بالاهالى إلى التمرد وعدم الثقة فى الخلفاء وزوال هيبة الدولة وانقسام ابناء البيت السعدى بين مؤيد ومعارض لولى العهد او الحاكم الشرعى وبين من استخدم القوة والنفوذ فى الاستيلاء على السلطة ولقد حدث الصراع على اشدة بين ابناء المنصور الثلاثة بعد وفاته مباشرة وكان قرار المنصور السعدى بتعيين اولاده حكاما على الولايات والاقاليم ايذانا بتفكك الدولة وبداية انهيارها بعد وفاته وكان الصراع قد بدا اولا فى ولاية زيدان والمامون وأبى فارس وكان تقسيم احمد المنصور الذهبى حكم الخلافة على اولاده الخمسة فى تجربة مكررة للحكم اللامركزى والذى كان قد جر الوبال على البلاد باستمرار وعلى السلطة الاقليمية الحقيقية التى كان يتولاها ابناء الخليفة السلطان .

(أ) الخليفة زيدان بن احمد المنصور
١٠١٢- ١٠٣٧هـ

تمت بيعة زيدان بعد وفاة ابية في ربيع اول عام ١٠١٢هـ وكان زيدان يتولى حكم مدينة فاس شانه شان كل اولياء العهد الذين يتولون حكم هذه المدينة باعتبارها المدينة الثانية فى البلاد بعد مراكش ومن يتولاها لابد ان يكون خليفة البلاد بعد كوت الخليفة وذلك لكى يكسب خيرة الحكم وادارة شئون البلاد، لكن كان مقر الخلافة فى مراكش لذا نجد ان اهل الحل والعقد والاعيان وعليه القوم والشعب قد بايعوا اخاه فى مراكش، لكن زيدان كانت قد تمت مبايعته من اهل فاس وابا فارس تمت بيعته من اهل مراكش ولم يعترف اهل مراكش بيعة اهل فاس لزيدان. لذا كان فى البلاد حاكمان احدهما وهو الشرعى فى فاس والثانى فى مراكش ومن تلك اللحظة بدات الاخطار تدق ناقوسها فى البلاد ايذانا بدخول البلاد فترة صراع جديد، بعد ان استتبت الامور خلال اكثر من ربع قرن فى عهد المنصور الذهبى ومن ثم تم انقسام البلاد بين الاخوة وظهر الصراع والتنافس على اشدة وانقسمت القوات والقبائل والبيت السعدى نفسه بين مؤيد لزيدان ومعارض لابى فارس وبالعكس وبدات الحرب الاهلية والصراع الدموى والقتال الضارى يشتد بين الاخوين زيدان فى فاس وابو فارس فى مراكش وبدأ كل منهما يجهز قواته ويستعد للقتال وبات الشعب مهددا فى آمنه داخليا وبالاحتلال من الخارج ونسى كل من ابناء المنصور قضية البلاد الكبرى وهى المحافظة على الاستقلال ودولة المنصور فى السودان والانتهاء من الجيوب الاستعمارية فى البلاد وتلاقت قوات الاخوين فى مكان بالقرب من ام الربيع يقال له (اخواته) لكن قوات الحاكم الشرعى زيدان انهزمت امام قوات ابى فارس والتى كان يقودها اخ ثالث لهما بدلا من أبى فارس هو المامون وتراجع زيدان بمن بقى معه من قواته إلى فاس، لكن

الشقيق الثالث وقد استبدت به شهوة الحكم بعد ان حقق انتصار ام الربيع على زيدان ساورته نفسه فى الحكم ومن ثم طمع فى الاستيلاء على فاس وان ينصب نفسه ملكا عليها بدلا من زيدان ويستقيل عن اخيه ابى فارس فى مراكش ما دام هو صاحب الانتصار فلابد له ان يحكمها بدلا من اخيه فى مراكش .

ولما كانت قوات زيدان قد انقضت من حوله ولم يعد له طاقة فى قتال المامون فقد ترك فاس وفر إلى الاتراك فى تلمسان بطلب عونهم ومساندتهم فى العون إلى حقه الشرعى فى الحكم ودخل المامون فاس واستقر الحكم له ونصب نفسه سلطان وخليفة للبلاد، ثلاثة خلفاء زيدان وابو فارس والمامون) بل اكثر من ذلك فان المامون بعد ان كسب التأييد وشعر بالقوة عزم على القضاء على اخيه ابى فارس والاستيلاء على مراكش ليكون الحاكم الاوحد فى البلاد بعد ان فر زيدان إلى تلمسان وكان عليه ان يجهز قوات كثيرة العدد والعدة وان ينفق الاموال الطائلة على تجنيد القبائل وحشد القوات المرتزقة من العبيد والاوربين وعهد بقيادة هذه القوات إلى ابنه (عبد الله بن المامون) الذى استطاع ان يهزم قوات عمه ابى فارس وان ينجح فى دخول مراكش وبهذا الانتصار استطاع المامون ان يوحد البلاد تحت حكمه منذ وفاة ابيه المنصور ودانت له فاس ومراكش فى شعبان عام ١٠١٥هـ .

لكن هل استقرت الامور على هذا المنوال طبعا لا فقد كان زيدان الحاكم الشرعى للبلاد يقف لهم بالمرصاد بعد ان امده الاتراك فى تلمسان بالاسلحة والذخيرة والرجال فتقدم من وجدة إلى سجلماسة واستولى عليها ثم دخل درعه وبلاد السوس فى الجنوب حيث المركز الاول للدعوة السعدية ومن الجنوب استطاع ان يحشد قواته ويعد عدته متطلعا إلى مراكش التى استطاع ان يدخلها وان يهزم قوات عبد الله بن المامون وفر عبد الله إلى ابيه فى فاس ولكن زيدان استطاع ان يتبع فلوله المنهزمة وان

يقضى على قوة فاس، لكن الحرب سجال فقد حشد عبد الله بمعاونة ابيه المامون قواتهما وتحالف سويا من اجل طرد زيدان من مراكش وفعلا نجحا للمرة الثانية فى طرده منها بعد ان استقر لهم المقام فى فاس ومراكش للمرة الثانية .

لكن ازاء هذه الاحداث الدامية فقد استقر راى اهل مدينة مراكش على مبايعة احد افراد البيت السعدى من غير ابناء احمد المنصور هو الامير السعدى محمد بن عبد المؤمن بن محمد الشيخ المهدى وهو ابن عم زيدان وابى فارس والمامون ومن هنا فقد دخلت شخصية رابعة من خارج ابناء المنصور فى الصراع على العرش وذلك بتاييد شرعى من اهل الحل والعقد واعيان مراكش وحشد الامير السعدى محمد ابن عبد المؤمن بن محمد الشيخ قواته بيدعمه سكان مراكش، وقاتلوا عبد الله بن المامون بن احمد المنصور وتم طرده من مراكش ونصب ابن عبد المؤمن حاكما على مراكش وكان ذلك فى شوال فى عام ١٠١٦هـ ولم يستطيع عبد الله بن المامون ان يعود ادراجه مرة اخرى إلى مراكش بعد ان فر إلى فاس، لكن الحاكم الجديد لمراكش محمد بن عبد المؤمن وقع فى اخطاء كثيرة من جراء شهور حكمه القصير حيث لم نجد الاجراءات التى اتخذها قبولا لدى سكان العاصمة مما دفعهم بان يتحالفوا ضده ويضمروا شرابه فقاموا بالكتابة إلى الحاكم الشرعى او خليفة البلاد الذى خلف اباه احمد المنصور السعدى الامير زيدان الذى استطاع ان يدخل مراكش للمرة الثالثة وان يهزم قائد جند محمد بن عبد المؤمن وازاء هذه الاحداث المتلاحقه ادرك زيدان انه لابد من القضاء نهائيا على قوة المامون اخيه وابنه عبد الله وتحطم قواتها نهائيا حتى يتفرغ لحكم البلاد منفردا بعد ان طرد محمد بن عبد المؤمن نهائيا من مراكش وتحرك إلى فاس وطرد المامون وابنه عبد الله منها وهزمهم هزيمة نكراء وضع بها نهاية لكل ما كان يدور من احداث على ارض المغرب وانضم اثر انتصارات كل مؤيدى المامون من قوات

فاس إلى زيدان واستطاع زيدان ان يقضي على قوات التحالف بين المامون وابى فارس ومحمد الشيخ وان تستتب له الامور فى البلاد بعد صراع طويل انتهى مؤقتا عام ١٠١٨هـ بعد صراع بين الاخوة المتصارعين وابن عمهم لفترة زادت عن ست سنوات (١٠١٢- ١٠١٨هـ) شهدت فيها الوانا من العذاب والانهيار والاهمال والفوضى والصراع الدامى. وانقسمت البلاد وقل الانتاج واتهك الاقتصاد واضمحلت الصناعة وخربت الزراعة وهجرت المدن من سكانها وسادت البلاد حالة من الكساد والفقر والتفكك الاجتماعى والتدهور الاقتصادى وظهرت على السطح امارات محلية واستقل حكام المدن كل بمدينة وكان التاريخ يعيد نفسه هذه المرة على ارض المغرب ارض الاندلس ملوك طوائف بصورة اخرى تهدد البلاد بالانقسام وطمع الاعداء وكثرت المحليات الصغيرة التى خرجت عن طاعة فاس ومراكش فى ظل الصراع الطويل بين ابناء البيت السعدى من اجل الشهوة والسلطة وكثرت الثورات فى مختلف نواحى البلاد وكثر الخارجون على الشريعة الرافعون لراية العصيان وكثرت المنازعات وساد شعور عام بين الطوائف بان العرش اصبح مطمعا شخصيا وسادت النظرة الفردية دون مصالح الامة والعقيدة والمستقبل والارض المحتلة والبلاد السودانية المترامية فى الجنوب والذى بذل لها المنصور السعدى كل غالٍ ونفيس وكل جهد وعرق من اجل بناء وحدة اسلامية كبرى وشهدت هذه السنوات الست مقدمات الانهيار الاكبر للدولة وبدات اطراف الدول تتعرض للغزو وللاقتطاع نظرا لعدم وجود الحاكم الشرعى الذى يحمى الديار من التدخل الاوربى الاسبانى والانجليزى والفرنسى والمطامع الاوربية المتزايدة من قبل القوى الجديدة كهولندا وفرنسا وانجلترا وغلبت شهوة الحكم واعتلاء كرسى العرش على عقول الحكام، مما دفعت المامون بن احمد المنصور من اجل المصالح الفردية ان يرتمى فى احضان الاسبان طالبا المساعدة فى تولى العرش متنازلا عن ديار الاسلام والمسلمين وارض الاجداد ولاسيما حيث قبل ان يتنازل للملك فيليب الثالث

ملك اسبانيا وان يحقق حلم الاسبان للتقديم وهو ميناء العرائش وكان هذا هو الشرط الذى اشترطه فيليب الثالث ان يسلم ميناء العرائش ليدخل إلى فاس والميناء الغربى الهام الذى كانت تتصارع عليه القوى الثلاث الكبرى تركيا والبرتغال واسبانيا قبل معركة القصر الكبير ١٥٧٨م سلم بسهولة نظير نزوة الحكم وشهوة السلطان وكان ان قبل المامون ان يبيع بلاد الاسلام والمسلمين وخان قضية البلاد والعقيدة فبدلا من ان يقود المامون قواته لتحرير البلاد والثغور المحتله من اهله فى ايام رمضان عام ١٠١٩هـ وسلمه للاسبان وللاسف الشديد يتحرك شمال البلاد (بلاد الريف) بمساعدة القوات الاسبانية ويقدم العون والدعم والمساندة للاسبان ويتم الاستيلاء على ميناء العرائش بعد ان افرغه من اهله فى ايام رمضان عام ١٠١٩هـ وسلمه للاسبان وللاسف الشديد تم ذلك فى الشهر الحرام شهر الصيام ونزول القرآن بل ان ذلك كان فى الربع الاخير من الشهر وسكان الثغر المسلمين يغادرون ديارهم ووطنهم من اجل مطامع شخصية (هذا هو حال المسلمين) فهل وجد فى تاريخ اوربا المسيحية من يتنازل عن الديار من اجل المصالح الشخصية ومطمامع الحكم وهكذا تكررت الاحداث وقضية عبد الله الغالب وابنه محمد المتوكل فى التنازل عن ديار الاسلام والمسلمين وتواطئوا مع الصلبين المحتلين طلبا للمساعدة العسكرية والمساندة التى ترفع الصليب بدلا من نداء الله اكبر وخيانة للعقيدة ولمصالح الشعب المغربى العليا وتسليم بلد من بلاد الاسلام للفرنجة.
لكن الشعب المغربى الابى المتدين العريق العميق العقيدة الراسخ الايمان ثار لحمية الاسلام وتواطؤ السلطان مع اعداء الدين والبلاد وقاد الشيخ ابو العباس احمد المقرى صاحب كتاب نفح الطبيب الثورة فى الشمال ضد المامون وتزعم ثورة العامة الذين استطاعوا قتله لما قام به من افك فى حق الاسلام والمسلمين وكان قتله عام ١٠٢٢هـ وبهذا يكون الصراع قد استمر عشر سنوات (١٠١٢- ١٠٢٢هـ) منذ تولى الحكم الامير زيدان مقاليد الامور فى البلاد اسميا وبهذا وضعت نهاية محزية لمن خان شرف

الشرافة السعدية وقدسية الارض والتراب الوطنى وخرج عن شرع الاسلام ولقى اخوه ابو فارس مصرعه مثل المامون وذلك بقتله خنقا نظرا لاستهانته بحق الدولة والدين والعقيدة وكان ذلك قبل موت المامون باربع سنوات اذ كان ذلك عام ١٠١٨هـ ولكن زيدان الذى استمر يقود سفينة الحياة للبلاد باذلا كل جهد لمقاومة الثورات والمؤمرات على حكمه ومواجهة تحديات الخطر الخارجى وفقد المغرب قوته ووحدته من جراء هذا الصراع الطويل الذى استمر مع ابى فارس ست سنوات ومع المامون عشر سنوات نتج عنها توزع حكم البلاد إلى ولايات واقاليم ولم يكن زيدان الحاكم الشرعى للبلاد يحكم سوى مراكش وام الربيع وبن عبد الله بن المامون الذى كان يتولى حكم فاس والتى تولاه من بعده اخوته ابناء المامون إلى جانب حكم زعماء العشائر ورؤساء القبائل وبعض الثورات فى بلاد السوس ولقد كان زيدان بن المنصور الخليفة الشرعى للبلاد نظرا لقوة صبره وقدرته على مواجهة الصعاب والتحديات وانه فى النهاية استطاع ان ينفرد بالحكم وعلى كل الذين يقاتلونه ويقومون بالثورة عليه وكما ذكرت بعض المصادر الاوربية يوفل. ان مولاى زيدان بن احمد المنصور وخليفة ابيه قد شعر بالخيبة حين راى قلة ما تركه له ابوه صاحب السمعة المدوية والمشهور بالذهبى ان الخزائن تكاد تكون خاوية وان غزو السودان قد استنفد مواد وطاقات هائلة وتكاليف باهظة وان هذه الغزوة قد قضت على ثلاثة وعشرين الف جندى وان كل من عاد من بلاد السودان عند استبدال القوات والاحلال قد مات من جراء الامراض التى كانوا يحملونها معهم وظهرت الخزائن خاوية فارغة وان ما تحملت البلاد خلال الغزو وما استنفد من الرجال والمعدات وذهب كله عبثا (اقوال مضادة للاسلام والمسلمين) لكن اليفرنى يذكر بعد خمسين عاما من عودة الحملة الاولى ونجاح المهام الموكلة اليها ان المغاربة كانوا وما زالوا بعد موت المنصور بفترة طويلة يذكرون بالفخر النتائج التى تحققت لاسيما بتدعيم اواصر الاخوة الاسلامية وتوسع ديار الاسلام وانتشار الدعوة

الاسلامية واقبال السودانين على البلاد المغربية حيث لازالت الاثار المغربية والاثر الحضارى ظاهرا فى كل اوجه الحياة وعلى الرغم من الثروة التى حصل عليها المنصور من الذهب فان فضل الدعوة الاسلامية والدخول فى الاسلام باعداد كبيرة من القبائل الوثنية يعوض كل اثر اخر .

ولقد شهد سنوات حكم زيدان بن المنصور الغزو الاوربى لالتهام القارة الافريقية كما حدث فى ايام الامير هزى الملاح منذ قرابة قرنين ذلك لان وجود احمد المنصور فى السلطة فى الغرب كان يشكل حاجزا قويا ضد الاطماع الاوربية عامة فى بلاد السودان ولقد كانت السنوات التى امضاها زيدان منفردا بالحكم منذ عام ١٠٢٢هـ حتى عام ١٠٣٧هـ خمسة عشر عاما اعواما قاسية فى ادارة البلاد، ذلك لان الاوضاع التى كانت تسود فى عهد المنصور قد ولت ولن تعود القوة والثروة والمكانة الدولية التى حققها المنصور والعلاقات الدولية فى كبريات الدول فى العالم المعاصر والتهافت على اقامة علاقات مع المغرب، كل ذلك لم يكن الا اهدافا وخواطر تروى عن عهد قريب وتبدل الحال غير الحال فلم تعد قوة الدولة مرهوبة داخليا ولا خارجيا ولم يعد السلطان الحاكم من القوة والنفوذ حيث يحسب له حساب من رعيته او فى المجال الخارجى .

لكن رغم الثورات الداخلية والصراعات الاسرية فان الحكم المغربى كان قد وطد نفوذه فى البلاد السودانية وكان الحكام الباشوات لازالوا يحكمون البلاد باسم الخليفة السلطان السعدى والقوات المغربية تتحرك إلى الجنوب طلبا لما يحتاج اليه الباشا الجديد والاتصالات مستمرة والاحوال العامة فى تقدم والمغاربة يبذلون جهدهم فى ان يجعلوا صلة الربط بينهم وبين السودانين قوية لاسيما انهم قبلوا العيش فى ظل حكم واحد وادارة مغربية لمس الافريقى بها مباهج الحضارة المغربية فاندفع ياخذ منهم ما يتلائم مع

قيمه وعاداته وتقاليده وكذلك فان المغاربة الذين استقر بهم القيام وطابت لهم المعيشة تزوجوا من بنات السودان وامتلكوا الدور والزروع واستعدوا للاقامة الدائمة فى هذه الاوطان وهذا دليل قوة العقيدة الاسلامية والبناء الاسلامى الواحد ذلك لان المجتمع السودانى قد قبل عن طيب خاطر ورضى الوجود المغربى الذى استقر وتعايش الجميع تحت الحكم السعدى باعتبار ان السعدين مسلمون وافارقة وانهم كانوا يعيشون على مقربة منهم فى الصحراء جنوب بلاد السوس قبل الانطلاق لتكون الدولة السعدية وانهم كانوا يجاهدون البرتغالين ويصدونهم عن التوغل للداخل وكان السودانى يرى فى ذلك دفاعا عن وطنه وترابه وعقيدته ولم ينظر فى يوم من الايام إلى ان المغربى جاء محتلا او صاحب سيادة بل عاش الجميع فى ظل راية الاسلام اخوة، كما ان زيدان بعد ان فرغ من صراعه ابدى اهتماما بالاحداث الجارية فى بلاد السودان وواصل سياسة أبيه فى النهوض بهذه الاقاليم الاسلامية .

ب - الدولة السعدية بعد زيدان بن المنصور

عبد المالك بن زيدان

بوفاة الخليفة زيدان بن احمد المنصور الذهبى عام ١٠٣٧هـ بعد ان ظل يحكم البلاد فترة ما يقرب من ربع قرن من الزمان قضاها فى محاربة اخوته واخماد الثورات والتقرب إلى الاطراف الدولية المعاصرة والاستعانة بالاتراك لاجل الاستمرار فى السلطة لكنه قبل وفانه كان قد اخذ البيعة لابنه عبد المالك لكى يتولى الحكم خلفا له وتم تنصيب عبد المالك بعد وفاة ابيه مباشرة وبايعه اهل الحل والعقد وعليه القوم وكبار رجال الدولة والجيش فى مراكش لكن هذه البيعة لقيت معارضة شديدة من جانب اخوته الوليد بن زيدان واحمد بن زيدان وتمردا عليه وقاد قواتهما لاسقاطه عن العرش فى مراكش ونشبت بينهما معارك كثيرة استغلها احمد فى الفرار من داخل مراكش واللجوء إلى العاصمة فاس حيث استطاع الدخول اليها والانفراد بالحكم بها عام ١٠٣٧هـ نفس عام تولية عبد المالك ومن هنا انقسمت البلاد على نفسها بين الولاء لعبد المالك واخيه احمد كل منهما سلطانا على الاجزاء التى يحكمها من المغرب لكن احمد بدأ ياخذ اهمية الملك السلطان فضرب السكة باسمه فى فاس واستقبل السفراء وراسل الملوك السلاطين فى الخارج باسم حاكم فاس وخليفة السعدين ولما كانت افعاله قد خرجت عن المالوف والمتعارف عليه بين ابناء الاسرة السعدية ومن طوائف الشعب المختلفة فان الشعب بتحريض من عبد المالك وتاليب القواد العسكرين عليه فقد تم اعتقاله وسجنه فترة طويلة من الزمن لكنه استطاع بمعاونة رجال السجن ان يفر من سجنه لكن قوات عبد المالك تتبعته حتى تم قتله عام ١٠٥١هـ .

ولقد احس الشعب المغربى من طول المعاناة والصراع بين افراد البيت السعدى طوال فترة تقرب من نصف قرن منذ وفاة احمد المنصور وقد ادى قتله إلى عدم

الاكتراث بالخلفاء ورجال السلطة والحكام والسخرية من افراد الاسرة الحاكمة نظرا للافعال التى كانوا يقومون بها وتعاونهم مع المحتل الغاصب بدلا من طرده من الديار الاسلامية يسلمون له البلاد بعد ان يتم طرد المسلمين وتسليمها خالية من السكان إلى العدو الاسبانى، كما ان شهوة الحكم والمطامع الشخصية والتامر على البلاد والعباد وبيعها للفرنجة لكن ازاء كل هذه الاحداث والمصائب التى حلت بالبلاد لم يكن مقتل احمد بن زيدان كافيا لكى يجنب البلاد ويلات الفرقة والصراع فقد قام الوليد ابن زيدان بالاعتداء وقتل الخليفة الشرعى للبلاد عبد المالك اخيه وذلك سنه ١٠٤٠هـ بعد ثلاثه اعوام فقط من توليه السلطة، ولما لم يكن امام اهل الحل والعقد والشعب المغربى بد من ذلك هو مبايعة القاتل الذى كان يرى فى القتل وسيلة للوصول إلى الحكم بغض النظر عن مصير البلاد والعباد وضرورة ان يكون الوالى. والحاكم واضعا نصب عينيه المصالح العليا للبلاد قبل الوصول إلى الحكم لا ان يكون الحكم فترة للملذات واشباع الشهوات ولم تكن الاهداف العليا التى قامت على اساسها الدول فى البداية تعنى الحاكم من قريب او من بعيد بغض للنظر عن أن البلاد قد تمزقت وصارت كيانات صغيرة والعدو يتربص بها ورجال الصوفية والقبائل يسيطرون على البقية الباقية من البلاد ولم يعد للحاكم السعدى سوى العاصمة مراكش وبعض المناطقة المجاورة لها وكما هى الحالة فى عهد ابيه زيدان لم يعد الوليد الذى قتل اخاه عبد المالك يحكم من المغرب الاقصى الواسع العريض سوى مراكش وبعض الاحواز القريبة منها بل انه لم يتوسع قليلا عما كان عليه الحال أيام اخيه عبد المالك .

ولكن الوليد بن زيدان لم ينعم بالحكم طويلا ولم يسرفى البلاد والعباد والاسرة السعدية الحاكمة كما أمر الله بل اننا نجد انه قام بالانتقام بالقتل والطرد والسجن فى كل من كان يشك فى نواياه او عدم الولاء له من افراد الاسرة السعدية وكذلك فى

كبار القواد العسكرين الذين غدر بهم وكان يرسلهم فى حملات تغريبية إلى بلاد السودان او قتلهم فى ثورات كان يديرها بمعرفة رجال القصر، لكن كبار رجال القصر والحرس الخاص وقد رأوا بشاعة الاعمال التى كانت تتم وظنوا ان الدور عليهم لامحالة بعد ان توعد كبارهم بالقتل فانهم دبروا قتله داخل القصر وهو ما تم حيث استطاعوا الانقضاض على رجال الحراسة وقتله عام ١٠٤٥هـ بعد ان مكث خمس سنوات لم يقم فيها بادنى عمل يذكر سواء فى النواحى الداخلية او الخارجية اللهم الا الفتك والقتل وسوء الظن والانغماس فى الملذات وتلبية الاهواء الشخصية صارت البلاد فى نظر الدول الاوربية المعاصرة عبارة عن دويلات صغيرة وفقدت كيانها الواحد مما دفع دولة كانجلترا ان تقيم علاقتها مع الوحدات المستقلة الصغيرة لاسيما امارة سلا التى كان يحكمها المجاهد الاسلامى ابو عبد الله العياشى ولاسيما ان كل هذه الدول الاوربية وبخاصة انجلترا كانت تطمع فى خيرات المغرب وثرواته الطبيعية بعد ان ظهرت هذه النوايا فى عهد زيدان بن المنصور الذى سمح للهولندين والفرنسين والانجليز باقامة قواعد وحصون لهم بالساحل وتحالف معهم ضد قوات الجهاد الاسلامى البحرى الذين كانوا يتخذون من موانئ المغرب مقرا لهم للتصدى للسفن الاوربية .

وفى عام ١٠٤٥هـ بعد مقتل الوليد لم يجد عليه القوم ورجال البلاط شخصا يتولى مقاليد الامور فى البلاد بعد ان عزف عنها أفراد الاسرة السعدية الا طفلا صغيرا من ابناء زيدان وهو الاخ الاصغر للوليد هو محمد الشيخ بن زيدان حيث كان فى مقدمة المرشحين للخلافة فتم اخراجه من السجن الذى كان أودعه فيه الوليد وتمت مبايعته بالخلافة فى مراكش وظل محمد الشيخ الصغير حاكما على مراكش وما حولها لكن السلطة الحقيقية والفعلية كانت بايدى رجل القصر والبلاط وكبار رجال القوات العسكرية، لكنه ظل يحكم البلاد فترة طويلة وصلت إلى عشرين عاما حيث مات عام

١٠٦٥ اذ سادت فترة حكمه الفوضى والضعف والانهيار السياسى والاقتصادى والفساد الاجتماعى وازداد نفوذ الحركات الانفصالية فى البلاد وانقسمت البلاد إلى اكثر من عشر ولايات كل منها تمارس شئون الحكم بمفردها بل كل منها تتصارع مع الولاية الاخرى من اجل بسط النفوذ والسيطرة وتوسيع نطاق الولايات على حساب الاخرى وكانت الفتن الدامية والدسائس تأخذ المقام الاول فى المهام التى يوكل بها الخليفة للتخلص من مناوئية او الذين يخشى خطرهم من رجال القصر ومن رجال الادارة او حكام الاقاليم والامارات التى كان بعضها يقاتل البعض الاخر، بل ان كثيرا من هذه الولايات كان يرفع لواء الجهاد الاسلامى ويدخل فى قتال مع الجيوش الاستعمارية الاسبانية احكام سلا وعبد الله العياشى الذين كانوا يحققون انتصارات بمساعدة رجال الجهاد البحرى .

لكن كل هذه الامور كانت تعمل بان تضع نهاية للدولة التى كانت بوادر نهايتها قد بدات بموت الخليفة القوى احمد المنصور الذهبى على الرغم من انه قد مضى اكثر من ستين عاما على وفاته لم تشهد فيها البلاد ادنى عمل يذكر لاى من الحكام الذين تولوا حكم البلاد فاذا كان زيدان بن المنصور قد ظل يحكم البلاد منذ عام ١٠١٧– ١٠٣٧هـ عشرين عاما هجريا ١٦٠٨– ١٦٢٧ وكذلك ابنه عبد المالك الذى ظل يحكم ثلاث سنوات من ١٠٣٧– ١٠٤٠هـ (١٦٢٧– ١٦٣١م) فان محمد الشيخ ابن زيدان الذى لقب ابو عبد الله ظل يحكم ايضا من ١٠٤٥– ١٠٦٣هـ (١٦٣٦– ١٦٥٢م) فان هذه السنوات الطوال لم تكن صورة البلاد داخليا الا كراهية الشعب للاسرة السعدية وتطلعهم ليوم جديد لم تكن فيه هذه الاسرة قابضة على مقاليد الامور كذلك فان الصورة الخارجية للمغرب لم تكن الا بعض الدويلات التى تقاتل بعضها البعض من اجل تحقيق المكاسب الشخصية والعدو الخارجى يتطلع

إلى اضعاف هذه القوى الاسلامية ومساعدة بعضها الآخر بالاسلحة والجنود وكل ذلك كي يحول دون توحيد هذه البلاد مرة اخرى حتى لايتفرغ الجميع إلى العدو الخارجي وطرده من ديارهم .

لكن تولية محمد الشيخ بعد مقتل المامون بن زيدان لم تكن لتحل مشكلة العرش السعدى ليكون الحكم فى مراكش وفاس تابعا لخليفة واحد لكن كما كانت سنة السالفين منذ عهد زيدان فان ابناء المامون فى فاس استقلوا بحكمها بعيدا عن عمهم محمد الشيخ. ولكن رغم الاستقلال بحكم فاس الا ان ذلك الحكم البعيد عن العاصمة مراكش لم يكن فى مامن من الثورات والفتن والصراعات لذا نجد ابناء المامون يدخلون فى صراع فيما بينهم وكيف لايحدث ذلك وقد اصبح الصراع بين ابناء الاسرة الحاكمة سمة من سمات الحكم ومظهر من مظاهر الحكم السعدى .

وقد راى عبد الله بن المامون مقتل ابيه فعمل على الاستقلال بحكم فاس لكن الثورات انتشرت فى انحاء البلاد ولم تعد له القدرة الكافية على الاستقرار بحكم فاس مما دفعه إلى الاستعانة بجماعة من القواد العسكرين اطلق عليهم اسم الشراقة وهم الذين كانوا يقدمون من الجزائر واغلبهم من القبائل العربية والاتراك للعمل فى الخدمة فى القوات العسكرية وقد استعان بهم عبد الله بن المامون بن زايد لكى يشكلوا الغالبية العظمى من جنده، لكن نظرا للاعمال البشعة والتصرفات غير الاسلامية والاعتداء على الشعب وتجاوز حدود الشرع فان ذلك دفع رجال الدين والعلماء للتصدى لهؤلاء الجنود كما كان يحدث منهم من تجاوزات مع العامة واستيباحة المحرمات والخروج عن أمور الدين فقد استطاع احد رجال الدين المدعو بالشيخ (الربوع) طرد جيش عبد الله بن المامون ومعه الشرافة من فاس، لكن ذلك أدى إلى الثورة وعدم وجود حاكم شرعى قوى يستطيع ان يحكم البلاد ويحفظ الامن ويوفر الامان للشعب فاصبحت فاس مجالا

سهلا ومطية جاهزة لكل من يريد السلطة من رجال الدين وزعماء القبائل، لكن عبد الله استطاع ان يجمع قواته ويعود إلى فاس واعلن الناس بيعتهم للامير عبد الله بن المامون بن زيدان بن احمد المنصور حاكما على مدينة فاس فى الوقت الذى كان فيه عمه محمد الشيخ بن زيدان يحكم مراكش .

الفصل السابع

احوال المغرب فى عهد الاشراف السعدين

شهد المغرب الاقصى فى عهد الاشراف السعدين نوعا من التقدم والازدهار الحضارى والثقافى والتقدم العلمى والصناعى والزراعى بل ان هناك تغيرات كثيرة قد شهدتها الساحة المغربية وانعكست على اساليب الحياة اليومية وما تلاها من تغير اجتماعى وانفتاح على ابواب اوربا وعلاقات مع الاقاليم المجاورة مما ادى إلى الانتعاش فى جميع النواحي لاسيما ان الدولة السعدية قد انتشلت البلاد من التردى التى كانت تعيش فيها فى العصر الوطاسى السابق وشهدت البلاد حالة من الاستقرار السياسى لم تشهده من قبل وان كانت السيطرة الاجنبية الايبيرية على بعض للثغور المغربية لايقلل من انطلاق الدولة نحو التقدم والرقى والازدهار بحيث صارت محطة للانطلاق منها إلى افريقيا ومركزا تجاريا هاما سعت الدول الاوربية إلى اقامة العلاقت الاقتصادية والتجارية والسياسية معها بعد ان استطاعت ان تحفظ كيانها السياسى من الانطواء تحت السيادة التركية العثمانية ووقفت سدا منيعا ضد السيطرة البرتغالية وكسرت شوكتها فى معركة القصر الكبير ولم تحرك اسبانيا ادنى مطمع فى الاراضى المغربية .

ولقد كان عهد المنصور الذهبى هو ازهى عصور الدولة لاسيما ان احمد المنصور السعدى كان يمثل خليفة رسول الله ﷺ بحكم نسبه القرشى وبيعة المسلمين له واعتبار نفسه خليفة على كل المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها، بل انه كان يرى انه لايصح لاى حاكم آخر ان يكون له حق استخدام لقب الخليفة وذلك باعتبار ان السعدين كانوا يرون أنفسهم انهم المنوطون بالخلافة القرشية وانهم بعث جديد فى المغرب للخلافة الهاشمية التى كانت فى السابق ممثلة فى دول الادراسة ومن هنا كان تلقبهم بلقب الخلفاء الهاشمين او لقب امير المؤمنين وانهم كانوا يرون فى كونهم من

ذرية رسول الله ﷺ تجب طاعتهم والخضوع لسلطانهم ومن هنا كانت الكلمة الاولى والاخيرة لسلاطين السعدين سواء فيما يتعلق بامور الرعية والسياسة الخارجية او شئون القضاء او خطط الجيش .

وقد كون المنصور السعدى مجلسا للشورى وهو مجلس لملا المسلمين وكانت فكرة الشورى هى اساس الحكم فى المغرب على الرغم من محاولات الكتاب الغربين لوصف المنصور والسعدين عامة بان حكمهم كان حكما مطلقا استبداديا وهذا يتناقص مع مببدا الشورى فى الاسلام الذى كان يسير عليه حكام السعدين. وكان مجلس الشورى يتكون من الاعيان والرؤساء والفقهاء وكبار رجال الدولة واهل الحل والعقد للتشاور فى امور الدولة وتقديم النصائح فى اخطر الشئون التى تمس مصالح البلاد والعباد وابداء الراى فيها. وكان هذا المجلس الاستشارى شبيها ببعض المجالس فى اوربا. ولقد كان نظام الشورى الذى سار عليه خلفاء السعدين نقطة تحول كبرى فى تاريخ المغرب فقد انتقلت فيه البلاد إلى حكم الشرع والدين وتطبيق الشريعة الاسلامية- كما ان الدولة انتقلت فى العصر السعدى إلى دولة قوية بدات تاخذ باساليب الدولة المدينة المستقرة وهو امر لم تكن المغرب قد عهدته من قبل حيث ادى ذلك إلى عودة التضامن الشعبى وانطواء البلاد تحت الراية السعدية بدءا من ظهور محمد القائم فى الدولة وابنائه احمد الاعرج ومحد الشيخ حتى عصر احمد المنصور الذهبى حيث تجددت فاعلية الحركة المغربية المشهود لها بالعمل والجد لتاخذ باساليب اليقظة الاسلامية القادرة على مواجهة التحديات والمخاطر والتى كانت وراء الفتح المغربى لبلاد السودان وتكوين دولة مغربية سودانية واسعة الارجاء وقيام كيان حكم ادارى قوى ياخذ باسلوب الحكم اللامركزى فى الاقاليم والولايات والمدن الكبرى .

حيث مارس حكام الاقاليم والمدن صلاحيات حكمهم فى ظل سلطان الخلافة

التى اتخذت شعار الخلافة ومظاهرها مثل ذكر اسمائهم فى خطبة الجمعة بالمساجد والاعياد والدعاء للخلفاء السعدين وضرب اسماء الخلفاء على السكة المغربية. ولقد كان للخلفاء الاشراف الحق الكامل فى تعين الوزراء والقادة والكتاب والقضاة والفقهاء والحكام وولاة الاقاليم فى انحاء الدولة وكانت الحكومة هى قمة الجهاز التنفيذى والتى ضمت شخصيات سياسية ودينية وقبلية وعسكرية وانتقى الحلفاء السعديون وزراءهم من بين من تتوافر فيهم الكفاءة الواسعة والقدرة على العمل والعطاء وسرعة تنفيذ المهام الموكلة لهم وهكذا انطلقت البلاد نحو الاعمال الانشائية فى شتى البلاد والمدن حيث كانت الثروة الاقتصادية تدعم هذه المشاريع .

وشهدت البلاد نشاطا اقتصاديا واتسع مجال الانتاج الزراعى والصناعى والتجارى لاسيما ان فترة الحكم السعدى قد شهدت تغيرا عميقا فى مقومات البلاد الاقتصادية وبدات الدولة تنتعش اقتصاديا (الزراعة والصناعة والتجارة) فقد توافدت على المغرب اعداد كبيرة من ابناء الاندلس المطرودين من ديارهم والذين كانوا يجدون فى بلاد المغرب وطنا لهم وملاذا من محاكم التفتيش والاضطهاد وهروبا من المضايقات، وحمل كل هؤلاء خبرتهم الواسعة فى ميادين الزراعة والتجارة والصناعة وساهموا مع اخوانهم المغاربة فى هذه النشاطات الكبرى واستخدموا سفنهم واساطيلهم فى النقل البحرى من المغرب واليه مع دول العالم المعاصرة .

ولقد هيا جو الاستقرار السياسى الذى كانت تنعم به البلاد طوال فترة قرن ونصف من الزمان ازدهار المناطق الزراعية المغربية حيث شهد كتاب الغرب بان المغرب لم يعد فيها شبر واحد غير مزروع او مغروس وازدهرت زراعة قصب السكر الذى كان الانتاج منه يشكل المادة الرئيسية الاولى للتصدير إلى اوربا والذى تكالبت عليه الدول الاوربية التى كانت ترى فى تجارة السكر ما يحقق لها ارباحا كثيرة ولاسيما ان زراعته

كانت تنتشر حول مراكش .

ولقد قام فى العهد السعدى وبصفة خاصة فى عهد السلطان احمد المنصور السعدى اربعة عشر مصنعا لانتاع السكر لا زالت آثار بعض منها باقية إلى الآن شاهدة على التقدم الصناعى فى المغرب والتى كانت هى اول دولة فى العالم تقوم بتصدير مادة السكر إلى اوربا وكانت مدينة شيشاوة على بعد ثمانية كيلو مترات جنوب مراكش من اشهر المدن فى انتاج وتصدير السكر .

وكانت مناطق فاس ونواحى مراكش وحوض نهر سيو الاوسط ونافيلالة وغيرها من المناطق الزراعية فى المغرب خصبة وتجود بعطائها المحصولى الوفير حيث تنوعت المحاصيل الزراعية وكثرت المنتجات التى كانت تصدر إلى اوربا والسودان وكثرت تربية المواشى والحيوانات الاخرى والابل وتربية الخيول وتركزت فى زراعة الفواكه والكروم والزيتون فى كل الاقاليم الجنوبية لاسيما مدينة تارودانت .

وتطورت الصناعة تطورا هاما واخذت بعدا جديدا لم تشهده البلاد من قبل وابدى سلاطين السعديين اهتماما كبيرا بهذا الجانب من جوانب الحياة المغربية لاسيما الجانب الدفاعى الحربى والعسكرى الذى كان يشكل فى نظرهم البعد الحقيقى لقوة الدولة وكيانها فى ظل المخاطر الخارجية فكان ان اندفع المنصور الذهبى وراء استيراد المصانع الحربية التى تصنع الاسلحة المغربية المتطورة فى ذلك العصر وكانت مصانع السلاح والذخيرة نلقى الاهتمام الاكبر من جانب المنصور الذهبى حيث رغب فى اقامة جيش قوى متطور بعد معركة القصر الكبير وانتجت مصانع الاسلحة فى مراكش المدافع الصغيرة والكبيرة لاسيما ان الاندلسيين (المورسكين) كانوا قد نزحوا إلى ديارهم الثانية فى المغرب وكان من بينهم العديد من المتخصصين فى الصناعات الحربية ومنهم على سبيل المثال مصمم الاسلحة الثقيلة المشهور فى ذلك الوقت المسلم الاندلسى

(احمد الحجرى) المشهور باسم (افوكاى) وكان قد فر من الاندلس اثر الاضطهاد واستطاع ان يدفع بالانتاج الحربى فى مصانع مراكش للسلاح وأبدى كثيرا من الاهتمام والاختراع والتصميم فى هذه المصانع بعد ان تم وضع الامكانات اللازمة له وقام بصنع العديد من مدافع الميدان المتوسطة والكبيرة ولكن هذه الصناعات الحربية والعسكرية لم تكن لتكفى متطلبات الجيش المغربى ليتوسع فى زيادة قواته وما تطلبه من اسلحة فقد كان ذلك يتم عن طريق استيراد الاسلحة ولاسيما من انجلترا التى كانت تقدم السلاح للمغرب مقابل استيراد ملح البارود الذى كان يدخل فى الصناعات الحربية، كما ان صناعة السفن الحربية التى عولت عليها حكومة السعدين التى كانت تستورد لها الاخشاب من انجلترا كانت كمثلها فى صناعة الاسلحة حيث كان يتم شراء السفن الحربية لكى تلبى احتياج البلاد وما تقتضيه من توسع وطموحات كبرى لاسيما بعد فتح بلاد السودان .

كما ان جميع الصناعات الاخرى التقليدية كصناعة الملابس والمنسوجات والسجاد والصوف والخشب والزجاج والورق والحلى والمصوغات والنحاس والجلود والحديد وغيرها من الصناعات الاخرى التى كانت تلبى الاحتياج الحياتى للشعب المغربى فقد شهدت تطورا دائما وعظيما على مختلف الجوانب والتى استفادت من التطور الصناعى الذى كانت تشهده دول اوربا فى ذلك الوقت مما دفع بهذه الصناعات ان تحاول منافسة الصناعات الواردة إلى البلاد حيث كانت الواردات الاوربية إلى المغرب بصفة رئيسية هى المواد الصناعية والقصدير والنسيج اضافة إلى الصناعات الحربية والسفن والتى كان يقوم بالسيطرة على السوق التجارية واحتكار اساليب التجارة هم الاندلسيون المورسكين وبعض الشركات الاوربية التى وجدت لها اسواقا فى المغرب لتمارس نشاطها اضافة إلى بعض اليهود الذين تم طردهم من اسبانيا ووجدوا فى حسن

استقبال المغاربة ووصية الدين الاسلامى باهل الذمة مجالا لكى يمارسوا نشاطهم التجارى فى ظل حرية العقيدة وسماحة تعاليم الدين الاسلامى بعكس الصورة على الشاطئ الاوربى الآخر المقابل ولكن ذلك لا يمنع من ان العديد من المغاربة لاسيما فى طنجة وسلا وتطوان قد مارست انواع النشاطات التجارية لاسيما فى حركة التصدير التى كانت اسهل من الاستيراد ولاسيما ان المغاربة كانوا يصدرون المواشى والاغنام المرينى والسكر والنحاس وملح البارود والذهب والتمور وغيرها من المنتجات الزراعية الفائضة عن الاستهلاك المحلى كالجوز واللوز والتين. ونظرا لكثرة الموانى المغربية على الساحل الاطلسي وساحل البحر المتوسط فقد ساهمت كل هذه الموانى والثغور فى حركة النشاط التجارى لكن كانت هناك العديد من هذه الموانى تلعب دورا هاما اكثر من غيرها ومنها على سبيل المثال لا الحصر ميناء العرائش وسلا وتطوان واسفى واغادير وسبته وغيرها العديد من المدن والموانى الكبيرة التى كانت توجد بها الفنادق ومخازن التجار والوكالات التجارية ومراكز للجمارك والتى كانت تشبه المناطق الحرة فى عصرنا الحالى وكانت الحركة التجارية تسير فى يسر وسهولة .

وهكذا شهدت المغرب فى العصر السعدى الاول حتى وفاة المنصور حركة اقتصادية لم تشهدها من قبل وسكت العملة الذهبية والتى كانت تحمل الاحمال الكبيرة من التبر الذى كان يصل من بلاد السودان والذى كانت تضرب منه النقود الذهبية وكان يستعمل منه اكثر من ١٤٠٠ وزنة كل يوم وقد ذكر احد تجار الانجليز انه شاهد وصول ثلاثين جملا إلى مراكش محملة بالذهب وقد تسرب كل هذا الذهب إلى جيوب التجار الانجليز الذين اشترى منهم المنصور السعدى السلاح. ولقد كانت تجارة الذهب عبر صحراء بلاد السودان بمثابة دم الحياة لعدد كبير من هذه الموانى المغربية ومصدر ثروة لالاف من تجار اوربا الذين استفدوا طاقة المغاربة من كل ما كان

لديهم من الذهب وانهم سلبوا المغاربة من كل ما لديهم من الذهب .

ولقد شهدت جوانب الحياة المغربية نوعا من الترف والرخاء تجلى فى اعظم صوره فى اساليب المعيشة والحياة الاجتماعية ومانتج عن ذلك من منافسة الاوربيين لمحاولة الحصول على عقود تجارية او اقامة وكالات تجارية او شركات لهم مستفيدين من هذه الحالة الاقتصادية التى لم تشهدها المغرب من قبل حيث شهدت حركة التصدير والاستيراد نموا كبيرا فى مختلف السلع والمنتجات بعد ان انفتح المجال امام هذه الشركات لاسيما الانجليزية التى اقام الانجليز لهم شركة تجارية كانت لها اهتمامات صناعية هى الشركة الانجليزية البربرية، وكما اقام الانجليز لهم شركات سعت حكومات فرنسا وهولندا إلى الحصول على موانئ لهم لكى تكون مراكز تجارية يمارسون فيها نشاطهم التجارى والتى كانت سفنهم تقوم بقفل المنتجات والبضائع من المغرب إلى اوربا إلى المغرب .

وهكذا فان المغرب فى العصر السعدى كان هو مركز الاهتمام الاوربى نظرا لحالة الرخاء والثروة الاقتصادية والتبادل التجارى والعلاقات السياسية التى اقامها المنصور مع مختلف الدول الاوربية والمركز التجارى المرموق الذى بلغته البلاد بعد معركة القصر الكبير وتودد دول اوربا إلى عقد معاهدات صداقة مع المغرب لاسيما انه البلد الاسلامى الوحيد الذى لم يخضع للسيطرة التركية العثمانية والذى كان مجالا مفتوحا لكى يمارس فيه الاوربيون اساليبهم فى النهب والغش حيث كان يتم مبادلة ملح البارود الذى تحتاج اليه المصانع المغربية والاسلحة بمثله ذهبا وهكذا ذكر بوفل ان التجار الانجليز هم الذين استحوذوا على ذهب المغرب وغيرهم من التجار الاوربيين والامريكيين الذين دخلوا المجال مؤخرا .

ولقد ابدت الدولة السعدية اهتماما كبيرا بنظام ولاية العهد وذلك منذ العهد

الاول لظهور هذه الاسرة ومن ذلك اننا نجد ان القائم بامر الله مؤسس هذه الاسرة يقوم باخذ البيعة لابنه احمد الاعرج ليكون وليا للعهد من بعده وذلك فى عام ٩١٧ هـ ولقد حرص على مبايعة القبائل له ولقد حرص الحكام السعديون كل الحرص على نظام ولاية العهد لما فيه استمرارية للحكم ومنعا لما يحدث من خلافات بين افراد البيت السعدى بعد وفاة الخليفة الحاكم. وكان ولى العهد يكون من ابناء الخليفة وليس شرطا ان يكون اكبرهم سنا ولكن قد يكون اختياره لمجموعة صفات لا تتوافر فى غيره من ابناء الخليفة وعندما كان يتم اختياره فانه كان يعهد اليه بحكم مدينة فاس المدينة الثانية فى البلاد بعد مراكش وذلك لكى يمارس فيها شئون الحكم ويتدرب على مقاليد الحكم وادارة البلاد من قبل جهاز حاكم لا يقل عن جهاز الحكم فى العاصمة مراكش، وان كان اصغر نسبيا فى الاختصاصات وكان النظام المتبع فى العاصمة هو صورة فى كل مدينة او ولاية من المدن او الولايات الكبرى، ومن ذلك بان يكون له مساعدون من الوزراء ورجال الديوان والكتاب والقضاة، كما انه كان له جيش مكون من عدة فرق. ولقد قام جيش فاس على سبيل المثال بالكثير من المهمات التى كانت تتطلب منه وبصفة خاصة جيش فاس بقيادة الامير احمد المنصور فى تعقب الثوار والقضاء على قواتهم والمشاركة الفعلية فى حرب القصر الكبير عام ١٥٧٨م فقد ساعد جيش فاس بقيادة المنصور اخاه الخليفة عبد المالك بن محمد الشيخ فى كل المهمات .

بل اكثر من ذلك فان اسم ولى العهد كان يذكر بجوار اسم الخليفة عند الدعاء له على منابر المساجد فى صلاة الجمعة كل اسبوع وفى كل الاقاليم .

وكانت البيعة تاخذ صفة رسمية وشرعية ذلك لان الخلفاء كانوا حريصين على ان يشهد هذه البيعة كبار رجال الدين والعلماء والفقهاء وعليه القوم وكبار رجال

الجيش واهل الحل والعقد فى البلاد وكانت تصدر المراسيم بهذا التعين لتعمم وتوزع فى جميع انحاء البلاد .

كذلك ابدى رجال البيت السعدى من الخلفاء السعديين باعتبارهم سلالة الدوحة النبوية الزكية اهتماما كبيرا بالقضاء ورجاله اقامة للعدل وحكما للشرع فى البلاد وظهر القضاء فى العصر السعدى كسلطة مستقلة عن جهاز الحكم تمارس سلطاتها الذى ليس عليها سلطان الا حكم الشرع والدين وكان يتم تعيين قاضى الجماعة (قاضى القضاة فى الشرق) من قبل الخليفة وهو الذى يعين القضاة فى المدن الكبرى كفاس وسلا واغادير وسجلماسه ورباط الفتح والعرائش وغيرها من المدن الكبرى وكان يتم تعيين قاضى فى كل مدينة او قرية كبرى وان تعتبر الاحكام والحكم بين المواطنين يتم على وجه السرعة حتى يحقق العدل بين افراد المجتمع المغربى .

وكان هناك ديوان للمظالم او مجلس المظالم وهو اعلى سلطة قضائية وكان هذا المجلس يراسه الخليفة عندما يتم عرض المسائل الشائكة التى لم يستطع قاضى الجماعة الحكم فيها، وكان يتم اختيار القاضى لسعة علمه ونزاهته وجدأته فى الحق وعدله بين الناس وعدم خضوعه لادنى سلطة من سلطات الحكم او رغبات الحكام او ولاة الاقاليم ولم يكونوا يخضعون لاهواء شخصية او نزوات فردية او مطامع مصلحية، بل ان الادارة السلطانية السعدية التى عينت القاضى كانت ترى فيه التزاما بتنفيذ الشرع وتقيدا بالنصوص القرآنية والاحاديث النبوية ومذهب الامام مالك ثم بعد ذلك يطرح موضوع النزاع اذا لم يجد له حلا على مجلس المظالم الذى يراسه الخليفة بنفسه .

وكان هناك نظام الجباية والوقف الذى كان لكل منهما جهاز خاص ومستقل عن جهاز القضاء يمارس فيها اختصاصاته وفق تعاليم الشرع .

وقد سارت نظم الحكم والادارة بدءا من رجال البلاط الخليفى فى العاصمة

مراكش إلى صغار الموظفين فى البوادى والقرى الصغيرة وفق نظام دقيق ومنظم ومتعارف عليه .

وفى عهد المنصور احمد الذهبى فانه قسم مملكته على أولاده الخمسة فى تجربة مكررة للحكم اللامركزى وقد جرت هذه النظم الوبال على البلاد لما فيها من انقسام وصراع بين ابناء المنصور وسبق الحديث عن الصراع بينهم من اجل السلطة، لكن السلطة الحقيقة الاقليمية كان يتولاها عاهل او قائد يتم تعيينه من قبل ولى العهد او الامير خليفة السلطان وهو الذى كان يصدر التوجهات لحكام هـذه الولايـات او الاقاليم .

كذلك فى العهد المنصورى قد ابدى الخليفة السعدى اهتماما كبيرا بدوام الصلة والربط بين العاصمة مراكش وحكام الاقاليم للاطلاع على سير الحكم بهذه البلاد البعيدة عن العاصمة ومن هنا فقد اهتم كثيرا بالبريد وتعبيد الطرق وتوفير وسائل المواصلات اللازمة فى كل مرحلة من مراحل الطريق حيث كان المنصور على علم تام بما يجرى فى انحاء بلاده فانه كثيرا ما كان يوجه الرسائل والمراسيم والقرارات مختومة بختمه السلطانى الخليفى لكى تقرأ فى المساجد فى جميع انحاء المملكة وذلك كلما كانت هناك ضرورة تستدعى اعلام الشعب بما يجرى من احداث على ارض المغرب كما حدث بعد فتح بلاد السودان وضمها للديار المغربية وتحقيق الانتصار على قوات سنغاى وكذلك بعد الانتصار الكبير على قوات البرتغال واوربا فى معركة القصر الكبير ١٥٧٨م وكذلك المرسيم التى كانت تصدر بشان تعيين قاضى الجماعة او تولية ولى العهد وكل ما كان يستجد من أمور لها علاقة بمصالح الشعب المغربى وقد كانت هذه الرسائل او المرسيم لها صفة الاعلان والاعلام فى العصر الحديث حيث كانت هى الوسيلة الوحيدة التى يلجأ اليها رجال الحكم لاعلام الشعب بما يجرى من احداث فى

البلاد .

كما ان السلطان كان قابضا بيديه على السلطة التنفيذية والحاكمة فى كل انحاء البلاد ومن ذلك فان جميع حكام الولايات والمدن الكبرى والاقاليم يحاسبون امامه على ما يرتكبون من اخطاء او تقصير فى اداء الواجب الحكومى او عدم تنفيذ الاوامر السلطانية بل انهم كانوا يرجعون إلى العاصمة فى جميع النواحى المدينة والعسكرية والاقتصادية التى لا يستطيعون ايجاد حلول لها لانهم كانوا يطلبون راى السلطان والديوان فى مراكش وان الرد يكون عليهم سريعا حيث كانوا يجدون مخرجا لكل مشكلة تواجههم سواء كانت صغيرة او كبيرة ولا يتاخر الرد عليه طويلا، كما انه كان يلحق العقاب المناسب بالذين يخرجون عن المهام الموكلة لهم والمجاوزين لصلاحياتهم او الذين يتهمون بهوى فى قضاء مصلح اقربائهم وكان الحكم السعدى يختار القيادات الصالحة المؤهلة والتى لا تحوم حولها شهبات فى اداء اعمالها بغض النظر عن كونها من البيت السعدى او من اصل مغربى ومن ذلك نجد ان الخليفة المنصور السعدى لايتورع فى اسناد بعض المناصب الهامة والحساسة فى البلاد كمنصب وزير المالية لغير المغاربة وهو محمد بن زرقوى والذى كان من اصل اندلسى لكى يتولى منصب وزير المالية قبل ارساله فى حملته إلى بلاد السودان خلفا لجودر باشا قائد الحملة الاول .

وقد شهدت البلاد تقدما عمرانيا كبيرا لا نظير له فى جميع العصور اثناء فترة الحكم السعدى حيث تفنن المنصور السعدى فى بناء القصور التى كانت اية فى فن المعمار الاسلامى والزخرفة والزينة وخاصة قصر البديع الذى قام ببنائه فى مراكش والذى ظهر فى بنائه اقصى انواع التبذير والترف والذى جلب له عددا كبيرا من كبار الصناع من اصحاب المهارات الفائقة.. وكان الذهب لا يزال ينصب دون قيد على

المغرب لاسيما ان المنصور استطاع ان يتمتع بثمار النصر فى السودان والقصر الكبير حيث در عليه فتح السودان كثيرا من الذهب وايضا الفدية من الاسرى الاوربيين ساهمت في ثراء المغرب، ومن هنا فقد تركز اسراف المنصور الشخصى اكثر ما يكون على بناء القصر الكبير المتسع الضخم فى مراكش حيث استخدم فى بنائه آلافا من العمال وقدمت السفن الكبيرة تحمل من الهند اثمن مواد الشرق لتزيينه وامدته ايطاليا وايرلندا بالرخام اللازم لالاف الاعمدة واحيط القصر بحدائق ضخمة تتناسب مع فخامة القصر حتى اصبح قصر البديع كما اطلق عليه بعد ست سنوات من البناء صورة من العظمة لا تضارع .

ولقد كان قصر البديع وغيره من الوان العمارة من المآثر والاضرحة يحمل الطابع الاندلسى مع تاثيرات شرقية اسلامية وربما فارسية وهندية. واحتفظ المنصور بالابراج والقلاع القديمة من عهود سابقة والتى استولى عليها من البرتغاليين والاسبان وجهزها بما يلزم من حشود عسكرية ومعدات ومدافع لحماية الثغور والسواحل، بل انه اضاف العديد من هذه القلاع والابراج فى جميع المدن والمواقع الهامة .

كما ان المدن شهدت حركة واسعة من الاتساع واضافة الاحياء الجديدة والمدن الجديدة نظرا لوفود ما يقرب من مليونى مهاجر اندلسى إلى المغرب ويترتب على هذه الاعداد الوافدة من بناء المساكن والمدن الجديدة والاحياء الجديدة فازدهرت المدن وعمها الرخاء والامن وعادت بعضها لتحتل مكانة كانت فقدتها مثل اغادير وتارودت وعمت مدن الجنوب مصدر الدعوة السعدية حالة من العمران والتعمير لم تشهدها من قبل .

(أ) الجيش والاسطول والشرطة

منذ ان ظهرت الدولة السعدية على مسرح العمل السياسى فى جنوب المغرب وهى ترفع لواء تحرير الارض المغربية المحتلة والقضاء على شراذم الدويلات الصغيرة داخل المغرب والقضاء على الجيوب المحتلة من قبل القوى الاستعمارية البرتغالية والاسبانية التى اتخذت لها موطئ قدم على الساحل محاولة منه التوغل فى الداخل للقضاء على الكيان المغربى ومن هنا كان على قادة الدولة السعدية ان يعمدوا على القضاء على هذه المخاطر حفاظا للكيان المغربى من الانهيار ودعما للقوى الوطنية التى جاءت بالسعديين إلى عرش البلاد بعد ان عملوا على الاطاحة ببقايا بنى وطاس الذين تعاونوا مع القوى المحتلة، كذلك فان السعدين عملوا من جانبهم بكل الطرق والوسائل على الوقوف بحزم وقوة وعناد امام المطامع التركية العثمانية التى كانت تبغى السيطرة على البلاد اسوة بما هو قائم فى الجزائر وتونس وطرابلس وتوحيد كل بلاد المغرب تحت لواء الدولة العثمانية .

ومن هنا فانه ازاء هذه الاخطار فان الدولة السعدية استشعرت منذ الوهلة الاولى لظهورها ضروة الاعتماد على القوة العسكرية وبناء هذه القدرات الحربية دعما لنفوذها وحماية لترابها ودفعا للاخطار المحدقة بها من كل جانب. فكان الاهتمام الاول بل العناية الاولى لقادة الامور هو بناء جيش قوى وحشد عسكرى كبير من افراد القبائل ومن ابناء البلاد اضافة إلى الاستعانة بالخبرات العسكرية الاخرى سواء كانت اندلسية او جزائرية او تركية وتكوين فرق من خيرة القوات تكون قادرة على صد كل عدوان خارجي ومحققة للقوة اللازمة حفاظا على استقلال البلاد .

ولما كان السعديون يدركون عمق الاخطار وشدة الازمات فانهم وضعوا كل اهتمامهم فى بناء جيش قوى، ذلك لان الجيش هو عماد قوة الدولة واساس سطوتها

واستقرارها وتوسعها فى الاراضى المجاورة وتحرير الثغور المحتلة ومهابة للاعتداء والطامعين فى حدود البلاد وهو امل البلاد فى التوسع جنوبا حيث بناء الدولة السعدية الواسعة .

وكذلك الاستعانة به فى المهمات الخارجية والتعاون فى القتال مع القوى المتحالفة مع المغرب، بل هو السند القوى للخليفة فى صراعه الداخلى مع الذين يناوئونه فى الحكم واستخدامه للقضاء على الثورات الداخلية التى كانت تحدث بين ابناء البيت السعدى فى سبيل الوصول إلى الخلافة. وذلك لان من كان يملك القوة العسكرية الغالبة هو الذى كان يتقرر له مصير الحكم لانه لم يكن هناك عهد من عهود حكام الدولة السعدية يخلو من الفتن والثورات والتدخلات الاجنبية والمطامع الاوربية الاسبانية او البرتغالية او المطامع التركية العثمانية وكان الجيش المغربى هو القادر وحده على الوقوف فى وجه هذه المطامع الخارجية .

وقد استعان الجيش المغربى فى صفوفه بالخبرات القتالية الخارجية حيث ضم بين صفوفه العديد من المقاتلين من الاتراك العثمانيين والجزائريين والاندلسيين الذين كانوا يشكلون الفئة الغالبة بين صفوف الجيش المغربى كما ان الجيش ضم العديد من المرتزقة الذين كان جلهم من الاوربيين الذين يعتنقون الدين الاسلامى وينضمون للخدمة نظير رواتب سخية كانت تبذلها لهم السلطات السعدية .

ولقد استفاد الجيش المغربى بالخبرة القتالية التركية فى فن القتال والتدريب والاعداد والتجهيز للمعركة حيث ان ابناء محمد الشيخ الخليفة السعدى الثالث وهم عبد المالك وعبد المؤمن واحمد المنصور قد تلقوا تدريبات عسكرية فى الجزائر على الاساليب التركية فى القتال وكذلك فى اسطنبول وشاركوا فى حرب تحرير تونس واستفادوا من خبرات الاتراك وادخلوا هذه الاساليب فى جيش المغرب مما جعله بعد من اقوى الجيوش العالمية فى ذلك الحين بعد ان حقق النصر الكبير على قوات البرتغال

بمشاركة قوات اوربا فى معركة القصر الكبير عام ١٥٧٨م .

ولقد حرصت الدولة السعدية دائما على ان يكون الجيش المغربى دائما على اهبة الاستعداد والحرب دفعا للظروف المحيطة حيث كان السعديون يحصلون على السلاح اللازم لجيشهم وسفنهم الحربية واساطيلهم العسكرية من انجلترا ولقد كانت الاسلحة المستخدمة فى معركة القصر الكبير معظمها سلاح انجليزى كانت تقوم بتصديره الملكة اليزابيث ملكة انجلترا للمغرب نظير حاجة بلادها إلى ملح البارود اللازم للمصانع الانجليزية لصنع الذخيرة والذى كانت تحصل عليه رغم اوامر البابا بعدم التعاون والتجارة فى السلاح مع الدول الاسلامية. وكانت رغبة المغاربة فى تزويد جيشهم بالسلاح اللازم وخشب السفن الحربية وكمرات المدافع واشرعة السفن وكل اللوازم الحربية للقتال، وكذلك كانت رغبة المغاربة فى نفس الوقت للحصول على هذه الموارد الحربية من اجل الدفاع عن مراكش والعرش المغربى ضد الثورات الداخلية وذلك دعما لاستقرار العرش .

وفى عهد احمد المنصورى السعدى كان هناك جيشان فى البلاد احدهما جيش نظامى مكون من عدة فرق تضم اكثر من اربعين الف مقاتل جاهزة للتحرك والاشتراك فى القتال فى اية لحظة وهى دائما على اهبة الاستعداد، وكانت هذه القوات تضم فى صفوفها اعدادا كبيرة من الاندلسيين والجزائريين والمرتزقة وهى تحت السلاح باستمرار ولها معسكرات وتتوالى التدريب يوميا على احدث الاسلحة والاساليب القتالية- وكان هناك عدد كبير من الضباط الاتراك والاوربيين فى الجيش المغربى وكانوا يتولون تدريب الجيش على اساليب القتال المتطورة والالات الحربية الحديثة لان المنصور كان حريصا على تزويد جيشه باحدث ما تنتجه المصانع الحربية الانجليزية وكان يقيم للجيش حصونا ومعسكرات موزعة فى انحاء البلاد والمدن الهامة والثغور الحساسة التى يخشى عليها

من هجوم مباغت وكانت هناك معسكرات لهذه القوات داخل المدن الكبرى كمراكش وفاس وسلا والعرائش واغادير وتطوان ورباط الفخ وغيرها من الامارات الكبيرة والمهمة .

كذلك كان يقابل هذا الجيش النظامى الثابت الذى يعتبر قوة الدولة وعمودها الفقرى قوات اخرى احتياطية تضم ما لا يقل عن مائتى الف جندى ومقاتل يتم استدعاؤهم فى حالة تعرض البلاد للخطر وهم احتياط الجيش الثابت وهم من المتطوعين والمحالين على العمل المدنى بعد ادائهم الخدمة العسكرية. وقد كان الجيش المغربى فى عهد المنصور الذهبى مفخرة الجيوش المعاصرة لاسيما بعد ان حقق هذا الجيش انتصاره الساحق على قوات اوربا فى معركة القصر الكبير وايضا قدرة هذا الجيش الفائقة على اجتياز الصعاب وتخطى الاخطار وعمل المستحيل فى اجتياز الصحراء الكبرى الفاصلة بين المغرب وسنغاى ووصوله إلى بلاد سنغاى فى فترة وجيزة لاتزيد عن اربعة شهور قطع فيها اكثر من اربعين مرحلة وهى قوات حربية كثيفة تحمل العدد والعدة والزاد والزواد وكل ما تحتاج اليه وصولا إلى سنغاى واستطاعت ان تحقق انتصارا باهرا فى فترة زمنية وجيزة مما جعل فترة حكم المنصور تشهد ايضا النصر الكبير وانتصار حرب سنغاى وكان الفضل فى ذلك يعود لحسن التدريب والاعداد والتنظيم والخطط العسكرية والاسلحة الحديثة التى كانت لاتقل عن اسلحة اقوى الجيوش المعاصرة .

وكان الجيش المغربى مقسما إلى وحدات متخصصة وفرق كل منها يؤدى مهام محددة واسلحة مختلفة كسلاح المدفعية والمشاة والفرسان والدروع وغيرها من الفرق المختلفة والتى كانت توجد لها فرق عسكرية تدعم هذه التشكيلات والتى منها سلاح الخدمات الطبية (التمريض) وسلاح المهندسين والامداد والتموين وسلاح الاستطلاع والبريد والمؤن والتغذية واعمال الصيانة والحدادة والارشاد الدينى وكذلك سلاح

الحياكة وكل هذه الفرق المعاونة كانت تعمل فى ظل قيادة واحدة منظمة تنظيما دقيقا مما سهل لها اداء المهام الملقاة على عاتقها عملا لخدمة اهداف الدولة وتنفيذ اوامر وقرارات السلطان الصادرة بشان القتال والتدريب والدفاع والهجوم فى اللحظات التى يستدعى فيها استدعاء القوات للمشاركة فى دفع خطر عن البلاد وقد كان هناك تسلسل فى القيادة والرتب والتنظيم القيادى وكل هذه الرتب كانت تسلسل فى القيادة وصولا إلى الخليفة او السلطان باعتباره هو القائد الاول للقوات حيث كان الخلفاء والسلاطين يحرصون على قيادة قواتهم بانفسهم واشتراكهم فى المعارك الحربية وادارتها من مسرح العمليات حفزا للقتال وتشجيعا للجنود حيث ان وجود الخليفة بين صفوف قواته كان يدفع القوات للتفانى فى القتال وانجاز المهام الملقاة على عاتق الجنود وكان الجيش المغربى مقسما إلى ست فرق مختلفة كانت الرتب ومراتب القواد والجنود منسجمة مع تباين مهام هذه الفرق فى ذلك الجيش وكان كل ذلك يسير وفق نظام دقيق منضبط مع الاساليب العسكرية والوحدات والاسلحة وطرق استدعاء القوات .

ولقد كانت الاسلحة النارية والمدافع هى السلاح ذا الاثر الفعال فى القتال. ولقد عمل المغاربة دائما من اجل احراز النصر دون غيره من اجل دفع الكفاءة القتالية وتجهيز القوات بغض النظر عن التفوق العددى الهائل الذى كانت تعتمد عليه معظم الجيوش فى ذلك الوقت وقد ترك المغاربة نظام استخدام الاعداد الهائلة وترك اسلوب التفوق العددى والعمل على استخدام قوات ذات كفاءة عالية وتجهيزات كاملة وثقل متوفر وهذا سبب نجاحهم فى موقعة القصر الكبير. وكان فضل التدريب والاسلحة النارية قد صحح التوازن العسكرى واحرز الانتصارات لاسيما ان الجيش المغربى كان يضم صفوة من القواد غير المغاربة من الاتراك العثمانيين والمرتزقة ومن الاندلسيين وربما من الانجليز فيما بعد. وقد استفاد المغاربة من الاستعانة بهذه الاعداد فى تطوير

الاساليب القتالية والنظم الادارية والتنظيمية .

ومن هنا صار الجيش المغربى قوة لايستهان بها ، بل ان خبرة القوات كانت تشارك فى مهام قتالية خارج حدود المغرب تحالفا مع انجلترا ومساعدة لها ضد الاسبان واستعدادا للغزو فى الاندلس وقطع طرق المواصلات على الاسطول الاسبانى واشتراك قوات اجنبية تقاتل مع الانجليز ضد الاسبان وارسال المؤن المغربية الى الاسطول الانجليزى .

وهكذا كان الجيش المغربى فى العصر السعدى يشكل قوة حربية كبيرة. لكن القوى الاوربية لم تمكن لهذه القوات بالتحرك شمالا واجتياز مضيق جبل طارق سعيا مرة ثانية لعودة السيادة الاسلامية على الاندلس من جديد حيث ان تحالفات المنصور السعدى مع الملكة اليزابث ملكة انجلترا لم تقدم ادنى خطوة ايجابية نحو تحقيق الهدف الذى كان يوليه. فكان عليه العمل للاستفادة من هذه القوات وتوجيهها وجهة اخرى نحو فتح بلاد السودان لاسيما ان المنصور كان دائما يذكر ان طريق الاندلس اصبح مغلقا امام المغاربة لان البرتغاليين والاسبان قد استولوا على اجزاء البلاد الاندلسية كذلك فان الاتراك العثمانين قد سيطروا على تلمسان وبقية الجزائر ومن هنا لم يكن امامه الا توجيه طاقة الجيش المغربى لعمل عسكرى يكسب المنصور سمعة عالية ويضم بلاد السودان إلى الدولة السعدية الشريفة لان هذه القوات لابد ان تؤدى واجبها من أجل سمعة الخليفة القرشى بدلا من قتال الاتراك العثمانين فى الجزائر لان محاولة اخراجهم منها قد يحتاج إلى مجهود كبير دون عائد. فى حين انه بغزو السودان تتحقق وحدة اسلامية كبيرة بها الخير للاسلام والمسلمين .

كذلك فان السعديين عملوا من جانبهم على بناء اسطول بحرى قوى لاسيما ان معظم المدن الساحلية والثغور كانت تقع فى قبضة القوى المستمرة من البرتغاليين

والاسبان. ومن هنا كان الواجب الاسلامى والجهاد الشرعى يقتضى انتزاع هذه المدن من ايديهم ولكن البلاد التى ورثوا حكمها من الوطنيين لم يكن بها ما يسمى بالاسطول القوى الذى كان فى عهد المرابطين او الموحدين او بنى مرين حيث انحدرت سمعة الاسطول المغربى فى ظل احتلال موازين القوى البحرية وسيطرة الاساطيل الاوربية على غرب البحر المتوسط وسواحله وعلى المحيط الاطلسى واختفى الاسطول المغربى الذى كان يحقق الانتصارات على الاعداء فى حوض البحر المتوسط .

لكن السعديين عندما امسكوا بزمام الامور كانت لاتزال هناك بقايا صناعة للترسانة الحربية من بقايا عهد الموحدين وبنى مرين فى العرائش والرباط وهى ترسانات قديمة لم يكن فن صناعة السفن بها يتلاءم مع اساليب العصر لاسيما وان السفن الاوربية قد احرزت تقدما فائقا فى المجال الملاحى والتسليح وفن القتال البحرى الحديث وان هذه الترسانة البحرية القديمة لا تزال تصنع السفن باساليب بالية لا تتلاءم ومفاهيم القتال الحديثة مما اضطر المنصور احمد إلى القيام بالاستعانة بالخبرة الانجليزية لاسيما بعد معركة الارمادا وانتصار الاسطول الانجليزى على الاسطول الاسبانى بان يطلب من سفير المغرب فى لندن بان تقوم الحكومة بامداد بلاده بالاخشاب اللازمة وعدد كبير من خيرة المهرة والمهندسين وبنائى السفن الانجليزية للاستعانة بهم فى بناء انواع حديثة من السفن الحربية عملا لدفع الخطر عن البلاد وان يكون عملهم فى ترسانة العرائش لتجديدها وعملا على ان تكون السفن الحربية المغربية لاتقل عن نظائرها من السفن الاوربية تجهيزا وتسليحا وبناء ومن هنا فقد بذل المنصور منذ عام ١٥٨٩م جهودا فائقة فى تجديد وتحديث الترسانة الحربية البحرية فى الرباط والعرائش وسلا والاستعانة برجال الجهاد البحرى الاسلامى فى بعض الثغور والذين قبلوا الانضمام تحت القيادة البحرية السعدية التى كانت تتالف من اكثر من اربعة الاف مقاتل بحرى .

ولكن دور صناعة السفن المغربية فى العرائش والرباط لم تكن نفى بما تحتاج اليه البلاد من سفن عديدة لاسيما وان للمغرب موانى عديدة وسواحل طويلة على ساحل البحر المتوسط والمحيط الاطلسى مما دفع بالخليفة المنصور السعدى تلبية احتياج القوات البحرية بالقيام بشراء العديد من القطع البحرية المجهزة تجهيزا حديثا من اوربا لاسيما من انجلترا وهولندا وفرنسا دعما للاسطول المغربى الذى كان عليه ان يقوم بدوريات حراسة على الموانى المغربية وقد اوكلت قيادة هذه السفن إلى ربابنة اندلسيين او مرتزقة اوربيين او اتراك عثمانيين وقد احرز الاسطول المغربى بعض الانتصارات على البحرية البرتغالية ومنعها من دخول الموانى المغربية .

كذلك فان الاسطول السعدى كان من القوة بحيث انه كانت هناك خطط لتحالف مغربى تركى عثمانى للقيام بغزو مشترك لتحديد الاندلس من ايدى مغتصبيها حيث كانت القوات المشتركة فى هذا التحالف عام ١٥٧٦م فى عهد الخليفة عبد الملك بن محمد الشيخ مكونة من سبع وعشرين سفينة منها ثمانى سفن حربية وثلاث وعشرين سفينة نقل وست فرقاطات مما يعطى الدليل القوى بان السعديين كانوا قد عملوا على استعادة قوتهم ونفوذهم البحرى بمجرد وصولهم للحكم حيث كانوا يسعون إلى بناء قوة عسكرية بحرية تستطيع ان تحفظ لهم حماية سواحلهم الطويلة وقد ضم الاسطول المغربى اعدادا كبيرة من المغاربة واخوانهم الاندلسيين والاجانب وقد تجاوز عدد قوات الاسطول اكثر من اربعة الاف جندى كان جلهم من الاندلسيين الذين كان من بينهم اكثر من ثلاثمائة من البحارة والفنيين الاندلسيين الذين كانوا يعملون فى الترسانة البحرية فى الرباط .

ومن هنا استطاع السعديون ان ينشئوا اسطولا حربيا فى فترة زمنية وجيزة وان الاساطيل المغربية قد شهدت عهدا جديدا مغايرا لما كان عليه الاسطول فى العهد

الوطاسى، بل ان شوكة هذا الاسطول قد زادت بعد انتصار المغاربة فى معركة القصر الكبير حيث وقعت الهزيمة بالبرتغاليين ومن معهم من اوربا وكسرت شوكة نصارى البرتغال واهلكت نفوسهم وكشحت اموالهم ولم يفكر الاوروبيون فى قتال المغاربة فى ديارهم بعد هذه المعركة بعد ان هناك ملك البرتغال ومن معه من النبلاء البرتغاليين .

لكن هذه المشروعات البحرية لم تلبث ان توقفت فجاة بعد وفاة السلطان احمد المنصور الذهبى وما ساد المغرب الاقصى من حرب اهلية بين اولاد السلطان المتوفى طمعا فى العرش مما جعل ابناء المنصور السعدى الذين تنازعوا حكم البلاد لم يولوا ادنى اهتمام بالاسطول حيث كان من الطبيعى ان لا تلقى دار صناعة السفن اية عناية من قبل هؤلاء الامراء المتنازعين بعد ان سمح بعض من هؤلاء الامراء تسليم بعض القواعد البحرية للاسبان لكى تستخدمها الاساطيل الاسبانية لتموين اساطيلها المتجهة إلى المحيط الاطلسى جنوبا من أجل التربع على عرش المغرب مما اضاع هيبة الاسطول وانحدار الانتاج الحربى البحرى إلى حد ادنى واغلقت دار الصناعة ولم تعد هناك حاجة إلى رجال البحرية الانجليز الذين كانوا يعملون فى الترسانة البحرية فتمت اعادتهم إلى بلادهم حيث لم تكن تتوافر لهم امكانات الاقامة والاعاشة بعد ان ظهر العديد من الامارات والمدن المستقلة التى استقلت عن الخلافة السعدية ولم يعد لابناء السلطان احمد المنصور السعدى من حكم سوى مراكش وبعض الاجزاء المحيطة بها وخرج ميناء العرائش الذى كانت به دار صناعة السفن من حوزة المغاربة وسلمه المامون بن احمد المنصور للاسبان ولم يعد يخضع لملك المغاربة بل ان ملك اسبانيا هدد بالحرب والاستيلاء على جميع القواعد المغربية والثغور الاخرى التى تخرج منها سفن المجاهدين البحريين المسلمين لاعتراض السفن الاسبانية فى عرض المحيط او البحر مما دفع الامراء السعديين المتاخرين للعمل على طرد رجال الجهاد الاسلامى البحريين من

ميناء الرباط وسلا والتعاون مع القوى الاوربية من اجل القضاء على هذا النشاط الذى كان يجلب الكثير من المضار على حكام المغرب. وبذلك انهارت القوى البحرية كما انقسمت القوات البحرية من اثر الصراع بين ابناء الخليفة وكل مهمتهم كانت ضم قوات لتجارب القوات الاخرى وانشغل الامراء المتأخرون بالحرب الاهلية والصراع الداخلى ولم تعد هناك قوة بحرية نهائيا وتمزقت القوات البرية بين مؤيد لهذا الامير ومعارض لذلك الامير ودار القتال بين ابناء الشعب الواحد من اجل طلب العرش .

واهتم السعديون بالامن الداخلى عملا على الاستقرار ونشر الامن والامان والتقدم الاقتصادى والازدهار الحضارى ومن ثم كان العمل على تدعيم جهاز الشرطة وتخصيص الرجال له والاستعانة بهم فى اقرار الامن فى المدن الكبرى وحماية الاسواق ومصالح الشعب والسهرعلى حماية القلاع والحصون والمدن الكبرى وحماية ابواب المدن والضرب على الخارجين على القانون بشدة وحزم وحماية طرق القوافل الصحراوية وتامين وصول البريد والاقامة فى اماكن ومحطات مخصصة لهم ومراقبة سير القوافل والسهر عل تطبيق الاحكام الادارية والقضائية والقيام بما تتطلبه وظائفهم فى القبض على اللصوص والمجرمين وتقديمهم للمحاكمة وحماية السجون والسهر على تنفيذ الاوامر وكان منصب رئيس الشرطة من المراكز الهامة فى الدولة وكان رئيس الشرطة من الرجال المقربين لدى السلطان وكانت توكل اليه العديد من المهام وكان رايه يؤخذ به فى كثير من المسائل التى تهم مصالح البلاد، بل ان رئيس الشرطة لم تكن وظيفته تقل عن وظيفة قائد الجيش وكان لرؤساء الشرطة فى المدن الكبرى والولايات مكانة خاصة وكان افراد الشرطة يقومون بمعاونة رجال الحكم والادارة وديوان المظالم والقاضى وكان يعتمد عليهم فى حمابية مصادر الثروة ومراكز اقامة الاجانب فى الفنادق والوكالات التجارية وكذلك فى مراكز الجمارك والتاكد من سلامة ابواب المدينة العاصمة وبوابات

المدن الكبرى وتامينها خوفا من سطو اللصوص او الاعراب وقد ادى رجال الامن والشرطة الواجبات المنوطة بهم ومن اجل ذلك عهد المنصور السعدى إلى رئيس الشرطة فى فاس بان يقوم بقيادة اول حملة عسكرية إلى بلاد السنغال كشفا للطرق ومصادر المياة واماكن اقامة قوات الحراسة وذلك قبل ان يتوجه جودر باشا بحملته الكبيرة إلى بلاد السودان. حيث كان جيش مدينة فاس بقيادة محمد بن سالم رئيس الشرطة الخليفية بفاس وكان جيشه مكونا من الاندلسيين والشرافه وقد ادى قائد الشرطة محمد ابن سالم المهام الموكلة اليه على خير اداء ومهد الصحراء الساحلية ووصل إلى بلاد السنغال واجتاز الصحراء الغربية .

وقد كان ديوان الشرطة مرتبا ومنظما وفق الاساليب العصرية السائدة فى ذلك الوقت وفقا للقيام بالمهام الموكلة إلى هذا الجهاز حيث ان الاستقرار من جراء استتباب الامن دفع البلاد نحو التقدم الزراعى والصناعى والتجارى وساعد على حركة النقل والانتقال وانشغال الناس بالتجارة وذهاب القوافل الكبيرة إلى بلاد السودان بعد ان تم تامين الطرق الصحراوية ووضع نقط حراسة على مسافات معينة ونشط البريد فى ظل قيام رجال الشرطة بالمهام المكلفين بها والتى منها تحصيل الضرائب .

وكان جهاز الشرطة عنصرا فعالا فى تامين السيادة السعدية على البلاد وتامين النظام فى الكثير من القلاع والحصون ووضع اساس نظام ثابت للحراسة وذلك على اسس سليمة لاقرار السكينة فى ربوع البلاد حيث كانت هذه الحصون والقلاع تخضع لنظام حراسة دقيق ووضع نقط مراقبة امامية من رجال الشرطة ترقب ادنى التحركات التى تتجه صوب المدن الكبرى للقيام بعمليات اغارة او سلب او نهب .

ولقد كان لهذه الاجراءات الامنية سبب فى ازدهار التجارة الداخلية والخارجية وانتعاش حركة الاسواق والقيام بحرب ضد اعمال القرصنة والسطو وتامين الطرق

والسهر على حراستها فقصد المغرب الكثير من التجار من الشرق والغرب ولاسيما الدول الاوربية وبرزت المدن الجنوبية الواقعة على اطراف الصحراء بعد فتح السودان كمدن تجارية هامة كمدينة تارودنت وسجلماسة واضحت البلاد سوقا تجارية عظيمة تمد المغرب بكثير من السلع الهامة وكانت وفرة التبر الذى تجلبه القوافل من بلاد السودان يستدعى حراسة مشددة وتامين رجال الشرطة لقوافل الدولة المتجهة إلى السودان ومنها إلى المغرب محملة بانتاج هذه البلاد وحاملة منتجات المغرب إلى الاسواق السودانية فاصبحت القوافل تامن على نفسها وتسلك الطرق المؤدية إلى بلاد السودان وتركزت التجارة فى بلاد المغرب الاقصى من جراء قيام الشرطة بواجبها على احسن وخير اداء فى العصر السعدى حتى نهاية عصر احمد المنصور للذهبى .

(ب) المآثر الحضارية والثقافية

دافع الاشراف السعديون فى بلادهم المغرب الاقصى عن الميراث الحضارى الاسلامى الذى اصبح يتركز فى بلادهم بعد سقوط غرناطة آخر المعاقل الاسلامية فى الاندلس ١٤٩٢م وسقوط بلاد المغرب الاوسط والادنى تحت النفوذ العثمانى التركى واستطاعوا بعد جهود متلاحقة ومتواصلة من العمل ان يزيحوا من طريقهم العوامل التى تحاول ان تحد من انطلاق الحركة الفكرية الثقافية والعلمية فى المغرب وان يطردوا البرتغاليين من المدن الساحلية التى استولوا عليها، كما ان زعامة المغرب الاقصى قد بلغت ذروتها بعد انتصار القصر الكبير واصبحت مراكش عاصمة لدولة اسلامية كبرى تشمل المغرب الاقصى وبلاد السودان وزادت هذه الانتصارات السياسية من نهضة المغرب الثقافية والحضارية والعلمية فقد اصبح قلب الحياة الاسلامية المغربية. وقد حافظ الاشراف السعديون على هذه الزعامة الثقافية التى توارثتها دول المغرب الاقصى منذ ايام المرابطين واستطاع هؤلاء الاشراف ان يجنبوا بلادهم الخطر الذى اصاب بلاد المغرب الاخرى فى القرن السادس عشر وهو خطر النفوذ التركى الذى أخضع الجزائر ثم امتد إلى تونس .

وشهدت سنوات الحكم السعدى تمركز ثقافة الاسلام وحضارته وتراثه فى بلاد المغرب الاقصى لاسيما ثقافة الاندلس العربية الاسلامية ذات المآثر الكثيرة بعد ان طردت من الاندلس ونزحت الثقافة العربية غربا إلى الغرب بعد ان وفدت إلى المغرب الاوسط والادنى المؤثرات الحضارية التركية ودور الانكشارية والجند وظهر الاثر التركى العثمانى فى التنظيمات الادارية والعسكرية واصبحت اللغة التركية لغة الدواوين ولغة الجهاز الحاكم واصبح النفوذ العثمانى ممتدا غربا حتى الجزائر ووقف وكذلك فى مراكز الجمارك والتاكد من سلامة ابواب المدينة العاصمة وسجلماسه ورباط الفخ والعرائش

وغيرها من المدن الكبرى وكان يتم تعيين على اعتاب المغرب الاقصى حيث مارست مراكز الحضارة الاسلامية فى المغرب الاقصى دورها فى الحفاظ على الوجود الثقافى الحضارى العربى الاسلامى .

ولقد وضع السعديون بانتصارهم الكبير حدا لتهديد الاساطيل المسيحية للثغور والمدن المغربية واستطاعت ان تتخلص من النفوذ الصليبى ومن ثم بدا التفرغ للعمل والبناء الحضارى والثقافى والعمل فى البلاد فى مختلف الاصعده سواء فى المجال الزراعى والصناعى والتجارى البلاد فى ظل حالة الرخاء والثروة والانتعاش الاقتصادى الذى شهدته مما انعش الروح العلمية والثقافية وساعد على التقدم فى الميادين المختلفة لاسيما ان المغرب قد استفاد فائده علمية وثقافية وحضارية وفقهية ولغوية باستقبالها وفتح ذراعيها للوفود الاندلسية التى وجدت فى المغرب الاقصى وبلاده ومدنه المختلفة محطة نهائية للاستقرار فعملوا على العطاء وبذل الجهد وتطوير البلاد المغربية فى شتى المجالات .

كما ان العهد السعدى قد شهد نزوح العديد من اهل الاندلس المشتغلين بالعلم إلى المغرب الاقصى واصبحت مدن المغرب مراكز ثقافية وحضارية تستمد مصادرها من الاستقرار والطمانينة السياسية والاقتصادية ثم من حالة الرخاء والترف وثراء الامراء وعليه القوم واغدقهم على اهل العلم والادب والدين والثقافة وتشجيعهم على المضى فى طريقهم المرسوم، كما ان سقوط غرناطه وتفرق الاندلسيين ورحيل اغلبية الشعب الاندلسى إلى المغرب الاقصى قد اوجد معلما من معالم النهضة الحضارية التى لم تشهدها البلاد وشهد حالة من التطور الفكرى والثقافى والعلمى وذيوع القيم الاسلامية المتعمقة التى ساعد آل البيت السعدى الشريف على ترسيخها فى مفهوم الشعب ومن هنا تدفقت ثقافة الاندلس إلى المغرب طليقة من كل قيد بعد ان ترك الاندلسيون البلاد

نهائيا، بل ان هذه المؤثرات الاندلسية المغربية لم تكتف بما احرزته من تقدم وتطور فى بلاد المغرب بل تخطت حواجز الصحراء جنوبا لتنطلق إلى بلاد السودان الغربى بصورة اكثر كثافة وفى ظل الحملة المنصورية او بعد فتح سنغاى وما تم بعد ذلك من نزوح العلماء والفقهاء والادباء والشعراء لحضور مجالس العلم والدرس والتدريس هناك او لنشر معالم العمارة وفق البناء فى تلك البقاع الافريقية .

وقد اظلت بلاد المغرب فى ذلك العصر نهضة علمية شاملة ظهرت نتائجها ومآثر هابارزة فى الادب واللغة والفقه وعلوم الشريعة والحديث ومن هنا فقد انصهرت فى المغرب المؤثرات التركية مع المغربية مع الافريقية الوافدة من المغرب الاوسط والادنى بعد الخضوع للحكم التركى العثمانى ومن هنا سار السبق العلمى فى تلك البقعة من بلاد المغرب التى حافظت على استقلالها بعد ان كانت دعائم النهضة العلمية قد توطدت وظهرت بوضوح فى عهد الموحدين فجاء السعديون لكى يجنوا ثمار هذا التطور بعد ان خبت قليلا شعلة العلم والمعرفة والثقافة طوال عهد الوطاسيين ومن هنا لم يكن السعديون اقل حماسة ممن مضوا قبلهم فى طريق النهضة العلمية والثقافية والحضارية إلى غايتها لاسيما وان الخلفاء السعديين الذين تربوا تربية اسلامية سليمة وكان لهم تاريخ طويل فى مجال العلم والبحث والتدريس والتاليف قد ظهرت مؤثراتهم العلمية والثقافية طوال قيامهم بالتدريس فى جامع القرويين ولابناء سلاطين الوطاسيين فسرعان ما كانوا حجة فى الامور الفلسفية والمسائل الشرعية وعلوم الدين والذين عملوا على اقتناء الكتب والمخطوطات وانشاء المكتبات واحاطوا انفسهم بالعلماء ورجال الدين والفقه والحديث والتفسير ومن ذلك مثلا ما ذكره السلاوى فى كتابه الاستقصا عن السلطان ابو عبد الله محمد الشيخ والد احمد منصور الذهبى والذى تلقب بالمهدى بانه بلغ فى العلم درجة الرسوخ حتى انه كان يخالف القضاه فى الاحكام التى يرون انها

يجب ان تكون ثم يرد عليهم فيما افتوا فيه فيجدون الصواب معه وقد وقع ذلك مرارا وكانت له حواشى على التفسير وبعدها فقد شهدت البلاد نهضة علمية اسلامية فى العصر السعدى لا تقل عن عهد المرابطين والموحدين وبنى مرين ان لم تكن تتفوق عليها فى العديد من المجالات .

كما ان الخليفة احمد الاعرج بن محمد القائم بامر الله ثانى الخلفاء السعدين بعد أن ادى فريضة الحج وعاد من الاراضى المقدسة بالحجاز ووصل إلى المغرب فانه استقر بمدينة فاس حيث اتخذ موقعا له فى مجلس القرويين للقيام بالتدريس والتعليم واكتسب لذلك سمعة طيبة وتقربا من ذوى السلطان حتى صار مؤدبا ومعلما لابناء السلطان احمد الوطاسى وكان كذلك يقوم باعمال التدريس والوعظ والتاليف حتى القتال والتحرير جنوب البلاد ومن هنا كانت الاسرة السعدية تقوم على الشرف والشرافة السعدية القرشية وعلى العلم والاهتمام بعلوم الشرع والدين والفقه والحديث والاهتمام بعلوم اللغة العربية وادابها وذلك عملا على العودة إلى ان يصبح المغرب الاقصى قلعة الاسلام والعلم والثقافة، بل انه فى ظل الاستقلال وعدم التبعية التى نعمت بها بلاد المغرب ظلت تستلهم طريق التقدم الاسلامى واساليب الحياة والعلم متاثرة بالقيم المغربية والمؤثرات الحضارية العربية الشرقية وهكذا تزعم المغرب الاقصى فى العهد السعدى الحياة الثقافية والعلمية والفكرية فى بلاد المغرب كلها وكان لهذه الاحداث كلها اثرها الفكرى فى تاكيد الزعامة الثقافية التى وضحت وتجلت فى مدارس المغرب الاقصى المختلفة التى مارست نشاطها فى اثراء الحركة الثقافية والعلمية وبرزت مدارس مراكش وفاس وسلجماسه وثارودانت واغمات وسلا والعرائش واغادير وغيرها من المدارس العلمية والثقافية التى توثقت فيما بينها بالروابط العلمية والفقهية والذى تمثل فى انتقال العلماء ورجال الدين وحطهم الرحال فى كل من هذه المدن لفترة وسرعان

ما ينتقلون إلى مدن اخرى لكى يسهموا فى اثراء الحركة الفقهية والدينية وما تمثل ايضا فى انتقال الطلاب إلى جامع القرويين بفاس طلبا للعلم واستزادة من مناهله الفياضة وتلقى دروس الفقه والحديث وعلوم الرياضه والفلك والكيمياء وغيرها من علوم العصر على ايدى جهابذة العلم المغاربة فى ذلك الوقت والذين اشركوا معهم اخوانهم الاندلسيين الذين ضربوا بباع طويل فى مختلف العلوم والفنون وكان لهم دورهم البارز على مختلف الاصعدة العلمية .

كما ان العصر السعدى شهد ازدياد دور الطرق الصوفية كالشاذلية والقادرية والجزولية والجيلانية وغيرها من الطرق الصوفية الفرعية التى استقطبت حولها العديد من ابناء الشعب المغربى والتى كان لها دور فى الجهاد والعمل والعبادة وكانت لها مؤلفاتها التى يتلقفها انصارها بالدراسة والتدريس والتى ساعدت على نمو الروح الاسلامية المجاهدة ضد العدو المحتل وكيف انها كانت تلقى بمؤثراتها على ابناء الشعب المغربى فى المنطقة الممتدة من ساحل البحر المتوسط وساحل المحيط الاطلسى فى الداخل وصولا إلى البوادى والقرى وكيف ان الدعوة السعدية نفسها قامت على اكتاف رجال الطريقة الصوفية الجزولية وكيف ان الطرق الصوفية فتحت ميدانا جديدا للدعوة الاسلامية بعد ان تضافرت جهود رجال الطرق واقطابها ضد القوى المتحكمة فى مصير المغرب فقد اسقطت الاسرة المرينية وكذلك ساعدت فى اسقاط اسرة بنى وطاسى وكيف ساعدت هذه الطرق فى ظهور نزعة التحرر الوطنى والجهاد ضد القوى الاوربية والتفتح على الحياة الثقافية وكيف ان الصبغة الدينية وفق تعاليم المذهب المالكى وهى التى كانت تسود فى البلاد وكيف ان الذهب المالكى كان راسخا كل الرسوخ بين ابناء الشعب المغربى والذين كانوا يكنون حبا خالصا للدوحة النبوية الشريفة والشجرة الذكية الهاشمية ومن هنا بسط المذهب المالكى لواءه على كل المذاهب الصغرى

الاخرى التى اختنقت من الحياة الدينية المغربية وكيف ان الحركة الفكرية العلمية المغربية عقدت اواصر التحالف مع السعديين من اجل استمرار الارتباط باسم الوحدة الجهادية الاسلامية سعيا للوصول إلى صيغ ثقافية مقبولة من لدن المجتمع الغربى بعد ان دخلت بعض الانحرافات والشعوذة والمفاهيم الخاطئة فى الطرق الصوفية وكان على السعديين تصحيح مسار هذه الطرق وربطها بحركة المرابطة للجهاد الاسلامى لتكون الصلة بينها وبين التعاليم الدينية الاسلامية الصحيحة قوية وكذلك عملا على تعميق المناخ الحضارى الثقافى البدوى الذى عايشته الاسرة السعدية فى السوس جنوب مراكش خاليا من البدع والخزعبلات والذى كان ميراث الاسرة السعدية الشريفة فى مرحلتها الاولى ينطلق من اساس ان قادة السعديين الثلاثة (محمد القائم بأمر الله واولاده احمد الاعرج ومحمد الشيخ) كانوا من رجال الدعوة الاسلامية والذين كانت لهم اهمية كبرى فى دفع حركة تنقية المسيرة الصوفية من كل ما شابها من اضرار لحقت بها وغياب الوعى العلمى الاسلامى القرآنى من اثر اختلاط العوام والاطراف الاخرى المعادية لنبع الاسلام الصافى المتمثل فى كتاب الله الكريم وسنة خير المرسلين

وكيف ان القبائل العربية المنتشرة فى ارجاء المغرب أسهمت فى اثراء الحركة اللغوية العربية ونشر العلوم الفقهية وظهور العديد من رجال الدين والفقه والحديث والتفسير من ابناء هذه القبائل مما ساعد على تدعيم العمل العلمى الاسلامى وكيف ان المؤثرات الحضارية الاسلامية أسهمت فى التطور السياسى والاقتصادى والاجتماعى للمجتمع المغربى الذى كان قد اصابه التمزق والتشرذم من جراء الثورات الداخلية والانقسامات الاقليمية وظهور كيانات صغيرة والجيوب الاستعمارية فجاءت الاسرة السعدية لتصبح فكرة الوطن الواحد والقيم الاسلامية التى قادها الدعاة والمعلمون فى

دروب المغرب المختلفة مما ساعد على بروز الاشعاع الحضارى الاسلامى بنفس القدر والقوة التى كانت تسود عصور المرابطين والموحدين بعد ان كان مجئ الاسرة السعدية قد واكب تقلص المظاهر الحضارية والثقافية الاسلامية فى العصر الوطاسى، لكن السعديين وقد قدموا من جنوب البلاد جاء معهم دفع حضارى قوى وعميق قلب وجهة الحياة الفكرية والثقافية الاسلامية راسا على عقب واحس الناس بتاثير تعاليم الطريقة الصوفية الجزولية التى رفع شعارها السعديون لاسيما ان هذه الطريقة الصوفية الصافية عملت على نشر العقيدة الصحيحة وتوحيد المغاربة للوقوف صفا واحدا وسدا منيعا فى وجه المد الاستعمارى وقد تسلح المريدون حينئذ بالقرآن والشريعة والسلاح لمحاربة المستعمرين الاوربيين وكذلك العمل على مقاومة النفس والرجوع إلى جادة الطريق. وهكذا حملت الطرق الصوفية مشعل الثقافة العربية الاسلامية وكان لارباب الزوايا والمريدين دور كبير فى نشر التعاليم الاسلامية ولعبوا دورا ثقافيا وادبيا .

وقد شهدت المغرب فى نهاية القرن السادس عشر ازدياد نفوذ العلماء وعملهم على نصح الرعية والدولة وزيادة الاهتمام بالدين لاسيما قبيلة جزولية التى كانت منتشرة فى الصحراء والسوس ونهضت بالجهاد ضد الامراء المتاخرين فى الاسرة السعدية لحملهم بالسيف على تغيير المنكر لاسيما بعد ان انتشر الخلل والفساد والرذيلة فى المجتمع .

ولقد زادت سمعة جامعة القرويين بفاس فى عهد السعديين واشتهرت فى الأصقاع السودانية واصبح التعليم العالى والاجازاة التى كانت تمنحها تلك الجامعة مطلبا للطلاب بعد ان يكونوا قد تضلعوا فى علوم الدين والعلم واللغة لعدة سنوات وبعد ان اكتظت بالطلاب والدارسين الذين دابوا على اختيار الاستاذ وحضور حلقات الدرس المناسبة حيث كان كل استاذ يدرس اكثر من مادة واحدة وقد يلقى درسا من كتاب

يدرس منه استاذ آخر فى ذات الوقت وقد اعتبرت المساجد فى مختلف المدن المغربية اماكن للدرس والتدريس والتحصيل وتهافت الطلاب على حضور حلقات العلم فى المساجد التى كانت تشهد توسعا لان الجامع كان يعتبر بمثابة مدرسة تلقى فيها علوم الدين وقد كان التعليم بجميع اطواره يجرى فى المساجد او الجوامع لاسيما ان الفقهاء كانوا ياتون بالصبية والاطفال إلى المساحات الخارجية من المساجد لتحفيظهم القران الكريم وتدريسهم علوم الدين واللغة وقد اشتهرت مدارس الصبيان او الكتاتيب فى العهد السعدى فى جميع انحاء البلاد والقرى والبوادى والسهول والسفوح وفى كل تجمع سكانى حيث حرص سلاطين السعديين على الوصول بالقرآن وعلومه إلى كل بقاع المغرب الاقصى لاسيما بعد ان امتد نفوذهم إلى بلاد السودان .

ومن الامر المؤكد ان مراكز الثقافة والحضارة الاسلامية تحولت فى العهد السعدى من الاشعاع الدينى إلى الاشعاع الحضارى الثقافى واصبحت هذه المراكز من الشهرة فى العالم العربى والاسلامى وتزخر بالعلم والثقافة الاسلامية وبمؤلفات الاساتذة وقد تطلع العالم الاسلامى والاوربى إلى هذه المراكز الثقافية، وانه فى ذلك العصر لم يعد التعليم مقتصرا على المساجد والجوامع بل انه قد ظهرت انواع من التعليم الذى له صلة بالعلوم العصرية والمواد التى تدرس لاجل اكتساب المهارات والصنائع وزاد الاهتمام بالعلوم الحديثة واقبل الطلاب على دراسة هذا النوع من العلوم عملا على النبوغ فى قطاع من هذه القطاعات وقد كان الطلاب يتوافدون من البلاد البعيدة إلى مراكش او فاس للحصول على اجازات علمية تفتح لهم ابواب التدريس والتوظف فى بلادهم وكان اولئك الطلاب يدرسون امهات الكتب على الاساتذة والذين كان من بينهم الاندلسيون الذين ادخلوا العديد من العلوم الحديثة للتدريس كعلوم الرياضيات والكيمياء والفلسفة والطبيعة وعلوم الفلك والفيزياء وغيرها من العلوم التى كانت

منتشرة فى غرناطة قبل سقوطها عام ١٤٩٢م فنقلوا طرق تدريسهم وتعليمهم إلى المغرب بعيدا عن جو الارهاب ومحاكم التفتيش والاضطهاد والقتل والحرق وهى الاساليب التى كان يستخدمها الاسبان معهم من اجل اجبارهم على التنصير وترك الاسلام والدخول فى المسيحية .

لكنه رغم كل هذا التقدم الذى ادركه العصر السعدى فى مختلف العلوم الا ان العلوم الشرعية وعلوم اللغة العربية ظلت محور الحركة الثقافية والعلمية والفكرية طوال العصر السعدى وظلت امهات الكتب الاسلامية وما ظهر حولها من حواشى وشروح من المواضيع التى تدرس سواء فى التفسير وعلوم الحديث وكل ذلك كان يدور حول المذهب المالكى الذى كان هو مذهب اهل المغرب والسودان بعد ضمة للدولة المغربية السعدية، بل اكثر من ذلك فان مؤلفات الاساتذة والعلماء المغاربة كانت تدرس فى جامعات المغرب والمشرق وبلاد السودان، بل ان هناك اساتذة مغاربة كثيرين كانوا يدرسون فى جامعة الازهر وجامعة الزيتون بتونس وكان منهم العديد من المجاورين فى بيت الله الحرام فى مكة المكرمة والمدينة المنورة ويقومون بالقاء الدروس فى حلقات دراسية داخل المسجد المكى او النبوى. ولقد اصبح المغرب الاقصى بحق يساهم بقدر كبير ودور لاينكر فى اثراء حركة الفكر العربى الاسلامى ودفع الثقافة العربية الاسلامية قدما فى شتى الاقطار المغربية بل فى كل القارة الافريقية وصولا إلى بلاد السودان الغربى والاوسط والشرقى من منطلق الدور الذى لعبه الخليفة المنصور السعدى بعد فتح السودان وضمه للديار المغربية فى وحدة اسلامية شملت بلاد المغرب والسودان .

وذلك لان الحركة الثقافية والفكرية والعلمية فى المغرب قد اخذت مناخا وأغراضا فكرية متنوعة بعد ان كان العمل العلمى فى العصور السابقة ينحصر فى النواحى الدينية واللغوية والمنطق فتخطاها إلى دراسة كل العلوم الاوربية لاسيما وان

المغاربة قد احسوا بما وصل اليه الاوروبيون من تقدم وتطور عملي فى ظل دراسة هذه العلوم والفنون الجديدة التى زاد اطلاع المغاربة عليها بعد ان زادت صلتهم ببلاد انجلترا وفرنسا وهولندا واسبانيا وصقلت مواهبهم بالاطلاع على المؤلفات التى قدموا بها إلى مراكش وتهافت الطلاب على دراستها وعمل العلماء على شرائها ونسخها لكى ياخذ المدرسون بتبسيطها وادخالها فى المدارس المغربية بعد ان حظى التعليم بنوع من التنظيم والعناية لم يكن يعرفها من قبل ولم تعد المدارس وقفا على ابناء السلاطين والامراء وعليه القوم وقادة الجند والشرطة والقضاة وابناء العلماء انفسهم بل تعدتها إلى كل طوائف الشعب بعد ان عمل المنصور الذهبى على ادخال العلوم الحديثة لاثراء المكتبة المغربية بكل جديد وطريف فى هذا الميدان العلمى بعد ان حدث تطور علمى لاسيما وان المنصور فتح ابواب العلم والبحث امام العلماء وقد راينا كيف انه قدم إلى المغرب احد كبار مصممى الاسلحة الثقيلة المخترع الاندلسى احمد الحجرى المشهور بافوكان بعد ان هرب من اسبانيا ووضع المنصور كل الامكانات امامه للاختراع فافرغ اختراعاته وتصميماته معمل السلاح بمراكش الذى بدا يصنع انواعا خاصة من مدافع الميدان .

ولقد توافد على جامعات المغرب العشرات من علماء وخبراء الاندلس والمغرب الاوسط وبلاد المشرق الاسلامى واستقبلت جامعة القرويين العشرات ايضا ممن لمع اسمهم فى تاريخ العلم والفكر والتقدم وبارك السعديون الحركة العلمية والثقافية والفكرية العربية الاسلامية وشجعوها واحترموا العلماء والفقهاء والمخترعين وقربوهم اليهم واسقطوا عنهم وظائف السلطنةومنعوا عنهم ظلم الحكام، وكان للعلماء وضع خاص بحيث انه كان لا يجوز لغير السلطان النظر فى اية شكوى ضد اى عالم او فقيه .

ومن هنا فقد ادى الامر بعد اعوام قصيرة من تولى احمد المنصور الذهبى الحكم ان ظهرت نهضة علمية حقيقية تقوم على الدراسة المنهجية والتطبيقية واتضح فيها

معالم الفن المغربى الاندلسى الاصيل وظهر الالتحام المغربى الاندلسى فى كل المجالات لاسيما انه قد توجهت بعثات طلابية من مراكش وفارس إلى انجلترا وفرنسا وندب المنصور السعدى بعضا من الطلاب للعمل فى المجالات الصناعية ليكتسبوا الخبرات من العلماء الاجانب وسمحوا لبعض الطلاب بالتوجه إلى اوربا للاطلاع على الابحاث والمخترعات والوقوف على احوال هذه البلاد ومعالم التقدم العلمى بها .

وكذلك زاد عدد المثقفين بالعربية واللغات الاوربية لدرجة اننا نجد بعض المغاربة كان يجيد اللغة التركية والاسبانية والانجليزية وغيرها من اللغات الاوربية وكان يطلع على المؤلفات الاوربية بلغات اهلها وقد كان هذا نموذجا مغربيا رغم التمسك بالقرآن الكريم ودراسة علوم الشرع والدين والمحافظة على القيم والعادات والتقاليد المغربية .

وهكذا فانه يمكن القول بان المراكز الثقافية الاسلامية فى ذلك العصر كانت قد حققت نجاحا بارزا فى ربط الفكر الدينى العربى الإسلامى بالحضارات الاوربية فى المجال التطبيقى والعلمى وسار ذلك النهج فى نطاقه التاثيرى المتبادل بحيث لم يكن يتخطى الآخذ بعلوم الغرب بعد امتداد للثقافة الاوربية، انما ياخذ منها ما يستفيد منه الراغبون فى العلم والاستزادة من العلوم الاوربية خروجا على المجال القديم الذى كان يدرس الفلسفة والمنطق والتاريخ وآداب الرحلات والشعر وعلوم اللغة العربية والادب والانشاء وعلوم الدين من فقه وحديث وشهدت البلاد تقدما فى العلوم الصناعية والهندسة المعمارية ودراسة علوم الكيمياء والرياضيات وعلوم صناعة الاسلحة وانتقل بعض الاندلسيين إلى المغرب بما كان لديهم من علم اعطوه خبرة لابناء المغرب .

وقد انتشرت المؤثرات الاندلسية بصفة خاصة فى مدن واقاليم الساحل نظرا لقربها من الاندلس وصارت مراكش وفاس حواضر عالمية ذات تاريخ مجيد فى الحضارة والثقافة العربية الاسلامية لاسيما ان سلاطين السعديين فى مراكش وفاس كانوا

يستقدمون اعلام الفقهاءوالعلماء لتهذيب اولادهم وحضور مجالس مشورتهم بل ان مجلس الشورى الذى شكله المنصور السعدى كان يضم بين صفوفه بعضا من الفقهاء البارزين، بل ان الخلفاء السعديين كانوا يشجعون الاطباء والفلاسفة وكانوا يتخذون مجالس لهم تضم العديد من الشعراء والادباء وقربوا الفقهاء واغدقوا عليهم وشجعوهم بكل وسيلة وعملوا على استخدام النخبة العلمية الاندلسية والعمل بكل الوسائل على تهريبهم من الاندلس للاستفادة بهم بعد ان كان ملوك اسبانيا يحرمون على الصناع والعلماء المسلمين الاندلسيين الهجرة إلى المغرب استفادة منهم وتسخيرهم للعمل فى المجالات الصناعية والعلمية وذلك لما اشتهر به علماء المسلمين المتخصصين فى مختلف المجالات كالطب والصيدلة والبيطرة والهندسة والصناعات الحربية .

وكما سبق القول فان المنصور السعدى قد جدد المدارس القديمة وانشأ العديد من المدارس فى ذلك العصر وقد اكد المؤرخون كالقشنالى واليفرانى وغيرهم من المعاصرين للسعديين ان المدارس القديمة والحديثة قد تفوقت فى هذا العصر تفوقا ظاهرا وبدأ التفوق فى الطب والهندسة والكيمياء والصناعات الحربية وفى العلوم الشرعية وغيرها من العلوم الاخرى حتى اذا تمكن المغرب من هضم العلوم العصرية بعد ان زخرت بها المدارس بدا المغرب يخرج تفوقا فى هذه العلوم بعد ان عاد الاندلسيون إلى المغرب بذخيرة علمية عظيمة ينفعون بها الناس .

وهكذا يمكن القول من خلال هذا العرض لجوانب الحياة الفكرية والثقافية والعلمية فى المغرب ان هذه البلاد قد شهدت فى عهد الخليفة المنصور السعدى الذهبى امنا وطمانينة واستقرارا لم تشهده فى اى عصر سابق من قبله سواء فى عصر اخيه عبد المالك بن محمد الشيخ او اخيه عبد الله الغالب او فى العصور السابقة مما أدى إلى انتشار الآثار الفنية والعلمية فى مدن المغرب الاقصى لكن الحاضرة مراكش وفاس كانتا

اكثر تالقا فى سماء العلم والفن والثقافة العربية الاسلامية بسبب وجود بلاط السلطان السعدى وبلاد ولى العهد فى فاس وما يحيط بهما من ابهة ومظاهر السلطنة وبسبب تنافس الامراء وكبار رجال الدولة وعلية القوم فشهدت البلاد نهضة فى المدارس والمكتبات وخزانات الكتب ودكاكين الوراقين كما اصبحت مدينة مراكش وفاس من اهم مراكز الفن والحضارة والثقافة فى عهد السعديين .

كذلك لعب الثراء الواسع وورود الذهب بكميات كبيرة وزيادة انتاجه إلى رواج التجارة والصناعة بسبب توافر الذهب بكثرة ووفرة كما ادى الرخاء إلى زيادة دخل الدولة وثراء السلاطين لاسيما المنصور السعدى وقد زاد ثراء السعديين وعظم جاهلهم بعد ان جمعوا كميات كبيرة من الذهب السودانى وفدية اسرى معركة القصر الكبير واصبح من الميسور ان ينفق السلاطين اموالا كبيرة فى اقامة المصانع (السكر والاسلحة والمنسوجات) واقامة القصور (قصر البديع فى مراكش) واقامة المساجد والجوامع واصلاح جامع القرويين بفاس، كما كان وفود اهل الفن والصناعة الاندلسيون مما دفعهم إلى الانفاق لذلك تجلت فى المبانى السعدية الروعة والثروة وروعة الفن وضخامة المبانى اضافة إلى قيام السعديين باحياء تقاليد الاسلام ورفع لواء السنة واتسام الامراء والولاة منذ مؤسس الاسرة محمد القائم بامر الله بالتقوى والصلاح مرورا باولاده احمد الاعرج ومحمد الشيخ اقبالا على العبادة وذكر الله، فقلت المبانى المدنية بجانب انتشار المساجد والجوامع فيما عدا قصر البديع الذى استمر بناؤه ست سنوات فى عهد المنصور بالاضافة إلى ان المنصور امر ببناء العديد من المساجد فى المدن الكبرى وانشاء الزوايا والاربطة وبناء المسجد الجامع الكبير فى مراكش لاسيما وان الناس قد اقبلوا على المساجد اقبالا منقطع النظير مما اضطر الدولة إلى الاكثار من بناء هذه المساجد، نعم أقبل امراء السعديين على بناء القصور وتنافسوا فى بنائها وزخرفتها بينما توجه

السعديون بعنايتهم إلى المساجد، وقد بذل المنصور اموالا كثيرة فى تجديد وتوسيع جامع القرويين بفاس واستجلب له خيرة الصناع المهرة والمهندسين حتى جاء اروع آية فى فن البناء وابهته وهكذا حرص السعديون على تثبيت سيادتهم على تراب المغرب الاقصى بالكامل عملا على اسقاط الوطاسيين وكذلك القضاء على الامارات المستقلة والمدن التى اعلنت استقلالها عن العاصمة مراكش وكذلك الجيوب البرتغالية لاسيما بعد معركة القصر الكبير ١٥٧٨م وكذلك فان السعديين لم يهملوا جانب بناء القناطر والجسور فقد اهتم المنصور ببناء القناطر الضخمة على الانهار لربط طرق الامبراطورية واجرى القنوات الكبرى للرى والشرب واستخراج المعادن على اختلافها وبصفة عامة فان المنصور كان ينمى مرافق البلاد ويضاعف قدراتها المالية وقد نجح السعديون فى سياستهم هذه نجاحا بعيد المدى .

وهكذا نرى كيف ان المغرب حققت خطوات واسعة وبارزة فى المجالات الثقافية والفكرية والعلمية من جراء حالة الاستقرار الامنى والرخاء الاقتصادى وتوسع الدولة جنوب الصحراء الكبرى واستقدام العلماء والخبراء من الاندلس والدول الاوربية التى ساعدت على أن تقفز المغرب قفزة جبارة فى مختلف المجالات والاصعدة العلمية .

وهكذا خطت الدولة السعدية بعدا مغايرا للعصور والاسرات الحاكمة قبلها فى الاهتمام بالعلوم العصرية الحديثة وادخالها فى مدارسها وتدريسها وتدريب المغاربة على استخدام المواد الصناعية فى الصناعات المختلفة مما دفع بالمغرب لان تخطو خطوات واسعة مغايرة لبقية البلاد المغربية التى كانت تخضع للحكم العثمانى التركى مما دفع بالمغرب ان يلعب دورا بارزا ومتميزا على الساحة العالمية ودخوله فى علاقات قوية مع الدول الاوربية كفرنسا وانجلترا وهولندا وأسبانيا وبلاد الخلافة التركية العثمانية .

الفصل الثامن

السعديون وعلاقاتهم مع القوى المعاصرة

تبوات المغرب فى العهد السعدى مكانة مرموقة بين القوى الدولية المعاصرة لها لاسيما بعد احراز نصر القصر الكبير عام ١٥٧٨م على القوات البرتغالية ومن تحالف معها من القوات الاوربية .

كذلك زادت هذه المكانة تالقا بعد اتمام فتح بلاد السودان (سنغاى) وضمها للديار المغربية وتكوين المنصور السعدى لامبراطورية اسلامية كبرى تقف على صف المساواة مع الدولة التركية العثمانية والامبراطورية الاسبانية فيما وراء البحار. وقد ساعد هذان الانتصاران على ان تخطب الدول المعاصرة للمغرب (الامبراطورية التركية العثمانية- اسبانيا- انجلترا- فرنسا- هولندا) ود المغرب وتسعى لاقامة علاقات طيبة معها تتسم بروح المساواة وتبادل المصالح المشتركة سواء ما كان منها تجاريا اقتصاديا او سياسيا الهدف من ورائه تحقيق المصلحة العليا للمغرب كدولة وشعبها كرعية بحيث يؤدى ذلك فى النهاية إلى المحافظة على كيانة القومى الاقليمى وعدم السماح بالتنازل عن شبر من هذا التراب وذلك فى حالة وجود سلاطين اقوياء يفضلون مصلحة الشعب على المصالح الشخصية التى كانت تتبعها تنازلات عن بعض الثغور أو الموانى المغربية لبعض القوى الخارجية .

ومما لاشك فيه ان القرن السادس عشر الميلادى عصر الدولة السعدية قد شهد تطورات سياسية بين القوى الاوربية والدولة المغربية لاسيما بعد أن تصاعدت القوى المسيحية الاوربية وانتشرت عبر المحيطات محاولة حصار الوجود العربى الاسلامى لاسيما ان العهد الوطاسى السابق للاسرة السعدية كان قد اغلق حدوده عليه وافلت شمس الدولة المغربية الكبرى فى عهد الموحدين ومع هذا فان المغرب فى العهد الوطاسى وهو

أضعف حلقات الحكم فى المغرب بحيث اصبح المغرب عاجزا عن صد الغارات الاوربية منقسما داخليا على نفسه بين امارات ودويلات صغيرة فكان فى تلك الآونة (١٤٢٠- ١٥١٠م الاسرة الوطاسية) يمثل حلقة ضعيفة مغلوبة بين قوتين اوربيتين صاعدتين هما البرتغال واسبانيا ثم بعد ذلك انجلترا واسبانيا وفرنسا وهولندا (الارض المنخفضة) وجاء الدور على الكيان الاسلامى الذى يلبس ثوب الخلافة الاسلامية متمثلا فى الدولة التركية العثمانية الصاعدة التى بسطت لواءها على شرق البحر المتوسط والبلاد العربية واوربا الشرقية .

وكان المغرب فى ظل هذه الصراعات مع بداية النصف الثانى من القرن السادس عشر يمثل بالنسبة للدول الاوربية السابق الاشارة لها الجسر الاول للعبور إلى افريقية والهند والعالم الجديد عن طريق سواحله الطويلة الممتدة على ساحل المحيط الاطلسى، وبفضل ثغوره المتعددة على ساحل البحر المتوسط كان العثمانيون الاتراك ينظرون إلى المنطقة الغنية المغربية التى استعصت على جيوشهم محاولة النيل منها أو اخضاعها مثلما تم اخضاع تونس والجزائر حيث انه كان البلد العربى الوحيد فى ذلك الوقت الذى يعيش وحيدا خارج نطاق الخلافة العثمانية .

ومع ظهور حركة الجهاد الاسلامى ودور الطريقة الجزولية فى ترشيح الاسرة السعدية الشريفة لكى تتحرك تحت راية الجهاد الاسلامى مرتدية عباءة الشرافة القرشية الهاشمية النبوية الزكية كانت كل الموانئ الهامة الكبرى فى المغرب قد تحولت إلى قواعد برتغالية واسبانية فكان لابد من مقاومة هذا الخطر بعد ان بدا التفكير من القوى الاوربية فى التوغل فى الداخل حيث مراكش العاصمة وفاس .

كما أن العقد الثانى من القرن السادس عشر قد شهد بداية دخول الاتراك العثمانيين إلى بلاد المغرب وذلك فى نفس الوقت الذى شهد قيام الدولة السعدية

بالمغرب الاقصى ولقد كان دخول الاتراك إلى ميدان المغرب العربى انما يهدف فى المقام الاول إلى احياء حركة الجهاد الاسلامى البحرى التى يقودها قوات المجاهدين المسلمين (جهاد اسلامى وليس قرصنة بحرية كما صور ذلك المؤرخون الغربيون الاوروبيون فذلك من اجل تخليص هذه البلاد من قوى الاحتلال المسيحى والقضاء على نفوذ القوى الفرنجية) ثم ضم هذه البلاد إلى الخلافة العثمانية فكان من المتوقع ان يكون هناك تقاربا بين القوتين الاسلاميتين العثمانيين الاتراك) (والشراف السعديين للعمل سويا على طرد القوى الاوربية ومواجهتها والعمل على حصرها من بلاد المغرب وتحرير الثغور المغربية من اردانهم النجسة ولاسيما ان نفوذهم قد امتد من باب مضيق جبل طارق حتى طرابلس مارا بالجزائر التى سيطروا على بعض بلاده هى وتونس ولاسيما أن معظم ثغور المغرب الاقصى فى العصر الوطاسى كانت واقعة تحت الاحتلال البرتغالى والاسبانى وكان الشعب المغربى قد تعلقت كل آماله وطموحاته فى الاستقلال وطرد الغزاه بالاسرة الحاكمة السعدية الشريفة التى قدمت من جنوب بلاد السوس لكى تعمل على توحيد القوى الوطنية السياسية تحت الراية السعدية لاسيما أن هذه الاسرة قد استطاعت قبل ان تنهى الوجود الوطاسى من فاس عام ١٥٤٩م أن تحرر كل الموانئ المغربية الممتدة من سانت كروز (فى اقليم العيون الصحراوى) إلى ازمور قد عادت عن طريق الجهاد الاسلامى للسيادة السعدية الشريفة .

(أ) ابعاد العلاقة السعدية التركية العثمانية

لقد عمل الاتراك العثمانيون منذ الوهلة الاولى التى دخلت فيها قواتهم إلى الموانئ والديار المغربية فى الجزائر وتونس وطرابلس على العمل على كسر شوكة القوى الاوربية المسيحية ومنعها من تنفيذ خططها لاحتواء الاراضى المغربية ولاسيما فى المغرب الاقصى الذى اراده لهم ضما لبقية الاراضى المغربية فى المغرب الاوسط والادنى ومن ثم كان ارسالهم شحنات السلاح التركية الوفيرة للمغاربة وحركة الجهاد الاسلامى المغربى لكى تكون فى ايدى المجاهدين لتحرير السيادة الوطنية وكانت الاسلحة الوفيرة التى ضمت اسلحة متقدمة منها آلات للحصار ومدافع عاملا حاسما فى تحرير الموانئ المغربية من ايدى البرتغاليين والاسبانين لاسيما ان الاتراك قد انتهزوا دعوة السعديين القائمة على القضاء على مراكز الاحتلال الاجنبى لبلاد المغرب الاقصى وان هذا الشعور الوطنى المغربى السعدى قد لقى قبولا وحماسا من الجانب التركى العثمانى الذى كان يهدف فى المقام الاول من تحركه فى غرب البحر المتوسط إلى اعادة البلاد المغربية إلى سيادتها ثم التفكير مستقبلا فى دفع حركة الجهاد الاسلامى لكى يندفع وراء مضيق جبل طارق لتحرير الاندلس التى كانت لاتزال توجد بها قوة من الاندلسيين الموركسين التى تقدر باكثر من مليون ونصف المليون مواطن مسلم، والذين كانت لاتزال تراودهم احلامهم بالعمل على ان تعود لهم السيادة والكيان الاسلامى تطلعا إلى الدول الاسلامية العربية للعمل فى تقديم الوان العون العسكرى والمادى والمعنوى باوسع نطاق له لتحطيم الحكم المسيحى والعمل على دفعه شمالا من جنوب شبه الجزيرة الايبيرية وحضارة خلف جبال البرانس .

ولقد عملت المغرب على الاستفادة من وصول الاندلسيين الموركسيين من اسبانيا واستقرارهم فى الديار المغربية خلال الفترات التى كانوا يتعرضون فيها لاقسى

انواع التعامل البشرى ولاسيما ان السعديين عملوا على ان تكون لهم قوات حربية وعسكرية منتظمة وفق احدث الاساليب العصرية فكانت الاستعانة بنواة الجيش السعدى بهذه الاعداد الاندلسية المنظمة والمدربة احسن تدريب والتى تملك زمام استخدام الاسلحة الحديثة، وهكذا كان تكوين جيش مغربى حديث بمساعدة الاندلسيين يدفع بالمغرب بالمقدمة لكى تكون دولة قوية لاسيما ان الاستعانة بهم قد تمت فى العديد من المؤسسات المغربية والتى كانت غالبيتها مؤسسات ومصانع حربية وعسكرية .

ولكن ازاء تطور القوة العسكرية المغربية فان خلافا قد حدث بين اتجاه حكام المغرب الاقصى من السعديين الجدد وبين سلاطين آل عثمان الاتراك وبجانبهم رجال الجهاد الاسلامى البحرى، ذلك لان السعديين والذين كانوا يعتزون بنسبهم القرشى باعتبارهم خلفاء اشراف من الدوحة الزكية النبوية ويطمعون إلى فرض خلافتهم على جميع البلاد الاسلامية وخاصة بلا المغرب العربى (انظر حملة محمد الشيخ السعدى إلى تلمسان) هذا إلى جانب اعتزازهم بوطنهم المغرب ومحافظتهم على استقلاله والعمل على دعم هذا الاستقلال وعدم قبولهم لادنى تدخل يحد من استقلال وكرامة وطنهم وعدم قبولهم لاية سلطة خارجية حتى ولو كانت سلطة اسلامية من دولة كبرى كالامبراطورية العثمانية، والذى كان الاشراف السعديون يرفضون الاعتراف بخلافتهم على العالم العربى والاسلامى باعتبار ان سلاطين الاتراك العثمانية ينتمون إلى عنصر الاعاجم وليس العنصر العربى الشريف القرشى فى حين ان الاتراك العثمانيين كانوا يسعون إلى بسط لواء سيطرتهم على المغرب الاقصى وتوحيد بلاد المغرب الكبير وذلك لتامين الجانب الغربى لامبراطوريتهم وخاصة حوض البحر المتوسط الغربى وسواحل المحيط الاطلسى، وذلك لمواجهة الخطر الصليبى بقوى اسلامية كبيرة وموحدة، ولقد

كان على الاتراك نظرا لاعتبارات استراتيجية وسياسية وعسكرية ان ينهضوا بالمهمة الدقيقة وكان الاتراك ينظرون من زاوية السيطرة المرحلية على بلاد المغرب الاقصى وكانوا يرون فى تزويد السعديين وحركة الجهاد الاسلامى بالاسلحة النارية والمدافع الحديثة ما يكسبهم التاييد الشعبى والالتفاف حول الخلافة العثمانية ويدفع الشعب المغربى وعليه القوم وذوى النفوذ ورجال الدين إلى حسن النية بالنسبة للاتراك .

لكن خلافا قد نشب فى أوائل عهد الاسرة السعدية عندما تقدمت قوات محمد الشيخ السعدى للسيطرة على المغرب الاوسط حماية لظهر المغرب الاقصى من الشرق وتطور ذلك إلى صراع مسلح بينهما وخاصة بعد وصول النفوذ العثمانى إلى المغرب الاوسط الذى يشترك مع السعديين فى الحدود السياسية، والاحداث التاريخية منذ ظهور العثمانيين على مسرح الاحداث السياسية ذلك لانه لا توجد دولة وقفت امام تيار الزحف التركى مثلما صمدت الدولة السعدية وحافظت على استقلالها وخاصة بعد ان بدات احتكاكاتها واتصالاتها بالاتراك العثمانيين فى عهد اقوى سلطانين فى تاريخ الاتراك وهما سليم الاول وسليمان القانونى، ولقد كان السعديون يعملون على اخذ الحيطة واليقظة والحذر فى تعاملهم مع الاتراك نظرا لمعرفتهم لنوايا سلاطين آل عثمان والتى كانت اخبارهم تصل إلى مسامع السعديين والتى ربما كانت على جانب من الصحة. وان كان الذى يقوم بنقلها الاسبان والفرنسيون عملا على عدم تكوين جبهة اسلامية قوية تقف ضد الوجود الاوربى على سواحل البحر المتوسط والمحيط الاطلسى .

ولقد عاون الاتراك العثمانية السعديين فى السيطرة على فاس عام ١٥٤٩م وانهاء الاسرة الوطاسية وراجت اشاعات نقلها قناصل اسبانيا وفرنسا ان السعديين يفكرون فى بناء اسطول بحرى ضخم عملا على استعادة الاندلس من أيدى الاسبان بمعاونة القوات التركية العثمانية، لكن لم يمض زمن طويل على اكتساح السعديين

لفاس الا وكانت قواتهم تنزل شرقا فى اتجاه المغرب الاوسط حيث السيطرة على تلمسان بعد ان اخضعوا فى طريقهم اليها مدينة وجدة بالقرب من الجزائر ولم يمض يونيو ١٥٥٠م الا وكانت تلمسان تخضع لنفوذ محمد الشيخ السعدى بعد أن أمن الشيخ السعدى عدم تحرش القوات الاسبانية بقواته وربما تكون قد عقدت معاهدة بين الطرفين من اجل طرد واضعاف قوة الاتراك العثمانيين فى الجزائر ويبدو ان المساعدات العسكرية الاسبانية قد مكنت محمد الشيخ من احراز انتصاراته فى المغرب الاوسط على الاتراك العثمانيين والتغلب عليهم لكن ازاء ذلك القتال فى المغرب الاوسط فان الاتراك انتهزوا فرصة طلب أبى حسون الوطاسى المساعدة لاستعادة ملكة من أيدى السعديين بالمغرب الاقصى واستعداده لضم المغرب تحت السيادة التركية وقامت حملة تركية عثمانية بقيادة صالح رايس والى الجزائر بالاستيلاء على فاس وطرد محمد الشيخ من عاصمة الوطاسيين وقد بدا ظاهرا أن المغرب اصبح تحت النفوذ العثمانى .

وكانت الدولة العلية العثمانية قد راجعت حساباتها بعد ان اصبح المغرب ليس عدوا للاسبان ولكنه حليف قوى لهم مما جعل هذا التحالف يقلب الموازين راسا على عقب فكانت الحملة التركية لاكتساح المغرب واعلان الباب العالى ضم المغرب إلى الخلافة العثمانية بعد أن خطب امام مسجد القرويين بفاس فى عهد أبى حسون الوطاسى للخليفة العثمانى لاول مرة ولاخر مرة فى تاريخ المغرب حيث أن ذلك لم يدم طويلا اذ أن الثورة الشعبية العارمة قامت لتخلع السلطان الوطاسى وتطرد الاتراك .

وتعد استعادة فاس نقطة تحول فى تاريخ العلاقات التركية بالدولة السعدية فقد ظهرت عداوة محمد الشيخ المهدى لتركيا بان ابن محمد الشيخ صرح اكثر من مرة بانه عازم على دخول الجزائر ومنازلتهم بها. وازاء هذا الوضع بالغ الخطورة تحرك العثمانيون بسرعة وارسلوا وقد إلى محمد الشيخ للتفاوض وعندما وصلت سفارة

السلطان التركى، تأخر الخليفة المغربى فى استقبالها ثم اذن لها بالمثول بين بديه وابقاهم واقفين على ارجلهم وكان مما قاله لهم تحقيرا لسلطانهم وتحديا له. سلم على أمير القوارب سلطانك وقل له ان سلطان المغرب لابد ان ينازلك على محمل مصر ويكون قتاله معك عليه وان شاء الله باتيك إلى مصر والسلام» بل ان السلطان السعدى كان يطلق لسانه فى السلطان العثمانى ويسميه سلطان القوارب .

ولا شك ان التاريخ العثمانى السعدى على المغرب كان فى صالح الاسبان والبرتغاليين ولهذا فقد حدث التقارب السعدى البرتغالى ولقد ادرك السلطان سليمان القانونى مدى تقارب محمد الشيخ مع المسيحيين وتطور هذا التعاون إلى مشروع للتحالف ضد العثمانيين ومع ذلك فقد كانت سياسة الخليفة العثمانى اخذ المغرب بالهداوة، لكن الرد القاسى الذى ابلغته الحاشية التركية للسلطان كان من اثره أن العثمانيين جربوا لاول مرة اثارة الفرقة التركية العسكرية العاملة فى المغرب ضد السلطان المغربى ونظام حكمه وقد جر ذلك إلى الكثير من المتاعب وتعرض محمد الشيخ للاغتيال والقتل .

وقد ادى حادث اغتيال محمد الشيخ والغدر به بهذه الطريقة البشعة بعد قطع راسه ووضعها فى مخلاة وارسالها إلى القسطنطينية وتعليقها على احد ابواب العاصمة التركية قد أدت إلى زيادة العداوة بين الاتراك وأبى عبد الله الغالب بن محمد الشيخ الذى تولى الحكم خلفا لابيه مما دفع الغالب إلى الاندافع فى سياسة المهادنة مع الاوربيين فاضطر الغالب المتلهف إلى السلاح والقوات العسكرية أن يتنازل لفرنسا فى عام ١٥٥٩م عن مدينة القصر الصغير الواقعة بين سبته وطنجة مقابل الحصول على اسلحة فرنسية تقوى وضعه امام خطر الاتراك الراغبة فى ضم المغرب باية طريقة وباى ثمن. وكان الاتراك قد ربطوا جسورهم وتعاونوا مع القوات التى اغتالت محمد الشيخ

فى المغرب ونزلوا بجزيرة باديس وتوغلوا فى المغرب من جديد حتى اشرفوا على مدينة فاس، الا أن عبد الله الغالب سلم الجزيرة للاسبان أملا فى دخول اسبانيا الحرب ضد الاتراك العثمانيين واشراكها فى الحرب لمنع الاسطول العثمانى من انزال قوات برية فى سواحل المغرب وكان يقابل ذلك عند المغاربة الصمود والتضحية بكل شئ والتحالف حتى مع الشيطان للحفاظ على استقلال بلادهم لاسيما ان الاتراك العثمانيين استخدموا عدة وسائل لتنفيذ هدفهم فى ضم المغرب والمطالبة على الدوام باية وسيلة بقبول الخلافة العثمانية لاسيما بعد احتضانها للامراء السعديين عبد المالك واحمد المنصور وعبد المؤمن أبناء محمد الشيخ نكاية فى أخيهم عبد الله الغالب وكذلك العمل على توزيع الاسلحة على بعض القبائل المغربية دفعا لانماء روح الوحدة الاسلامية والعمل على بث تلك الدعوة فى الاوساط الدينية والقبائل الكبرى .

وكذلك عملت تركيا على الابقاء على للقوات التركية المحترفة العاملة مع الجيش المغربى ولاسيما الحاشية التركية التى كانت مقربة لدى الخليفة السابق، واذا كان الغالب قد تنازل لفرنسا عن القصر الصغير ولاسبانيا عن حجر بادس فانه تنازل ايضا للبرتغال عن ميناء مازاكان بعد ان كان المغاربة قد قاربوا تخليصه من أيديهم .

وكان الاتراك قد ارسلوا حملة بقيادة حسن بن خير الدين باشا حاكم الجزائر لكن القوات المغربية قضت على طموحات هذه الحملة وتمت هزيمتها ولم يشهد عصر الغالب أية محاولات تركية اخرى بعد حملة حسن خير الدين باشا .

وقد حدث تطور هام فى عام ١٥٧١م عندما انكسر الاسطول العثمانى بشكل تام امام اساطيل اسبانيا واوربا فى معركة لبيانتو ومنذ ذلك لم يعد العثمانيون يفكرون فى اضافة حلقة اخرى فى سلسلة امبراطوريتهم، بل اصبح المغرب بالنسبة لهم يشكل سدا قويا يقف فى مواجهة القوى المسيحية القوية والمتفوقة .

لكن الاتراك استضافوا اعداء الغالب من البيت السعدى أمثال عبد المالك وعبد المؤمن واحمد المنصور عندما التجأ هؤلاء الامراء السعديون إلى الباب العالى طالبين العون لاسترجاع العرش السعدى لهم بعد تعاون الغالب مع الدول المسيحية مما دفع الاتراك بامدادهم باسلحة ومدافع وجيش كامل قوامة خمسة آلاف جندى مسلحين احسن تسليح وفق اساليب العصر وذلك بعد ان نجح عبد المالك واخوته فى اقناع السلطان سليم الثانى فى اغراء الاتراك بمساعدتهم بهذه القوات لاسيما وان عبد المالك وأخاه المنصور قاما بدور كبير فى حملة تونس وبلغت اخبار انتصاراتهما إلى مسامع السلطان العثمانى وقد خصص السلطان العثمانى لمولاى عبد المالك واخويه عبد المالك واحمد المنصور بتلمسان مبالغ مالية كبيرة للمساعدة وكذلك عشرين مدفعا حديثا وعشرين سفينة نقل للقوات وكان انتصار العثمانيين فى تونس قد شجعهم على مساعدة الامراء السعديين لبسط نفوذهم بعد ذلك على المغرب الاقصى لان استيلاء الاتراك على المغرب الاقصى يؤكد سيطرتهم على جميع البلاد ويؤمن حدودهم الغربية زيادة على ان ضم المغرب إلى الامبراطورية يجعل الاسبان والبرتغاليين فى نزاع دائم وقد يكون ذلك عاملا قويا ومساعدا على العمل لاعادة فتح الاندلس مرة اخرى ومساعدة المسلمين وعودتهم إلى ديارهم ودخل الجيش التركى لمساعدة عبد المالك فى فاس عام ١٥٧٥م وبعد استتباب الامر للسلطان المولى عبد المالك عادت القوات التركية ادراجها إلى الجزائر مرة ثانية وازاء اشتداد الصراع بين عبد المالك وابن أخيه محمد المتوكل (المسلوخ) ابن الغالب فان العثمانيين ساهموا مساهمة فعالة فى ارسال اسلحة حديثة ومتنوعة وكذلك قوات وخبراء عسكريين ومدربين وأشفعوا ذلك بارسال فيلق عسكرى تركى للمساندة عام ١٥٧٨م فى الصراع الدائر على أرض المغرب .

وقد أرك الاتراك بعد عودة القوات إلى الجزائر خطورة سياسة عبد المالك واتجاهه

بل نزوعه إلى الاستقلال حيث كانت هذه سياسة اسلافه السابقين من البيت السعدى وكذلك مسالمة المسبحيين وتوطيد العلاقات معم ولم تمض سنوات قليلة حتى غدروا به كما غدروا سابقا بوالده محمد الشيخ ووضعوا له السم فى كعك اهدى ومات عبد المالك قبل انتهاء معركة القصر الكبير عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م أقوال معادية للوحدة الاسلامية) والذى دس السم لعمه عبد المالك هو الامير محمد المتوكل (المسلوخ) لاحداث بلبلة بين قوات عبد المالك وتحقيق النصر للبرتغاليين بقيادة دوق سباستيان فى القصر الكبير وليس الاتراك هم الذين وضعوا السم لان ذلك غير مؤكد .

وفى عهد احمد المنصور السعدى الذى خلف اخاه عبد المالك فى تولى أمور المغرب بعد انتصار القصر الكبير فان العلاقات بدات متوترة نظرا لتدخلهم السافر فى تولية اسماعيل بن عبد المالك بدلا من المنصور بعد انتهاء المعركة وبعد فشل الانقلاب الذى جرى ضده من قبل الاندلسيين خاصة وانه كان هناك اتفاق بين الاندلسيين المورسكين الضباط العاملين فى جيش المغرب للعمل بمساعدة الاتراك لقلب نظام الحكم والاطاحة بالبيت السعدى وتاسيس دولة اندلسية تحت الحماية التركية برئاسة الامير السعدى دواد بن عبد المؤمن. ويخبرنا القشتالى فى كتاب مناهل الصفا فى اخبار موالينا الشرفا وكان قريبا من الاحداث بان محمد بن زرقون الاندلسى جمع كلمة الجنود الاندلسيين كافة على الثورة والفتنة ومن هنا فقد تحقق أمير المؤمنين أحمد المنصور من ذلك وما انطوى عليه دور الاندلسيين فى العداوة والبغضاء لسلطان السعديين نظرا لعملهم على هدم الاسرة السعدية وتفريق امر الجماعة فما كان من أحمد المنصور الا أن أعدم غالبية الضباط الاندلسيين الموالين للاتراك وتطهير جيشه من صفوفهم وكان احتضان الاتراك لاسماعيل بن المالك ابن صاحب انتصار القصر الكبير تمهيدا لاستغلاله ضد المنصور ومحاولة اخضاعه للخلافة التركية .

والثابت أن هذه المؤامرة لم تثر اهتمام الاتراك العثمانيين والباب العالى بالقدر الذى كان يحدث من قبل ويظهر ان طلب حاكم الجزائر الرئيس علوج باشا أسلحة وسفن وقوات من السلطان فى ذلك الوقت بالذات وهو العام الاول من تولى المنصور لم يلق تجاوبا يذكر فقد اسدل الستار على المشاكل بعد وصول سفراء كل بلد إلى البلد الآخر .

وكان السلطان مراد الثالث التركى قد افتتح علاقاته مع المنصور بارسال سفاره تهنئة إلى خليفة مراكش للانتصار الكبير على الاوربيين فى معركة القصر الكبير مع هدية وكانت رسالة الخليفة العثمانى تدعو المنصور إلى أن يكون على أهبة الاستعداد لتحرير وهران والمشاركة فى حرب الاسبان، بل اكثر من هذا فقد رغب السلطان مراد الثالث فى عقد حلف مع المغرب يهدف فى الدرجة الاولى إلى غزو اسبانيا واستعادة الاندلس لانه عدو عنيد للحركة الاسلامية بل ان السلطان التركى طلب ان تعلق الاتفاقية والعهد بالكعبة المشرفة والروضة المعظمة وطلب من المنصور أن يرسل اليه جيشا جرارا وقوات كبيرة للعمل على فتح الاندلس ان شاء الله ولعل السلطان العثمانى كان صادقا فى تحليله وعرضه فاسبانيا بعد هزيمتها المنكرة فى معركة الارمادا فى ٣٠ يونيو ١٥٨٨م امام القوات الانجليزية هبطت إلى الدرجة الثانية بالنسبة للقوات الكبرى المعروفة فى ذلك الوقت، ومن هنا فانه لم يكن من الصعب القيام بعمل تركى مغربى ضدها لاسيما بحجم القوات التى عرض السلطان مراد الثالث ارسالها لمشاركة القوات المغربية، لاسيما ان سلطان بنى عثمان كان يعلم مدى عمق العلاقات والصداقة القوية التى تربط الملكة اليزابيث ملكة انجلترا بالسلطان المنصور السعدى ومدى اتصالاتهما بشأن ولى عهد البرتغال والمشكلة الاسبانية، لكن انجلترا لم تكن هى أو غيرها من ملوك اوربا وامرائها فى ذلك الوقت تسمح باعتداء اسلامى على دولة مسيحية او الاشتراك فى

التعاون من اجل السيطرة على اسبانيا وقد يكون ذلك مبدا عاما لازالت تسير عليه السياسه الغربية الاوربية الامريكية حتى وقتنا الحاضر .

ولكن المنصور السعدى كان حذرا من الاتراك بعد أن غدروا بأبيه محمد الشيخ وأخيه عبد المالك ومن ثم اتخذ موقفا سلبيا من قبل السفارات التى كان يتم ارسالها إلى بلاده وموقف اللامبالاة وعدم إرسال هدايا مماثلة إلى السلطان مراد الثالث لكن هناك آراء تذكر عكس ذلك لان المنصور كان يرى فى هذه المراسلات ما هى الا سباق بين الاتراك والانجليز لكسب ود المنصور وكان المنصور يردد دائما اذاء هذه المراسلات التركية بالقول لعل ذلك اجتماع لكلمة الاسلام ان شاء الله بهذا الصلح الذى آن أن ينعقد بين الدولتين ويبرم حكمه بين المملكتين عونا على صرف العناية بحول الله لمجاهدة عدو الدين .

وتردد السفراء بين الاستانة (القسطنطينية) وبين مراكش فتوجهت سفارات احمد ابن ودة والشاطبى والشياظمى وابن الحسن على بن محمد التمكرونى بين أعوام ١٥٨٨ و ١٥٩٠م واستقبل احمد المنصور سفيرا تركيا فى يناير ١٥٨٩م، ولكن اقتراح السلطان العثمانى لم يتحقق لاسباب مجهولة وقد يكون من بينها القيام بالثورة ضد الوجود التركى فى طرابلس الغرب وكذلك ثورات مدمرة فى تونس أغفلت السلطات العثمانية فى ذلك الوقت عن التفكير فى مشروع تحرير الاندلس نظرا لان هذه الثورات استنفذت بعضا من جهد الدولة وهددت قوتها، كما أن الاحوال فى بلاد الشام واليمن فى ذلك الوقت لم تكن هادئة، كذلك فان ثورات رجال القبائل فى الجزائر جعلت القوات التركية فى الجزائر منصرفة لاخماد ثورات رجال الجبال، كذلك فان مراد الثالث واجه ثورات عنيفة فى الاقاليم الاوربية الغربية القريبة من بحر البلطيق ودول الصرب والبلقان مما جعل الاتراك ينصرفون عن مشروعهم فى غزو اسبانيا بالتعاون

مع المغاربة، كذلك فان حروب السلطان مراد الثالث فى الشرق مع ايران (فارس) قد أخذت جهدا كبيرا من نشاط الدولة وازاء هذه المواقف اخذت العلاقات بين الاتراك والسعديين تعود إلى حالة من الهدوء والود بعد أن انصفت بالحذر والحيطة من جانب المغاربة وكانت الظروف الدولية تساعد على ذلك، ولكن الخلاف التركى المغربى لم يجعل المغاربة يستثمرون انتصاراتهم فى معركة القصر الكبير ذلك لانه لو قدر لهذه العلاقات أن تكون متعاونة ومتضافرة لتم تحرير قواعد الاحتلال فى المغرب الاقصى .

لكن ازاء تحسن العلاقات وجد المنصور فرصة للانطلاق بالسياسة الخارجية وكانت مسالمة الاتراك عاملا قويا فى ممارسة سياسة التوسع فى السودان الغربى (سنغاى) ومن ذلك فانه عندما كان المنصور السعدى يستعرض قواته العسكرية المتجهة إلى بلاد السودان الغربى كان السفير المغربى لدى الخلافة التركية العثمانية السفير أبو الحسن على بن محمد التمكرونى يلقى خطبة اسلامية لدى يدى السلطان العثمانى يحض فيها على اتحاد كلمة المسلمين وتوحيد جيوشهم لمحاربة الكفار والوثنيين واعادة المسلمين إلى سابق عزهم ومجدهم التليد ومن هنا بات واضحا ازاء هذه الخطبة أن العثمانيين الاتراك لن يتحركوا ضد المغرب من جديد بازاء طموحاته فى التوسع فى بلاد السودان وهكذا شهد عصر المنصور انتهاء الاطماع العثمانية التركية فى المغرب وتسليم الباب العالى بالامر الواقع .

وبعد أن فتح المنصور بلاد السودان الغربى فقد أخذ يرنو ببصره إلى بلاد الشرق الاسلامى لبسط نفوذه عليها واعلان خلافته على مصر والشام وبلاد الحجاز والعراق وغيرها من البلاد العربية التى تخضع للحكم التركى، ومن ثم فقد أخذ يراسل زعماء هذه البلاد وعلية القوم وكبار رجال الدين وقادة البلاد وكبار الاسر والاعيان عاملا على بث الدعوة للخلافة السعدية القرشية الشريفة وأرسل إلى علماء مصر خاصة نظرا لدور

مصر الكبير فى المنطقة باعتبارها مدخلا إلى بلاد الشرق الاسلامى وعملا على تكوين قاعدة مشايعة للدوة السعدية فى بلاد كمصر وغيرها من البلاد واخذ العلماء والفقهاء ورجال الدين فى الازهر الشريف وفى الحجاز ودمشق وحمص وحماه وبغداد يتطلعون إلى حكم الشريف السعدى والتحرر من جبروت وظلم نظام الحكم العثمانى التركى وقد ظهر ذلك فى رد العلماء المصريين فى رسائلهم إلى المنصور السعدى بل ان المنصور اتخذ خطوات فعلية فى هذا السيبل فقد راسل عالمين كبيرين من علماء مصر فى ذلك الوقت هما ابو عبد الله محمد بن يحيى الشهير ببدر الدين القرافى، والامام العارف بالله أبو عبد الله محمد بن الشيخ أبى الحسن البكرى وقد كتبا اليه ردهما فى شأن ما كان يطلبه المنصور .

وكذلك عمل على وصول دعوته إلى بلاد الشام والى عقر دار الخلافة التركية فى القسطنطينية ومن ذلك فانه أرسل سفارة إلى انجلترا ليخاطب الملكة اليزابث فى طلب مساعدة انجلترا عن طريق اسطولها فى نقل وفد مغربى إلى حلب على الحدود القريبة من تركيا لعرض الدعوة السعدية الشريفة ومد نفوذها إلى هذه البلاد مؤكدا لملكة انجلترا بأن المسلمين فى بلاد الشرق الاسلامى سوف ينضمون إلى لوائه والدعوة له والترحيب بالخلافة القرشية العربية بدلا من خلافة العثمانيين الاتراك الاعاجم اذا وصلت هذه الوفود إلى بلاد الشام، لكن ملكة انجلترا اعتذرت عن القيام بمثل هذا العمل بعد أن اتضح لها أن المنصور السعدى يهدف إلى فتح الاندلس واعادة المسلمين إلى ديارهم والى طرد النصارى من الاقاليم الجنوبية للاندلس واقامة كيان اسلامى بتشجيع من تركيا. وقد تنبهت السلطات العثمانية فى هذه البلاد إلى نوايا احمد المنصور وحالت بينه وبين الاتصال بمن كانت هذه الوفود المغربية تريد الاتصال بهم لتحقيق اهدافها .

وفى مقابل ذلك فان السلطان التركى وحاكم طرابلس العثمانى مد المساعدة للسلطان ادريس الوما سلطان برنو الاسلامية فى السودان الاوسط وأمده بالسلاح النارى والاسلحة الحديثة نكاية فى مخطط المنصور من أجل زعزعه الاستقرار فى البلاد التى تخضع للحكم العثمانى (عبد الفتاح مقلد الغنيمى، سلطنة برنو الاسلامية رسالة ماجستير غير مطبوعة جامعة القاهرة ١٩٧٥م) .

وفى عهد السلطان التركى محمد الثالث وصلت سفارة تركية إلى المغرب تطلب من المنصور السعدى اخلاء مدينة أغادير الميناء الرئيسى للبلاد لاعداده قاعدة للاسطول الانجليزى وبأن لايتعرض رجال الجهاد الاسلامى فى البحر للسفن الفرنسية وقد أدرك المنصور ازاء رسالة محمد الثالث مدى تقارب انجلترا مع تركيا، ولكن المنصور الذى كان مشهودا له بحسن التخطيط والحنكة السياسية أدار ظهره للانجليز واتجه للاسبان بعد تحول السياسة الانجليزية عن المغاربة وكان هذا الاتجاه هو السياسة التقليدية للسياسة المغربية ووصل التفاهم مع الملك الاسبانى فيليب الثالث إلى حد دفع المنصور إلى التعاون والتحالف التام وأن يدخل فى حلف ثلاثى مكون من المغرب وفارس (ايران) واسبانيا عام ١٦٠٢ ضد الاتراك على أمل الاستفادة من التحالف الثلاثى وتقسيم الخلافة التركية وبسط نفوذ الخلافة السعدية القرشية على بلاد الشرق الاسلامى وهكذا كان المنصور السعدى شخصية قوية ماهرة ذكية حنكتة الايام فخطط للمغرب وجهه القوى وكيانه المستقل .

(ب) السعديون وعلاقاتهم مع انجلترا

كان الموقع الجغرافى المتميز للمغرب الاقصى بامتداد سواحله الطويلة على شواطئ البحر المتوسط والمحيط الاطلسى واعتباره مفتاح الطريق إلى افريقية وملاصقته لجنوب أوربا بحيث لايفصلها الا ذلك المضيق المعروف بمضيق جبل طارق وكثرة المنحنيات المغربية الطبيعية والزراعية وما تجود به ارضها من خيرات وتقدمها فى صناعات لم تكن اوربا تعرفها وكانت فى أمس الحاجة اليها كانتاج السكر الذى تخصصت فيه المغرب وتهافت الاوربيون جميعا على استيراده وكانت المبادلات التجارية لما يحقق مصالح الطرفين قد دفعت بانجلترا بان تدخل ميدان العلاقات والصلات مع المغرب السعدى لاسيما بعد الانتصار الساحق الذى احرزه المغرب على البرتغال ودول اوربا التى تسانده فى معركة القصر الكبير عام ١٥٧٨م .

ومن هنا فقد أخذت العلاقات بين الطرفين شكلا تجاريا خالصا فى بداية الامر بل ان أول صلات وعلاقات بين المملكتين كانت تجارية ومنذ بداية العهد السعدى بدأ التنظيم والتوسع فى تجارة البلدين لاسيما وأن انجلترا قد بدأت تجارتها مع السعديين وهم لايزالون حركة اسلامية مجاهدة فى اقليم السوس بالجنوب، ذلك لان التجار الانجليز كانوا يترددون على المناطق المغربية جنوب مراكش لشراء منتجات هذا الاقليم من السكر وملح البارود اضافة إلى منتحات بلاد السودان الغربى التى كانت تصل إلى سجلماسة وتارودانت والاقاليم الجنوبية من المغرب. ولتقدم القبطان توماس وتيد هام الانجليزى بباخرته المحملة بالاسلحة النارية الحديثة الثقيلة والتى كان من بينها المدافع إلى ميناء أغادير وأسفى فى الجنوب عام ١٥٥١ ودفع بهذه الاسلحة التى كان المغاربة فى اشد الشوق اليها لاستخدامها فى تقوية صفوفهم وطرد البرتغاليين من هذه النواحى حيث تم طرد البرتغاليين بحد السيف وقوة السلاح من أغادير وأسفى قبيل قدوم هذه

الاسلحة ومن ثم عادت هذه السفينة محملة بمنتجات المغرب ومنها السكر واللوز والذهب .

وباع التجار الانجليز الاسلحة إلى المغاربة خرقا لاوامر البابا التى كانت تنص على عدم بيع الاسلحة للمسلمين فكان يتم تبادل السكر وتبر الذهب بالاسلحة ولما تولى محمد الشيخ مقاليد الامور فى المغرب عمل على توسيع نطاق التجارة مع الانجليز وقد حصل قبل قدوم توماس بعدة سنوات وفى عام ١٥٤١م على أسلحة انجليزية استطاع بهذه الاسلحة احراز الانتصار على البرتغاليين وتم له طرد البرتغاليين من جميع الموانئ المغربية فيما عدا طنجة وسبته ومازكان .

وقد اعتبرت البرتغال آنذاك أن نمو التبادل النوعى وزيادة قدرة المغرب العسكرية موجهتان ضد مصالحها مباشرة واعتبرت أن استخدام الانجليز لميناء اغادير وأسفى معا لانزال السلاح اساءة بالغة لكل المسيحيين وخروج على أوامر بابا روما .

ولقد سار أبو عبد الله الغالب بن محمد الشيخ على سياسة أبيه فى تطوير علاقة السعديين مع انجلترا لذا فاننا نجده يقوم فى جمادى الاولى عام ٩٧٧هـ اكتوبر ١٥٦٩م بارسال رسالة إلى اليزابيث ملكة انجلترا طالب فيها دوام العلاقات التجارية واستعداد المغرب لفتح ثغوره أمام السفن الانجليزية وامداد انجلترا بالسلع المغربية التى تحتاج اليها السوق الانجليزية والمصانع الانجليزية فى مقابل امداد المغاربة بالاسلحة والذخيرة والمدفع .

ولقد فعل محمد المتوكل (المسلوخ) ابن الغالب نفس الشئ مع انجلترا اذ أرسل إلى انجلترا طالبا السلاح لصد الخطر العثمانى ومقاومة عمه عبد المالك بن محمد الشيخ المطالب بالعرش واستطاع عبد المالك الحصول على الخشب الانجليزى لبناء سفن للاسطول المغربى وكذلك السلاح اللازم لقواته من انجلترا وكانت انجلترا فى

أمس الحاجة إلى ملح البرود لصناعة الاسلحة فى بلادها وقبل اشهر قليلة من معركة القصر الكبير ١٥٧٨م وصل سفير انجليزى إلى مراكش هو ادمون هوجان Hogan على ظهر سفينة حربية انجليزية محملة بالمدافع الثقيلة الكبيرة وانواع متعددة من البنادق والذخائر وعادت إلى بلادها بالذهب وملح البارود والسكر، كذلك مارست شركة انجليزية نشاطها التجارى فى المغرب باسم الشركة البربرية منذ عام ١٥٨٥م، ولقد كانت هذه الشركة هى صلة الربط التجارى حيث كانت تضم العديد من التجار الانجليز من انجلترا والمغرب وكانت تمارس نشاطها التجارى بل والصناعى بموافقة السلطات المغربية .

بل ان الملكة اليزابيث بعد ارسالها الاسلحة لعبد المالك بن محمد الشيخ حاولت عقد اتفاقية تحالف مع الحكام السعديين وطلبت منهم فك الاسرى الذين سقطوا فى أيديهم فى معركة القصر الكبير، اضافة إلى جعل المغرب سوقا للتجارة الانجليزية وقد سمح عبد المالك فى فترة حكمه القصيرة بتصدير ملح البارود اللازم لمدافعهم ومصانع الحربية الانجليزية وكذلك السكر والنحاس وغيرها من المنتجات المغربية الوفيرة وذلك فى مقابل أن ترسل انجلترا للمغرب الاسلحة ومواد البناء للسفن ولقد كانت الاسلحة الانجليزية والعلاقات المغربية الانجليزية وراء انتصار المغاربة فى معركة القصر الكبير مما دفع فيليب الثانى ملك اسبانيا إلى التقدم باعتراض إلى المغرب للنمو الخطير فى العلاقات المغربية الانجليزية لكن اليزابيث ملكة انجلترا كانت تواقه لان تواصل التبادل غير المشروع فى نظر البابوية وأوربا فى السلاح مقابل ملح البارود المراكشى اللازم لصنع الذخيرة والذى لم يكن متوافرا الا عند المغاربة فقط ورغم ما فعلته فى اخفاء هذه التجارة غير المشروعة فقد عرف بها فليب الثانى ملك اسبانيا وملات المرارة قلبه حين تحطم الجيش المسيحى الاوربى فى موقعة القصر الكبير بواسطة اسلحة مستوردة من

انجلترا لذا اعترض بشدة عندما علم برغبة اليزابيث فى اعادة العلاقات التجارية فيما بعد مع أحمد المنصور الذهبى إلى حد أن أضطر الشريف السعدى إلى رفض طلبها الا انه عاد فقبل التبادل لان عودة التجارة كانت رغبة ملحة لدى المنصور من أجل تزويد جيشه بالسلاح وكانت تعادل رغبة اليزابيث فى الحصول على ملح البارود. ولم تمض فترة طويلة حتى علم العالم المسيحى كلة وكذلك اسبانيا ان المغاربة يحصلون على حاجتهم من السلاح والذخيرة والمدافع وخشب السفن والاسطول من انجلترا وكذلك طلقات المدافع واسلحة الاسطول وكل ما يحتاج المغاربة كان يتم الحصول علية من انجلترا وقد استقبل المنصور سفير ملكة انجلترا للتهنئة بانتصارات القصر الكبير ولكن مما يدعو إلى الدهشة انة لم يكن يحمل من الهدايا ماهو جدير بالتسجيل. وقد زادت فرصة التجارة مع انجلترا بعد وصول هذا السفير فقد تم فى عام ١٥٨٠م تكوين أول اتحاد للتجار الانجليز فى المغرب . وعملت انجلترا على زيادة نفوذها التجارى وزاد الاهتمام الذى أولاه اتحاد التجار الانجليز بهذه الشركة وأرسل المنصور رسالة إلى انجلترا مفادها أن المنصور سيعامل التجار الانجليز بجميل العدل وحسن الانصاف فى سائر أحوالهم وعامة شئونهم وهكذا كانت هذه الرسالة فاتحة عهد جديد فى العلاقات المغربية الانجليزية فى عهد المنصور لما فيه مصلحة البلدين حيث أن المنصور كان يعقد على التعاون المغربى الانجليزى أعظم الآمال ويتطلع إلى القيام معهم بعمل عسكرى مشترك ضد المصالح الاسبانية وضرب مصالحها فى مختلف جهات العالم ويبدو أن الانجليز كانوا معجبين بالطموح المغربى ومدركين أهمية دوره فى محاربة الاسبان والنزول بسواحلهم ولكنهم لم ينظروا بجدية لهذا الموضوع على نفس قدر حكمهم على مخططاته الاستعمارية .

ولقد كان الدور الانجليزى منصرفا إلى منع الاسبان من الحصول على أية

مكاسب في المغرب ومحاولة تضييق الخناق عليهم لذا كانت تقف مع المنصور فى منعه من التنازل عن مينا العرائش أو مقايضته بميناء الجديدة ومنع الاسبان أن يستغلوا عنصر الحذر المغربى من العثمانيين الاتراك ليصلوا إلى مكسب فى الاراضى المغربية. ولكن أهم انجاز عملى كان متصلا بالجانب التجارى فاصبحت المعادن على اختلافها وخاصة النحاس وملح البارود والسكر تاخذ طريقها إلى بحر الشمال ويقابلها فى الاتجاه المعاكس السلاح والسفن .

وجاءت قضية الدو انطونيو المطالب بالعرش البرتغالى ضد الاسبان الذين ضموا البرتغال إلى املاكهم والجهود المبذولة لاعادتة إلى عرشه على النطاقين العسكرى والمالى لتدخل العلاقات بين البلدين مرحلة أكثر نشاطا وحيوية وكانت الملكة اليزابيث تلح على المنصور فى دفع الاموال للامير البرتغالى والتريث فى موضوع ارسال الجنود المغاربة إلى لشبونة وكان ذلك الدور المغربى دليلا على المكانة العالية التى وصلت اليها المغرب فى مجال السياسة الاوربية الخارجية فى عهد المنصور، وفى عام ١٥٨٨م تم هزيمة الارمادا الاسبانية هزيمة ساحقة ومن ثم ظهرت انجلترا كاقوى دولة بحرية وتحكمت فى بحار العالم وساعدت الهولنديين فى الحصول على استقلالهم عن أسبانيا .

ولقد استفاد المنصور من هذه الظروف الدولية اذ اصدر فى ١١ يناير ١٥٨٨م أوامره لحاكم تطوان أحمد النفيسى بالهجوم على مدينة سبته التى كانت تحتلها اسبانيا وذلك لتكون مركزا للاسطول المغربى وكانت تلك أول مرة كشف فيها المنصور أوراقه أمام الاسبان وأن هذا الهجوم كان بالاتفاق مع انجلترا والمطالب بالعرش البرتغالى ويدل على ذلك بكل وضوح ما جاء فى رسالة المنصور فتضمنت خطة مغربية بمنتهى الذكاء وهى أن يجئ الاسطول الانجليزى فى وقت الهجوم المغربى إلى السواحل المغربية

الشمالية ويقوم المغاربة بالاغارة على مدينة سبته برا وبحرا وذلك لدفع بقايا الاسطول الاسبانى لترك هذه القاعدة والتقوقع بالموانئ الاسبانية الجنوبية الشرقية وافساح المجال أمام الاسطول المغربى للقيام بعملية غزو سبته على أوسع نطاق استفادة من تحطيم الاسطول الاسبانى وعدم قدرته على الدفاع عن المدينة لان أسطوله كان فى حالة سيئة بعد هزيمته أمام الاسطول الانجليزى .

وقد احتفل أحمد المنصور الذهبى بانتصار انجلترا على أسبانيا نكاية فى اسبانيا بهذا الانتصار العظيم وأرسل عام ١٥٨٨م اقتراحا بهجوم انجليزى مغربى على اسبانيا ولقد كان الامير دون أنطونيو المطالب بالعرش البرتغالى رهينة لدى البلاط المغربى فحاولت انجلترا لدى السلطان العثمانى لكى يضغط على الخليفة السعدى لمحاربة الاسبان وان نقوم انجلترا باعداد الاسطول على حساب المنصور. بعد أن تعهد الانجليز من جانبهم باقناع حاكم مدينة سبته الاسبانى بتسيلم المدينة المغربية للمغرب اعتمادا على اتصالات كانت تجرى معه فى هذا الصدد .

كما أن المغرب كانت على أتم استعداد للقيام بالعمل على عودة المطالب بالعرش البرتغالى واحتلال اسبانيا ومن ذلك فقد أرسل المنصور سفيره إلى لندن فى ١٢ يناير ١٥٨٩م وكان يحمل معه عدة مقترحات منها أن يقود أحمد المنصور بنفسه الجيوش المغربية الانجليزية لاحتلال غرب اسبانيا وأن تقوم انجلترا بارسال ما تحتاج اليه المغرب من أسلحة ومدافع وقطع بحرية لكن انجلترا أرسلت عدة ضباط لقيادة هذه الحملة ولم تأخذ بالعرض المغربى لقيام المنصور بقيادة هذه القوات وعندما كانت انجلترا ترسل قواتها متجهة إلى سواحل البرتغال لاعادة الامير دون انطونيو كان المنصور السعدى لم يقرر الاشتراك بعد لان مطالبه لم تلب فى لندن وقام الخليفة المنصور بأن وجه رسالة إلى الضباط الانجليز أن انجلترا لم تجب مطالبه وفضلت دور المغرب بعدم

الاشتراك العسكرى والاكتفاء بتقديم المؤن والزاد والبارود والاموال اللازمة كما أن المنصور لم يوضع فى الصورة المناسبة واخطارة بتوقيت تحرك الحملة الانجليزية وتعارض أهداف الحملة نظرا لان المنصور كان يريد التحرك إلى جنوب اسبانيا لا الاندفاع شمالا فى البرتغال .

وازاء هذه المواقف الانجليزية فان أحمد المنصور عاد إلى سابق عهده وسابق علاقاته الودية مع الاسبان، وازاء هذا التصرف خاب سعى انجلترا لدى المنصور وحدث نوع من النفور بين الطرفين استمر لعدة سنوات بسبب انشغال كل طرف منهما بمواجهة مشاكله الداخلية لاسيما أن المنصور كان يعد عدته لفتح بلاد السودان الغربى، ومن هنا فان المنصور أبقى على السفير المغربى مرزوق سيد سفيرا له لدى البلاط الانجليزى حتى انتهى من اعداد حملته المتجهة إلى السودان الغربى وقد تحسنت العلاقات المغربية التركية العثمانية ازاء عدم التفات انجلترا إلى المطالب المغربية وتجاهلها لمطالب المنصور وبعد أن رفضت انجلترا ايضا نقل وفد مغربى إلى حلب ببلاد الشام للدعوة للخلافة السعدية العربية القرشية وقد باء التحالف الانجليزى المغربى ضد أسبانيا بالفشل نظرا لان انجلترا لا يمكن لها أن تمكن سلطانا مسلما من احتلال أو السيطرة على اراضى دولة مسيحية مهما يكن نوع العداء أو القتال فيما بينما ومهما تكن الخلافات المذهبية المسيحية سواء كاثوليك أو بروتستانت ومن هنا اعتذرت للمنصور عن استعدادها للقيام بحملات مشتركة ضد اسبانيا وبعد طول مباحثات احس المنصور أن كل جهده لم يعد بفائدة مثمرة عليه فقطع علاقاته مع انجلترا .

وبعد وفاة المنصور وتوزع الحكم بين ابنائه فان انجلترا اتجهت إلى اقامة علاقات مع الوحدات المستقلة التى انفصلت عن مراكش العاصمة لاسيما امارة سلا التى كان يحكمها أبو عبد الله العباسى ولاسيما ان انجلترا كانت لاتزال تطمع فى خبرات المغرب

وفى عام ١٦٠٠م وصل سرا إلى لندن موظف كبير فى مقر السلطان واسكنته الملكة الانجليزية هو وحاشيته المكونة من تاجرين ومترجم واثنى عشر خادما وحين شرفوا بمقابلة الملكة اليزابيث، ادهش السفير الملكة حين ذكر انه قدم ليقترح أن تقوم هى والسلطان المنصور بهجوم مشترك على اسبانيا ويستوليا على أملاك فيليب الثانى فى الدنيا الجديدة والقديمة ويقتسماها ولما كانت الملكة تشك فى قدرة الجيش المغربى على أن يقوم بدوره فى مثل هذه الغزوة فقد ذكرها بغزو المنصور لبلاد السودان ونجاحه فى ذلك نجاحا باهرا ولما كانت الملكة لا تريد أن تفقد كميات الذهب وملح البارود والسكر والمواد الاخرى التى تحصل عليها من المغرب فانها أجابت اجابة دبلوماسية أدت بالمغاربة أن يعتقدوا أن مطالبهم قد اجيبت .

وكانت وفاة المنصور فاتحة عهد جديد للاوربيين إلى افريقيا والمغرب حيث كان منظر الذهب الذى ينصب إلى مراكش قد ادار عقولهم نحو امكانية الاستيلاء على معادن هذه الثروة عن طريق البحر وقد عرف الانجليز اكثر من غيرهم بسبب مركزهم الممتاز فى تجارة مراكش الخارجية كمية الذهب الهائلة التى تاتى إلى الدولة حيث كان وضعهم أفضل من أية دولة اخرى حيث كانوا يجمعون كميات كبيرة من ذهب المغرب .

ولقد استفادت انجلترا بعلاقتها مع المغرب السعدى اكثر مما استفاد المغاربة، ذلك لان الانجليز كانوا يضعون مصالحهم الاقتصادية فوق كل اعتبار اضافة إلى أن عقائدهم المسيحية لاتسمح لهم بمساعدة سلطان مسلم على حساب ملك مسيحى مهما تكن درجة العداوة وعمق الصراع وعنف الهجمات بين الطرفين ذلك لانهما فى النهاية ملكين مسيحيين (أسبانيا وانجلترا) .

كما أن انجلترا كانت من أولى الدول التى استنزفت ذهب المغرب وبلاد السودان

الغربى ومن ذلك فأننا نجد أحد التجارالانجليز كتب فى عام ١٦٣٥/ ١٦٣٦م يقول عن تجارة الذهب وكيف حقق الانجليز منها اهدافهم في الحصول على كل الذهب حيث ذكر أن أهل السوس فى جنوب المغرب لهم تجارة كبيرة فى البضائع الانجليزية المرسلة إلى تمبكتو وجنى وللاجزاء الاخرى من السودان الغربى ومن هناك يحضرون قدرا كبيرا من الذهب بينما نحن الانجليز نتسلم جزء كبيرا من هذا الذهب من بيع بضائعنا وحتى عام ١٦٣٨م كان الذهب يشحن إلى انجلترا، كما ذكر جورج كارتريت قد يعتبر هذا الذهب كنزا اكثر منه سلعة لان الكميات القديمة التى كانت تحملها القوافل من بلاد السودان الغربى أيام مولاى أحمد الاعرج عم السلطان أحمد المنصور قد ضاعت من جراء الاضطرابات التى سادت الدولة وقبل نهاية العام كان احتياطى الذهب فى مراكش يتسرب إلى انجلترا ولان تجارة السودان الغربى من الذهب قد توقفت .

ولقد كانت تجارةتجارة الذهب بمثابة الدم ومصدر الثروة لآلاف من التجار الانجليز الذين استقروا فى مراكش ومن ذلك أنه فى ١٦٠٠م كتب مراسل فى مراكش إلى تجار لندن يعلمهم أن زيارة سفير مراكش للندن سوف تكون فرصة للربح من جراء قيام التجار المغاربة بشراء الآلات والاسلحة الانجليزية .

ومن هذا العرض يتبين لنا أن العلاقات المغربية الانجليزية والتى كان المغاربة بحسن نيتهم يتطلعون اليها على اعتبار استثمار العداء بين الانجليز والاسبانيين لصالحهم لتحقيق أهدافهم فى ابعاد النفوذ الاسبانى عن الاراضى المغربية والقيام بعمل مشترك من أجل اعادة الوضع الاسلامى إلى الاندلس كما كان فى السابق والعمل على تقديم العون لاخوة الاسلام فى الاندلس الذين لا زالوا يعيشون فى ظل الاستعباد والاضطهاد المسيحى الاسبانى، لكن ذلك الهدف لم يكن له أدنى صدى لدى الساسة

الانجليز لاسيما أن الملكة اليزابيث كانت تنظر إلى الدور المغربى على أساس أن أحمد المنصور السعدى يوجد عنده ولى عهد البرتغال كرهينة ومن ثم لابد من مجاراته فى مشاريعه حتى تتمكن الملكة من تحقيق أهدافها فى كسب معركة الاسبان وقد استفادت انجلترا باستخدامها صداقة المغاربة فى تحقيق أهدافها لكن المغرب لم يحقق أدنى هدف من أهدافه فى علاقته مع انجلترا فهو لم يستطع أن يحرر الموانئ المغربية المحتلة من قبل الاسبان ولا استطاع أن يحقق الهدف الاسمى الذى كان يمثل صلب السياسة السعدية فى اعادة المورسكين إلى بلادهم وطرد القوى الاسبانية شمالا من الاندلس كذلك من الناحية الاقتصادية فقد حققت انجلترا كل ما كانت تسعى اليه من أجل الحصول على كل المكاسب التى كانت تسعى اليها وهى استنزاف المغرب من كل ثروته الذهبية حيث أن أوربا لم تكن لها موارد من الذهب سوى الذهب الذى تحصل عليه من المغرب وبلاد السودان وكانت انجلترا تهتم بمبادلة الاسلحة الانجليزية والالات والمصانع بالحصول على الذهب والسكر وملح البارود ومن هنا فقد أقام اتحاد رجال الاعمال الانجليزى مراكز تجارية له فى المغرب واستطاع أن يحقق كل المكاسب التى كان يسعى اليها فى حين اننا نجد ان الطرف المغربى الذى كان فى أمس الحاجة إلى السلاح والذخيرة والمدافع لانه كان يشعر بالحاجة إلى هذه الاسلحة للدفاع عن اراضيه وتحقيق أهدافه فى التوسع جنوبا فى بلاد السودان وكانت انجلترا تشعر بحاجة المغاربة إلى هذا السلاح ومن ثم تقوم ببيعه باسعار خيالية وتحصل كل ما تبيعة ذهبا أو ملحا للبارود تعيد تصديره مرة أخرى للحصول على الذهب .

وعلى هذا كانت العلاقات السياسية والتجارية المغربية الانجليزية تحقيقا للمصالح الانجليزية فى الدرجة الاولى بغض النظر عما يعود على المغرب من مكاسب وتلك هى السياسة الاوربية فى كل الازمنة والاوقات تحقيق المصالح الشخصية على حساب

العلاقات مهما تكن نتائجها وبذلك كانت انجلترا هى الرابحة على طول الخط .

(جـ) السعديون والعلاقات البرتغالية

استولى السعديون على مقاليد الامور فى جنوب المغرب وهم يضعون نصب أعينهم ضرورة القضاء على الجيوب الاستعمارية البرتغالية وضرورة طردهم من كل اراضى المغرب وقد نجح المغاربة فى طرد البرتغاليين بقوة السلاح من الموانئ الجنوبية كأغادير وأسفى جنوبا وحين تم للسعديين القضاء على الحكم الوطاسى واسقاطه من فاس فانه كان يتحتم عليهم ضرورة استمرار النضال من أجل القضاء على كل الجيوب الاستعمارية البرتغالية فى الشمال والغرب لاسيما أنه كانت للبرتغال مستعمرة جنوب الدار البيضاء وكانت تدعى البريحه .

وكانت البرتغال قد استطاعت فى أقل من قرن من الزمان احتلال معظم الموانئ المغربية الشمالية والغربية والجنوبية وبعض سواحله ولقد كان هذا الاحتلال من الاسباب القوية التى أدت إلى ظهور الكيان السعدى كقوة مجاهدة فى بلاد السوس والقضاء على هذه الجيوب واسقاط الدولة الوطاسية وقد نجح الامير السعدى محمد القائم بأمر الله واولاده أحمد الاعرج ومحمد الشيخ فى تحرير الغالبية العظمى من الموانئ البرتغالية بحيث لم يبق فى نهاية الامر من هذه المدن والموانئ سوى ثلاث موانئ فقط هى سبته وطنجة مازكان، وحاول جان الثالث ملك البرتغال فى ذلك الوقت طلب المساعدة من الامبراطور شارل الخامس ملك اسبانيا فى صد هجوم السعديين ولكن ملك اسبانيا لم يبد أدنى اهتمام بمطالب البرتغال نظرا لانشغاله بحركة الكشوف الجغرافية فى العالم الجديد اضافة إلى مشاكله فى هولندا (الاراضى المنخفضة) وصراعه مع انجلترا .

وللحقيقة التاريخية التى لا يمكن الجدال فيها أن المخاطر التركية العثمانية وأطماعهم السياسية فى المغرب الاقصى ومحاولتهم ادخال المغرب الاقصى تحت سيادتهم كان عاملا مباشرا فى تأخير حركة الجهاد الاسلامى والحد من قدرتها الانطلاقية فى القضاء على كل الجيوب الاستعمارية البرتغالية والاسبانية قضاء نهائيا، اذ أن ظهور الاتراك العثمانيين فى الجزائر وتونس ومخططاتهم فى ضم المغرب وقفت سدا أمام انطلاق السعديين ودفعت بهم إلى التحالف مع الاسبان من أجل الحفاظ على استقلالهم الوطنى ومن ثم فان كل الموانئ المغربية الخاضعة لسيطرة الاسبان لم يستطع المغاربة تحريرها، حيث أن محمد الشيخ كان يضع فى مخططه ضرورة تصفية كل القواعد المحتلة انطلاقا من المبادئ التى قامت عليها الدولة السعدية حيث أن القضاء على القواعد البرتغاية لابد أن يتبعه القضاء على القواعد الاسبانية انطلاقا لفرض السيادة المغربية السعدية فوق كل التراب المغربى ثم انطلاقا لتكوين دولة المغرب الكبرى بالسيطرة على المغرب الاوسط والادنى .

ولقد كانت المصالح المشتركة بين المغاربة والبرتغاليين تلتقى مع السعديين ازاء الاخطار التركية العثمانية التى كانت تحيق بالمغرب وتفترق عندما يطرأ ما يشغل العدو المشترك العثمانى عن الانقضاض على فريسته، ورغم كل ذلك فقد كانت العلاقات السياسية بين المغرب ودولتى شبه جزيرة أيبيريا تحكمها عدم الثقة باستمرار وبانقضاء حكم محمد الشيخ وتولى ابنه أبو عبد الله الغالب الحكم فان هذا الاخير ازاء مواقف الاتراك العثمانيين قد تقارب أكثر من أبيه مع الاوربيين اذ نجد انه هادن القوى الايبيريه المحتلة وتنازل لهم عن ميناء البريجه الذى كان قد تم تحريره، لكن الغالب تنازل عنه نظير فدية عظيمة وأموال طائلة وقد باع هذا الميناء للبرتغاليين ولقد كانت صداقة البرتغاليين على حساب معاداته للاتراك العثمانية وقد تنازل الغالب عن البريجه

للبرتغاليين كما تنازل عن باديس للاسبان، كما أنه تخلى عن مساعدة الثوار الاندلسيين فى الاندلس (المورسكين) ابان ثورتهم على الاسبان، بل أكثر من ذلك كما ذكر المؤرخ المجهول الذى تحدث عن الدولة السعدية حيث صب جام غضبه على هذا الخليفة السعدى نظرا لوشايته بالاندلسيين عند فيليب الثانى ملك اسبانيا وكان ذلك الموقف المتخاذل للغالب خيانة للقضية الاسلامية وطعنا لظهر المسلمين (المؤرخ المجهول) اذا كان ذلك الموقف قد حدث وربما يكون تحاملا من المؤرخ المجهول الذى لا شك كان عدوا للدولة السعدية حيث اننا نجد اليفرانى يذكر ان ذلك ربما يكون تعرض للاساءة للاسرة السعدية الشريفة، لكن ربما يكون ذلك قد حدث فى فترة الصراع على السلطة بين الحكام السعديين .

ولقد زادت المطامع البرتغالية فى المغرب فى عهد عبد المالك بن محمد الشيخ بعد اقصاء محمد المتوكل بن الغالب ولجوء إلى البرتغال طالبا من ملكها الشاب دون سباستيان مساعدته فى الوصول إلى العرش الذى اغتصبه منه عمه عبد المالك وقد صادف هذا المطلب هوى فى نفس ملك البرتغال الشاب الذى كان يطمع فى الاستيلاء على جميع اراضى المغرب بعد ان كان قد طرد المغاربة البرتغاليين من كل المناطق المحتلة فيما عدا سبته وطنجه ومازاكان ومن ثم كانت أحداث اكبر حركة فى تاريخ المغرب معركة القصر الكبير (انظر الفصل الخاص بما جرى فى معركة القصر الكبير فى باب أعمال الامير السعدى عبد المالك بن محمد الشيخ وكيف انتصر المسلمون على المعسكر الصليبى ولم ينج من القوة النصرانية سوى عدد قليل وادت هذه المعركة إلى تدهور البرتغال ومكانتها ولم يعد لها شأن دولى وعلت هيبة السعديين فى العالم الاسلامى لانهم دافعوا عن ديارهم المقدسة وحافظوا على كيان المغرب ، ولم تكن الكارثة بالنسبة للبرتغال فى فقد ملكها وقواتها العسكرية ومعها قوات اوربا ولكنها

فقدت كيانها السياسى واستقلالها وضمت إلى اسبانيا وظهرت الاسرة السعدية على مسرح الاحداث السياسية والعسكرية فى نفوس المغاربة واظهرتهم هذه المعركة كحكام اقوياء يمكن الاعتماد عليهم فقد استطاعوا حفظ التوازن بين قوى الشرق والغرب، مما جعل للمغرب دورا فى السياسة العالمية، كما عادت المعركة بالشهرة والثروة للسلطان أحمد المنصور ومن ثم مهدت الطريق لفتح السودان الغربى .

وكانت المغرب فى ظل الانتصار الكبير تتوجس خيفة من الاتراك نظرا للتدخل السافر الذى كان يبديه الاتراك فى شئون المغرب ومن هنا لم تستطع القيادة المغربية أن تستثمر انتصارها فى الطلب من البرتغاليين اخلاء المراكز المغربية الثلاث المحتلة (سبته، طنجة، مازاكان) فى مقابل الافراج عن الاسرى. لكن قد تكون اسباب مغربية تمنع المغرب من طلب الجلاء عن الجيوب البرتغالية فى المغرب لاسيما أن هذه الجيوب قد تم الاستيلاء عليها من قبل الاسبان بعد المعركة مباشرة، ولم يكن المنصور وقد خرج لتوه من معركة مع البرتغال يرغب فى الدخول فى معركة اخرى مع ملك اسبانيا فيليب الثانى الذى كان قد أعلن حالة الاستعداد بين قواته عندما علم بهزيمة البرتغاليين وشحن الثغور البرتغالية لانه كان يعد نفسه قائما على ممتلكات البرتغال، وكان المنصور يدرك أن كل القوى الاوربية الصليبية قدهالتها الهزيمة وأزعجتها هذه الهزيمة الكبيرة التى لم ينج منها الا اقل من مائة جندى حيث كانت أعظم النكبات التى فاقت كل احتمال اذ انه فى ست ساعات فى يوم من أيام اغسطس الحارة عام ١٥٧٨م أبيدى قوى برتغالية بلغت ستة وعشرين الف رجل يضاف اليهم قوات أوربية ليصل عدد الذين سحقوا فى هذه المعركة اكثر من أربعين ألف .

فقد غيرت هذه المعركة (معركة القصر الكبير) مجرى التاريخ فى كل أوربا، بل فى كل العالم المعاصر وانتشرت نتائجها إلى افريقيا وامتدت إلى الصحراء حيث وقف

المنصور كالطود الشامخ ضد الاطماع الاوربية فى غرب افريقيا ووصلت قواته إلى هذه المناطق لتحول دون امتداد الايدى الاوربية الملطخة بدماء المسلمين فى الاندلس والمصاصة للدماء الافريقية من أجل الرقيق والذهب فالتاريخ لم يتغير والمواقف الاوربية المعادية للاسلام والمسلمين لم تخفت أو تنطفئ بل زادت حدتها على مر التاريخ محاصرة للاسلام وضربا لاهله. واكتسب المغاربة صيتا وسمعة عالية فى العالمين الاسلامى والمسيحى فاق كل ما تمتعوا به من قبل، بل لم يبلغوه من بعد .

وهكذا حفظ المغاربة للاسلام والعروبة وللدين الخالد صورته الزاهرة المشرقة أمام العالم أثر هذا الانتصار الباهر فى هذه المعركة ولو كان هناك تعاون قوى بين القوى المغربية والتركية العثمانية لتحقق الامل الاسلامى الكبير فى تلك اللحظة وانتهزت هذه القوى الاسلامية حالة الفوضى والارتباك التى تعيشها أوربا وعبرت القوات الاسلامية مضيق جبل طارق وسيطرت على الاقاليم الجنوبية على الاقل من أسبانيا وكان الواجب الاسلامى يحتم على القيادة التركية فى هذه الحالة أن تكون على أهبة الاستعداد لحشد قواتها قريبا من ميدان المعركة للتدخل فى المرحلة الحاسمة للاستفادة من هذا الانتصار لاسيما أن معركة القصر الكبير (وادى المخازن) كانت فى الجزء الشمالى الغربى من بلاد المغرب وهى على مسافة قريبة من المناطق الملاصقة للمضيق، لكن رغبة الاتراك الجامحة فى ابتلاع المغرب وبسط النفوذ التركى على أراضيه حالت دون استثمار النتائج الباهرة عن هذا الانتصار المغربى على القوى البرتغالية وهكذا سحقت المغرب قوى البرتغال المعتدية ومعها قوات أوربا التى جاءت ترفع راية الصليب على أرض عربية اسلامية .

أن العداء للاسلام والروح الصليبية لم تتغير فالذين يطالعون كتاب محمد حسنين هيكل الذى نشره الاهرام ابريل ١٩٩٢ عن حرب الخليج بين القوى الغربية

بقيادة أمريكا وبريطانيا وفرنسا والتحالف العربى ضد العراق المسلم يدرك أن عملية عاصفة الصحراء التى قادها الامريكان اطلق عليها «امجاد العذراء مريم» وأن الجنود كانوا يكتببون فوق دباباتهم «المجد للمسيح، ويا ايها المسلمون نادوا ربكم فاذ لم يرد عليهم فنادو المسيح» (محمد حسنين هيكل حرب الخليج القاهرة ابريل ١٩٩٢) .

وعودة إلى معركة القصر الكبير أدرك أحمد المنصور أن أوربا لا يمكن أن تترك عار الهزيمة يمر بدون عقاب (أمريكا تعاقب حاليا العراق وليبيا وربما غدا أقطار عربية أخرى) ومن هنا كان تدخل الاسبان وارد فى فكر المنصور فاكتفى بما أحرزه المغرب من انتصار على البرتغاليين والقوى الاوربية .

لكن المغاربة كانوا عازمين فى مراحل لاحقة على استرداد الاندلس لكن ذلك ربما يكون فى نطاق المراحل الامنية البعيدة التحقيق فى ظل بروز قوى أوربية اخرى (انجلترا، فرنسا، هولندا) وغيرها من القوى الاوربية التى لاتسمح بان يحقق المغرب اهدافه فى العودة للاندلس، كما وان كانت الرغبة الابييرية فى احتلال الاراضى المغربية السعدية وكان هذا هو الهدف الاول فى المخططات التوسعية للبرتغال (حملة سباستيان) وكانت البابوية فى روما الكرسى البابوى يدفع بتأييده الحاسم لهذا العمل من أجل السيطرة على كل الاراضى الاسلامية وحين عزم السعديون ومصمموا بالعزم بدافع وشعور دينى جارف وتأييد شعبى لحركة الجهاد الاسلامى للاسترداد والاجلاء عن الموانئ المغربية والاراضى الاندلسية كان هناك تهاون من بعض القوى المغربية التى أعقبت المنصور فى الحكم من أبناء المنصور نفسه وأبناء زيدان بن المنصور. لكن القوى الاسلامية المغربية المجاهدة من الامراء المستقلين والذين كان ابرزهم الامير أبو عبد الله العياشى الذى حارب البرتغاليين فى المغرب وانتصر عليهم فى أكثر من معركة وعمل على تحرير الموانئ المغربية وقد سار على منواله فى جهاد البرتغاليين وريث العياشى فى

مكناسه (الخضر عيلان) الذى دخل فى حروب عديدة مع البرتغاليين ومع المحتلين الانجليز الذين كانوا يحتلون طنجه وكانت طنجة قد استسلمت للانجليز فى ٢١ مايو ١٦٦٢م وقد بقيت طنجه فى يد الانجليز إلى أن حررها الاشراف العلويين (اجداد الملك الحسن الثانى ملك المغرب الحالى) عام ١٦٨٤م فى عهد المولى اسماعيل بن الشريف (١٦٨٢- ١٧٢٧م) .

وهكذا نرى أن العلاقات المغربية البرتغالية مرت بعدة أطوار منذ بزوغ فجر الاسرة السعدية على مسرح الاحداث فى المغرب فقد كان هدفها تحرير الاراضى المغربية من السيطرة الغربية وحققت حركة الجهاد الاسلامى كل ما كانت تصبو اليه من نجاح وطموحات فى انهاء الوجود البرتغالى وحصره فى اضيق نطاق وجاءت معركة القصر الكبير لتضع نهاية ما ساوية لكل الاحلام التى كان يحلم بها البرتغاليون فى السيطرة الكاملة على كل الاراضى المغربية وليعاد النظر فى العلاقات المغربية الاوربية برمتها فى عصر احمد المنصور الذهبى. وكيف أن المنصور كان يعمل من جانبه فى الوصول إلى الهدف البعيد وهو الاشتراك مع انجلترا فى احتلال البرتغال واسبانيا وان تتحرك قوات يكون هو على راس القيادة فيها لكن انجلترا خدعت المنصور فى ذلك .

كما أن الشعور الوطنى المغربى الجارف قد اكتسح كل أثر للقوى الاستعمارية الغربية سواء كانت برتغالية أو أسبانية أو انجليزية فى عهد السلطان المظفر مولاى اسماعيل الشريف الذى استطاع أن يحرر كل الاراضى المغربية من قبضة الانجليز وبقايا الجيوب الاسبانية والبرتغالية .

لكن يبقى أمر محير حتى كتابة هذا البحث وهو لماذا تظل مدينتا سبته ومليله وهى أراضى مغربية عربية اسلامية حتى الآن فى قبضة الاسبان وقد تم اجلاء الاسبان عن منطقة شمال المغرب أو ما كان يسمى بالريف المغربى وتم تحرير كل الاراضى

التى كانت مستعمرة ولم يبق الا هاتان المدينتان .

ان عدم تحرير سبته ومليله حتى وقتنا الحاضر يعود إلى استمرار الظاهرة الاستعمارية التاريخية التى بدات مع نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، ان استمرار احتلال هاتين المدينتين والمينائين) دون بقية الاراضى المغربية يعنى ان عقدة احتلالهما لا زالت تدخل تحت طور العداء التاريخى وعقدة المد الاسلامى الجارف فهل توضع نهاية لهذا الاحتلال؟ .

(د) السعديون وعلاقاتهم مع الاسبان

عندما تحركت حركة الجهاد الاسلامى بقيادة الامير السعدى محمد القائم بأمر الله وولديه الاعرج ومحمد الشيخ لطرد البرتغاليين الذين كانوا يحتلون اقليم السوس جنوب المغرب ومظم الثغور المغربية المطلة على المحيط الاطلسى وحققوا أهدافهم فيما كانو يبغون من طرد البرتغاليين من ديارهم قبل الدخول فى الصراع النهائى مع الوطاسيين حكام المغرب. فقد كان الاسبان يحتلون السواحل الشمالية المطلة على البحر المتوسط مثل مسليله وباديس وعضاضه ولم تكن أيدى السعديين قد وصلت إلى تلك المناطق الواقعة تحت السيادة الوطاسية وبعد سقوط العاصمة فاس فى أيدى السعديين فانهم اتجهوا إلى تحرير الموانئ الواقعة فى قبضة الاسبان، لكن هناك ظروفا داخلية مغربية دفعت محمد الشيخ أن يصرف النظر عن تحرير الموانئ الشمالية الواقعة تحت أيدى الاسبان وبقيت هذه الموانئ بايدى الاسبان دون تحرير، وقد كانت نظرة محمد الشيخ إلى هذا الاتجاه محاولة ايجاد توازن فى العلاقات الدولية لقطع الطريق على الاتراك للسيطرة على المغرب بعد معارك تلمسان ووصول الاتراك إلى فاس مدعمين أبى حسون الوطاسى ضد محمد الشيخ وجاء بعده ابنه أبو عبد الله الغالب

ليوطد علاقاته مع الاسبان وتنازل لهم عن ميناء حجر باديس ليحول دون وصول الاتراك إلى الاراضى المغربية وكان ميناء حجر باديس قد احتله الاسبان فى السابق لكن الاتراك طردوهم منها عام ١٥٢٢م فى أوائل العهد السعدى بمساعدة رجال البحر المجاهدين فى حركة التحرر الاسلامى .

واستمرت العلاقات السعدية تسير فى طريقها المعتاد والمتوافق طوال حكم الغالب. وبعد وفاة الغالب فان ابنه محمد المتوكل (المسلوخ) صار على نفس النهج قبل مهادنة الاسبان كما كان يسير على نفس النهج جده محمد الشيخ وأبوه أبو عبد الله الغالب .

وأثناء الصراع بين محمد المتوكل وعمه عبد المالك بن محمد الشيخ حول احقية أيهما بالعرش المغربى فان الاسبان خذلوا عبد المالك لانهم ساندوا الحاكم الشرعى محمد المتوكل من وجهة نظرهم، لكن عبد المالك وقد أدرك مطامع الاتراك فى بلاده والذين مكنوه من العودة إلى عرش المغرب، فانه عمل على انتهاج سياسة مهادنة وحسن جوار مع الاسبان، وقد راسل عبد المالك الملك الاسبانى فيليب الثانى بشأن مساندته فى طرد البرتغاليين من بقية الموانئ التى لازالوا يحتلونها، لكن ملك أسبانيا وضع الثغور المغربية البرتغالية المحتلة تحت سيادته أثر انهزام البرتغال فى معركة القصر الكبير للحيلولة دون انتهاز المنصور الانتصار الكبير فى معركة تحرير الموانى المغربية، ومن ثم عمل الاسبان على تجديد المعاهدة المغربية الاسبانية التى وقعت فى عهد الامير مولاى عبد المالك والتى كانت قد تمت فى أبريل عام ١٥٧٧م وأدرك المنصور خطورة الاسبان ومن ثم عمل على احياء هذه المعاهدة. وقد انتهز المنصور توقيع هذه المعاهدة وارسل إلى اسبانيا فى عام ١٥٨١م يطلب مساعدة عسكرية من الملك فليبى الثانى عندما علم بتحرك الاسطول التركى إلى المغرب فى قوات بحرية كبيرة تزيدعن ستين سفينة حربية ووقعت المعاهدة بين المنصور والاسبان والتى تنص على

حسن الجوار لمدة عشرين عاما مقابل أن يتخلى المنصور عن أهم الثغور المغربية وهو ثغر العرائش مقابل مساعدتهم له عسكريا ولذلك اضطر السلطان التركى مراد الثانى إلى سحب حملته العسكرية على بلاد المغرب أثر التحالف المغربى الاسبانى .

وبعد توحيد البرتغال واسبانيا زاد الخطر الصليبى على المغرب ومن هنا كان على المنصور أن يعمل على حفظ التوازن فى العلاقات بين القوى العالمية المعاصرة على الرغم من أنه كان يعمل ما وسعه العمل على تحرير الموانئ المغربية وارسال حملة مغربية لتحرير الاندلس اما بالاشتراك مع الاتراك العثمانيين أو الاشتراك مع الانجليز البروتستانت المعادين للاسبان ولاسيما بعد معركة الارمادا التى تم فيها تدمير الاسطول الاسبانى كاملا فى ١٠ أغسطس ١٥٥٨م وكانت اسبانيا قد ارسلت اعتذارا رسميا عن طريق سفيرها فى المغرب بعد أن اعلن البلاط الاسبانى على لسان الوفد الذى وصل إلى فاس حاملا التهانى والهدايا القيمة أثر انتصار معركة القصر الكبير بان القوات الاسبانية التى اشتركت فى هذه الحملة لم تكن قوات نظامية، وانما كانوا متطوعين شعبيين من أسبانيا ومن هنا كان هذا اعتذارا كافا من قبل اسبانيا ولم يتردد فى الصلات التى كانت لعبد المالك مع البلاط الاسبانى .

ولقد أتخذ المنصور موقفا لم يكن ليحسب عليه وهو وقوفه ضد تحرك القوات الظافرة فى معركة القصر الكبير والتى كانت القوات المغربية قد شمرت عن ساعدها فى انتفاضة عسكرية عارمة وانتفاضة عسكرية لم يشهدها الجيش المغربى من قبل وهو العمل مباشرة على اجتياز مضيق جبل طارق للعودة بالمسلمين إلى ديارهم فى الاندلس الذى قسم بين اسبانيا والبرتغال تحت علم حكومة اندلسية تركية، لكن المنصور والذى كان قد خرج لتوه من امتحان صعب بعد وفاة اخيه عبد المالك فى المعركة وتأييد الاتراك لابنه اسماعيل لتولى حكم المغرب كان فى حاجة ماسة إلى وقت كافٍ لكى

يعيد دراسة أوراقه ويعد نفسه للمستقبل عن دراسة للواقع السياسى المعاصر واعداد خطط مستقبلية وايجاد الفرص المناسبة لتنفيذ هذه الخطط. ولكن الذى دفع المنصور إلى ذلك وعدم مساندة حركة الجيش ربما الخوف من النفوذ التركى، لكن المنصور وقد أدرك أبعاد اللعبة الدولية وظهور القوى الاوربية القوية (انجلترا وفرنسا وهولندا وغيرها من القوى الاخرى) والخطر التركى على استقلال بلاده فقد عمل على انتهاج سياسة متوازنة مع كل القوى والعمل على النهوض بالمغرب وادخاله عصر التطور والتقدم العلمى وانهاء التخلف والعزلة ومحاولة ان يكون للمغرب دور بارز ونشط فى الصراعات الدولية .

ولهذا فقد شهدت العلاقات المغربية الاندلسية بعدا جديدا مغايرا للعهود السابقة فى الربع الاخير من القرن السادس عشر استطاع المنصور أن يضغط على اسبانيا للحصول على مكتسبات مغربية منتهزا فرصة الصراع الانجليزى الاسبانى حول مساندة ولى عرش البرتغال .

وقد استفادت اسبانيا من توقيع اتفاقيا ١٥٨١م استفادة كاملة فى حين أن المغاربة لم يكن لهم الا استخدامها ورقة يلوحون بها ضد العثمانيين الاتراك عندما تتحرك شهوتهم ومطامعهم التوسعية لمحاولة ابتلاع المغرب وكان أن عملت اسبانيا فى ظل توقيع هذه المعاهدة على ضرب القوى الاسلامية الاندلسية بشدة بعدما علمت بأن هناك تعاونا تركيا اندلسيا للقيام بالثورة وتدخل الاتراك للمساندة، كذلك حصلت على ميناء العرائش الهام المطل على المحيط الاطلسى وتخصيصه للاسطول الاسبانى وساعدت فى اطلاق أسرى حرب القصر الكبير وربطت التجارة المغربية (عامل اقتصادى هام) بالتجارة الاسبانية ووضع العراقيل أمام تجار الدول الاوربية ومنعهم من استخدام الموانئ المغربية وخاصة التجار الانجليز اعداء الاسبان .

لكن المنصور ماطل فى تنفيذ هذه الشروط ووضع شروطا اخرى مثل اقتراحه مبادلة ميناء العرائش بميناء الجديدة (لاحظ مبادلة أرض مغربية بأرض مغربية اخرى شرط استسلامى) والتهرب من موضوع غلق الموانئ المغربية أمام تجارة أوربا وبصفة خاصة الانجليز وقد ظل هذا الموضوع معلقا .

أما من ناحية الاسرى فقد عمل المنصور من جانبه على ترحيل من لايمكن الاستفادة منه والذين قبلوا الاقامة طوعا لا كرها فى المغرب فانه سمح لهم بالبقاء خوفا من بطش حكوماتهم لهم أو احراقهم وقتلهم عند العودة ففضلوا البقاء مع اعتناق الاسلام والتزاوج من بنات المغرب والانصهار فى المجتمع الاسلامى لاسيما أن الذين أطلق سراحهم قد لقوا مصيرهم المحتوم حيث قوبلوا بالازدراء والسخرية والتهكم ثم كان مصير العدد الاكبر منهم القتل بعد التحقيق معهم فى اسباب الهزيمة ولم ينج من القتل الا النبلاء وأفراد الاسرة المالكة (زاهر رياض. الممالك الاسلامية فى غرب أفريقية ص ١٧٧) .

وهكذا فان هذه الاتصالات المغربية الاندلسية (الاسبانية) سرعان ما تغيرت ولم تعد عنصرا هاما فى وقت ظهرت فيه قوة جديدة وعوامل جديدة اقتضت التراجع عن الموضوع كله وتحول المنصور إلى صف المناوئين للاسبان وتحالف مع البرتغاليين (ولى العهد دون انطونيو) والملكة اليزابيث ملكة انجلترا، وذلك بعد أن سلم الباب العالى باستقلال المغرب وانهاء عصر الاطماع وتحطيم الاسطول الاسبانى ووصول دون انطونيو المطالب بالعرش إلى فاس وازدياد قوة المسلمين بأسبانيا وفشل فيليب الثانى فى القضاء على روح المقاومة الاسلامية فى البلاد وغرق القوات الاسبانية فى اوحال هولندا حيث الارض المنخفضة ومتاعبهم ولاسيما بعد ان بدأ فى الافق القريب أن هناك قوى اوربية جديدة تحاول أن تدخل ميدان السياسة الدولية لتحد من قوة اسبانيا وتعمل على كسر

شوكتها وكان ذلك ممثلا فى هولندا وقد استغل المنصور قضية المطالب بالعرش البرتغالى أحسن استغلال فقد وجه من اقنعه بالحضور من لندن إلى المغرب واقنع ملكة انجلترا بالموافقة على حضوره للمغرب ليكون قريبا من مسرح الاحداث والاطلاع على ما يجرى فى بلاده .

وقد استغل المنصور حضور المطالب بالعرش البرتغالى إلى المغرب لكى يحقق العديد من أهدافه والتى منها تحرير الموانئ المغربية المحتلة وكذلك الضغط على اسبانيا ليحقق استقلال الموانئ المغربية المحتلة لاسيما ان اسبانيا لم يأت عليها عام ١٥٨٨م الا وكانت قد ادركت ان العاهل السعدى مصمم على القيام بخطوة ضدها ومن ثم اجرت معه اتصالات بهدف التروى فى موضوع الامير البرتغالى المطالب بالعرش على الرغم انها كانت تتوجس خيفة من أعمال المنصور السعدى لاسيما وان اسبانيا قد تاكدت فعلا من وصول كميات كبيرة من الاسلحة والمدافع والذخائر من انجلترا وهولندا إلى المغرب كما أن وسائل المخابرات الاسبانية تاكد لديها ان المغاربة على اتصال بالثورة الاسلامية فى اسبانيا وانها ارسلت لهم السلاح والعتاد والمؤن ودفعت بهم للثورة تحقيقا لمطالبهم واضعافا لاسبانيا، بل اكثر من ذلك فان المغرب قام بحركة تعبئة عامة بين صفوف قواته العسكرية فى موانئ الشمال المغربية .

وقد استطاع المنصور ان يحقق بعد الانجاز الباهر الذى تشهده الدبلوماسية المغربية الهادئة، وان اسبانيا قد قبلت على الفور تسليم مدية أصيلا المغربية على الساحل المغربى والتى كانت احدى المستعمرات الاسبانية القوية التحصين وذات الموقع الممتاز وسلمت المدينة للقيادة المغربية بعد انسحاب الاسبان منها فى ١٣ سبتمبر ١٥٨٩م. وقد عبر القشتالى فى كتابه مناهل الصفا الذى نشره الدكتور عبد الكريم كريم المغربى الجنسية أن عام ٩٩٧هـ/ ١٥٨٨م قد شهد استعداد المنصور وكان على أهبة الاستعداد وجعل

قصده وهمه مجاهدة المشركين وتحرر ديارهم بعساكره الامامية وارسال السرايا والجند حتى ينجز الله وعده الكريم فى اعلاء كلمة الحق .

لكن الاسبان عند تسليمهم مدينة أصيلا كانوا قد عرضوا على المنصور السعدى الوقوف على الحياد فى موضوع الخلاف الانجليزى الاسبانى بشأن المطالب بالعرش البرتغالى وعدم تقديم ادنى عون أو مساندة للثورة الاسلامية العارمة (المورسكين) فى الاندلس. لكن المنصور كان قد خطا خطوات واسعة فى تاييده للمعسكر البروتستانتى الانجليزى ومده بالنحاس وملح البارود لصنع المدافع والاستفادة من الخبرة الانجليزية على حساب الضعيف الاسبانى الذى انهارت قوته بعد معركة الارمادا لاسيما وأن الاسبان كانوا يخافون حدوث ادنى اتصال بين المغاربة والمورسكين الذين كانوا على اهبة الاستعداد للثورة وحمل السلاح دفعا للروح الصليبية والعذاب الواقع عليهم لذا عمل فيليب الثانى ملك اسبانيا على ان يكون المنصور على الحياد فى الصراع بين القوى الاوربية كما أن ملك اسبانيا كان دائما يلعب على الوتر الحساس بالنسبة للمغرب وهو التدخل التركى فى المغرب وهذا ما كان يخشاه المغاربة وكانوا يحسبون له ألف حساب واستغل الاسبان حاجة المغاربة إلى مساعدتهم لاسيما من الموانئ الشمالية .

لكن المنصور وقد كان دارسا لتاريخ الصراع المغربى الاسبانى ويحس بما يعانى منه مسلمو الاندلس المضطهدون قام عام ١٥٩٦م، بارسال ثلاث سفن حربية كبيرة لمساعدة الاسطول الانجليزى والهولندى للمساعدة فى معركة قادس كما ارسل المنصور سفارة لامير البرتغال يعلن له فيهما استعداد المغرب لمده بالقوات المسلحة وتايده فى المطالبة بالعرش البرتغالى ضد ملك اسبانيا .

لكن الاسبان ازاء تدخل المنصور فى مساعدة ولى العهد البرتغالى ومساعدة الانجليز ضدهم فانهم عملوا على التدخل المباشر فى شئون المغرب الداخلية واذكاء نار

الثورة ضد المنصور والمساعدة فى اشعال حرب داخلية بينه وبين ابنه وولى عهده المأمون ونائب الخليفة على فاس وشمال المغرب مما جعل المنصور ينشغل عن القضايا الاوربية والخارجية بمعالجة مشاكله الداخلية والقضاء على الثورة ولكن المنصور كان دائما يقظا ولم يغفل عن دسائس الاسبان ضده، لكن العلاقات المغربية الاندلسية (الاسبانية) شهدت نوعا من التحسن فى آخر عهد المنصور السعدى لاسيما بعد قيام الحلف الثلاثى بين المغرب وايران (فارس) واسبانيا ضد العدو المشترك للثلاثة العثمانيين الاتراك وقد قبل المغرب بالتعاون مع اسبانيا استغلال خبرات السودان الغربى وقد توفى المنصور عام ١٦٠٣م .

ولقد كان الملك الاسبانى يهدف بانضمامه للحلف المغربى الفارسى هو دفع المغرب وفارس لقتال الاتراك وضرب القوى الاسلامية بعضها ببعض ليخفف عبء القتال والمشاغل عن جبهته وان يحارب الاتراك فى جبهة شرسة ضد فارس وجبهة عربية ضد المغرب وبذلك يخف العبء والزحف التركى العثمانى على الجبهة المسيحية فى اوربا الشرقية، ومن هنا كان الاسبان شانهم شان الانجليز والبرتغاليين يضعون نصب أعينهم مصالح العالم المسيحى مهما تكن درجة تحالفهم مع المسلمين الذين كانوا يتصرفون عكس الرؤية المسيحية فلم نجد ملكا أو اميرا مسيحيا تحالف مع مسلم ضد اهداف المسيحية الكبرى .

وقد شهدت البلاد المغربية أحداثا جساما بعد وفاة احمد المنصور وزادت الاخطار فى التدخل الخارجى والاحتلال الاوربى والتركى وقد استفاد فيليب الثالث ملك اسبانيا من هذه الظروف العصيبة فى المغرب لتصفية المورسكين الذين قدر عددهم باكثر من مليون ونصف مسلم واستغل ملك اسبانيا النزاع بين ابناء المنصور حول العرش المغربى وطلب احدى الاطراف مساعدة اسبانيا نظير امتيازات اقتصادية وسياسية

واستراتيجية وتم طرد المورسكين من اسبانيا نهائيا وكان محمد الشيخ بن احمد المنصور وراء هذا الطرد وكشف لفيليب الثالث ملك اسبانيا خططا كان المورسكين قد اعدوها للثورة على الاسبان واعادة الحكم الاسلامى بالتعاون مع الجزائر والاتراك. وقد تم نزول المسلمين فى المغرب الاقصى وتونس وطرابلس والجزائر ويقدر فيليب حتى فى كتابه تاريخ المغرب أن عدد المسلمين الذين طردوا من الاندلس بعد سقوط غرناطه فى النصف الاول من القرن السادس عشر نحو ثلاثة ملايين مسلم وبهذا القرار الذى اتخذه فيليب الثالث ملك اسبانيا بطرد المسلمين من ديارهم فقد حل نهائيا مشكلة التواجد الاسلامى فى اسبانيا بصفة نهائية .

ولقد ظل الاسبان يتحينون الفرص الملائمة لتحقيق اهدافهم فى ابتلاع الموانى المغربية والاستيلاء على ميناء العرائش الهام حتى حانت لهم الفرصة عند التنازع بين فاس ومراكش وتمكن زيدان بن المنصور من طرد اخيه المامون (محمد الشيخ) من فاس فطلب الاخير مساعدة ملك اسبانيا الذى اشترط عليه تسليم ميناء العرائش بعد ان يقوم باخلائه تماما من جميع سكانه المغاربة المسلمين فى سبيل قيام اسبانيا بنصرته على اخيه زيدان خليفة مراكش وتم تسليم المدينة للاسبان فى شهر رمضان عام ١٠١٩هـ (لاحظ أن المطامع الشخصية لم تراع حرمة الاسلام والمسلمين والشهر الكريم فى رمضان ١٠١٩هـ) وهكذا كانت الخيانة وراء تسليم الارض والعرض والدار والدوار من قبل أحد أمراء الاسرة السعدية الذى كلفته هذه الفعلة البشعة إلى جانب افشاء اسرار الاندلسيين فتم قتله بايدى المجاهدين المسلمين عام ١٠٢٢هـ هو وقائده حيث قتلوا بمدينة تطوان ولم يكتف فيليب الثالث بالاستيلاء على ميناء العرائش بل ابتلع مدن المعمورة والمهدية لانها أقرب الموانئ إلى العرائش وجهز ستين سفينة استولى بها على المهدية التى فر منها السكان المغاربة المسلمون دون قتال عام ١٠٢٣هـ وان دل هذا

المخطط فانما يدل على أن الفرنجة لا يكلون عن انتهاز الفرص للقضاء على الوجود الاسلامي وهذه هي أفعال بعض السلاطين المسلمين والذين تكون الشعوب الاسلامية دائما هي الضحية في كل العصور والدهور الا فيما ندر من الحكام الاوفياء لبلادهم وعقيدتهم الاسلامية وشعوبهم والذين يعملون باخلاص لتحدى القوى الاوربية التى تكن العداء الدائم للاسلام وأهله .

ويقال ان اهل مدينة سلا بقيادة المجاهد المغربى أبى عبد الله العباسى الذى لعب دورا بارزا في تاريخ المغرب نظرا لدوره البطولى فى محاربة الاسبان والبرتغاليين من اجل تحرير البلاد المغربية من رجس الاوربيين قد ارسل للسلطان زيدان بن المنصور فوراحتلال الاسبان لمدينة المهدية لمساعدته بل استطاع ورجاله المجاهدون أن يقتل اكثر من اربعمائة شخص من القوة الاسبانية لكنه لم يستطع ان ينجح فى دخول مدينة المهدية مرة اخرى ولم تزل اطماع ملك اسبانيا قائمة فى السيطرة على مزيد من الاراضى المغربية نظرا لانه كان يحس الضعف والتمزق والاقتتال بين الحكام السعديين وعدم قدرتهم العسكرية على قتال الاسبان نظرا لانصرافهم لقتال بعضهم البعض .

ولكن اذا كان الحكام السعديون فى اواخر عصر الاسرة السعدية انصرفوا عن أمر الجهاد والمحافظة على الديار وتركها نهبا للاسبان والانصراف للمصالح الشخصية الا ان بعض امراء الوحدات المستقلة التى ظهرت اثر تفكك الدولة السعدية كان لهم دور كبير فى مكافحة اطماع الاسبان وايقاف اخطارهم إلى أن سقطت الدولة السعدية وظهرت الدولة العلوية الفتية على انقاض الدولة السعدية مسلحة بالايمان والعقيدة والنسب القرشى الشريف لتعيد للمغرب وحدته وقوته وعزته وتماسكه من جديد امام اعدائه المتربصين ولتدخل العلاقات المغربية الاسبانية طورا جديدا فى العلاقات .

وهكذا نرى كيف أن الاطماع الاسبانية لم تنقطع عن طلب المزيد من الاراضى المغربية والتوسع على حساب القوى الاسلامية حيث أن عقدة التوسع الاسلامى لاتزال

ترسخ فى عقول الاوربيين ومن ثم لا زالوا يضمرون العداء التاريخى رافعين راية الحروب الصليبية حتى وقتنا الحالى .

(هـ) ابعاد العلاقة السعدية الفرنسية الهولندية

دخلت فرنسا مجال العلاقات الدولية مع المغرب منذ عهد حكم الاسرة الوطاسية وكانت بداية العلاقة مصالح تجارية نظرا لانها كانت بعيدة عن بؤر الصراع الساخنة فى المغرب والبحر المتوسط حيث الصراع المغربى البرتغالى والاسبانى ولم تكن لفرنسا فى ذلك الوقت مصالح عسكرية أو العمل على اغتصاب املاك الامارة الوطاسية ولكن كانت تريد ان يكون لها دور فى نسيج العلاقات الدولية الكبرى بالمغرب وان تستبدل احد الاقطاب الايبيريه ويكون لها دور مشارك من منطلق المصالح الاقتصادية والتبادل التجارى ودخول ميدان امداد المغرب بالاسلحة وتوثيق علاقاتها بالدولة العثمانية التركية لكى تكون منفذا لها فى بلاد المغرب الاوسط من واقع السيطرة العثمانية على هذه الاقطار وضرورة أن يكون لها دور تلعبه فى بلاد الشمال الافريقى حيث أن هذا التواجد الفرنسى فى نهاية القرن السادس عشر سوف يكون مقدمة للنشاط الفرنسى فيما بعد لاسيما ان فرنسا كانت تخطط إلى ايجاد دور لها فى الاستعمار والاستيلاء على احدى القواعد على الساحل المغربى سواء على البحر المتوسط أو المحيط الاطلسى امتدادا لها إلى بلاد السودان الغربى وممارسة دورها كدولة قوية صاعدة لاسيما انه كان لها دور فى حركة الحروب الصليبية (حملة لويس التاسع على تونس فى العهد الحفصى) فضلا عن ضرورة التواجد السلمى والاستمرار فى هذا التواجد على حساب القوى التى بدات تصعد مثل البرتغال واسبانيا ولحقت بالحركة الاستعمارية الاوربية .

وهكذا كانت العلاقات الفرنسية المغربية عملا على اطلاق حرية التجارة وكانت

فرنسا قد استغلت علاقاتها مع الاتراك العثمانيين للتدخل فى السياسة الجزائرية حيث كانت فرنسا وراء ابعاد حسن بن خير الدين باشا عن ولاية الجزائر ونظرا لانه كان يقف ضد السياسة الفرنسية ومصالحها فى البلاد وعينت بدلا منه صالح ريش الذى قاد حملة عودة الاسرة الوطاسية ممثلا فى أبى حسون للعودة للحكم بدلا من السعديين .

لكن العهد السعدى وبصفة خاصة منذ حكم أبى عبد الله الغالب بن محمد الشيخ الذى كان يسير فى خطه السياسى بالتهاون والمسالمة مع جميع الدول الاوربية فان فرنسا وجدت فى هذا الجو الملائم فرصة للحصول على مكاسب اقليمة لها فى المغرب حيث ان الغالب ارسل سفارة إلى فرنسا عام ١٥٧٦م وانتهزت فرنسا هذه السفرات وطلبت من الغالب التنازل لهما عن ميناء يكون مرسى للسفن والبضائع الفرنسية وتنازل عن ميناء القصر الصغير نظير امداد المغرب بالسلاح وفى عهد محمد المتوكل بن الغالب ارسل المتوكل سفارة عام ٩٦٨هـ يعرض على فرنسا احتكارها لتجارة السكر شرط دفع ثمنه بالسعر الذى يطلبه المغرب وتصدير النحاس نظير وصول الاسلحة الفرنسية والعتاد الحربى .

كذلك راسل عبد المالك بن محمد الشيخ فرنسا لمساعدته فى الوصول إلى العرش لكنه لم يجد استجابة لمطالبه نظرا لانشغال شارل التاسع ملك فرنسا بحروبه مع الاسبان، كذلك راسل عبد المالك الملك الفرنسى هنرى الثالث وابلغه بتوليه العرش وقد كانت العلاقات حسنة بين المغرب وفرنسا فى عهد عبد المالك بن محمد الشيخ .

وفى عهد احمد المنصور كان السفير الفرنسى من الوفود التى وفدت إلى المغرب للتهنئة بانتصار المغرب فى القصر الكبير وقد حمل السفير الفرنسى هدية ضخمة وهو يأمل عقد معاهدة صداقة مع المغرب وكانت هديته حجرا من الزمرد فى حجم اليد وزمرده فى حجم التفاحة وكمية كبيرة من اللؤلؤ وجدها المنصور مرضية ومؤكدة لهذه

الصداقة وقد سعت فرنسا لكى تقوم الحكومة المغربية بجعل الموانى المغربية مفتوحة امام التجارة الفرنسية وكذلك قيام الجهات المغربية باطلاق الاسرى الفرنسيين الذين كانوا يشاركون ملك البرتغال في حملته على المغرب وهزيمته فى معركة القصر الكبير ١٥٧٨م وكذلك طلب السفير الفرنسى أن تقوم المغرب بتصدير ملح البارود والنحاس والذهب والسكر إلى الاسواق الفرنسية .

وفى عام ١٥٩٦م وصلت إلى المغرب سفارة فرنسية لمقابلة الخليفة المنصور السعدى فى مراكش ومحاولة عقد اتفاقية وتعاون عسكرى ضد اسبانيا العدو الاول للمغرب والتى كانت تدخل فى صراع مع فرنسا فى ذلك الوقت .

وبعد وفاة احمد المنصور السعدى فان السياسة الفرنسية لم تتغير قبل التعاون مع الحاكم الشرعى المغربى زيدان بن المنصور حيث عملت على التفاهم مع الشرعية السعدية وعدم الدخول فى علاقات او تعاون مع الوحدات المنفصلة المستقلة عكس السياسة الانجليزية التى كانت تتعامل مع الوحدات الصغيرة المستقلة عن مراكش .

ولم يحدث ما يعكر صفو العلاقات المغربية الفرنسية بعد ذلك فى عهد السلاطين السعديين المتاخرين الذين استمروا فى تنفيذ المعاهدات السابقة مع فرنسا بقدر ما أتيح لهم من سلطان فى البلاد المغربية إلى ان سقطت الدولة السعدية وخطت العلاقات المغربية الفرنسية خطوات واسعة فى عهد الاسرة العلوية الشريفة .

وكذلك فان هولندا التى كانت قد خرجت لتوها من السيطرة الاسبانية وحصلت على استقلالها فانها عملت على اقامة علاقات مع المغرب وكانت طبيعة هذه العلاقات فى بداية الامر شأنها شان كل العلاقات الاوربية تبدا بداية تجارية ثم تتطور إلى عقد معاهدات سياسية وارسلت هولندا إلى المغرب عام ١٥٩٦م وفدا هولنديا إلى المغرب فى عهد المنصور احمد لعقد معاهدة تجارية اقتصادية تفتح بموجبها المغرب

الموانى المغربية امام التجارة الهولندية وقد لاقى الوفد الهولندى قبولا من السلطان احمد المنصور لاسيما ان الهولنديين كانوا اشد اعداء اسبانيا، كما ان الهولنديين ابدوا استعدادهم القوى والفورى فى امداد المنصور بكل ما يحتاج اليه من اسلحة وذخائر وسفن حربية وكانت هولندا تهدف فى المقام الاول إلى تعميق العلاقات المغربية الهولندية إلى أن تجعل المغرب جميع موانيها مفتوحة امام السفن الهولندية باعتبار انها ستكون نقط ارتكاز تتمركز بها السفن الهولندية لمهاجمة السفن الاسبانية العائدة من الشرق الاقصى إل اسبانيا لاسيما الموانئ المغربية الجنوبية القريبة من السنغال مثل اركان والجديده .

وقد ازدهرت العلاقات المغربية الهولندية فى عهد المولى زيدان بن المنصور الذى تولى عرش المغرب عقب وفاة والده المنصور وسمح مولاى زيدان للهولنديين بطرد مجاهدى البحر الاسلاميين من موانى المغرب وخاصة ميناء المهدية واقام الهولنديون حصنا لهم بالساحل وكان الهولنديون يهتمون بتوطيد علاقاتهم مع الحكام الشرعيين ولم تقم ادنى علاقات بين الهولنديين والانفصاليين بالمغرب .

وهكذا كانت العلاقات المغربية والفرنسية والهولندية شأنها شأن العلاقات الاوربية تهدف فيها هذه الدول إلى تحقيق مكاسب اقليمية لها مثل الحصول على موانى لها لتكون نقط امداد وتموين لسفنها وملاذا لتجارها وتجارتها ومقرا لسفرائها ومخازن للسلع التجارية الفرنسية والهولندية، اضافة إلى ان الاوروبيين الفرنسيين والهولنديين كانوا يرون فى رغبة المغاربة الجارفة للحصول على الاسلحة الحديثة لكى يحققوا لهم مكاسب تجارية ،والسيطرة على بعض الموانى كالقصر الصغير لفرنسا وفتح الموانى مثل ميناء سلا أمام السفن الهولندية، لكن تسمح فى المقابل عن قيام شركات مغربية فى أى من هذين البلدين أو حصول المغرب على موانى فرنسية او هولندية لكى تكون مقرا للتجار

المغاربة أو اماكن لاقامة الفنادق او التوكيلات التجارية .

وفى كل الاحوال كان الجانب الغربى الاوربى هو الطرف القوى والمستفيد فى كل الاحوال سواء السماح له باحتلال الموانى او اماكن لرسو السفن الحربية والتجارية او احتكار التجارة فى انواع معينة كملح البارود والنحاس والسكر والذهب واستفادت أوربا فى استنزاف ثروات المغرب تحقيقا لمصالحها السياسية والاقتصادية والاستراتيجية وفى كل هذه الظروف لم يكن المغرب ليحقق أدنى مصلحة له سوى امداده بالسلاح وبعض المصانع الصغيرة .

وتلك هى نبذة قصيرة ومختصرة عن دور المغاربة السعديين فى العلاقات مع الاتراك العثمانيين والانجليز والبرتغاليين والاسبان والفرنسيين والهولنديين ومدى ابعاد هذه العلاقات وانعكاساتها على الساحة المغربية ومدى تاثير هذه العلاقة على الشعب المغربى وما هى الفوائد المباشرة التى تحققت من كل هذه العلاقات والتى لاشك فى أن المغرب كان الجانب غير الكاسب فى هذه العلاقات على المدى البعيد وكان الجانب الرابح هو الطرف الاوربى فى كل الاحوال .

الفصل التاسع

انهيار الدولة السعدية وسقوطها

ذكر ابن خلدون فى المقدمة الفصل الرابع عشر ان الدولة لها اعمار طبيعية كما للاشخاص واعمار الدول تختلف ذلك لان الدولة فى الغالب لاتعدو اعمار ثلاثة اجيال والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط فيكون اربعين عاما هو انتهاء النمو والنشوء إلى غايتة واذا قلنا ان عمر الدولة ثلاثة اجيال لأن الجيل الاول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة ولاتزال سورة العصبية محفوظة فيهم والدولة السعدية فى اقليم الجنوب ببلاد السوس قبل ان تتهيأ للتوسع شمالا والتوغل فى الاراضى المغربية والصراع مع القوى البرتغالية التى كانت تحتل الثغور الجنوبية الواقعة على شاطئ المحيط الاطلسى وظهور حركة الجهاد الاسلامى صورة لما قالة وصول ابناء محمد القائم بأمر الله (احمد الاعرج ومحمد الشيخ) للسيطـرة على مراكـش وفاس .

والجيل الثانى تحول حالهم بالملك والترفة والحضارة وينطبق ذلك على حالتنا هذه وحتى فترة تولى محمد الشيخ وابنة أبى عبد الله الغالب وكذلك عبد المالك بن محمد الشيخ ونهاية المرحلة الثانية تقف عند المجد والحضارة والترف الذى بلغتة دولة السعديين فى عصر احمد المنصور الذهبى .

والجيل الثالث يبدأ من النزاع بين أبناء احمد المنصور والنزاع بين ابناء زيدان بن المنصور حتى نهاية الدولة وهم الذين فقدوأ حلاوة العز والعصبية وبلغ فيهم الفساد والترف غايتة وصاروأ عيالا على الدولة والتى تشهد صاحب الدولة يستعين بغير اهلة وقومة ويستكثر بالمولى ويصطنع من خارج دولتة من رجال فنذهب الدولة ويكون هرم الدولة وتخلفها فيكون الهرم حاصلا مسئوليا .

وكانت الدولة السعدية التى تبوأت مكانة عالية فى عهودها السابقة حتى نهاية حكم أحمد المنصور قد دخلت مرحلة انكهولة والشيخوخة بدأ من زيدان بن المنصور وبدات ارهاصاتها المنذرة بسقوطها من واقع خيوط حركة التاريخ لاسيما أن كل الشواهد والادلة كانت توحى بالشواهد أن النزاع بين ابناء احمد المصور من اجل العرش انما كانت هى حلقات تمر بمر حلة كهولتها استعداداً لسقطو ط الدولة السعدية البالية وعودة الحياة المغربية إلى تجديد نشاتها وهذه المرة تكون فى اسرة شريفة علوية لكى تحمل راية الجهاد ومسئولية الحكم ولازالت تمارسة حتى وقتنا الحاضر ممثلا فى جلالة الملك الحسن الثانى الذى يحكم المغرب منذ عام ١٩٦١ حتى ١٩٩٢ م تاريخ كتابة هذا البحث .

وكان المغرب السعدى قد تمتع بنوع من الاسقرار والقوة والنفوذ والسيادة والمهابة فى عهد الخلفاء الاوائل من الاشراف السعديين الذين أولوا المغرب والقوى جل اهتمامهم ورفع شأنة بين الامم القوى الخارجية لكن بعد وفاة المنصور الذهبى خضعت جميع المدن والولايات للانفصال والثوار وذلك فيما عدا العاصمة مراكش وبعض احوازها بسبب الصراع بين افراد الاسرة السعدية وعانى المغرب من التفرقة والانقسام فى عهد الخلفاء المتاخرين الذين كان ضعفهم امام اعداء المغرب الخارجى والداخلى قد جعل الاهالى لايثقون فى القيادة الحاكمة ومن هنا بدأ الشعب يتطلع إلى قيادة جديدة بعد تهالك القيادة السعدية الضعيفة حيث كانت شوكة هذه القياده فى محاربة الخارجين عن الدولة والامراء الانتصاليين بل أن بعض الأمراء السعديين قد هزموا على ايدى الثورار وقد أدى ذلك إلى استسلام خلفاء مراكش للواقع السياسى الجديد .

وكما سبق القول والصراع بين افراد البيت السعدى كان من الأسباب القوية

التى عجلت بنهاية الأسرة سريعا وانهيارها بل انه كان العامل الاول من اسباب قيام الثورات والحركات الانفصالية والامارات الستقلة عن الحكومة المركزية فى المغرب الاقصى وانشغال الامراء السعديين بالصراع فيما بينهم عن احوال الرعية والعدو الخارجى وعن تفكك الدولة وظهور الامارات الانفصإلية وقيام بعض الزعماء وكباررجال القبائل والاقإليم والمدن الكبرى باعلان الاستقلال عن الدولة الام فى مراكش بل الادهى من ذلك أن هذه الولايات والامارات دخلت فى نزاع عسكرى فيما بينها من اجل الحدود والتوسع كل امارة على حساب الاخرى ولم تكن هذه الامارات فى وئام فيما بينها وبين القيادة الاسرة العلوية الشريفة التى قدر لها أن تكون امارة مستقلة فى أواخر عهد السعديين البإلى والمتهالك .

وفى الواقع التاريخى أن بعض هذه الامارات قد ادت بعض الخدمات إلى المغرب الاقصى فى محاربة المحتلين الفرنجة سواء اكانوا من البرتغإليين او الاسبان ودخلوا فى صراع عسكرى معهم وحققوا بعض الانتصارات ولستطاعوا طردهم من بعض المدن كما فعل المجاهد ابو عبد الله العياش فى سلا .

وقد كانت حالة الفوضى من اسباب قيام هذه الحركات الانفصإلية التى انتشرت فى البلاد وكانت مراكش عبارة عن امارة من الامارات شأنها شان الامارات الاخرى الاانها كانت الواجهة الشرعية الرسمية للدولة والتى تتعاون معها الدول الخارجية ولقد كان العامل الدينى من الاسباب القوية لقيادة هذه الزعامات السياسية وخاصة الأسرة العلوية الشريفة .

ولقد شهد المغرب الاقصى ظهور العديد من الامارات المستقلة التى مارست سياستها فى داخل الاقليم الذى تسيطر عليه كانها دولة ذات سيادة وذات حدود سياسية معترف بها بل أنها كانت تحاول التوسع على حساب الامارات المستقلة الاخرى

ومن هذه الامارات امارة النفيس بتطوان، وكذلك امارة الشيخ أبى عبد الله محمد العياشى فى سلا ثم فاس وتادلا ، ووكذلك امارة أبى حسون السحلالى فى السوس .

ورمارة ابن ابى مجلى فى سجلماسة وغيرها من الامارات الصغيرة الاخرى والذى يلقى نظرة على هذه الامارات المستقلة التى زاد عددها فى عهد الاسرة السعدية لاسيما منذ عهد زيدان بن المنصور حتى سقوط الدولة يدرك للوهلة الاولى ان المغرب قد اصبح حالة كما كان حال الاندلس فى السابق مقسما إلى ملوك وطوائف كل منهم يحكم ويستقل بطائفة من القوم وقطعة من الأرض يقيم بها سطانا يمارس فى داخله نفوذه وسيادته بل يمارس علاقات خارجية مع الدول الكبرى ويدخل الميدان الدولى ويقيم علاقات كما نعلت انجلترا فى اقامة علاقات تجاربة وسياسية وعسكرية مع بعض من هذه االامارات المستقلة ، بل هولندا دخلت فى صراع عسكرى مع امارة سلامن أجل طرد المجاهدين الاسلامين البحريين .

وكان ان توفى محمد الشيخ الاصغر بن زيدان بن احمد المنصور عام ١٠٥٤هـ وتولى الخلافة فى مراكش وبعض المناطق القريبة منها ابنة ابو العباس احمد وكانت الدولة فى عهدة قد وصلت إلى حالة من التردى والضعف والانهيار حيث انة كان لايزال طفلا صغيرا وفى ذلك الوقت كان اخوالة من عرب الشبانات والذين احاطوا بة بعد ان قويت شوكتهم وزاد سلطانهم وحاصروا مراكش العاصمة عدة شهور واستبدوا بمقاليد الامور وكانت والدة أبى العباس احمد تمد الطريق لاسرتها لان تستولى على الحكم بعد ان كانوا هم اصحاب الكلمة العليا فى مراكش ، ومن ثم انتهى الامر بإن قامت قبيلة الشبانات بقتل السلطان السعدى اخر سلاطين السعذيين عام ١٠٦٩هـ وازالوا نهائيا معالم الاسرة السعدية بمقتل أبى العباس واستيلاء عرب الشبانات على مقاليد الامور فى البلاد وبايعوا ابرهيم عبد الكريم زعيم قبيلة الشبانات وعقيل عقب

قتل السلطان السعدى الصغير وسقطت الدولة السعدية نهائيا .

وبسقوط دولة الإشراف السعديين من مسرح الاحداث السياسية بالمغرب الاقصى تكون قد طويت صفحة من صفحات التاريخ الاسلامى والاسرى كما طويت قبلها صفحات لاسرات المرابطين والوحدين وبنى مرين وغيرهم من الاسر الحاكمة ان مارست كل منها دورا فى حياة المغرب وفى حقيقة الامر ان كل اسرة حاكمة لابد تكون فيها فترة خالدة باهرة ساطعة بالاعمال وقد كانت معركة القصر الكبير عام ١٥٧٨م مفخرة الاسرة السعدية بل مفخرة المغرب ابد الدهر .وقد عاشت الاسرة السعدية مايزيد عن قرن ونصف من الزمان . لكن الاسرة العربية من الشبانات لم يكن ليقدر لها ان تمارس دورها على مسرح الاحداث سوى سنوات حيث أنها لم تكن مؤهلة لان تقود مسيرة المغرب لانها كانت حبيسة مراكش ولم تكن من القوة القيادية بحيث تتصدر العمل السياسى فى هذه المرحلة الحاسمة بالصراع والتمزق على الساحة الداخلية المغربية والصراعات العالمية على أرض المغرب .

ولكن الله حارس تلك الديار وحامى أرضه المسلمة قيض لها قيادة مجاهدة شريفة علوية سلالة قرشية من الدوحة الزكية لكى تسقط حكم الشبانات من مراكش عام ١٠٧٥هـ لتبدا أسرة الاشراف العلويين فى حكم البلاد (١٠٧٥- ١٤١٢هـ- ١٦٦٤- ١٩٩٢م) ولازالت تحكم البلاد حتى الآن .

الاسرة السعدية

١- محمد القائم بامر الله ابو عبد الله

٩١٥-٩١٨هـ -١٥١٥- ١٥١٨م.

٢- احمد ابو العباس بن محمد القائم بامر الله- الاعرج .

٩١٨-٩٥١هـ-١٥١٨-١٥٤٤م.

٣- ابوعبد الله محمد الشيخ - المهدى - بن محمد القائم بامر الله.

٩٥١-٩٦٥هـ-١٥٤٤-١٥٥٧م .

٤- عبد الله بن محمد الشيخ ابو محمد (الغالب بالله).

٩٦٥-٩٨١هـ-١٥٥٧-١٥٧٤م.

٥- محمد المتوكل على الله الغالب .

٩٨١-٩٨٣هـ-١٥٧٤-١٥٧٦م .

٦- عبد المالك بن محمد الشيخ - صاحب معركة القصر الكبير .

٩٨٣-٩٨٦هـ-١٥٧٦--١٥٧٨ .

٧- احمد المنصور بالله السعدى - الذهبى - ابو العباس.

٩٨٦-١٠١٢هـ-١٥٧٨-١٦٠٣م.

٨- زيدان بن احمد المنصور - المامون بن احمد المنصور - ابو فارس بن احمد المنصور .

١٠١٢-١٠٣٧هـ-١٦٠٣-١٦٢٧م.

٩- الوليد بن زيدان.

١٠٤٠- ١٠٤٥هـ-١٦٣٦م .

١٠- محمد بن الشيخ بن زيدان (أبو العباس).

١٠٤٥-١٠٦٣هـ-١٦٣٦-١٦٥٢م.

١١- احمد بن محمد الشيخ بن زيدان (ابو العباس) .

١٠٦٣-١٠٦٩هـ-١٦٥٢-١٦٥٨م.

الباب الثالث

الأشراف العلويون حكام المغرب حتى الآن

(١٠٧٥- ١٤١٢هـ- ١٦٦٤- ١٩٩٢م)

(محمد بن محمد بن الشريف بن على- الحسن الثانى بن محمد الخامس بن يوسف بن الحسن)

ظهرت الاسرة العلوية الكريمة ذات الحسب النبوى الشريف، نسل سلالة الأسرة الهاشمية فرع الشجرة الذكية النبوية والأسرة العلوية العلية الشريفة بعد عام ١٦٦٠ باربعة اعوام بعد القضاء على حكم الاسرة السعدية التى كانت قد أسلمت قيادة المغرب إلى الاسرة الشباناتية التى لم تدم فى سلطة مراكش سوى ست سنوات، لكن الاسرة العلوية فيض الله لها حكم المغرب وهى لا تزال تقوم على العرش العلوى الشريف، وقد بدأ العلويون (او الفلاليون) وهم سلاطين اشراف فى الوقت نفسه على انهم اصحاب حركة اصلاحية دينية لاتقل عن اية حركة اصلاحية ظهرت فى العالم الاسلامى بل انها تزيد عنها بنسبها النبوى الشريف ولعل التفاعل بين الدين ونسب الساسرة وتاريخها الجهادى الاسلامى قد اوجد لها تربة صالحة وصلابة قوية فلما توجد فى أى بلد اسلامى آخر فيما عدا المغرب .

وينتسب الاشراف العلويون إلى الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم وارضاهم، فهم سلالة شريفة قرشية نبوية وفى ذلك يقول دائما جلالة الملك الحسن الثانى ملك المغرب الحالى عند رواية الاحاديث النبوية مبدأ قوله: قال جدى رسول الله ﷺ كذا فالنسب شريف وايضا فهم بنو عم الاشراف السعديين حكام الاسرة السابقة ويلتقو معهم من حيث تسلسل الاسم القرشى فى اسم محمد بن القاسم وهم ايضا بنو

عم الادارسة (١٧٢- ٤٧هـ- ٧٨٨- ٩٥٨م) (انظر الجزء الثانى من هذه الموسوعة: المغرب بين الاغالبهوالادارسة وبنى رستم) ويلتقى العلويين مع الادارسة فى اسم عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على ابن أبى طالب .

وأول من دخل بلاد المغرب من الاسرة العلوية الحاكمة هو جدهم الاكبر الذى يمكن ان تطلق عليه الحسن الداخل المغربى وذلك عام ٦٧٤هـ وهو الحسن بن القاسم بن محمد بن القاسم بن الحسن بن عبد الله بن أبى محمد بن عرفه والذى يمتد نسبه إلى محمد النفس الذكية (انظر ملحق هذا الفصل بالنسب القرشى بدأ من على بن أبى طالب ونهاية إلى الحسن الثانى ملك المغرب الحالى مسلسلا فى شجرة طيبة .

والشعب المغربى الطيب المحب لرسول الله ﷺ كان يرى فى وجود الاشراف الذين هم نتاج الشجرة الطيبة المباركة التى يتفرع منها النسل الطاهر لرسول الله ﷺ صاحب الدعوة الخالدة الباقية ابدا الدهر إلى أن يرث الله الارض ومن عليها والهادى للبشرية ان وجود أفراد من هذه الاسرة بركة وفخرا للقبيلة والاقليم الذى يقيم فيه هذا الشريف ولاسيما وان مشاعر المغاربة تلتف حول هؤلاء الاشراف ويحيطونهم بنوع من التكريم والتقدير والحب والطاعة ومن هنا استطاع الاشراف العلويون السجلماسيون او الفلاليون تكوين دولتهم على انقاض دولة السعديين .

وكما سبق القول كان جدهم الاكبر الحسن بن القاسم جد العلويين هو أول من نزل بلاد المغرب ثم اتجه جنوبا إلى سجلماسة بعد قدومه من بلاد الحجاز متمسكا بالنسب الشريف العلوى عاملا بالشرافة الحجازية القرشية فى محيطها العربى المغربى وقد كان وجوده فى الاقاليم الجنوبية يشكل بناء اسرى واجتمعى ودينى وسياسى متميز عن بقية الاقاليم المغربية الاخرى حيث البعد الدينى عاملا قويا لظهور الحركة

الاصلاحية العلوية مرتدية عباءة الشرافة القرشية باسم احياء الدولة الاسلامية المغربية الكبرى .

ونذكر بعض المصادر ان بعضا من اهل الورع والتقوى والصلاح قد قاموا بأداء فريضة الحج وكانوا جميعا من مدينة سجلماسه المغربية قد توقفوا وهم فى طريقهم إلى المدينة المنورة لزيارة رسول الله ﷺ فى قرية بنى ابراهيم وهى قريبة من ميناء ينبع الواقع على البحر الاحمر وتصادفوا ان تقابلوا مع شريف من الاشراف الحسنين فخاطبوه فى أمر الرحيل معهم واصطحابهم فى قافلتهم حتى المدينة المنورة ثم العودة معهم إلى بلادهم المغربية المحبة للنسل النبوى الشريف وحببوا اليه الانتقال معهم إلى بلادهم ولقب هذا الشريف بالداخل (الحسن) وانتشرت اسرة الحسن الداخل فى سجلماسه ومن هنا فان الاشراف العلويين اشراف سجلماسه السعديين اشراف درعه ابناء عمومة. ومن هنا فان الاسرة العلوية المغربية تناسلت وانتشر نسلها وابناءها واخفادها فى هذه المنطقة الجنوبية باقليم سجلماسه من المغرب الاقصى زمنا طويلا .

ولما كان الضعف والتفكك والانقسام والفوضى قد بدات تضرب باطنابها فى الدولجة السعدية فان اهالى الاقاليم الجنوبية فى سجلماسه بايعوا المولى محمد الشريف بن على بن محمد بن على بن يوسف بن على ابن الحسن بن محمد بن الحسن الداخل اماما وقائدا على الاقليم توطئة لكى يتولى حكم الدولة المغربية المنقسمة على نفسها ولكن هذه المبايعة لم تجد اجماعا تاما وتلك طبيعة النفس البشرية حيث اننا نجد بعض الاجزاء لم ترضى هذه المبايعة واخذوا يكيدون له ويقفون كاشوكة الضعيفة امام الزحف الشريف الكاسح وهم اهل حصن (تيو عاصت) لكن الشريف القرشى الذى كان يكره القتال والدماء والفتن لاسيما بين ابناء الاقليم الواحد والدين الواحد عرض فى تلك الحالة وقد رأى بعض الانقسام على أبى حسون السحلالى بالسوس ودرعه أن

يتنازل عن سجلماسه وكان أبو حسون يتخذ من مدينة بليغ عاصمة لامارتة ثم حولها إلى مدينة تارودانت واخذ نجم أبى حسون يلمع فى سماء المغرب واستولى على درعه لذا وجد المولى محمد بن الشريف العلوى الذى كان قد بويع بالامارة في سجلماسه أن يدعو السحلالى للدخول إلى سجلماسه وصارت سجلماسه من أملاك أبى حسون صاحب السوس، ثم حدث خلاف بين أبى حسون وبين الشريف محمد بن محمد نظرا لسوء العلاقات والخلافات دفعت محمد بن محمد الشريف إلى اعلان الثورة على صاحب السوس لسوء معاملته لوالده الذى كان أبو حسون قد قبض عليه وسجنه فى قلعة ببلاد السوس، لكن ابنه محمد استولى على سجلماسة وطرد عامل أبى حسون منها واستطاع ان يفك اسر والده ثم قاتل السملاليين وطردهم من درعة وصارت تلك الأقاليم كلها تحت طاعة الشريف العلوى كما خضعت له العديد من الحصون والقرى والبلاد والقلاع المجاورة وبايع اهل سجلماسة محمد بن محمد الشريف بالأمارة عام ١٠٥٠هـ ووافق أبوه على ذلك .

وقد وضع الأمير العلوى الجديد نصب عينه وأهدافه المستقبلية ضرورة الاستيلاء على المغرب كله وانهاء عهد الفرقة والأنقسام ولابد من العمل بعون الله على توحيد كل هذه الديار تحت الرايجة العلوية دفاعا عن التراب المقدس وتحرير كل الجيوب الباقية سواء كانت فى قبضة الانجليز أو الفرنسيين أو الاسبان أو غيرهم من الأوربيين وتكوين دولة علوية كبرى وتقدم بجيوشه وقواته لكى يحتل مراكش وفاس وما يقع بينهما من مدن وأقاليم وقلاع وحصون وقبائل ولكن واجهته عدة عقبات حالت دون تنفيذ هذه الخطوة الجريئة المندفعة بقوة الأيمان، وكيف لا وانه كان يقع عليه ان يقاتل حكام الأمارات الصغيرة المنقسمة على نفسها والتى قسمت المغرب إلى عدة أقاليم وولايات .

وكان بداية صراعه مع الامير محمد اولاتى حاكم تدلا وفاس. وكانت مواقعه تقع بزاوية الدلاء بمنطقة مراكش الوسطى وكانت الزاوية مركز للطريقة الدلائية وكان محمد الحاج الدلائى قد استولى على فاس عام ١٠٥١هـ ودخل أهلها فى طاعته وأصبح الامير الدلائى من اقوى أمراء المغرب بعد مقتل أبى عبد الله العياشى صاحب مدينة سلا، لكن فى عام ١٠٦٠هـ استنجد اهل فاس بالمولى محمد بن الشريف العلوى لينقذهم من حكم الدلائى فقبل الشريف العلوى دعوتهم وافتتح فاس لكنه اضطر إلى العودة إلى سجلماسة وحدثت معاهدة صلح بين الطرفين وقد حاول محمد الشريف الاستيلاء على فاس لكنه فشل اكثر من مرة ومن ثم بدأ يعيد تفكيره فى ضرورة ايجاد ارض صالحة لدعوته لكى يكون دولته المغربية الكبرى فرأى بتاقب نظره أن العقبات التى تحول بين تحقيق احلامه بالمغرب الأقصى كثيرة فكان عليه ان يولى وجهه شطر المغرب الاوسط لعله يحقق آماله واحلامه ويستطيع ان يصل إلى هدفه السامى وتحرك إلى الجزائر تحيط به جموع كثيرة من القبائل التى بايعته وانطوت تحت لواء دعوته وحاول ان يطرد الاتراك من هناك وان يكون دولته الشريفة هناك ثم يزحف بعد ذلك إلى المغرب الاقصى لتكون الدولة القرشية العلوية الشريفة شأنها شأن الدول الكبرى كالمرابطين والموحدين حيث ان زحفه من المغرب الاوسط سوف يسهل له القضاء على الأمارات المستقله والولايات الصغيرة بالمغرب الاقصى ويضم هذه الأمارات إلى دولته المرتقبة .

واتجه الشريف العلوى إلى استخدام نفوذه فى الصحراء الشرقية لربط الصلة شرقا مع سجلماسة فاتجه إلى مكان يسمى بسط (انكادا) حيث بايعته القبائل والاحلاف وبعض سكان هذه المدن والقلاع وبذلك استطاع ان يكون جيشا كبيرا استطاع به ان يتزعم حركة تحرير اقليم الجزائر من الأتراك، لكن الشريف مولاى محمد اضطر إلى

العودة مرة أخرى إلى سجلماسة أزاء رد فعل الأتراك العثمانيين الذين احسوا بالخطر من ناحية الشريف العلوى فتحركوا إلى تلمسان لتطويق قوات الأمير العلوى وقد أحس الشريف العلوى بخطورة الموقف لاسيما وان مولاى محمد الشريف قد خشى التصادم مع الأتراك لاسيما وأنه لم ينفذ أدنى هدف من خططه البعيدة الرامية إلى انشاء دولة مغربية كبرى فعاد إلى مواقعه الأولى فى سجلماسة لجمع قواته ودعم كيانة وذلك بعد أن حقق الهدف الأول من أهدافه وهو جمع وحدة القبائل المغربية حوله ضد الدخلاء الأجانب إلى جانب انضمامهم لصفه فى مواجهة الأتراك ومن هنا احسست هذه القبائل أن السلطة لا محالة منتهية إلى الأسرة العلوية وأن المغرب سيصبح من القوة ووحدة الهدف ما يمكنه من طرد العناصر المتغطرسة وغير المرغوب فيها من الأجانب .

وبدا الأتراك فى الجزائر لأول مرة يشعرون بالخطر من الشريف العلوى وأن سلطانهم بات مهددا فى المغرب الأوسط من جراء القوة العلوية الصاعدة، لذا فقد وجه إليه عثمان باشا والى الجزائر وفدا إلى سجلماسة لمناشدة الشريف العلوى بحق الروابط والاخوة الأسلامية وصلة القربى والنسب القرشى الشريف والانتساب إلى رسول الله ﷺ أن يكف عن مهاجمتهم وأن يمنع القبائل المغربية من الهجوم على الأتراك المسلمين فتأثر الشريف العلوى بما قاله له الوفد التركى وتعهد بعدم تجاوزه الحدود التركية فى المغرب الاوسط. هذا عن الموقف التركى الذى كان مهددا من القوة العلوية الصاعدة .

أما الجانب السعدى الحاكم فى مراكش فقد ادرك بعد الخطر القادم إليه والواقع لا محالة ولكن مركزه الضعيف لم يكن يسمح له بان يتحرك ويقف فى وجه الشريف العلوى أو محاولة التحرش به والصدام معه. ذلك لان الخليفة السعدى محمد الشيخ بن زيدان بن أحمد المنصور أحس بخطر الحركة العلوية فى سجلماسة لكنه لم يجد القوة الكافية لمحاربة العلويين فآثر ان يصرف النظر عن ذلك وعمل على مراسلتهم وقد رد

عليه المولى محمد الشريف العلوى مراسلاته .

ولما أحس محمد الشريف بأن وضعه العسكرى والسياسى أصبح من القوة بحيث يستطيع أن يبدأ فى تنفيذ ما كان يفكر فيه فانه لم يترك فرصة إلا وانتهزها للتوسع وكانت له طريقة مبتكرة فى محاربة المناوئين له من حكام الأقاليم اذ انه كان يفرض ضريبة ضد الأمراء والمجاورين ثم يجاربهم ولم يلبث ان يعود إلى موقعه الأصلى سجلماسة بعد أن يكون قد أثار الفزع فى اعدائه وهكذا كان اسلوبه فى محاربة الأمراء الولائيين ومع السملاليين ونظرا لما ابداه من شجاعة وحزم وقوة والتفاف القبائل حوله فان وفاة والده محمد الشريف كانت فرصة له لكى يجدد القوم والجيش والقبائل البيعة من جديد له عام ١٠٦٩هـ. لكن أخاه الرشيد الذى كان ذا مطامع سياسية كبرى لم ترضيه مبايعة القوم له فخرج الرشيد يعلوى ارجاء المغرب ساعيا لكسب تايد القبائل له وجمع قوات حربية عديدة يستطيع ان يقف فى وجه اخيه محمد بن محمد الشريف العلوى أخاه الأكبر وأن يصل إلى الخلافة ونجح الرشيد فى أن يكون جيشا كبيرا محاولا محاربة أخاه فتصدى له المولى محمد ووقعت بين الأخوين معركة بمنطقة سهول انكادا وكان من حظ الرشيد أن أول رصاصة انطقت قتلت أخاه محمد عام ١٠٧٥هـ ١٦٦٤م. وانفرد الرشيد بن محمد الشريف العلوى بالحكم وظل يحكم البلاد طوال ثمانية عشر عاما (١٠٧٥- ١٠٨٢هـ ١٦٦٤- ١٦٨٣م) ومن ثم وضع همه الأول إلى تكوين الدولة العلوية الكبرى وفى عدم تشتيت قواته العسكرية فى قتال جزئى مع الأمراء المحليين لا يعود عليه بما يخطط له ومن ثم عزز جيشه بالعناصر الفلالية التى كانت منذ اللحظة الاولى القوة المساندة للأسرة العلوية وعمل على القضاء على القوة الصغيرة التى كانت فى بد ابن اخيه المولى محمد بن محمد الشريف، ثم عاد إلى كازا التى اتخذها عاصمة ملكة الجديدة. وقد تهيات الظروف

لهذا العلوى المحنك المثابر ان يؤسس دولة قوية بالمغرب على أنقاض السعدين بعد أن نجح فى القضاء على جميع الأمارات المستقلة التى كانت تمزق المغرب إلى وحدات صغيرة ومن ثم أنقض على أمارة الشبانات فى مراكش والذين كانوا قد استولوا عليها من السعديين عام ١٠٦٩هـ .

وهكذا كان دخول الرشيد بن الشريف على إلى مراكش عاصمة الأسرة السعدية وقضاءه على حكم الشبانات بداية ظهور الأسرة العلوية الشريفة التى حكمت البلاد منذ عام ١٠٧٥هـ حتى عصرنا الحاضر ١٤١٢هـ وبذلك تكون المغرب قد دخلت طورا جديدا من اطوار الحكم وبدأت مرحلة ظهر فيها الخليفة المظفر بالله اسماعيل شقيق الرشيد بن الشريف بن على ليكون أقوى سلاطين المغرب ويعيد للذاكرة ذكرى يوسف بن تاشنين وعبد المؤمن بن على وعبد المالك بن محمد الشيخ السعدى وغيره الكثيرين من رجالات المغرب الذين لعبوا ادوارا خالدة خلدت اسماءهم فى سجل ابطال التاريخ الاسلامى الذين ضربوا بسهم وافر فى تحقيق الأنتصارات لشعوبهم .

وفى ذلك يقول ليفى بروفشال وهو من اساتذة السوربون والذى كتب عام ١٩٥٣م يقول أن المغرب كان طوال خمسة قرون خلت الدولة الأسلامية الوحيدة التى دعمت نفسها على أنها أمة وأن المغرب كان امبراطورية مستقلة ذات تاريخ طويل شديد الغيرة على استقلاله وعلى اتم استعداد لمقاومة أى شكل محاولة المساس بأرضه ووحدته وهكذا قام الجد المظفر مولاى اسماعيل بالعمل على توطيد أركان الدولة داخليا وخارجيا وتمكن من اقتلاع كل ما كان يقف فى بناء الأمبراطورية العلوية الشريفة، ذلك لأن المغرب له ثمة تقاليد مورثة راسة الجذور تجعل منه قوة فعالة وذلك بعد أن قرن تاريخ المغرب فى القرن السابع عشر الميلادى بظهور الأسرة العلوية المنحدرة من سبط الرسول ﷺ لكى تكون الاسرة الحاكمة العاملة على عودة المغرب لعظمته العقيدة

وهى الأسرة التى حافظت على استقلال المغرب فبنما خضعت كل اجزاء المغرب العربى والعالم العربى باسره للقوة الأستعمارية التركية والأوربية وهكذا تمكنت الاسرة العلوية من اعادة المغرب إلى مكنته السابقة .

ويقول روم لاندو فى كتابه المغرب لقد كان السلطان هو رأس الأمة بل أنه كان الأمة بل أنه كان الأمام الذى يكن الشعب له كل الأحترام وقد أطلق الشعب على السلاطين لقب أمير المؤمنين وهو لقب يطلق منذ عصر المرابطين ويوصف السلطان بانه الأمام الأعظم فقد كان من حقه أن يؤم الأمة بكاملها فى الصلاة على أن الذى يميزه عن غيره أن سيادته لا تطال لكونه شريفا قرشيا وبذلك يكون قد ورث البركة عن اسلافة ولقد ضربت هذه المشاعر الدينية جذورها فى المغرب وترك تاثيرها الواضح والجلى فى اعماق النفس المغربية ومن هنا سادت الأسرة العلوية على سلطان المغرب بدفعها إلى ذلك النسب القرشى النبوى الشريف والجهاد الاسلامى ضد القوى التى تحاول ان تنال من سيادة المغرب وحب الشعب المغربى لآل الرسول والتفافهم حول سلطانهم وأمير المؤمننين سليل الشرف القرشى الحسيب النسيب وهكذا كانت المغرب علويه حتى عصرنا الحاضر .

ونكتفى بهذا القدر من الدراسة فى تاريخ المغرب حتى لا ندخل فى المحظور وتتجاوز مرحلة العصر الوسطى- العصور الأسلامية - وندخل المرحلة التاريخ الحديث ونتوقف عند القرن السابع عشر ولا ندخل قرنا جديدا يدفع بنا إلى دراسة واسعة ومستفيضة عن الأسرة العلوية الشريفة وهذا لا يدخل فى نطاق البحث الذى قسمناه إلى ستة اجزاء كل جزء يعالج أسرة حاكمة معينة ولم يكن فى خطتنا الدراسية الدخول إلى الأسرة العلوية ولكن لما كانت الأسرة العلوية هى التى اسقطت الاسرة السعدية واقامت كيان المغرب العربى الموحد فلابد من الأشارة إلى هذه الأسرة على

عجالة وفى هذه الصفحات القلائل وأن كان ذلك لايمنعنا أن نضيف قائمة باسماء سلاطين الأسرة العلوية الشريفة بدا من الأمام على بن أبى طالب رضى الله عنه وصولا إلى الملك الحسن الثانى ملك المغرب الحالى وبذلك نكون قد ختمنا تلك الدراسة بخاتمة تجلت فى النسب البنبوى الشريف سليل الحسن بن على بن أبى طالب سبط رسول الله ﷺ .

الحسب النسبى لجلالة الملك الحسن الثانى
نسل السلالة القرشية الهاشمية فرع الشجرة
الذكية والدوحة النبوية العلوية

١ – الأمام على بن أبى طالب بن عبد المطلب .

٢ – الحسن بن على بن أبى طالب .

٣ – الحسن (المثنى) ابن الحسن بن على .

٤ – عبد الله (الكامل) ابن الحسن (المثنى) ابن الحسن .

٥ – محمد (النفس الذكية) ابن عبد الله (الكامل) ابن الحسن (المثنى) .

٦ – القاسم بن محمد (النفس الذكية) بن عبد الله (الكامل) .

٧ – اسماعيل بن القاسم بن محمد (النفس الذكية) .

٨ – أحمد بن اسماعيل بن القاسم .

٩ – الحسن بن أحمد بن اسماعيل .

١٠ – على بن الحسن بن أحمد .

١١ – أبو بكر بن على بن الحسن .

١٢ – الحسن بن أبى بكر بن على .

١٣ – عرفه بن الحسن بن أبى بكر .

١٤ – أبو محمد بن عرفه بن الحسن .

١٥ – عبد الله بن أبى محمد بن عرفه .

١٦ – الحسن بن عبد الله بن أبى محمد .

١٧ – القاسم بن الحسن بن عبد الله .

١٨ – محمد بن القاسم بن الحسن .

١٩ – محمد بن محمد بن القاسم .

٢٠ – القاسم بن محمد بن محمد .

٢١ – الحسن بن القاسم بن محمد (أول من دخل المغرب عام ٦٧٤هـ) .

٢٢ – محمد بن الحسن بن القاسم .

٢٣ – الحسن بن محمد بن الحسن .

٢٤ – على بن الحسن بن محمد .

٢٥ – يوسف بن على بن الحسن .

٢٦ – على بن يوسف بن على .

٢٧ – محمد بن على بن يوسف .

٢٨ – على بن محمد بن على .

٢٩ – محمد بن على بن محمد الشريف (مؤسس الأسرة العلوية الحاكمة وأول من تولى الحكم ١٠٥٧هـ/ ١٦٤٦م) .

٣٠ – محمد بن محمد بن الشريف بن على .

٣١ – على بن محمد بن محمد الشريف .

٣٢ – اسماعيل بن على بن محمد .

٣٣ – عبد الله بن اسماعيل بن على .

٣٤ – محمد بن عبد الله بن اسماعيل .

٣٥ – هشام بن محمد بن عبد الله .

٣٦ – عبد الرحمن بن هشام بن محمد .

٣٧ – محمد بن عبد الرحمن بن هشام .

٣٨ – الحسن بن محمد بن عبد الرحمن .

٣٩ – يوسف بن الحسن بن محمد .

٤٠ – محمد (الخامس) بن يوسف بن الحسن .

٤١ – الحسن (الثانى) بن محمد (الخامس) بن يوسف– يحكم من عام ١٩٦٢م .

الأسرة العلوية الحاكمة بالمغرب

١ – محمد بن على الشريف– ١٠٥٧– ١٦٤٦م .

٢ – محمد بن محمد بن على الشريف .

٣ – الرشيد بن على الشريف .

٤ – اسماعيل بن على الشريف (المظفر بالله أبو النصر) .

٥ – أحمد بن اسماعيل (الذهبى) .

٦ – عبد الملك بن اسماعيل بن على الشريف (أبو مروان) .

٧ – عبد الله بن اسماعيل بن على الشريف .

٨ – على بن اسماعيل بن على الشريف .

٩ – محمد بن اسماعيل بن على الشريف .

١٠ – المستضئ بن اسماعيل بن على الشريف .

١١ – زيدان بن اسماعيل بن على الشريف .

١٢ – محمد بن عبد الله بن اسماعيل بن على.

١٣ – يزيد بن محمد بن عبد الله .

١٤ – هشام بن محمد بن عبد الله بن اسماعيل .

١٥ – سليمان بن محمد بن عبد الله بن اسماعيل .

١٦ – عبد الرحمن بن هشام بن محمد بن عبد الله .

١٧ - محمد بن عبد الرحمن بن هشام .

١٨ - الحسن بن محمد بن عبد الرحمن .

١٩ - عبد العزيز بن الحسن بن محمد .

٢٠ - عبد الحفيظ بن الحسن بن محمد .

٢١ - يوسف بن الحسن بن محمد .

٢٢ - محمد (الخامس) بن يوسف بن الحسن .

٢٣ - الحسن (الثانى) بن محمد (الخامس) بن يوسف .

الخاتمة

أنه يتضح من خلال منهج البحث وعناصره التى شكلت هذه الدراسة بأبوابها الثلاث وفصولها المتعددة واسهاماتها فى رسم حركة الاحداث بالمغرب خلال الحقبة الوطاسية والسعدية وظهور الاشراف العلويين، ان فكرة الدولة المغربية الاسلامية قد تعرضت للعديد من الاعتداءات والتدخلات وكيف أن فترة الاسرة الوطاسية وان كانت قد سبقتها مقدمات فى أواخر العهد المرينى كانت أضعف حلقات التاريخ المغربى وكيف ان العامل القبلى والاقليمى شكل بعدا خطيرا فى تفكك الوحدة المغربية وما أحدثه من عوامل التفرقة القبلية وخضوع البلاد فى دوامة الصراعات الداخلية والتدخلات الخارجية من الايبيرين (البرتغال والاسبان) وكيف انتقل الصراع على الجانب المغربى واختلال موازين القوى وضعف الجانب الاسلامى وظهور التفوق الغربى البحرى والبرى وظهور التنافس الاستعمارى بين هذه القوى ونشاطهم فى حركتهم التوسعية وكيف ظهر على الجانب المعاكس رد فعل اسلامى عاملا من اجل توحيد البلاد الاسلامية فى ظل الخلافة التركية العثمانية وكيف قاد الاتراك حركة توحيد العالم الاسلامى والاندفاع بالراية الاسلامية فى اوربا الشرقية وكيف أن القوى الابيرية كانت تضرب على الوتر الحساس لاثارة النعرة الاقليمية الضيقة والجانب القبلى، لكسر قوة الوحدة الاسلامية وكيف استجاب الجانب المغربى من اجل المحافظة على كيانه الاقليمى فى وجه الانطواء التركى العثمانى .

وكيف أن بنى وطاس استطاعوا ازالة الاسرة الشريفة التى كانت تحكم فى فاس بعد انهاء الحكم المرينى ومقتل آخر سلاطين بنى مرين السلطان عبد الحق بن أبى سعيد بن العباس وكيف كانت الدولة الوطاسية قصيرة العمر الزمنى بحيث أن فترة البقاء فى الحكم لم تتجاوز الثمانين عاما هجرية وكيف تقلص نفوذ هؤلاء الحكام

بحيث لم يعد لهم نفوذ ولا سيادة الا على العاصمة وبعض النواحى المحيطة وكيف أن البلاد وقعت بين فكى كماشة شرقية تجلت فى الوجود التركى العثمانى ورجال الجهاد الاسلامى الذين بسطوا نفوذهم فى الجزائر وغربا بالسيطرة البرتغالية الاسبانية على الثغور المغربية المطلة على البحر المتوسط والمحيط الاطلسى وكيف أن هذه القوى الاستعمارية ارادت السيطرة الكاملة على كل التراب المغربى وارسالها الحملات العسكرية إلى العواصم فاس ومراكش وكيف أن هذه الحملات لم تحقق أهدافها فى السيطرة على الداخل المغربى فاكتفت بالسيطرة على القلاع والحصون إلى اقامتها على الساحل بعد أن ثبت فشلها فى التوغل للداخل .

وكيف أن ذلك الانهيار العسكرى وضعف القوة الحربية الوطاسية وما تجلى من انحياز بعض افراد الاسرة الوطاسية وتعاونهم مع القوى الاستعمارية كان الدافع القوى والمحرك الاساسى لكى تلعب الطرق الصوفية دورها فى قيادة حركة الجهاد الاسلامى ومحاولة الوقوف بالقوة والحزم والجهاد فى وجه المعتدين الذين دنسوا تراب الوطن المغربى الطاهر وكيف ان زعماء هذه الطرق الصوفية لاسيما الطريقة الجزولية الشاذلية استطاعت ان تعبئ الجماهير والشعب المغربى حول الهدف الاسمى المستمد من كتاب الله الكريم وسنة خير المرسلين فى ضرورة رفع– راية الجهاد الاسلامى فوق رأس الجموع المحتشدة فى الزوايا والاربطة والقبائل لتكوين وحدة مغربية تستطيع ان تحقق الهدف الاسمى من وراء هذه الحشود المؤمنة بحقها فى تحرير بلادها فكان ان رفعت راية الجهاد الاسلامى إلى أسرة عريقة عرفت بالانتساب إلى السلالة النبوية الشريفة وانتمائها إلى الدوحة الزكية المعطرة واهلتها هذه الشرافة لكى تقود هذه الجموع من أجل تحرير الثغور الاسلامية التى كانت ترفع عليها راية الصليب وما يمثله ذلك من تحدٍ صارخ لمشارع المسلمين الذين كانوا ربما ينظرون للتعامل التجارى مع هذه المراكز

الاستعمارية الساحلية فكان أن تعلقت الآمال فى اقليم السوس الجنوبى بالغرب من ناروانت ودرعه على من أهلته جميع المواصفات لكى يرفع بيديه الشريفتين راية الجهاد وعقدت الآمال على سليل الاسرة السعدية الشريفة اتى ترتدى عباءة الشرافة الشرقية وقبلت أن تقود البلاد إلى حركة التحرير والتطهير من كل رجس ودنس صليبى فكان محمد القائم بأمر الله السعدى هو حامل راية الجهاد .

وهكذا القيت مسئولية تحرير الاراضى المغربية المحتلة ورفع راية الجهاد الاسلامى على الامير السعدى محمد القائم بأمر الله يعاونه ولداه أحمد الاعرج ومحمد الشيخ حتى استطاعا بما لديهما من قوات عسكرية وحشود قبائلية أن يحررا جميع الثغور المغربية الواقعة فى قبضة البرتغاليين فيما عدا سبته وطنجة ومازاكان بعد أن تم طرد البرتغاليين بحد السيف من أغادير وأسفى من جراء الثورة العارمة التى قادها الامير السعدى محمد القائم بأمر الله وابناؤه احمد الاعرج ومحمد الشيخ وهكذا قدر للاسرة السعدية ان يعلو نجمها فى سماء المغرب وان يلتف الاهالى حول القيادة الجديدة التى رأوا فيها خلاصهم من نير الاستعمار الايبيرى ومن تهاون حكام بنى وطاس الذين عجزوا عن مقاتلة الاجانب الفرنجة بل انهم صالحوهم وعقدوا معاهدات صلح معهم ومن ثم اشتد الضغط السعدى على العواصم الكبرى فكان أن تم للامير أحمد الاعرج دخول مراكش العاصمة الثانية فى البلاد من قبل الوطاسيين ونجح فى الاستيلاء عليها وطرد الوالى الوطاسى لكن الامين احمد الوطاسى دخل فى قتال وصراع عنيف مع السعديين انتهى به الامر إلى أن تم طرده بل قتله هو وأسرته ودخل محمد الشيخ بن محمد القائم السعدى العاصمة فاس الوطاسية بعد أن كان قد استطاع أن يتخلص من الحكم الثنائى بينه وبين أخيه أحمد الاعرج وينجح فى اقصائه عن الحكم ويقوم بسجنه ومن ثم الانفراد بالحكم وعدم الاعتراف بالمعاهدات الموقعة بين الوطاسيين وبين

الامير احمد الاعرج فكان ان دخل فاس العاصمة وقضى على النفوذ الوطاسى واتخذ مراكش عاصمة للاسرة السعدية، لكن استطاع أحد رجال الحكم الوطاسى (بو حسون) أن يفر إلى تلمسان حيث السيطرة التركية العثمانية بالمغرب الاوسط واستطاع أن يستنجد بالاتراك ويطلب مساعدتهم واندفع الاتراك بقواتهم إلى المغرب الاقصى واستطاعوا الدخول إلى فاس وطرد قوات محمد الشيخ السعدى وتعيين بو حسون الوطاسى خليفة على البلاد، لكن السعدى عاد ادراجه مرة اخرى إلى فاس وطرد بقايا الوطاسيين وانتهى إلى الابد الحكم الوطاسى وتفرد بالحكم فى البلاد، بل انه اراد أن يقاتل الاتراك في المغرب الاوسط فارسل قوات وحشودا مغربية استطاعت ان تستولى على المغرب الاوسط وان تدخل تلمسان والعديد من المدن الجزائرية، لكن الاتراك استطاعوا دحر السعديين وردهم إلى داخل المغرب الاقصى، ومن ثم خشى محمد الشيخ الخطر التركى فتحالف مع الاسبان والبرتغاليين وتنازل لهم عن بعض الموانى الساحلية لكي يحول بينه وبين الاتراك العثمانيين حيث ترك لهم ميناء باديس لكى تحتله القوات الاسبانية وبذلك يقطع تحرك الاسطول التركى العثمانى الطامع فى السيطرة على المغرب الاقصى .

لكن الاتراك وقد رأوا أن المغرب الاقصى خارج عن نطاق سيطرتهم بل ان حليفهم المغربى قد تحالف مع اعداء الاسلام ضد الوجود التركى العثمانى بل اكثر من ذلك اغلظ فى القول للسفير التركى وهدده بان المغرب سوف تقاتل العثمانيين فى مصر وان الاتراك لا يحق لهم حمل لقب الخلافة لانهم أعاجم ولا ينتمون للعرق القرشى العربى الهاشمى كما ان ذلك حق للسعديين وحدهم. وازاء ذلك فان الاتراك دبروا مؤامرة قتل محمد الشيخ وتم قتله فعلا وهو عائد من احدى المعارك عن طريق حرسه الخاص الذى كان يضم عددا من الضباط الاتراك وحملت راسه فى مخلاه إلى

القسطنطينية وعلقت على احدى أبواب العاصمة وقد اغاظت هذه الفعلة البشعة ابنه أبا عبد الله الغالب بأمر الله عندما تولى الحكم فنكل بالضباط الاتراك الذين دبروا مؤامرة قتل والده وتم مطاردة عناصر الجيش المؤيدة للوجود التركى واكثر من ذلك عقد محالفات صداقة وحسن جوار مع الاسبان والبرتغاليين تنازل لهم فيها عن بعض الثغور المغربية واستخدم عبد الله الغالب اقصى انواع العنف والشدة والميل إلى سفك الدماء ضد معارضيه من افراد البيت السعدى فكان ان هرب اخوته الثلاثة إلى الجزائر وهم عبد المالك وأحمد المنصور وعبد المؤمن واقام الثلاثة إلى الجزائر وهم عبد المالك واحمد المنصور وعبد المؤمن واقاموا فى تلمسان بل ان عبد المؤمن احد الاخوة الثلاثة السعديين تولى حكم امارة تلمسان من قبل الخليفة التركى ونزوح ابنه الوالى العثمانى على الجزائر وازدادت حدة الصراع بين الاتراك العثمانيين وبين الاسبان والبرتغاليين ودمر الاتراك الاسطول الاسبانى وتم طردهم نهائيا من تونس ١٥٦٠م وبالمقابل قام الاسبان بتعاون الاساطيل الاوربية معهم بالانتصار على القوة التركية البحرية عام ١٥٧١م فى معركة لبياتنو ومن ثم تبعه الانتصار الحاسم للاتراك العثمانيين على الاسبان فى تونس عام ١٥٧٣م ودخل الصراع من أجل المغرب مرحلة حاسمة من النزاع بين القوى العالمية فى ذلك الوقت واستفاد الغالب من كل الظروف المحيطة واستطاع ان يحفظ التوازن فى العلاقات بين هذه القوى حفاظا على استقلال بلاده وعدم الخضوع للنفوذ التركى العثمانى وتحتضن الخلافة التركية فى اسطنبول الاخوة الثلاثة ابناء محمد الشيخ نكاية فى اخيهم الغالب لارتمائه فى احضان الاسبان وتعمل على فتح المجال أمامهم للاشتراك فى الحكم والقتال فى صفوف القوات التركية حيث لعب مولاى الامير عبد المالك واحمد المنصور دورا بارزا فى معركة تونس والانتصار على القوات الاسبانية وسافرا إلى اسطنبول فقرر الخليفة العثمانى مراد الثانى ان يدعم نفوذهما فى المغرب وان يبذل لهما كل عون وسانده واستجاب لطلبهما برفع رأس والدهما (محمد

الشيخ) وكانت لا تزال معلقة على احدى ابواب العاصمة التركية وتم دفنها .

وفى تلك الظروف يموت أبو عبد الله الغالب ويتولى الحكم بعده ابنه محمد المتوكل (المسلوخ) وتثور ثائرة الامير عبد المالك بن محمد الشيخ نظرا لاحقيته فى عرش المغرب ويطلب العون التركى وتستجيب القيادة التركية فى الجزائر بناء على فرمانات سلطانية ويتحرك عبد المالك إلى المغرب الاقصى تسانده قوات تركية ويستطيع أن يهزم ابن اخيه المتوكل ويستولى على مقاليد الحكم عام ١٥٧٦م لكن محمد المتوكل لم يستسلم للهزيمة فيندفع إلى الجنوب طالبا العون من القبائل المغربية لكن احمد المنصور شقيق عبد المالك يطارده فى كل الاراضى والاقاليم التى يلجا اليها حتى اضطره إلى الهرب شمالا وكان احمد المنصور يتولى حكم فاس فى ذلك الوقت وتوضع تحت بديه قوات حربية قوية مجهزة باحسن الاسلحة ويحاول محمد المتوكل (المسلوخ) ان يستنجد بملك اسبانيا لكن الملك الاسبانى فيليب الثانى كان مشغولابصراعه فى الاراضى المنخفضة (هولندا) والكشوف الجغرافية الجديدة فى العالم الجديد ولم يكن لديه ادنى قوة يستطيع ان يقدمها له. فصرف النظر عنه وولى وجهته نحو البرتغال وكانت البرتغال فى ذلك الوقت تحت قيادة يقودها شاب هو (دون سباستيان) لم يتجاوز من العمر السادسة والعشرين عاما يحلم بالعظمة المسيحية وتربية الجزويت والحماس الصليبى والمشاعر المعادية للاسلام ومطالعته المشوهة عن الصراع الاسلامى الصليبى على ارض الاندلس وما يسمع به عن مجتمع الاندلسين (المورسكين) المضطهدين فى غرناطه وهو الذى كانت لديه أفكار خيالية واخلاقيات مثالية تهفو إلى نشر التعاليم المسيحية الجزويتية فى كل العالم والعمل على نشر العقيدة الكثوليكية فى ارجاء واسعة من الكرة الارضية وكان الهجوم عنده خير وسيلة للدفاع فى فكرة التربية العسكرية التى تربى عليها وانه كان صاحب راى صلب عنيد

تشرب بدورس اللاهوت على ايدى اساتذته وهو ان حل مشكلات البرتغال المتردية لا يكون الا بالعبور إلى الاراضى الاسلامية المغربية وخوض الحرب المقدسة ضد المسلمين الكفار (هكذا يصور العالم المسيحى المسلمين بالكفار فى العصور الوسطى) (انظر حرب الخليج- محمد حسنين هيكل- اصدار جريدة الاهرام ابريل ١٩٩٢) وما زالت فكرة الصليبية والمسيح والعذراء مسيطرة على فكر القادة العسكريين) .

وتلقف دون سباستيان طلب العون من الامير المخلوع بالارادة الشعبية محمد المتوكل بن عبد الله الغالب وكانها الفرصة الاخيرة لكى يحقق احلامه واهدافه البعيدة التى كان يسعى اليها لنقل الحرب المقدسة (من وجهة نظر الاوربيين) إلى الجانب العربى وليأخذ من طلب المتوكل ذريعة لاحتلال كل الاراضى المغربية وقرر حشد القوات البرتغالية وطلب العون والمساندة بالقوات البحرية والبرية والعدة والعتاد والذخيرة والمؤن والسلاح من خاله ملك اسبانيا وكذلك قدمت اليه قوات أوربية من كل الدول الاوربية انجلترا فرنسا، هولندا، المانيا، النمسا، الدنمرك، قوات ايطالية من المدن الايطالية، قوات البابوية التى تدفعها بركة البابا وتدعو لها وهى رافعة الصليب بالنصر والانتصار وتندفع الحشود البرتغالية إلى المغرب مدعومة بقوات اوربا والتى وصل عددها إلى اكثر من اربعين الف مقاتل تحملها اكثر من ثلاثمائة سفينة بعد ان كان دون سباستيان قد قام بنفسه بزيارة خاطفة إلى ميناء سبته وطنجة فى نوفمبر عام ١٥٧٨م وقبل العبور الكبير باربعة شهور وفى نهاية يونيو ١٥٧٨م غادرت الحملة العاصمة البرتغالية لشبونة بعدتها وعتادها واستطاعت الحملة ان تعبر مضيق جبل طارق وان تصل إلى الساحل المغربى وفى ١٢ يوليو نزلت بميناء اصيلا، وفى ٢٥ يوليو ١٥٧٨م تعرضت الحملة لمتاعب كثيرة وفى ٢٢ يوليو تحركت الحملة من اصيلا فى اتجاه الداخل واقتربت الحملة بمسافة ١٢ كيلو متر من مدينة القصر الكبير بالقرب من

وادى المخازن وكانت اوربا كلها تحبس انفاسها فى انتظار نتائج هذه الحملة وما تسفر عنه من نتائج .

وعلى الجانب المغربى كانت قوة الايمان وروح الجهاد والاستشهاد والحشد والاعداد وحسن التخطيط والتعبئة والطريقة التى تحرك بها عبد المالك بن محمد الشيخ وكيفية ادارة الصراع والاستفادة من الظروف الطبيعية المحيطة وكيفية استثارة الملك الشاب البرتغالى ودفعه للتقدم للداخل بعد أن سبه وفحش له فى القول لكى يندفع وفعلا نجحت خطة عبد المالك فى استثارة حفيظة الملك البرتغالى ونزل على وادى المخازن على مقربة من القصر وفى صبيحة يوم الاثنين ٤ اغسطس ١٥٧٨م (٣٠ جمادى الاولى ٩٨٦هـ) كانت المعركة الفاصلة بين القوى المتصارعة واحق الله كلمته ونصر عبده الشريف عبد الملك بن محمد الشيخ فى معركة فاصلة تعتبر صفحة مضيئة فى تاريخ المغرب أبد الدهر واندحرت قوات العدو بالكامل وفى ذلك يؤكد Bovill فى كتابه Bovill, E.W. The golden trade of the Moors الذى ترجمه زاهر رياض تحت عنوان (الممالك الاسلامية فى غرب افريقيا واثرها فى تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى ص ١٧٤ : لقد أبيدت القوة البرتغالية والاوربية جميعها التى بلغت قوامها اربعين الف رجل ولم ينج من الموت او الاسر الا اقل من مائة رجل ولكن لم يكن هذا كل شئ فى نكبة البرتغال فقد اكسبت المعركة المغرب صيتا واسعا فى العالمين الاسلامى والمسيحى فاق كل ما تمتعوا به من قبل بل لم يبلغوه من بعد) .

وقتل فى هذه المعركة الملوك الثلاثة عبد المالك بن محمد الشيخ، ومحمد المتوكل بن الغالب، دون سباستيان ملك البرتغال واستفاد وجنى ثمار هذا النصر الواسع الخليفة أحمد المنصور السعدى الذى حكم سته وعشرين عاما كانت أزهى عصور المغرب وفترة قوتها وسيادتها ولعبها دورا بارزا فى المجال العالمى وخطبت ودها جميع

الدول واقامت علاقات مع شتى الدول الاوربية ولعبت ادوارا هامة فى شأن العمل على تحرير الاندلس وعودة الاندلسيين إلى ديارهم لكن التوازن الدولى لم يحقق له اهدافه ولم يستطع أن يتعاون مع تركيا إلى المدى البعيد من أجل العمل سويا لاعادة الاسلام إلى ارض الاسلام فى الاندلس ولكن عهده شهد انتهاء الاطماع العثمانية فى المغرب الاقصى وتسليم الباب العالى بالامر الواقع والاعتراف بسيادة المغرب على أرضه ثم كانت فكرة التوسع جنوب الصحراء الكبرى وتكوين خلافة سعدية واسعة وضم بلاد سنغاى والحيلولة دون وصول البرتغاليين والاسبان إلى الاراضى الاسلامية فى بلاد السودان الغربى والوقوف ضد الزحف التركى والاوربى فكانت فكرة الغزو المغربى لبلاد السودان الغربى عام ١٥٩١م وتحقيق حلم المغرب فى اقامة خلافة سعدية واسعة الارجاء عادت بالوحدة الاسلامية إلى سابق قوتها وتمت روح التضامن الاسلامى والاخاء وحق الاخوة الاسلامية وساعدت على تقدم بلاد السودان الغربى وانتشار الحضارة الاسلامية والمعارف والثقافة والقيم والتقاليد والعادات العربية الاسلامية الاصيلة على نطاق واسع وتحقق الثراء والثروة للمنصور وصار يعرف باسم المنصور الذهبى ورفع راية الاسلام فى هذه الاراضى وانتشر الاسلام بين الوثنيين وأصبحت جامعة سانكرى فى تمبكتو كعبة الطلاب والعلماء ورجال الفقه والدين يفد اليها الطلاب فى عهد حكم باشاوات المغرب من كل انحاء دول افريقيا وصولا إلى السودان الشرقى والحبشة ووسط افريقيا ووصولا إلى المحيط الاطلسى وانتشر الاسلام عل نطاق واسع بين القبائل الوثنية وانطوى الجميع تحت لواء الاسلام ودام الحكم المغربى السعدى فى هذه البلاد فترة تزيد عن مائة وستين عاما بدأ من ١٥٩١ إلى ١٧٦٠م تاريخ سقوط هذه الديار فى أيدى القوى الاوربية التى وجدت فى عدم اهتمام القيادة العلوية وانشغالها بالمشاكل الداخلية فرصة للانقضاض على ديار الاسلام لتضمها إلى الاملاك الاستعمارية .

وهكذا تعتبر فترة حكم احمد المنصور السعدى أزهى عصور الدولة السعدية بل هى عصر القوة والسيادة ولكن الظروف العالمية والتوجس خيفة من الاتراك العثمانيين جعلت المنصور السعدى لاينفع بقواته إلى أوربا ليحرر الاندلس او على الاقل ليطالب بفك اسر المدن المغربية المحتلة (تحريرها) مقابل اطلاقه سراح اسرى معركة القصر الكبير لكن قوة الدولة لم تكن لتدوم على حال فيموت المنصور السعدى عام ١٦٠٣م وتدخل البلاد فى دوامة صراعات الاسرة بين افراد البيت السعدى الواحد زيدان بن المنصور واخويه المامون (محمد الشيخ وأبى فارس وقتال طويل وصراع يستنزف موارد الدولة وبمنعها من ان تولى نظرها إلى ما يحيط بها من اخطار وتنازلات اقليمية فى الديار المغربية للقوى الخارجية واطماع اسبانية فى الاراضى والديار واحلام فى عودة السيطرة على كل البلاد وانقسام البلاد إلى الاقاليم ومحليات وامارات كل منها يقاتل الآخر من أجل التوسع على حساب الطرف الآخر والخليفة السعدى حبيس مراكش وحصونها ولم يعد له من الحكم الا الاسم والتكالب على المصالح الاقتصادية المغربية واستنزاف الموارد الطبيعية والصناعات المغربية الراقية لاسيما فى صناعة السكر وينفرد زيدان بن المنصور بالحكم لكنه يموت عام ١٦٣٢م بعد صراع طويل مع اخويه ويحدث نفس الصراع بين ابنائه وتنقطع اوصال الدولة ويستبد العرب الشبانات بالحكم وينهوا عصر الاسرة السعدية مع ابن اختهم أبى العباس احمد آخر سلاطين الاسرة عام ١٠٦٩هـ-١٦٥٨م. ويستمر حكمهم ست سنوات حتى تتقدم الاسرة العلوية الشريفة لتسقط حكم الشبانات عام ١٠٧٥هـ/ ١٦٦٤م وبذلك تدخل البلاد عصرا جديدا لازالت تحت قيادته حتى وقتنا الحالى (١٩٩٢م) نظرا لما تتمتع به القيادة العلوية الشريفة من رؤية صائبة وقدرة بصيرة على ادارة دفة الامور وعمل متواصل لما فيه مصلحة الشعب المغربى الذى يكن كل تقدير وحب للاسرة العلوية القرشية الهاشمية الشريفة ذات النسب الحسنى العلوى الشريف: وبهذا تكون قد طويت صفحات هذه الموسوعة باحسن

فاتحة نكما بدات بزحف صحابة رسول الله ﷺ صحبه عمرو بن العاص عام ٢٣هـ/ ٦٤٣م لكى نطأ الاراضى المغربية فى اقليم برقه فاتحة الديار المغربية تنتهى الموسوعة بخير خاتم واحسن الفصول وهو ظهور الاسرة العلوية الشريفة كاسرة حاكمة للمغرب العربى منذ عام ١٠٧٥- ١٤١٢هـ/ ١٦٦٤- ١٩٩٢م .

الله العلى القدير نسال أن يكون هذا العمل العلمى المتواضع خالصا لوجهه ومتجردا من كل هوى واغراض نفسية ذلك لان الذين اختاروا النهج العلمى وبعدوا عن أهواء المصالح والمكاسب والمناصب يكون العلم تاجا فوق رؤوسهم وهامة تعلو فوق الهامات مهما بعدت المراحل والمسافات .

والله من وراء القصد .

المصادر والمراجع

(أ) المصادر :

١ - ابن أبى زرع : الانيس المطرب بيروض القرطاس فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. فاس ١٨٤٢م .

٢ - ابن غدارى المراكشى : البيان المغرب فى اخبار بلاد المغرب. القاهرة ١٩٥٠م.

٣ - ابن صواد تذكرة النسيان فى آخبار ملوك السودان، نشرة هوادس، باريس، ١٩٥١ .

٤ - الجزنائى : زهرة الاس فى بناء مدينة فاس. تلمسان، ١٩٢٣م .

٥ - التمبكنى: احمد فيل : قبل الابتهاج بتطريز الديباج، القاهرة، ١٣٢٩هـ.

٦ - التمبكتى : محمود كعت : تاريخ الفتاش فى اخبار البلدان والجيوش واكابر الناس، نشره هوادس، باريس، ١٩١٣م .

٧ - الدباغ: معالم الايمان فى معرفة اهل القيروان، تونس، ١٣٢٠هـ .

٨ - السعدى: تاريخ السودان، نشره هوداس ، ١٨٩٨م .

٩ - السلاوى: الاستقصا فى اخبار المغرب الاقصى، الدار البيضاء، ١٩٥٥م .

١٠ - العيدروس محى الدين عبد الله : النور السافر عن اخبار القرن العاشر، بغداد، ١٣٢٣هـ .

١١- القادرى : محمد بن الطيب الحسنى، نشر المثانى. الرباط. د.ت .

١٢ - القادرى : محمد بن الطيب الحسنى : النقاط الدرر واستعاد المواعظ والعبر عن اخبار المائة الحادية عشرة والثانية عشرة. مخطوط. مصور معهد المخطوطات جامعة الدول العربية رقم ١٣١٨ تاريخ .

١٣ - القشتالى : ابو فارس عبد العزيز : مناهل الصفا فى أخبار الملوك الشرفا مخطوط مصور، مكتبة جامعة عين شمس رقم ٤٩٤ رسائل .

١٤ - المالكى : رياض النفوس، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥١م .

١٥ - المقرى : احمد بن محمد : فتح الطيب فى غصن الاندلس الرطيب. القاهرة ١٩٤٩م .

١٦ - مؤلف مجهول : تاريخ الدولة السعدية. تحقيق كولان الرباط. ١٩٣٤م .

١٧ - محمد المهدى الفاسى، ممتع الاسماع فى ذكر الجزولى والتباع. فاس، ١٨٩٥م .

١٨ - البقرانى : محمد الصغير : نزهة الحادى فى ذكر ملوك القرن الحادى عشر، فاس، ١٣٠٧هـ .

١٩ - ابن عساكر، ابو عبد الله عمر: دوحة الناشر ، تحقيق محمد حجر : الرباط، ١٩٧٦م .

٢٠ - مؤلف مجهول : الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية، ، تحقيق محمد ابن أبى شبيب، الجزائر، ١٩٢٠م .

٢١ - ابن العربى، الفاسى محمد : مرآة المحاسن فى اخبار الشيخ أبى المحاسن. الرباط. د.ت .

٢٢ – ابن القاضى : المنتقى المنصور على تاثير مولاى الخليفة المنصور. الرباط. د.ت .

٢٣ – ابن القاضى : درة الحجال فى تحريز اسماء الرجال تحقيق علوشى. الرباط، ١٩٣٤ .

٢٤ – الحسن الوزان، ليو الافريقى: وصف افريقيا. ترجمة عبد الرحمن حميد. الرياض، ١٣٩٩هـ .

٢٥ – ابن خلدون : عبد الرحمن: المقدمة، طبعة بيروت، ١٩٧٨ .

(ب) المراجع :

٢٦ – ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ. الدار البيضاء، ١٩٧٨م .

٢٧ – جلال يحيى : المغرب الكبير وهجوم الاستعمار : الاسكندرية، ١٩٦٦م .

٢٨ – حسن احمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا، القاهرة ١٩٥٨م .

٢٩ – حسن صبحى : التنافس الاستعمارى الاوربى فى المغرب، الاسكندرية ١٩٦٦م .

٣٠ – ابراهيم شحاته حسن : وقعة وادى المخازن فى تاريخ المغرب، الدرا البيضاء، ١٩٧٩ .

٣١ – حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والاندلس. القاهرة، ١٩٨٠م .

٣٢ – زاهر رياض : شمال افريقية فى العصور الوسطى. القاهرة، ١٩٨١م .

٣٣ – زاهر رياض : استعمار افريقية: القاهرة ، ١٩٦٥م .

٣٤ - يوفان : الممالك الاسلامية وتجارة الذهب في غرب افريقيا. ترجمة : زاهر رياض. القاهرة، ١٩٦٨م .

٣٥ - ارنولد، توماس الدعوة إلى الاسلام. ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرون، القاهرة، ١٩٧٠م .

٣٦- روم، لاند: المغرب فى القرن العشرين، ترجمة نقولا زياده، بيروت، ١٩٤٣م .

٣٧ - أحمد صفر : مدينة المغرب فى التاريخ. تونس، ١٩٥٩م .

٣٨ - عبد العزيز بن عبد الله : مظاهر الحضارة المغربية، الدرا البيضاء، ١٩٥٨م

٣٩ - عبد العزيز بن عبد الله : تاريخ المغرب. الرباط، د.ت .

٤٠ - عبد الكريم كريم : المغرب فى عهد الدولة السعدية : الدار البيضاء، ١٩٧٧م .

٤١ - عبد العزيز بن عبد الله : تطور الفكر واللغة فى المغرب، القاهرة ، ١٩٦٩م .

٤٢ - عبد الله كنون : رسائل سعدية، تطوان، د.ت .

٤٣ - عبد الله الروى : تاريخ المغرب، ترجمة ذوقان فرقوط. بيروت، ١٩٧٧م .

٤٤ - صلاح العقاد : المغرب فى بداية العصر الحديث، القاهرة، ١٩٦٢م .

٤٥ - عبد القادر زياديه : مملكة سنغاى فى عهد الاسفين. الجزائر، ١٩٦٧م .

٤٦ - نعيم قداح : افريقية الغربية فى ظل الاسلام، الجزائر، ١٩٧٥م .

٤٧ – محمد احمد الغربى : موريتانيا ومشاغل المغرب الافريقية، الرباط، ١٩٦٣م .

٤٨ – محمد احمد الغربى : بداية الحكم المغربى فى السودان الغربى. بغداد، ١٩٨٢م .

٤٩ – محمد صبحي : الحركة الفكرية في المغرب في عهد السعديين : الرباط، ١٩٧٩م .

٥٠ – نقولا زيادة : المغرب والسودان فى ايام المنصور الذهبى : بيروت ، ١٩٦٧م .

٥١ – يسرى الجوهرى : افريقية الاسلامية : القاهرة، ١٩٨٠م .

(جـ) الرسائل الجامعية :

٥٢ – زين العابدين السراج : دولة كانم الاسلامية، ماجستير، جامعة القاهرة، ١٩٧٥م .

٥٣ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : سلطنة برنو الاسلامية، ماجستير، جامعة القاهرة، ١٩٧٥م .

٥٤ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : السياسة الخارجية لسلطنة سنغاى الاسلامية، دكتوراه، ١٩٨٣م .

٥٥ – عبد الكريم كريم : عصر المولى احمد المنصور، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس، ١٩٦٩م .

٥٦ – عسر عسران احمد طه : دولة الاشراف السعديين ، ماجستير ، دار

العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٨١م .

٥٧ – محمد عيسى صابر : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى دولة المرنين بالمغرب، دكتوراه، دار العلوم، ١٩٧٩ .

٥٨ – نبيلة محمد حسن : الانتشار الاسلامى فى السودان الغربى. ماجستير، آداب الاسكندرية، ١٩٧١م .

(د) المراجع الاجنبية :

1- Atkinon, W.: History of spain and portugal. London, 1970 .

2- Abdellah, t'oroui : Histore du Maghreb. Paris, 1970 .

3- Braudel, F.: Les Espagnol en Afrique du Nord. Paris, 1928 .

4- Bonnier, g.: L'accupation de Toumboucton. Paris,1929 .

5- Jaoques, C.: La petite histiore du Maroc, Casablanca. 1953 .

6- Degrammont. H.: Histiored' A'alger sous la domination Turque. Paris, 1887 .

7- Ranke, L.: The ottoman and the spanish emperes. London,1920 .

8- Massignon. L.: La Maroc dans les L'annees du llsiecle. Alegr. 1906.

9- Richard, F.: Etud sur histiore des portugie au Moiroc. 1955.

10- Hume, M.: Spain its greetness and decay. London, 1918.

11- Julein, A.: L'Histiore de' Afirque de Nord. Paris, 1952 .

12- Diop, Anta.: L'Afrique Niore Precolon lale. Paris, 1952.

13- Pianel, G.: La conquete du soudan Par Moulay Ahmed al Mansour. Paris, 1953 .

14- Kirkpatrick. A.: The spanish Conquitadores. London, 1947.

15- Halail, I.: The ottoman empire. London, 1957 .

16- Alexander, P.: InBarbery. New York, 1926.

17- Perre, P.: The truth aboul Marracca. New York, 1953.

18- Harris, Walter,: France and Spain and the Rib. London, 1927 .

19- Berth.: Histiore du Marco. Casablanca, 1939 .

20- Cherbanneau: Les Lillercture arab au Soudan. Algerie, 1931 .

الفهـــرس

الصفحة

صفحة

صفحة

صفحة

تم بحمد الله

هذه الدراسة عن المغرب العربي نقدمها للقارىء العربي والمسلم ولكل الذين يهتمون بالتاريخ الإسلامي تتناول حقبة تاريخية على امتداد ١٤٠٠ سنة وصل فيها المد الإسلامي أبعاداً واسعة حتى يمكن القول أن الإسلام استطاع أن يكون قارة إسلامية شملت أجزاء متجاورة من آسيا وأفريقيا وأوروبا· وعلى هذا تكون هذه الدراسة عن جزء عزيز من عالمنا العربي والإسلامي والذي لعب دوراً في إثراء الحركة العربية الإسلامية حتى وقع على تلك الكتلة من القارة الإسلامية دور كبير في نشر الإسلام والعروبة في أرجاء واسعة من القارة الإفريقية لا سيما تلك الأقاليم التي تقع إلى الجنوب من المغرب العربي وكذلك في أوروبا حيث الأندلس وما جاورها من أقاليم·

مكتبة مدبولي **MADBOULI BOOKSHOP**

٦ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ ت :٧٥٦٤٢١ *6 Talat Harb SQ. Tel. : 756421*